

تاريخ جماعات الإسلام السياسي (٢)

التعصب المذهبى في العصر الإسلامى

(إجتماعياً - علمياً - سياسيا)

دكتور

إيناس حسنى البهجي

كلية الآداب - جامعة الخرطوم سابقاً



دار التعليم الجامعى

٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع.

تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦

٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩

Email:dartalemg@yahoo.com

تاريخ جماعات الإسلام السياسي (2)

التعصب المذهبى

فى

العصر الإسلامى

(إجتماعياً - علمياً - سياسياً)

تأليف

د . إيناس حسنى البهجي

كلية الآداب – جامعة الخرطوم- سابقاً

2016



دار التعليم الجامعى

١٢ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع

تليفاكس: ٥٥٦٢٩٦١ ،٠٣-٠٠٢ موبايل: ٠١٠٠١٨٢١٧٩٦ ٠٠٢

Email:dartalemg@yahoo.com ٠١١١٩٩٩٥٠٠٩ ٠٠٢


دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

البهجى ، ايناس البهجى
تاريخ جماعات الاسلام السياسى التعصب المذهبى فى العصر الاسلامى
تاليف ايناس البهجى رجب ط 1 - الإسكندرية: دار التعليم الجامعي، 2015
ص ؛ سم.
تدمك 978 977 733 0299
1- العالم الاسلامى- تاريخ
2- العالم الاسلامى - الاحوال السياسية
أ - العنوان

953 رقم الإيداع /5862



إهداء

إلي أولادي وزوجي اعز الناس لي

د/إيناس

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الخلق محمّد بن عبد الله وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

كان الناس متفرّقين فبعث الله نبيّه محمّداً فوحّدهم على دين الحقّ، وكانوا مشتّتين فجمعهم على صراط الهدى، ولم يزل فيهم يدعوهم إلى سبيل الرشاد، ويُنقذ مَن ضلّ من العباد، حتّى أعلى الله كلمته وهي العليا، وثبّت دينه وهو الثابت، واختار سبحانه وتعالى لنبيّه أنْ يُسكنه فسيح جنانه، ويُبلّغه رضوانه، فدعاه إليه بعد أن بلّغ رسالته، وأكمل الله دينه، وأتمّ نعمته، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1].

لكن شُقّت عصا الوحدة، وانفصمت العروة، فصار لكلّ جماعة مذهباً، ولكلّ ثلّة ملّة، وتفرّقوا في الأصقاع، وكلٌّ يجعل القرآن مرجعاً وحكماً، والنبيّ صلى الله عليه واله وسلم سنداً وعضداً، وأخذت تكثر الآراء، وتتشعّب المعتقدات. فكثُرت المذاهب، وتعدّدت الملل، وكلٌّ يجتمع تحت لواء الإسلام ويفخر به، ويقرأ القرآن وينهل منه، وما زال الكثير من هذه الفِرَق إلى يومنا الحاضر، وما انقرض منها ما زال هو المنشأ لكثيرٍ من الحاضر.

وقد نبّأنا رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بانقسام المسلمين كما روي عنه صلى الله عليه واله وسلم : "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، سبعون فرقة في النار وفرقة واحدة في الجنّة وهي الّتي اتبعت وصيّه، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون فرقة في النار

---

[1] المائدة : 3

وفرقة واحدة في الجنّة وهي الّتي اتبعت وصيّه، وستفترق أمّتي علـــى ثــلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنّة

الباب الأول

تعريف التعصب المذهبي و بدايات ظهوره في التاريخ الإسلامي

أولا: تعريف التعصب المذهبي

ثانيا: بدايات ظهور التعصب المذهبي عند المسلمين

تعريف التعصب المذهبي و بدايات ظهوره في التاريخ الإسلامي

أولا : تعريف التعصب المذهبي :

أُخذت كلمة التعصب من العصبية ، و هي أن يدعوا الرجل إلى نصرة عصبيته ، و الوقوف معها على من يُناوئها ، ظالمة كانت أو مظلومة . و من معانيهما أيضا –أي التعصب و العصبية– المحاماة و المدافعة و النصرة [1] . و يكون ذلك على مستوى الأفكار و المشاعر ، و الأقوال و الأفعال .

و الشواهد الآتية تزيد ذلك وضوحا و إثراء ، أولها إنه عندما سئل المحدث أبو بكر بن عياش (ت 193ه) : من السني ؟ ، قال: ((الذي إذا ذُكرت الأهواء لم يتعصب إليها))[2] . بمعنى أنه لا يميل إليها و لا ينصرها و لا يُؤيدها . و ثانيها ما قاله الحافظ ابن عبد البر الأندلسي (ت 463ه)، فإنه عندما ناقش بعض المسائل الفقهية قال : ((و هو أصل صحيح لمن أُلهم رشده و لم تمل به العصبية إلى المعاندة))[3] . بمعنى أن من العصبية الميل إلى الباطل ، و المعاندة فيه ، و عدم قبول الحق .

و الشاهد الثالث هو قول للمؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت 597ه) ، يقول فيه : ((نعوذ بالله من العصبية ، فإن مصنف هذا الكتاب – هو أحد المحدثين– لا يخفى عليه أن هذا الحديث موضوع))[4] . فمن العصبية عنده أن

---

[1] ابن منظور الإفريقي: لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، د ت ، ج1 ص: 607 .

[2] اللالكائي : اعتقاد أهل السنة ، ج1 ص: 65 .

[3] ابن عبد البر : التمهيد ، حققه مصطفى البكري ، المغرب ، وزارة الأوقاف ، 1387 ، ج 12 ، ص: 203 .

[4] ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان ، ط3 ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، 1986 ، ج 3 ص: 275 .

يعتمد الإنسان على حديث يعلم أنه موضوع، انتصارا لأمر في نفسه ، فيترك الصحيح و يأخذ السقيم .

و الشاهد الرابع مفاده أن العلماء المسلمين استعملوا كلمة التعصب للمدح و الذم معا ، تُفهم من حسب سياقها في الكلام . فقال بعض علماء الجرح و التعديل : إن القاضي أبا الحسن محمد الرازي الشافعي (ت 338 ه) كان متعصبا للسنة ناصرا لأهلها [1] . و قيل في الثري أبي منصور بن يُوسف البغدادي(ت460ه) : ((كان صالحا عظيم الصدقة ، متعصبا للسنة))[2] . و قال بعضهم في الحافظ الرحالة عمر بن علي الليثي البخاري (ت468ه): إنه كان مدلسا متعصبا لأهل الباطل[3] .

و آخرها –أي الشواهد– حديث[4] ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية (ت728ه) ، مفاده إنه قيل للرسول–عليه الصلاة و السلام–: أمن العصبية أن ينصر الرجل قومه في الحق ؟ ، قال : لا ، و لكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه في الباطل[5] .

و بذلك يتبين أن التعصب على نوعين ، أولهما الانتصار للحق و هو ممدوح ، و ثانيهما الانتصار للباطل و هو مذموم . و النوع الثاني هو موضوع كتابنا هذا ، و هو التعصب للباطل لا للحق , و مقياسنا في ذلك هو

---

[1] الذهبي: سيَر أعلام النبلاء حققه بشار عواد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ج 15 ص: 379 .

[2] نفس المصدر ، ج 18 ص: 333 .

[3] نفس المصدر ، ج 18 ص: 319 ، 407 .

[4] لم يذكر ابن تيمية درجته ، و قد بحثتُ عنه في كتب الحديث فلم أجده بذلك اللفظ ، و وجد قسما منه فقط ، و قد ضعّفه الشيخ الألباني في تحقيقه لسنن الترمذي ، كتاب الفتن ، رقم : 3949 . لكن الحديث يصلح شاهدا لما نحن فيه .

[5] ابن تيمية : دقائق التفسير ، ج 2 ص: 44 .

النقل الصحيح –أي الكتاب و السنة– و العقل الصريح ، فما وافقهما فهو تعصب للحق، و ما خالفهما فهو تعصب للباطل .

و أشير هنا إلى أنه لا يُوجد تعصب واحد فقط ، و إنما هناك تعصبات كثيرة ، منها : التعصب الأسري ، و التعصب القبلي، و العصب العرقي ، و التعصب الجهوي ، و التعصب الحزبي ، و التعصب الديني –بين أبناء الأديان المختلفة– ، و التعصب المذهبي ، و يحدث بين مذاهب الدين الواحد ، و هو موضوع بحثنا هذا ، و قد تجلت مظاهره في مختلف جوانب الحياة عند المسلمين خلال العصر الإسلامي ، على مستوى المذاهب و الطوائف ، فما هي بداياته و تطوراته ؟ .

ثانيا : بدايات ظهور التعصب المذهبي عند المسلمين (ق 1-3 ه) :

تعود بدايات التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي إلى الخلافات السياسية و الفكرية –الأصولية و الفقهية– التي حدثت بين المسلمين خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، مما أدى إلى ظهور فرق و طوائف و جماعات تمذهبت بأفكار و أصول كانت تحملها ، ثم تعصّبت لها و سعت جاهدة إلى نشرها و الانتصار لها على أرض الواقع ، فدخلت في نزاع مذهبي شديد فيما بينها ، على مستوى المشاعر و الأفكار ، و الأقوال و الأفعال ، و قد تجلى ذلك فيما يأتي :

أولا فعلى مستوى الفرق ، فإنه لما أنقسمت الأمة على نفسها بسبب الفتنة الكبرى بين سنتي : 35-41ه ، ظهرت الفرق السياسية المتمثلة في الرافضة ، و الشيعة ،و الخوارج ، و السنة ، ثم تنظّمت ،و تسيست ، و

تمذهبت ، و تعصبت لأفكارها ،و خاضت من أجلها الصعاب و الشدائد و الحروب[1] .

و **ثانيا** فعلى مستوى العقائد و أصول الدين ، فقد حدثت خلافات كثيرة بين مختلف طوائف أهل العلم ، منذ نهاية القرن الأول الهجري و ما بعده ، فظهرت المعتزلة[2] و نفت صفات الله تعالى و قدمت العقل على الوحي[3]-أي النقل- .

و ظهرت الجهمية -أتباع جهم بن صفوان(ق:2ه) – فقالت بالجبر و فناء الجنة و النار ، و عطّلت صفات الله تعالى[4] . و ظهرت أيضا الطائفة الكرامية المجسمة على يد المتكلم محمد بن الكرام السجستاني (ق: 3ه) ، فجسّمت الله تعالى ،و شبهته بمخلوقاته[5] . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

و في مقابل هؤلاء نجد أهل السنة و الجماعة ، كانوا يمثلون جمهور المسلمين ، رافعين راية القرآن الكريم و السنة النبوية الصحيحة ، فمثلوا الإسلام الصحيح ،و ردوا على انحرافات تلك الفرق ، فأثبتوا صفات الله تعالى بلا تأويل ،و لا تعطيل ،و لا تشبيه ،و لا تجسيم ، و تولوا الصحابة ،و قدموا النقل على العقل [6] .

---

[1] انظر مثلا : عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، حققه محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، المكتبة العصرية ، 1995 ، ص: 14، 21 ، 24 ، 29 ، 72 .

[2] هم أتباع عمرو بن عبيد البصري (ت142ه) ، اعتزل هو و أصحابه حلقة شيخه الحسن البصري (ت110ه) ، فسموا بالمعتزلة .نفس المصدر ، ص: 20 .

[3] نفس المصدر ، ص: 114 و ما بعدها .

[4] نفس المصدر ، ص: 211 .

[5] نفس المصدر ، ص: 216.

[6] نفس المصدر ، ص: 26 .

تلك الفرق تميزت بأفكار تمذهبت بها و تعصّبت لها ، و حاضت من أجلها المصادمات و المناظرات ،و صنفت الكتب انتصارا لمذاهبها ، فكان ذلك سببا في ظهور التعصب المذهبي فيما بينها ،و انتشاره بين أتباعها[1] .

و **ثالثا** فعلى مستوى الفروع–أي الفقه– فإن الناس زمن الصحابة و التابعين و تابعيهم لم يكونوا متمذهبين ، فكان العلماء يجتهدون لاستنباط الأحكام الشرعية ، و غير المجتهدين منهم يسألونهم فيما لا يعرفونه ، و كان العوام يقلدونهم بلا تمذهب و لا التزام بشخص معين منهم[2] . لذا لم يعرف المسلمون التعصب الفقهي المذموم زمن هؤلاء طيلة نحو ثلاثة قرون ، ثم تغير الحال في القرن الرابع الهجري و ما بعده ، حيث انتشر التمذهب الفقهي بين الناس ،و صاحبه التعصب المذهبي بينهم ، بشكل واسع [3] .

لكن **بوادره الأولى** المحدودة تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري و ما بعده ، بدليل الشواهد التاريخية الآتية : أولها إن الفقيه الحنفي مُسعر بن كدام (ت155ه) كان فيه غلو في تعظيمه للإمام أبي حنيفة النعمان (ت150) ، فكان يقول: ((جعلتُ أبا حنيفة حجة بيني و بين الله تبارك و تعالى))[4] .

---

[1] سنذكر الشواهد على ذلك في الفصلين الأول و الثاني ، إن شاء الله تعالى .

[2] انظر مثلا : الشوكاني: البدر الطالع ، بيروت ، دار المعرفة ، د ت ، ص: 90، 91 . و ولي الله الدهلوي: الإنصاف في بيان أسباب الإختلاف ، حققه عبد الفتاح أبو غدة ، بيروت ، دار النفائس ، 1983 ، ص: 68 و ما بعدها .

[3] انظر مثلا : الدهلوي : نفس المصدر ، ص: 87 و ما بعدها .

[4] عبد القادر القرشي: الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، كراتشي ، مير محمد كتب خانة ، د ت ، ج 1 ص: 563 .

و ثانيها يخص الفقيه المالكي أبا يحيى زكريا بن يحيى الوقاد (ت181ه) فإنه كان يغلو في الإمام مال بن أنس(ت179ه) ، و يتعصب له على أبي حنيفة[1] . و ثالثها ما قاله الحافظ شمس الدين الذهبي (ت748ه) في الحافظ يحيى بن معين (ت 232ه) ، فعندما ذكر أن ابن معين قال : إن الإمام الشافعي ليس بثقة ، أرجع -أي الذهبي- ذلك إلى فلتات اللسان و الهوى و العصّبية ، لأن ((ابن معين كان من الحنفية الغلاة في مذهبه ،و إن كان محدثا))[2] .

و الشاهد الرابع يتعلق بالفقيه المالكي أصبغ بن خليل القرطبي (ت272ه) ، كان شديد التعصب للمذهب المالكي حتى أنه اختلق حديثا في ترك رفع اليدين في الركوع و الرفع منه ، فكشف الناس أمره[3] .

و الشاهد الأخير -أي الخامس- يتعلق بالحافظ أبي بشر الدولابي (ت310ه) ، فإنه كان حنفيا مفرط التعصب لمذهبه ، حتى أنه روى حديثا في القهقهة إسناده غير صحيح ، فصححه لأن أبا حنيفة من رجاله و إسناده هو : روى أبو حنيفة ، عن منصور بن زاذان ، عن المجلسي ، عن معبد الجهني ، عن رسول الله -صلى الله عليه و سلم- ، و الخلل في هذا الإسناد هو أن الدولابي قال أن معبد الجهني هذا هو معبد بن هوذا الذي ذكره البخاري في تاريخه ، و هذا غير صحيح ، لأن معبد بن هوذا أنصاري ،و ليس من قبيلة

---

[1] أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ،حققه خليل الميس ، بيروت ، دار القلم ، د ت ، ص: 156 .

[2] الذهبي : الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردا ، ط 4 ، حققه محمد الموصلي ، بيروت ، دار البشائر ، 1992 ، ص: 29، 30

[3] ابن حجر : اللسان ، ج 1 ص: 458 .

جُهينة ، و معبد بن الجهني تابعي و ليس صحابيا ، فكيف يروي عن رسول الله–عليه الصلاة و السلام– و هو لم يره ؟[1] .

و رابعا فإنه وُجد أيضا تعصب مذهبي بين مدرستي أصحاب الحديث و أهل الرأي ، فالأولى أكثرت من استخدام الأثر من الأحاديث النبوية و الأقوال السلفية ، و من رجالها الأئمة : مالك و الشافعي ،و سفيان الثوري و أحمد بن حنبل ، و الثانية أكثرت من استعمال الاجتهاد القائم على الرأي و القياس ، و من رجالها : الإمام أبو حنيفة و كبار أصحابه كمحمد بن الحسن ،و أبي يوسف يعقوب[2] . فأوجد هذا الاختلاف نزاعا مذهبيا بين المدرستين ، نتج عنه تعصب مذهبي بين الطائفتين ظهرت بوادره الأولى منذ القرن الثاني الهجري و ما بعده ، و الشواهد الآتية تُثبت ذلك بوضوح .

أولها إنه حدثت نزاعات و مهاترات ،و ردود بين المدرستين منذ زمن أبي حنيفة النعمان المتوفى سنة 159هجرية[3] . و ثانيها هو أن الفقيه محمد بن شجاع الثلجي الحنفي(ت266ه) كان من أصحاب الرأي يبغض أهل الأثر–أي أهل الحديث–و يتعصب عليهم ، حتى انتهى به الأمر إلى الكذب عليهم ، فكان يضع –أي يختلق– الأحاديث في تشبيه صفات الله تعالى ،و ينسبها إلى أهل الحديث ثلبا لهم ، و طعنا فيهم ،و تعصبا عليهم ، منها حديث عرق الخيل ، و فيه : إن الله خلق الفرس فعرقت ، ثم خلق نفسه منها [4] . و كان هذا الرجل –أي ابن شجاع– يقول في أصحاب أحمد بن حنبل : ((أصحاب أحمد بن حنبل

---

[1] نفس المصدر ، ج 5 ص: 41 .

[2] عمر سليمان الأشقر : المدخل إلى دراسة المدارس و المذاهب الفقهية ن ط2 الأردن ، دار النفائس ، 1998 ، 19 و ما بعدها .

[3] عبد الله بن أحمد بن حنبل : السنة ، حققه محمد القحطاني ، ط 1 ، الدمام ، دار ابن القيم ، 1406 ج1 ص: 180 و ما بعدها .

[4] ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال ، حققه مختار عزاوي ، ط 3 ، بيروت ، دار الفكر ، 1988 . ج 6 ص: 291 .

يحتاجون أن يُذبحوا))[1] . و كان أحمد بن حنبل يقول فيه: ابن شجاع الثلجي مبتدع صاحب هوى[2] .

و الشاهد الثالث يتعلق بالفقيه أصبغ بن خليل القرطبي المالكي فإنه كان يُعادي أهل الحديث و علمهم ،و لم تكن له معرفة بعلمهم ، حتى إنه رُوي أنه كان يقول : ((لئن يكون في تابوتي رأس خنزير ، أحب إليّ من أن يكون مسند ابن أبي شيبة)) . و في رواية أخرى أنه قال : ((لئن يكون في كتبي رأس خنزير أحب إليّ من أن يكون فيها مصنف أبي بكر بن أبي شيبة [3].)) .و ابن شيبة هذا هو محدث توفي سنة 235ه هجرية .

و من تعصبه على أهل الحديث إنه كان ينهي أهل العلم عن الاجتماع بالحافظ بقي بن مخلد الأندلسي(ت 276ه) ،و يحثهم على عدم الأخذ عنه ، لذا رُوي أن الفقيه قاسم بن أصبغ كان يدعوا عليه –أي علي ابن خليل– ،و يقول : هو الذي حرمني السماع من بقي بن مخلد ، و ذلك أنه كان يحث والدي على منعي من الذهاب إلى بقي بم مخلد[4] .

و آخرها–أي الشاهد الرابع – يتعلق بالحافظ أبي بشر الدولابي الحنفي (ت310ه) كان من أهل الرأي ، فاتُهم بالتعصب على المحدث نُعيم بن حماد (ت310) ، لصلابته في السنة ، و تشدده على أهل الرأي[5] .

و بذلك يتبين مما ذكرناه أن التعصب الذي نعنيه في كتابنا هذا هو التعصب المذهبي المذموم ، الذي مفاده الانتصار للباطل ، و هو التعصب الذي ذكرنا بوادره و بداياته ، على مستوى الفرق و أصول الدين و فروعه ،

---

[1] الذهبي: ميزان الاعتدال ، ج 6 ص: 182 .
[2] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، ج 5 ص: 350 .
[3] ابن حجر : اللسان ، ج 1 ص: 458 .
[4] نفسه ، ج 1 ص: 458 .
[5] نفس5 المصدر، ص: 41 .

خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حيث سيزداد -أي التعصب المذهبي- بعدها انتشارا و عمقا ، و خطورة و تأثيرا منذ القرن الرابع الهجري و ما بعده . فما هي مظاهره ؟ ، و ما هي تفاصيله ؟ .

الفصل الأول

مظاهر التعصب المذهبي في الحياة الاجتماعية

-خلال العصر الإسلامي-

أولا: سب الشيعة للصحابة

ثانيا : اللعن و الطعن و الاتهامات المختلفة

ثالثا : التكفير المتبادل بين الطوائف الإسلامية

رابعا :القتل و محاولات القتل

خامسا : الفتن المذهبية بين الشيعة و السنة

سادسا : الفتن المذهبية بين الطوائف السنية

سابعا : الفتن المذهبية بين السنة و الكرّامية

ثامنا : مظاهر أخرى للتعصب المذهبي في الحياة الاجتماعية

تعريف التعصب المذهبي و بدايات ظهوره في التاريخ الإسلامي

أولا : تعريف التعصب المذهبي :

أُخذت كلمة التعصب من العصبية ، و هي أن يدعوا الرجل إلى نصرة عصبيته ، و الوقوف معها على من يُناوئها ، ظالمة كانت أو مظلومة . و من معانيهما أيضا –أي التعصب و العصبية– المحاماة و المدافعة و النصرة [1] . و يكون ذلك على مستوى الأفكار و المشاعر ، و الأقوال و الأفعال .

و الشواهد الآتية تزيد ذلك وضوحا و إثراء ، أولها إنه عندما سئل المحدث أبو بكر بن عياش (ت 193ه) : من السني ؟ ، قال: ((الذي إذا ذُكرت الأهواء لم يتعصب إليها))[2] . بمعنى أنه لا يميل إليها و لا ينصرها و لا يُؤيدها . و ثانيها ما قاله الحافظ ابن عبد البر الأندلسي (ت 463ه)، فإنه عندما ناقش بعض المسائل الفقهية قال : ((و هو أصل صحيح لمن أُلهم رشده و لم تمل به العصبية إلى المعاندة))[3] . بمعنى أن من العصبية الميل إلى الباطل ، و المعاندة فيه ، و عدم قبول الحق .

و الشاهد الثالث هو قول للمؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت 597ه) ، يقول فيه : ((نعوذ بالله من العصبية ، فإن مصنف هذا الكتاب – هو أحد المحدثين– لا يخفى عليه أن هذا الحديث موضوع))[4] . فمن العصبية عنده أن

---

[1] ابن منظور الإفريقي: لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، د ت ، ج1 ص: 607 .

[2] اللالكائي : اعتقاد أهل السنة ، ج1 ص: 65 .

[3] ابن عبد البر : التمهيد ، حققه مصطفى البكري ، المغرب ، وزارة الأوقاف ، 1387 ، ج 12 ، ص: 203 .

[4] ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان ، ط3 ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، 1986 ، ج 3 ص: 275 .

في بحثنا هذا نستخدم مصطلح الشيعة و الرافضة بمعنى واحد ، فإذا قلنا الشيعة فنعني أيضا الرافضة ، و إذا قلنا الرافضة فنعني أيضا الشيعة .

و أما بالنسبة لسبهم الصحابة الكرام و طعنهم فيهم ، فإن تعصبهم المذهبي الأعمى هو الذي أوصلهم إلى ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء ، و الشواهد التاريخية التي تُدينهم و تفضحهم كثيرة جدا ، أذكر بعضها في خمس مجموعات :

الأولى، و تضم أربعة شواهد ، الأول مفاده أن سب الصحابة – رضي الله عنهم– كثُر زمن دول الشيعة أيام دولة بني بويه ببلاد فارس و العراق (334–447هـ) ، و بني حمدان بالشام (317–394هـ) ، و دولة العبيديين الإسماعيلية بالمغرب و مصر و الشام (297–567هـ)[1] ، و دولة القرامطة الإسماعيلية بالبحرين ، و دولة الحشاشين الإسماعيلية بقلعة ألموت ببلاد فارس (483–654هـ) و الدولة الصفوية الإثنى عشرية بإيران (907–1149هـ) .

و الشاهد الثاني مفاده أن سب الصحابة في دولة العبيديين انتشر انتشارا كبيرا بالمغرب و مصر ، فبالمغرب قُذف الصحابة جهارا نهارا ، و سُب رسول الله–عليه الصلاة و السلام– ،و عُلّقت ((رؤوس حمير و كباش على الحوانيت و كُتب عليها أنها رؤوس الصحابة)) .و في زمن ملكهم أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي(ت343هـ) سُبت الأنبياء ، و كان مناديه يصيح : ألعنوا الغار و ما حوى[2] . و الغار المقصود هو غار حراء أو ثور، و الأرجح أنه غار ثور، لأن أبا بكر كان فيه مع رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ، و هم يسبون أبا بكر و يبغضونه .

---

[1] انظر مثلا : ابن كثير : البداية و النهاية ، بيروت ، مكتبة المعارف ، د ت ، ج 11 ص: 233 .

[2] اذهبي: السير ، ج 15 ص: 152، 154 .

و أما بمصر فهي أيضا كان فيها سب الصحابة فاشيا علانية من غير تستر و لا خفية ، حتى أن أعوان العبيديين كانوا يُنادون في الناس أن من لعن الصحابة و سبهم له مكافأة مالية و مادية[1] . و من ملوكهم الذين سبوا الصحابة جهارا : العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي(ت 386ه) ، و أبو تميم المستنصر (ت487ه) [2] .

و الشاهد الثالث يخص سب الصحابة بمدينة الكوفة ، فقد كان سبهم فيها منتشرا جدا ، فهي موطن الرفض و الطعن و اللعن ، حتى أن ذلك الوضع دفع المحدث محمد بن عبد العزيز التميمي الكوفي إلى ترك ببلده الكوفة و الهجرة إلى بلد آخر ، و قال : ((لا أقيم ببلد يُشتم فيه أصحاب رسول الله –صلى الله عليه و سلم–))[3] .

و عندما ارتحل المحدث محمد بن علي الصوري البغدادي (ت442ه) إلى الكوفة لسماع الحديث عند بعض شيوخها ،و أظهر بها السنة ،و ترحّم على الشيخين أبي بكر و عمر–رضي الله عنهما– ثار عليه أهل الكوفة ،و هموا بقتله ، فالتجأ إلى أبي طالب بن عمر العلوي ، و كان من السابين للصحابة ، فأجاره و قال له : احضر كل يوم عندي ، و أرو لي ما سمعت في

---

[1] ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، جمعه ابن القاسم ، الرياض ، 1381 ج 28 ص: 236، 636. و ابن تغري بلدي: النجوم الزاهرة ، مصر ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، د ت، ج4 ص: 218 .

[2] الذهبي : المصدر السابق ، ج 15 ص: 170، 196 .

[3] ابن أبي حاتم : الجرح و التعديل ، ج8 ص: 6 .

فضائل الصحابة ، فقرأ عنده فضائلهم ، فتاب أبو طالب هذا ، و قال : عشت أربعين سنة أسب الصحابة ، و أشتهي أعيش مثلها حتى أذكرهم بخير))[1] .

و آخرها –أي الشاهد الرابع– مضمونه أنه كان بمدينة الري طائفة من الباطنية الإسماعيلية يشتمون الصحابة ،و يسبونهم ، و يقذفونهم ، و يعتقدون ذلك ديانة ، و كان ذلك في سنة 420هجرية[2] .

و أما المجموعة الثانية فتتضمن ثلاثة أمثلة من مجالس بعض الشيعة ، كانوا يقصدونها لسب الصحابة و ثلبهم ، أولها مجلس كان يعقده جماعة من شيعة بغداد بمسجد يُعرف بمسجد براثا ، يجتمعون فيه لسب الصحابة زمن الخليفة العباسي المقتدر بالله (295-320ه) [3] .

و المثال الثاني يخص مجلس المحدث الشيعي أحمد بن محمد الكوفي المعروف بابن عقدة (332ه) ، كان مداوما على عقده بمسجد بالكوفة ، يملي فيه مثالب الصحابة[4] . و المثال الثالث يتعلق بما ذكره الفقيه محمد بن علي الشوكاني (ت قرن: 12ه) ، و مفاده أنه كان في زمانه بعض جهلة الرافضة يعقدون مجالس للعوام في سب الصحابة ، و يملون عليهم أخبارا مكذوبة ، و ينقلونها من كتب الرافضة . و ذكر الشوكاني أنه تدخل شخصيا لدى إمام البلد في شأن هؤلاء ، و بعد أخذ و رد ، أمر بحبسهم و عقابهم[5] .

و أما المجموعة الثالثة فتتضمن سب الشيعة للصحابة و لعنهم في مناسبة عاشوراء ، و في بعض الفتن التي حدثت بينهم و بين الشيعة ببغداد ، من ذلك الحوادث الآتية : أولها ما حدث سنة 351ه ، حيث كتب شيعة بغداد

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ط 1 ، بيروت ، دار صادر ، 1358ه ج 8 ص: 143 .

[2] نفس المصدر ، ج 8 ص: 38، 39 .

[3] نفس المصدر ، ج 6 ص: 195 .

[4] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 209 .

[5] الشوكاني: البدر الطالع ، ج 2 ص: 347 .

على أبواب مساجدهم لعن بعض الصحابة ، منهم : معاوية بن أبي سفيان ، و أبو بكر الصديق ، و عمر بن الخطاب ، و عثمان بن عفان -رضي الله عنهم- ، فاحتج أهل السنة لدى الحاكم البويهي الشيعي معز الدولة ، فلم ينكر ما فعله هؤلاء ، و لم يُغيره و لم يستجب لهم . فعلّق ابن كثير على ذلك بقوله : ((قبّحه الله ، و قبّح شيعته الروافض)) ، ثم قال أن البلاد التي ينتشر فيها التشيع ، و إتباع الهوى ، و سب الصحابة ، سرعان ما يحل بها عقاب الله عز وجل، و مثال ذلك الفاطميون ، فإنهم عندما اظهروا الرفض و المنكرات ، و سبوا خير الخلق بعد الأنبياء ، كان جزاؤهم أن أخذ منهم الصليبيون معظم الشام))[1] .

و الحادثة الثانية ما جرى بين السنة و الشيعة- هم اثنى عشرية- في فتنة سنة 482ه ، فكان مما حدث فيها أن سب الشيعة النبي-عليه الصلاة و السلام- و أزواجه و أصحابه ، على مرآى و مسمع من علمائهم[2] . فعلّق ابن كثير على ذلك بقوله : ((فلعنة الله على من فعل ذلك من أهل الكرخ-حي الشيعة ببغداد- ، و إنما حكيت هذا ليُعلم ما في طوايا الروافض من الخبث و البغض لدين الإسلام و أهله ، و من العداوة الباطنة الكامنة في قلوبهم لله و رسوله و شريعته))[3] .

و الحادثة الثالثة مضمونها ما ذكره المؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت597ه) من أن الشيعة ببغداد سنة 561 هجرية ، سبوا الصحابة ، و ضربوا بعض أهل السنة بحي الكرخ[4] .

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 241 .

[2] ابن الجوزي: المنتظم ، ج9 ص: 49 .

[3] ابن كثير : المصدر السابق، ج 12 ص: 135 .

[4] ابن الجوزي: المصدر السابق، ج10 ص: 217 .

و الحادثة الأخيرة-أي الرابعة- ما حدث ببغداد سنة 582 هجرية ، و فيها أحيى الشيعة مناسبة عاشوراء ، فكان مما فعلوه أن سبوا الصحابة كـأبي بكر و عمر ، و عثمان و طلحة ، و عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنهم- ، و كانوا يصيحون بقولهم : ((ما بقي كتمان)) . و كانت فيهم امرأة تنشد لهم الأشعار في ثلب الصحابة ،و سبت عائشة و قالت : ألعنوا راكبة الجمـل ، و ذكرت حادثة الإفك ،و النبي -عليه الصلاة و السلام، بأقبح الشناعات[1] .

و أما المجموعة الرابعة فهي تتضمن شواهد تاريخية لمواقف بعـض أعيان الشيعة من الصحابة ، في سبهم لهم و طعنهم فيهم ، و تعصبهم عليهم ؛ أولها يتعلق بالمفسر محمد بن مروان السدي الكوفي(ق: 2ه) ، كان له مجلس لتفسير القرآن الكريم بالكوفة ، كان يشتم فيه الشيخين أبا بكـر و عمـر بـن الخطاب-رضي الله عنهما- علانية أمام طلابه[2] .

و الشاهد الثاني يخص الشاعر إسماعيل بن محمد الحِميري (ت178ه) ، كان غاليا في التشيع يسب السلف في شعره، و يُبالغ في سب بعض الصحابة ،و يُفحش في شتمهم و الطعن فيهم . و يُروى أنه هجا حتى والديه لأنهما كانا سنيين[3] .

---

[1] سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ، القسم الأول، الدكن ، الهند ، مطبعة دائـرة المعـارف العثمانية ، ج 8 ص: 386-387 . و الذهبي: العبر ، حققه صلاح الـدين المنجـد، ط2 ، الكويت ، مطبعة حكومة الكويت ، 1984 ، ج4 ص: 241 .

[2] الجوزجاني: أحوال الرجال ، حققه صبحي السامرائي ، بيـروت ، مؤسسـة الرسـالة ، 1405 ج1 ص: 54 .

[3] اذهبي: ميزان الاعتدال ، حققه علي معوض ، ط1 بيروت دار الكتب العلميـة ، 1995 ، ج 8 ص: 56 . و ابن حجر: لسان الميزان ، ج1 ص: 436، 437 .

و الشاهد الثالث يتعلق بالمحدث المغيرة بن سعيد الكوفي(ت 120ه) ، قال عنه علماء الجرح و التعديل : كان من كبار الرافضة الكذابين ، يتنقّص أبا بكر الصديق و عمر بن الخطاب و يسبهما[1] .

و الرابع يخص المحدث سهل بن أحمد الديباجي (ت 330ه) ، قال فيه بعض علماء الجرح و التعديل : كان رافضيا خبيثا ، كتب على حائط داره : لعن الله أبا بكر و عمر ، و باقي الصحابة العشرة –أي المبشرون بالجنة– إلا علي بن أبي طالب[2] –رضي الله عنهم– .

و الشاهد الخامس يتعلق بالشاعر مهيار بن مرزويه (ت 482ه) ، كان مجوسيا ثم أسلم على مذهب الشّيعة ، فأصبح غاليا في الرفض يطعن في الصحابة ، فقال له بعض أهل العلم : يا مهران انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية أخرى ، فقال مهران : و كيف ذاك ؟ ، قال له الرجل: لأنك كنت مجوسيا فأسلمت ، فصرت تسب الصحابة))[3] .

و الشاهد السادس خاص بالشاعر المرتضي العلوي البغدادي (ت436ه) ، كان من الذين يسبون الصحابة ، –رضي الله عنهم– و له مصنفات في سبهم و الطعن فيهم [4] . و الشاهد السابع يتعلق بالواعظ أبي الحياة محمد بن الفارس البغدادي(ت596ه) ، كان يُكْثر من سب الصحابة في مجالسه الوعظية ، فيضج الشيعة –الذين في مجلسه– بالبكاء[5] .

---

[1] العقيلي : ضعفاء العقيلي ،ط1 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1404 ج 4 ص: 180 .

[2] الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د ت ، ج 9 ص: 121 .

[3] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 94 .

[4] الذهبي: السير ، ج 17 ص: 588 .

[5] ابن حجر: اللسان ، ج 5 ص: 217 .

و الشاهد الثامن يتعلق بأستاذ دار الخلافة العباسية مجد الدين بن الصاحب البغدادي(ت 583ه) ، كان رافضيا سبابا مغاليا ، أحيى شعار الشيعة الإمامية ، و سب الصحابة علانية[1] .

و الشاهد التاسع خاص برجل شيعي يُعرف بخندق الأسدي[2] ، كان رافضيا يسب الشيخين أبا بكر و عمر -رضي الله عنهما- فقال يوما لصاحب له : لو أن لي رجل يضمن لي عيالي بعدي لتكلمتُ في أبي بكر و عمر أمام الناس ، فضمن له صاحبه التكفل بعياله ، فقام خندق هذا و سب الشيخين ، فقام عليه الناس و ضربوه حتى الموت[3] .

و الشاهد العاشر يتعلق بالشيعي علي بن أبي الفضل الحِلي(ت755ه) ، قدم من مدينة الحِلة -بالعراق- إلى دمشق ، و دخل الجامع الأموي و الناس يُصلون ، و بدأ يسب من ظلم آل محمد و يكرر ذلك من دون توقف ، و لم يصل مع الناس ، و لا صلى معهم الجنازة التي كانت حاضرة ، و ظل يكرر السب بصوت مرتفع ، و كان ذلك سنة 755هجرية ، فلما تمت الصلاة جيء به إلى الحافظ ابن كثير -كان في المسجد- فسأله : من ظلم آل محمد ؟ ، فقال : أبو بكر ، ثم رفع صوته قائلا : لعن الله أبا بكر ، و عمر ،و عثمان ، و معاوية ، و يزيد ، و أعاد ذلك مرتين أمام الناس ، فأمر القاضي الشافعي -كان حاضرا- بسجنه ، ثم طلبه القاضي المالكي و جلده بالسياط ، و هو يصرخ بالسب و اللعن و الكلام الباطل [4] .

---

[1] الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 251 . و السير ، ج 21 ، 164 .

[2] ذكره ياقوت الحموي، و لم يحدد زمانه ، لكن يبدو أنه كان معاصرا لياقوت المتوفى سنة 624 ه .

[3] ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج4 ص: 409 .

[4] ابن كثير : البداية ، ج 14 ص: 250 .

و آخرها –أي الشاهد الحادي عشر– مضمونه أن رجلا شيعيا اسمه محمد بن إبراهيم الشيرازي(ت766ه) دخل الجامع الأموي بدمشق سنة 766هجرية ، و هو يسب الشيخين أبا بكر و عمر –رضي الله عنهما– و يلعنهما ، فأُخذ إلى القاضي المالكي جمال الدين المسلاتي، فاستتابه عن ذلك فلم يتب ، فأمر بالضراب فأول ضربة قال : لا إله إلا الله علي ولي الله ؛ فلما ضربه ثانية لعن أبا بكر و عمر ، فهجمت عليه العامة و أوسعوه ضربا حتى كاد يهلك ، و لم يستطع القاضي تخليصه منهم ، و مع ذلك كان –أي الرجل الشيعي– يسب الصحابة و يقول : إنهم كانوا على ضلالة[1] .

و أما المجموعة الأخيرة –أي الخامسة– فتضم شواهد متفرقة عن سب الشيعة للصحابة و بغضهم لهم و تشفيهم فيهم و استهزائهم بهم ، أولها –أي الشواهد– ما رواه الأديب الفقيه ابن قتيبة الدينوري(ت276ه) بإسناده إلى شبابة بن سوار إنه قال : ((سمعتُ رجلا من الرافضة يقول : رحم الله أبا لؤلؤة ، فقلتُ : تترحم على رجل مجوسي قتل عمرا ابن الخطاب –رضي الله عنه– ! ، فقال : كانت طعنته لعمر إسلامه))[2] .

و ثانيها ما رواه القاضي إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة (ت قرن:3ه) فإنه قال : كان لنا جار شيعي له بغلان ، سمى أحدهما أبا بكر ، و الآخر عمر ، فضربه ذات يوم البغل الذي سماه عمر ، فمات –أي الرجل هو الذي مات– !![3] .

---

[1] نفس المصدر ، ج 14 ص: 310 .

[2] ابن قتيبة : عيون الأخبار ص: 305 .

[3] ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، دار الثقافة ، 1968 ج2 ص: 205 .

و ثالثها ما رواه ابن الجوزي، من أن العوام-من أهل السنة- ببغداد دخلوا مشهدا- قبر عليه مسجد- للعلويين بمقابر قريش فوجدوا فيه أشياء كثيرة من بينها كُتب فيها سب للصحابة ، و أمور أخرى قبيحة [1] .

و رابعها ما ذكره الشيخ تقي الدين بن تيمية (ت728ه) من أن الرافضة-أي الشيعة- جرهم تعصبهم و جهلهم إلى التعصب للأسماء ، فيبغضون من اسمه عمر و أبا بكر ، و يُحبون من اسمه عليا و جعفر ، و الحسن و الحسين ، و إن كان فاسقا ، و قد يكون سنيا . كما أنهم يبغضون بني أمية كلهم لكون بعضهم كان ممن يبغض عليا ، رغم أن في بني أمية قوما صالحون قبل الفتنة[2] ، و بعدها أيضا كعمر بن عبد العزيز .

و الشاهد الخامس ما ذكره ابن تيمية أيضا ، فقال إن بعض الرافضة ، يعمدون إلى نعجة حمراء يسمونها عائشة ، ثم ينتفون شعرها . و يعمد آخرون إلى دواب يسمون بعضها أبا بكر و أخرى عمر ، ثم يضربونها بغير حق[3] .

و الشاهد السادس يقطر حقدا و كراهية للصحابة -رضي الله عنهم-، مفاده أن بعض الرافضة سمع الصوفي المعروف بالرِعب (ت750ه) يمدح الشيخين أبا بكر الصديق و عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- ، فانزعج -أي ذلك الشيعي- و قطع لسان ذلك الصوفي [4].

و آخرها -أي الشاهد السابع – ما رواه المؤرخ أحمد المقري التلمساني من أن جده حكى أن سنيا مغربيا ذكر أنه لما كان بالمدينة المنورة رأى ذات يوم رافضيا أقدم و بيده فحمة ، فكتب على جدار قريبا منه : من كان يعلم أن الله خالقه فلا يُحب أبا بكر و عمر ، و انصرف)) ، فتنبه ذلك

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 9 ص: 243 .

[2] ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ، ج 4 ص: 143، 144 ، 149 .

[3] نفسه ، ج 4 ص: 149 .

[4] اليافعي: مرآة الجنان ، حوادث سنة : 750ه .

الرجل السني إلى أمر لطيف ، فمحى كلمة يحب و جعل مكانها : يسب ، فأصبحت العبارة : فلا يسب ، ثم عاد-أي السني- إلى مكانه . فلما رجع الرافضي تنبّه لما حدث، و جعل ((يلتفتُ يمينا و شمالا ، كأنه يطلب من صنع ذلك)) ، ولم يتهم الرجل المغربي ، ثم انصرف لما أعياه الأمر[1] .

و بذلك يتبين مما ذكرناه أن ظاهرة سب الشيعة للصحابة كانت منتشرة بينهم كثيرا . و أنها دليل دامغ على ما يكنه هؤلاء للصحابة من بغض و كراهية ، بسبب التعصب المذهبي الذي أعمى قلوبهم و عقولهم . فما هي ردود فعل أهل السنة تجاههم ؟ .

لقد تمثلت ردودهم في التصدي لهم و عدم السكوت عنهم ، باستخدام عدة وسائل لمقاومتهم ، أولها إصدار أحكام شرعية في الشيعة لسبهم أصحاب رسول الله-عليه الصلاة و السلام- ، منها ما قاله الإمام سفيان الثوري(ت 161هـ) ، فعندما سُئل عمن يشتم أبا بكر -رضي الله عنه- قال : كافر بالله العظيم لا يُصلى عليه[2] .

و منها ما قاله الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) ، فقد ذهب في رواية عنه إلى القول بتكفير من يسب الصحابة[3] . و منها أيضا موقف الحافظ أبي زرعة الرازي(ت260هـ) فقد قال : ((إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فاعلم أنه زنديق))[4] .

---

[1] المقري: نفح الطيب ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، 1968 ج 5 ص: 256-257 .

[2] الذهبي: السير ، ج 7 ص: 253 .

[3] ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج1 ص: 478 .

[4] أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ، حققه بشار عواد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1980 ج 19 ص: 96 .

و منها ما قاله القاضي أبو يعلى الفراء (ت 458ه) ، فذكر أن الذي عليه الفقهاء في مسألة سب الصحابة ، هو إن كان الساب مستحلا لذلك كفر ، و إن لم يكن مستحلا فسق و لم يكفر[1] . و منها أيضا ما ذهب إليه الفقيه الموفق بن قدامة المقدسي (ت620ه) ، من أن من سب الصحابة كالروافض ، فهو فاسق ،و لا يُكفّر ، و لا تُقبل شهادته[2] .

و منها –أي الأحكام– ما قاله الشيخ تقي الدين بن تيمية ، من أن الذين يسبون الصحابة سبا لا يقدح في عدالتهم ، و لا في دينهم كوصف بعضهم بالبخل و الجبن ، أو عدم الزهد ، فهذا يستحق صاحبه التأديب و التعزير ، و لا يُحكم بكفره لمجرد ذلك ، و على هذا يُحمل كلام من لم يُكفرهم من العلماء ، لكنهم اختلفوا في تكفير من لعن و قبّح مطلقا ، لتردد ((الأمر بين لعن الغيظ و لعن الاعتقاد))[3] .

و منها أيضا ما ذهب إليه الحافظ الذهبي ، فذكر أن من أبغض الشيخين أبا بكر و عمر ، و اعتقد إمامتهما فهو رافضي مقيت ، و من سبهما و اعتقد أنهما ليسا أمامي هُدى ، فهو من غلاة الرافضة ، أبعدهما الله[4] .

و ذكر الحافظ ابن كثير(ت774ه) أن الفقهاء أجمعوا على تكفير من قذف عائشة أم المؤمنين–رضي الله عنها– ، و قال إن الأصح أيضا تكفير من يقذف باقي أمهات المؤمنين[1] .

---

[1] ابن حجر الهيثمي : الصواعق المحرقة أهل الرفض و الضلال و الزندقة ، حققه عبد الرحمن التركي ، ط1 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1997 ، ج 1 ص: 168 .

[2] الموفق بن قدامة : المغني في الفقه ط1 ، بيروت ، دار الفكر ، 1405، ج 10 ص: 168 .

[3] الصارم المسلول على شاتم الرسول ، حققه محمد الحلواني ، ط1 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1417 ، ج 3 ص: 1110 .

[4] الذهبي: السير ، ج 16 ص: 458 .

و أشير هنا إلى أنه في سنة 458هجرية ، صدر بيان من دار الخلافة ببغداد نص على تكفير من سب الصحابة و أظهر البدع [2] . و هو موجه -بلا شك - ضد الشيعة ، فهم الذين يسبون الصحابة و أظهروا سبهم مرارا ببغداد ، كما سبق أن ذكرناه .

و الوسيلة الثانية -من ردود السنة على الشيعة في سبهم للصحابة- هي التصدي للشيعة بالقوة ، و الدخول معهم في مواجهات و مصادمات دامية ، كما حدث بمدينة بغداد و غيرها من المدن ، و سنذكر ذلك بالتفصيل في مبحث الفتن الطائفية بين السنة و الشيعة فيما يأتي من هذا الفصل ، إن شاء الله تعالى .

و الوسيلة الثالثة معاقبة من يسب الصحابة أشد العقاب ، و قتل من يصر على تضليلهم -أي الصحابة- و تكفيرهم [3] . و سنذكر على ذلك بعض النماذج في مبحث لاحق بحول الله تعالى .

و الوسيلة الرابعة عدم السكن في أحياء الشيعة ، و هجرها إلى بلدان لا يُوجد فيها سب الصحابة ، من ذلك ما حدث للفقيه أبي بكر الخلال البغدادي(ت311ه) ، فإنه لما ظهر سب السلف ببغداد هجر بيته [4] . و كان المحدث محمد بن عبد العزيز التميمي يسكن بالكوفة -موطن الرفض- ثم هجرها ، و قال : ((لا أقيم ببلد يُشتم فيه أصحاب رسول الله -صلى الله عليه و سلم-)) [5] .

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 233 .

[2] نفس المصدر ، ج 12 ص: 93 .

[3] نفس المصدر ، ج 14 ص: 310 .

[4] أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 216 .

[5] ابن أبي حاتم : الجرح و التعديل ، ج 8 ص: 6 .

و منهم الفقيه عمر بن الحسين الخرقي الحنبلي البغـــدادي (ت 334ه) هجر مدينة بغداد لما ظهر فيها سب الصحابة ، و استقر بمدينة دمشـــق[1] . و منهم أيضا أن فقيها سنيا بغداديا مر يوما بحي الكرخ الشيعي ، فسمع بـــه ذم الصحابة و التعريض بهم ، فأخذ على نفسه عدم الاقتراب بـــذلك الحـــي[2]-أي الكرخ- .

و من طريف ما يُروى -في هذا الموضوع- أن المحدث ســلمة بـــن شبيب النيسابوري (ت قرن: 3ه) عندما قرر الارتحال إلى مكة و الاســـتقرار بها ، باع داره و أخبر جاره بالأمر ، و أنه سيرحل إلى مكة المكرمـــة ، ثـــم سلّم عليه ،و قال له إنه لم ير منه إلا خيرا ، فرد عليـــه الجـــار بالشـــكر ، و أخبره أنه هو أيضا عازم على الارتحال إلى مكة ، لأن الذي اشترى منه الدار -أي دار المحدث سلمة- هو رجل رافضي يشتم أبا بكـــر و عمـــر و بـــاقي الصحابة[3]-رضي الله عنهم- .

و الوسيلة الخامسة منع الذين يسبون الصحابة من حضور المجـــالس العلمية السنية ، و هذه الوسيلة استخدمها بعض علماء أهل السنة ، من ذلك أن الحافظ أبا الأحوص سلام بن سليم الكـــوفي (ت179ه) كـــان إذا مُلئـــت داره بالمحدثين يقول لابنه : أنظر فمن رأيت يشتم الصحابة فأخرجه [4] .

و ربما يقول بعض الناس : ألم يكن السنيون هم أيضا متعصبين فـــي استخدامهم لتلك الوسائل ردا على الشيعة في سبهم للصحابة و طعنهم فـــيهم ؟ . إنهم لم يكونوا متعصبين -بالمعنى المـــذموم – لأنهـــم انتصـــروا للحـــق و تعصبوا له ، و لم ينتصروا للباطل و لا تعصبوا له ، لأن سب الصحابة هـــو

---

[1] ابن كثير : المصدر السابق ، ج 11 ص: 214 .

[2] الحسين ابن أبي يعلى : المصدر السابق ، ج 2 ص: 169 .

[3] نفس المصدر ، ج 1 ص: 161 .

[4] الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج 1 ص : 250 .

التعصب الأعمى و الجريمة الشنعاء ، و الدفاع عنهم هو الحق المبين المعروف بالضرورة من دين الإسلام .

و ختاما لما سبق أُشير هنا إلى فائدتين غاية في الأهمية ، الأولى مفادها أن آل البيت -رضي الله عنهم- لم يكونوا يسبون الشيخين ، فعندما قيل لأبي جعفر الباقر(ت قرن:2ه) : هل كان أحد من أهل البيت يسب أبا بكر و عمر ؟ قال : معاذ ، بل يتولونهما و يترحمون عليهما[1] . و كان ابنه جعفر الصادق يبغض الرافضة-السبابون- و يمقتهم[2] .

الفائدة الثانية مفادها إن سب الصحابة جريمة نكراء ، لا يفعلها إلا شقي جاهل غبيي ، مبتدع ضال ماكر خبيث ، لأن النصوص الشرعية القطعية الثبوت و الدلالة شهدت لهم-أي للصحابة- بالإيمان و الفضل ، و العمل الصالح ، كقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)) -سورة آل عمران/ 110- ، و ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾- سورة الفتح/ 18 - ، و ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾- سورة التوبة/ 100- و تعليقا على الآيات الأخيرة يقول ابن كثير : ((فقد أخبر الله العظيم أنه رضي عن السابقين الأولون من المهاجرين و الأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، و لاسيما الخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي

---

[1] ابن حجر الهيثمي : الصواعق المحرقة ، ج 1 ص: 161 .

[2] الذهبي: السير ، ج 6 ص: 255 .

قحافة –رضي الله عنه– ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يُعادون أفضل الصحابة ، و يبغضونهم و يسبونهم عياذا بالله من ذلك ، و هذا يدل على أن عقولهم معكوسة و قلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم ؟ ، و أما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، و يسبون من سبه الله و رسوله ، و يوالون من يوالي الله ، و يُعادون من يُعادي الله))[1] .

ثانيا : اللعن و الطعن و اتهامات أخرى :

نخصص هذا المبحث لما كان يحدث بين الطوائف الإسلامية من لعن و طعن ، و قدح و تشهير ، و ذم و تنقيص، و غيرها من الاتهامات ، ليتبين لنا ما كانت تكنه تلك الطوائف لبعضها بعض من حقد و كراهية ، و حسد و تآمر ، بسبب التعصب المذهبي الذي غلب عليها و سيطر على المشاعر و العقول ، و قد تجلى ذلك في مظاهر كثيرة ، منها أولا : اللعن المتبادل بين الأفراد و الجماعات ، من ذلك الشواهد الآتية :

أولها إنه لما حدث خلاف بين أصحاب الفقيه ابن خزيمة (ت311ه) في مسألة كلام الله تعالى ، بتأثير من الكلابية أتباع عبد الله بن كلاب البصري (ت284ه) ، قال ابن خزيمة : ((و من نظر في كتبي تأكد له أن الكلابية لعنهم الله كذبة فيما يحكون عني))[2] .

و ثانيها، ما ذكره الحسين بن أمامة المالكي ، فقال إنه سمع أباه يلعن المتكلم أبا ذر الهروي الأشعري (ت قرن: 5ه) بقوله : ((لعن الله أبا ذر

---

[1] ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ط 1 ، بيروت ، دار الأندلس ، 1966 ، ج 2 ص: 384

[2] الذهبي: تذكرة الحفاظ ، ج 2 ص: 726 .

الهروي ، فإنه أول من أدخل الكلام إلى الحرم –أي المكي– ،و أول من بثه في المغاربة))[1] .

و الشاهد الثالث ما رواه ابن حزم الظاهري ، من أن أحد الأشاعرة بمصر ، كان ينكر تكلم الله تعالى بالقرآن ، و يلعن من يقول ذلك ألف لعنة . ثم عقّب عليه ابن حزم بقوله : إن من يقول ذلك ، عليه ألف ألف لعنة تترى ، ثم وصف الطائفة التي تقول ذلك –أي الأشعري– بأنها الطائفة الملعونة[2] .

و الشاهد الرابع ما حدث من تلاعن بين أهل السنة ببغداد وكبير المعتزلة ابن الوليد (ت478هـ) ، فإنه لما خرق الحصار المضروب عليه ، و درّس مذهبه للناس ، و لم يصل في الجامع (سنة 456هـ) ، هجم عليه قوم من أصحاب الحديث ، فسبوه و لعنوه و ضربوه حتى أدموه ، فصاح صياحا شديدا ،و لعن لاعنيه ، و دخل بيته ، ثم فرّ مهاجموه خوفا من أصحاب الحي ، و خرج أهل السنة على إثر ذلك إلى جامع المنصور ، و لعنوا المعتزلة . و قد لُعنت المعتزلة مرارا زمن شيخها ابن الوليد هذا[3] .

و الشاهد الخامس يتعلق بالحافظ عبد الله الأنصاري الهروي الحنبلي الصوفي (ت قرن: 5هـ) ، فإنه كان يلعن أبا الحسن الأشعري جهارا بمدينة هراة . و عندما سأله الشافعية و الحنفية – في حضرة الوزير السلجوقي نظام الملك– عن سبب لعنه للأشعري ، قال لهم : لا أعرف الأشعريّ ، و إنما ألعن

---

[1] ابن تيمية: درء تعارض العقل و النقل ، حققه محمد رشاد سالم ، الرياض ، دار الكنوز ، 1391هـ ج 2 ص: 101 .

[2] ابن حزم : الفصل ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، د ت ،ج 4 ص: 160 .

[3] ابن الجوزي: المنتظم، ج 8 ص: 236. و ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حققه عبد الله القاضي ، ط 2 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1995 ج 9 ص: 576 . و ابن كثير: البداية ، ج 12 ص: 91 . و ابن رجب: الذيل عل طبقات الحنابلة ، حققه محمد حامد الفقي ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، 1953 ، ج 1 ص: 192 .

من لم يعتقد إن الله في السماء ، و إن القرآن في المصحف، و إن النبي اليوم نبيا[1] .

و الشاهد السادس مفاده أن القاضي الحنفي أبا نصر أحمد الصاعدي النيسابوري (ت482ه) كان شديد التعصب لمذهبه الحنفي ، و شجع عليه ، فأدى عمله إلى اشتداد التعصب بين العلماء فيما بينهم ، و بين الطوائف المذهبية فيما بينها أيضا ، حتى لعنت بعضها بعضا على المنابر زمن دولة السلطان السلجوقي طغرلبك (ت 455ه) ، و لم يُرفع ذلك إلا بمجيء نظام الملك (ت 485ه) إلى الوزارة[2] .

و الشاهد السابع مضمونه أنه لما دخل الواعظ الحسن بن أبي بكر النيسابوري الحنفي بغداد ، بين سنتي: 515-530ه ، كان يلعن أبا الحسن الأشعري جهارا نهارا ، تحت حماية السلطان السلجوقي مسعود[3].

و الشاهد الثامن هو أنه لما كان الواعظ أبو الفتوح الاسفراييني الأشعري (ت 538ه) ببغداد و بالغ في الانتصار للأشعرية ، كثُرت اللعنات بينه و بين الحنابلة ، و في اليوم الذي تُوفي فيه الزاهد ابن الفاعوس الحنبلي (ت 521ه) كان العوام ببغداد يصيحون : هذا يوم سني حنبلي ، لا قشيري و لا أشعري ، و تعرّضوا فيه للواعظ أبي الفتوح ، و رجموه في الأسواق ،و لعنوه و سبوه[4] .

---

[1] الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج 3 ص: 1188 . و السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ،حققه محمد الطناحي ط 2، الجيزة ، دار هجر ، 1992 ج 4 ص: 273 .

[2] اذهبي: السير ، ج 19 ص: 8 . و ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، حققه محمود الأرناؤوط ، ط1 دمشق ، دار ابن كثير ، 1989 . ج 5 ص: 351 .

[3] الذهبي: السيّر، ج 20 ص: 140 .

[4] ابن الجوزي: المنتظم، ج 10 ص: 110 . و ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ، ج1 ص: 211 .

و آخرها -أي الشاهد التاسع- هو أنه في سنة 555هجرية ، اجتمع صبيان من جهلة أهل الحديث بجامع القصر ببغداد ، و قرؤوا شيئا من أخبار الصفات ، و ذموا المؤولين لها -أي الأشاعرة- ثم لعنوا الحافظ أبا نُعيم الأصفهاني -المتأثر بالأشعرية- و سبوه و كتبوا ذلك على بعض مصنفاته ، فتدخلت سلطة بغداد و منعت المحدثين من قراءة الحديث بجامع القصر[1] .

و ثانيا إن من تلك المظاهر المتعصبة أيضا : الذم و التهكم و التنقيص ، و منها الأمثلة الآتية ، أولها يتعلق بالفقيه أبي عثمان بن الحداد الإفريقي (ت302ه) ، كان مالكيا ثم مال إلى مذهب الشافعي ، و أصبح يتنقّص بعض الكتب المعظمة عند المالكية ، فسمى كتاب المدونة بالمدودة ، فهجره المالكية ، ثم عادوا و أحبوه عندما تصدى لداعية العبيديين أبي عبد الله الشيعي(ت297ه)، و ناظره و نصر المذهب السني[2] .

و المثال الثاني هو أنه في فتنة ابن القشيري ببغداد[3] ذم كبار علماء الأشاعرة- في رسالتهم إلى الوزير نظام الملك- خُصومهم الحنابلة ذما شنيعا ، و وصفوهم له بأنهم رعاع أوباش ، مجسمة مبتدعة ، شرذمة أغبياء من أراذل الحشوية ، رفضوا الحق لما جاءهم على يد أبي نصر بن القشيري[4].

و المثال الثالث يخص تهكم القاضي أبي المعالي عزيزي بن عبد الملك الشافعي الأشعري (ت494ه) بخصومه الحنابلة ، و ذلك كان قاضيا على حي باب الأزج ببغداد ، الذي غالبية سكانه حنابلة ، فكان بينه و بينهم

---

[1] ابن الجوزي: نفس المصدر، ج 10 ص: 192 .

[2] الذهبي: العبر، ج 2 ص : 128 .

[3] سنة 469ه ، و سيأتي ذكرها في مبحث الفتن بين الطوائف السنية ، من هذا الفصل ، إن شاء الله تعالى .

[4] ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، حققه زاهد الكوثري ، ط3 ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، 1984 ، ص: 310 و ما بعدها .

خصام و مهاترات ، فيُروى أنه في أحد الأيام سمع رجلا يُنادي على حمار له ضاع منه ، فقال القاضي : ((يدخل باب الأزج ،و يأخذ بيد من شـاء)) . و قال يوما لأحد أصحابه عن الحنابلة : ((لو حلف إنسان إنه لا يرى إنسانا ، فرأى أهل باب الأزج لم يحنث ، فقال له صاحبه : من عاشر قوما أربعين يوما فهو منهم)) ، لذا فإنه –أي القاضي– عندما مات فرح الحنابلة بموته كثيرا[1] . ففي قوله الأول ألحقهم بالحمير صراحة ، و في الثاني نفى عنهم صفة الأدمية ، و ألحقهم بالحيوانات ضمنيا ، ثم ألحقه صاحبه هو أيضا بهم ، بحكم إنه معاشر لهم .

و آخرها– أي المثال الرابع – يتعلق بتهكم و تنقّص بعض الشافعية بالحنفية و استهزائهم بهم في كيفية الصلاة عندهم ، انتصارا للمذهب الشافعي و ردا على معارضيه ، و مفاده –أي المثال– أن السلطان محمود بن سبكتكين (ت قرن:5ه) لما أراد أن يُفاضل بين المذهبين الحنفي و الشافعي ليتمذهب بأحدهما ، جمع الفقهاء بمدينة مرو و أمرهم بالبحث في أي المذهبين أقوى ، فوقع الاختيار على أن يصلي كل طرف ركعتين يدي السلطان على المذهبين ، فقام الفقيه الشافعي أبو بكر القفال و صلى بوضوء مُسبغ ، و سترة ، و طهارة ، و قبلة ، و باقي الأركان التي لا يُجوّز الشافعي الصلاة دونها . ثم صلى–أي القفال– صلاة ((على ما يُجوّزه أبو حنيفة ، فلبس جلد كلب مدبوغ قد لُطخ رُبعه بنجاسة ، و توضأ بنبيذ ، فاجتمع عليه الذباب ، و كان وضوءا مُنكسا ، ثم كبّر بالفاريسية ، و قرأ بالفاريسية : دو بركك سبز . و نقر و لم يطمئن ، و لا رفع من الركوع ، و تشهّد و ضرط–أي أخرج الريح– بلا سلام)) ، فقال له السلطان : ((إن لم تكن هذه الصلاة يُجيزها الإمام قتلتك)) ، فأنكرت

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 160 .

الحنفية تلك الصلاة ، فأمر القفال بإحضار كتبهم فوجدوا الأمر كما قال القفال ، و تحوّل السلطان محمود إلى المذهب الشافعي .[1]

و قد علّق حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الشافعي(ت505ه) على تلك الصلاة –أي صلاة الحنفية– بقوله : ((و الذي ينبغي أن يقطع به كل ذي دين أن مثل هذه الصلاة ، لا يبعث الله لها نبيا ، و ما بعث محمد بن عبد الله –صلى الله عليه و سلم– لدعوة الناس إليها ، و هي قطب الإسلام و عماد الدين)) ، و قد زعم أبو حنيفة أن هذا ((القدر –من الصلاة– أقل من الواجب ، فهي الصلاة التي بُعث لها النبي ، و ما عداها آداب و سنن))[2] .

و واضح من هذه الحادثة أن التعصب المذهبي كان من الطائفتين ، فالشافعية تعصبوا لمذهبهم بالتهكم و الاستهزاء من كيفية الصلاة في المذهب الحنفي . و الحنفية حملهم تعصبهم لمذهبهم إلى الانتصار له بالباطل ، عندما أنكروا أمرا صحيحا ثابتا في مذهبهم لا يمكنهم إخفاؤه .

و ثالثا إن من تلك المظاهر المتعصبة أيضا : الطعن و القدح و السب ، و نذكر على ذلك خمسة شواهد ، أولها إنه كان زمن الخليفة العباسي المتوكل على الله (232–247ه) جماعة من الرافضة الإمامية يجتمعون فيما بينهم لتدارس الرفض ، و سب الصحابة و شتم السلف[3] .

و الشاهد الثاني مضمونه أن شيخ الشيعة المفيد بن محمد(ت 413ه) صنف كتبا كثيرة في مذهب الشيعة فيها الطعن على الصحابة و التابعين و الأئمة المجتهدين ، فكانت سببا في تضليل خلق من الناس و هلاكهم[4] .

---

[1] الذهبي: السير ، ج17 ص: 486 .

[2] أبو حامد الغزالي: المنخول ، حققه محمد حسن هيتو ، بيروت ، دار الفكر ، 1405 ص : 501 .

[3] ابن خلكان : و فيات الأعيان ، ج 1 ص: 351 .

[4] ابن حجر: لسان الميزان ، ج 5 ص: 368 .

و الشاهد الثالث يتعلق بالفقيه أبي جعفر محمد الطوسي (ت460ه) ، كان شافعيا ثم تحول شيعيا إماميا ، و أصبح يتنقص السلف ، فضيّق عليه أهل السنة عندما كان ببغداد ، فاختفى عن الأنظار و ارتحل إلى الكوفة[1] مركز الشيعة الإمامية .

و الشاهد الرابع خاص بالواعظ أبي بكر البكري الأشعري ، فإنه عندما دخل بغداد سنة 475ه ، بأمر من الوزير نظام الملك ، و أظهر مذهبه الأشعري علانية ، دخل في نزاع مع الحنابلة ، فكان يشتمهم و يستخف بهم ، فحدث بينه و بينهم سباب و خصام[2] .

و الشاهد الخامس يتضمن كلاما للقاضي أبي بكر بن العربي (ت 543ه) في الحنابلة و أهل الحديث ، فقال فيهم كلاما غليظا[3] ، و وصفهم بأوصاف شنيعة ، فجعلهم ممن كاد للإسلام ، و لا فهم لهم ، و ليس لهم قلوب يعقلون بها ،و لا آذان يسمعون بها ، فهم كالأنعام بل هم أضل . و عدّهم من الغافلين الجاهلين في موقفهم من الصفات ،و شبههم باليهود ،و قال أنه لا يُقال عنهم : بنوا قصرا و هدّموا مصرا ، بل يُقال : هدموا الكعبة ،و استوطنوا البيعة[4] –أي كنيسة اليهود– .

و يتبين مما ذكرناه في هذا المبحث أن ما استعملته الطوائف المذهبية من لعن و ذم ، و اتهامات و تشنيعات ، هو دليل قاطع على ما وصلت إليه

---

[1] الذهبي: السير ، ج 18 ص: 335 .

[2] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 9 ص: 3، 4 ، 221 . و ابن النجار : ذيل تاريخ بغداد ، ج 2 ص: 185 .

[3] للتوسع فيما حدث بين الأشاعرة و أهل الحديث من نزاع ، أنظر كتابنا : الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث ، دار الإمام مالك ، الجزائر ، 2005 .

[4] العواصم من القواصم ، حققه عمار طالبي الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1981ج2 ص: 282، 288، 303 .

من تعصب و نزاع ، و قسوة و تنافر ،و ما تكنه لبعضها بعض من حقد و كراهية و بغضاء ، بسبب التعصب المذهبي الذي سيطر عليها .

ثالثا : التكفير المتبادل بين الطوائف الإسلامية :

جر التعصب المذهبي الطوائف الإسلامية إلى التكفير و التضليل ، انتصارا للمذهب و تعصبا على المخالف ، و الشواهد التاريخية على ذلك كثيرة جدا ، أذكر منها طائفة حسب الموضوعات الآتية :

أولا: تكفير الشيعة للصحابة و لكل من يخالفهم ، و الشواهد على ذلك كثيرة ، أولها إن الشيعي عمرو بن ثابت الكوفي (ت 172ه) كان يسب السلف – و يقول : ((كفر الناس بعد رسول الله إلا أربعة))[1] .

و ثانيها إن الشيعي عيسى بن مهران المستعطف البغدادي (ت قرن :3ه) كان يطعن في الصحابة و يُكفرهم و يُضللهم و يُفسقهم ، و قد وصفه الخطيب البغدادي (ت 463ه)بأنه كان كذابا من شياطين الرافضة و مردتهم[2].

و ثالثها ما ذكره إمام الشيعة الإثنى عشرية و ثقتهم محمد بن يعقوب الكُليني(ت329ه) في كتابه : الكافي –الأصول– ، فقد نص فيه صراحة – حسب رواياته المكذوبة– على أن الناس – أي كل المسلمين– ارتدوا بعد الرسول –صلى الله عليه و سلم– . و أكد صراحة على كفر كل من لم يُؤمن بأئمة الشيعة الإثنى عشرية[3] .

و الشاهد الرابع يخص الشاعر المتكلم الشريف المرتضي علي بن الحسين العلوي البغدادي(ت 436ه) ، كان شيعيا متطرفا يُكفّر عمر بن الخطاب ،و عثمان ، و عائشة ، و حفصة ، –رضي الله عنهم– . و فيه قال

---

[1] الذهبي: ميزان الاعتدال ، ج 5 ص: 302 .

[2] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، ج 11 ص: 167 .

[3] الكليني: الكافي من الأصول ، طهران دار الكتب الإسلامية ، 1328ه ج1 ص: 187 .

الحافظ ابن كثير : ((أخزاه الله و أمثاله من الأرجاس الأنجاس ، أهل الرفض و الارتكاس، إن لم يكن قد تاب))[1] .

و الشاهد الخامس مضمونه أن الشيعة كفّروا من خالفهم عامة ، و أهل السنة خاصة ، و ذلك عندما كتبوا على مساجدهن ببغداد : محمد و علي خير البشر ، فمن رضي فقد شكر ، و من أبى فقد كفر ، فأدى ذلك إلى اندلاع قتال عنيف بينهم و بين أهل السنة[2] .

و الشاهد السادس هو ما ذكره المتكلم أبو المظفر الإسفراييني (ت قرن 5ه) ، فقال إن الشيعة الإمامية-كالإثنى عشرية و الإسماعيلية- متفقون على تكفير الصحابة [3] .

و الشاهد السابع هو ما ذكره الشيخ تقي الدين بن تيمية عن بعض عقائد الشيعة ، فقال : إن الرافضة-أي الشيعة- شر من الخوارج ، لأنهم يُكفرون الصحابة و جماهير المسلمين ، و يُكفرون أيضا من يُثبت لله تعالى صفاته التي أثبتها لنفسه سبحانه . كما أنهم اتهموا صحابة رسول الله بتبديل الدين إلا قلة منهم[4] .

و الشاهد الثامن هو ما ذكره الحافظ الذهبي (ت748ه) عن شيعة زمانه ، فقال : إنهم ((يُكفرون الصحابة و يبرؤون منهم جهلا و عدوانا ، و يتعدون إلى الصديق ، قاتلهم الله))[5] . و هو هنا قد وصف شيعة زمانه في

---

[1] ابن كثير : البداية ، 53 .

[2] ابن كثير : الكامل في التاريخ ، ج 8 ص: 59 .

[3] أالإسفراييني: التبصير في الدين ، ط1 ، بيروت ، عالم الكتب ، 1983، ص: 41 .

[4] ابن تيمية : مجموع الفتاوى، ج3 ص: 356، 357 . و الوصية الكبرى ، حققه علي حسن عبد الحميد، ط2 ، الجزائر ، دار الشهاب ، 1988، ص: 34، 35 ، 68 .

[5] السير ، ج 5 ص: 374 .

تكفيرهم للصحابة ، و إلا فإن تكفيرهم للصحابة قديم جدا ، يعود إلى القرن الأول الهجري و ما بعده [1] .

و الشاهد التاسع يتعلق بالشيعي حسن بن محمد السكاكيني (ت744هـ) ، فقد كان يُكفّر الشيخين أبا بكر و عمر بن الخطاب-رضي الله عنهما- ،و يقذف عائشة و حفصة -رضي الله عنهما- ، قبّحه الله [2] ،و عامله بما يستحق .

و آخرها-أي الشاهد العاشر- هو ما صرّح به الكاتب الشيعي المعاصر محسن المعلم في كتابه النصب و النواصب ، حين ذكر صراحة أن الشيعة الإمامية – يقصد الإثنى عشرية- أجمعت على أن ((الناصبي-أي السني- حكمه حكم الكافر من حيث الاعتقاد)) ، و هو -أي الناصبي- في حكم الكافر من حيث النجاسة ، و إن كان مظهرا للشهادتين . و نقل عن عالمهم الصدر أن النواصب كفار . و نقل أيضا عن أحد علمائهم إنه قال : الناصبي شر من اليهودي و النصراني، و هو أنجس من الكلب [3] .

و هو يقصد بالنواصب أهل السنة ، من الصحابة و التابعين و من جاء بعدهم من السنيين إلى يومنا هذا ، و قد ذكر منهم طائفة ، من بينهم : أبو هريرة ، و أنس بن مالك ، و عمر بن الخطاب، و عثمان بن عفان ، و أبو بكر الصديق، و عائشة أم المؤمنين ، و الزبير بن العوام ، و سعد بن أبي وقاص ، و سعيد بن المسيب ، و تقي الدين بن تيمية ، و ابن كثير ، و أحمد بن حجر الهيثمي [4] .

---

[1] أنظر – مثلا – كتابهم الكافي ، ج 1 ص: 187 .

[2] ابن كثير : البداية ، ج 14 ص: 221 .

[3] محسن المعلم : النصب و النواصب ، دار الهادي، بيروت ، ص: 609 .

[4] نفس المرجع ، ص: 268، 272، 279، 282، 283، 284، 294، 308، 317، 318، 328، 337، 338، 365، 399، 419 .

و بذلك يتبين جليا أن التعصب المذهبي الأعمى أوصل الشيعة إلى تكفير الصحابة و أهل السنة أيضا ، بسبب انحراف عقائدهم -أي عقائد الشيعة- المخالفة للنقل الصحيح و العقل الصريح معا ، فهل كفّر السنيون الشيعة هم أيضا ؟ .

نعم كفّر كثير من علماء أهل السن الشيعة ، و ردوا على أباطيلهم و ضلالهم ، منهم : الإمام مالك بن أنس (ت179ه) ، فإنه قال : ((أهل الأهواء كلهم كفار ، و أسوأهم الروافض))[1] . و في رواية أخرى أنه كفّر الروافض الذين يبغضون الصحابة[2] .

و الثاني هو الحافظ عبد الرزاق الصنعاني (ت211ه) قال : الرافضي[3] عندي كافر[4] . و الثالث هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 204ه) ، قال بكفر الروافض الذين يبغضون الصحابة موافقا في ذلك ما ذهب إليه مالك بن أنس[5] .

و الرابع هو الإمام أحمد بن حنبل (ت 241ه) ، قال : ((ليست الرافضة من الإسلام في شيء))[6] . و في رواية أخرى إنه كفّر من تبرأ من الصحابة ، و سب عائشة أم المؤمنين ، أو رماها بما قد برأها الله منه[7] .

---

[1] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج1 ص: 86 .

[2] الصواعق المحرقة ، ج 2 ص : 607 .

[3] أي الشيعي الذي يسب الصحابة ، و قد سبق أن عرّفنا الشيعة في التمهيد .

[4] الذهبي: السير ، ج 14 ص: 178 . و ميزان الاعتدال ، ج 3 ص: 38 .

[5] ابن حجر الهيثمي : الصواعق المحرقة ، ج 2 ، ص: 607 .

[6] أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، تحقيق الفقي ، ط القاهرة، ج 1 ص: 34.

[7] نفس المصدر ، مقدمة ابن تميم الحنبلي ، ملحقة بالكتاب ، ج 2 ص: 272 .

و الخامس هو الحافظ أبو بكر أحمد بن هاني البغدادي (ت قرن:3ه) ، كفّر الرافضة و قال لا تُؤكل ذبائحهم ، لأنهم مرتدون[1] .و السادس هو شيخ الحنابلة أبو محمد البربهاري البغدادي(ت 329ه) ، قال في أهل الأهواء : ((و أعلم أن الأهواء كلها ردية تدعوا على السيف ، و أردؤها و أكفرها الرافضة و المعتزلة و الجهمية ، فإنهم يردون الناس إلى التعطيل-أي تعطيل الصفات- و الزندقة))[2] .

و السابع هو فقيه الحنابلة ابن حامد البغدادي(ت 403ه) ، فإنه كفّر الرافضة ضمن تكفيره للخوارج و القدرية ، و غيرهم من الطوائف المذهبية[3] . و الثامن هو الفقيه أبو محمد بن حزم الأندلسي (ت 456ه) قال : الرافضة ليسوا من المسلمين ، و هم طائفة تجري مجرى اليهود و النصارى في الكذب و الكفر [4] .

و التاسع هو المتكلم عبد القاهر البغدادي(ت 429ه) ، قال في أهل الأهواء من الشيعة و غيرهم : ((و أما أهل الأهواء من الجارودية ، و الهشامية ، و النجارية ، و الجهمية ، و الإمامية -هم الشيعة الإثنى عشرية و الإسماعيلية- الذين كفّروا خيار الصحابة ... و الخوارج ، فإنا نكفّرهم كما يُكفرون أهل السنة ، و لا تجوز الصلاة عليهم عندنا ، و لا الصلاة خلفهم))[5].

و العاشر هو القاضي أبو يعلى الفراء الحنبلي البغدادي(ت 458ه) نص على أن الرافضة-أي الشيعة- كالخوارج فمن كفّر الصحابة و فسّقهم فهو

---

[1] ابن حجر الهيثمي : المصدر السابق ، ج 1 ص: 141 .

[2] أبو الحسين بن أبي يعلى : المصدر السابق ، ج 2 ص: 37 .

[3] ابن مفلح المقدسي : الفروع ، ط1 ـ بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1418ه ، ج 6 ص: 155 .

[4] ابن حزم : الفصل في الملل و النحل ، ج 2 ص: 65 .

[5] عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، ص: 357 .

كافر ، و من رأى أن الصحابة اجتهدوا و أخطؤوا فليس بكافر[1] . و حكمه بتكفير من يُفسق الصحابة و يُكفّرهم ينطبق على الشيعة ، لأنه سبق أن ذكرنا شواهد كثيرة على سبهم للصحابة و تكفيرهم لهم .

و الحادي عشر هو المتكلم أبو المظفر الإسفراييني ، فإنه بعدما تعرّض لعقائد الشيعة قال فيهم : ((و ليسوا في الحال على شيء من الدين ، و لا مزيد على هذا النوع من الكفر ، إذ لا بقاء فيه شيء من الدين))[2] .

و الحادي عشر هو الفقيه أبو العباس بن الحيطة المصري ، كانت له مناظرات مع الشيعة الإسماعيليين زمن العبيديين بمصر (360-567هـ) ، فكان يُناقشهم و يرد على أباطيلهم ، و يقول : ((أحمق الناس في هذه المسألة الروافض ، خالفوا كتاب الله و سنة رسوله ، و كفروا بالله كفرا صريحا بلا تأويل))[3] .

و الثاني عشر هو شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728هـ) ، نص على أن من زعم أن الصحابة ارتدوا كلهم بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا قلة منهم لا يبلغون بضعة عشر نفسا ، و أنهم فسقوا في عامتهم)) ، فهذا ((لا ريب أيضا في كفره ، فإنه مُكذّب لما نصّ عليه القرآن في غير موضع من الرضى عنهم و الثناء عليهم ، بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين ، فإن مضمون هذه المقالة -أي تكفير الصحابة- أن نقلة الكتاب و السنة كفار أو فساق ، و إن هذه الأمة التي هي ((خير أمة أُخرجت للناس)) و خيرها هو القرن الأول ، كان عامتهم كفارا ، أو فساقا ، و مضمونها أن

---

[1] أبو يعلى الفراء : المعتمد في أصول الدين ، ص : 267 .

[2] أبو المظفر الإسفراييني: التبصير في الدين ، ص: 41

[3] ا بن جرادة : بغية الطلب في تاريخ حلب ، حققه سهيل زكار ، ط1 ، بيروت ، دار الفكر ، 1988 ج4 ص: 1669 .

هذه الأمة شر الأمم ، و أن سابقي هذه الأمة هم شرارها ، و كفر هذا مما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام))[1] .

و الثالث عشر هو المؤرخ الحافظ شمس الدين الذهبي (ت748ه) ، قال في الشيعة : من أحب منهم الشيخين فليس بغال ، و من تعرّض لهما بشيء من التنقيص فإنه رافضي غال ، فإن سبهما فهو ((من شرار الرافضة ، فإن كفّر فقد باء بالكفر و استحق الخزي))[2] .

و الرابع عشر هو المحقق الناقد ابن قيم الجوزية (ت751ه) ، قال – عندما تطرّق لفضائل أبي بكر – : ﴿ أترى أم يسمع الروافض الكفار " ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ -سورة التوبة /4- . و قال أيضا : إن الشيطان أخرج الروافض إلى ((الكفر و الإلحاد ، و القدح في سادات الصحابة و حزب رسول الله و أوليائه و أنصاره ، في قالب محبة أهل البيت و التعصب لهم و موالاتهم))[3] .

و آخرهم –أي الخامس عشر– هو الحافظ المؤرخ ابن كثير (ت774ه) ، قال أن تكفير الرافضة للشيخين و قذفهم لعائشة و حفصة –رضي الله عنهم– هو من الكفر المحض . كما أن زعمهم –أي الرافضة– بأن الصحابة أخفوا النص و الوصية يُؤدي إلى نسب الصحابة بأجمعهم إلى ((الفجور و التواطؤ على معاندة الرسول –عليه الصلاة و السلام– و مصادته في حكمه و نصه ، و من وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام ، و كفر بإجماع الأئمة الأعلام))[4] .

---

[1] ابن تيمية : الصارم المسلول ، ج 3 ص: 1110، 1111 .

[2] السير ، ج 14 ص: 511 .

[3] ابن قيم الجوزية : الفوائد ، حققه راتب عرموش ، ط4 ، بيروت ، دار النفائس ، 1403ه ص: 73 . و إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، حققه حامد الفقي ، ج2 ، بيروت ، دار المعرفة ، 1975، ج 2 ص: 81 .

[4] البداية ، ج 14 ص: 211، 252 .

و زيادة على ما قاله هؤلاء ، فإنه توجد شواهد أخرى تُعبر عن موقف جماعي لطوائف من أهل السنة في تكفيرهم للشيعة ، منها إن أئمة الحنفية كفروا المنكر لخلافة الشيخين أبي بكر و عمر -رضي الله عنهما-[1] . و لاشك أن الساب و المُكفّر لهما أشد كفرا و ضلالا .

و الشاهد الثاني مفاده أن فقهاء أهل السنة بالقيروان أفتوا بكفر الشيعة الإسماعيليين العُبيديين ، و خرجوا عليهم ، و حملوا السلاح لقتالهم[2] . و الشاهد الثالث مفاده أن أعيان الحنابلة و الفقهاء و أهل الحديث ببغداد اجتمعوا بدار الخلافة سنة 460هجرية ، و أجمعوا على لعن الرافضة ، و أنهم كلهم كفار ، و من لا يُكفّرهم فهو كافر[3] .

و بذلك يتبين جليا أن كثيرا من أعيان أهل السنة قد كفروا الشيعة ، لتكفيرهم الصحابة و تضليلهم أياهم ، و طعنهم فيهم . فمن المتعصب المذموم في هذه الحالة ؟ ، لا شك أن كل طرف كفّر الآخر ، لكن شتان بين من كفّر الصحابة ظلما و عدوانا ، و بين من دافع عن الصحابة و كفّر من كفّرهم ، فالدين كفّروا الصحابة هم المتعصبون للباطل ، المخالفون للنقل الصحيح و العقل الصريح ، . و أما الذين نزّهوا الصحابة و انتصروا لهم إتباعا للشرع و للحقائق التاريخية الثابتة ، فهم المنتصرون للحق المتعصبون له ، فتعصبهم محبوب ممدوح ، و تعصب هؤلاء-أي الشيعة- مُنكر مذموم ، لأن الله تعالى شهد لصحابة رسوله-عليه الصلاة و السلام- بالإيمان و العمل الصالح ،و بالجنة و النصرة في الدنيا و الآخرة ، و هم -أي الشيعة- خالفوا كلام الله تعالى و جعلوه وراء ظهورهم ، و سبوا الصحابة و كفّروهم ، إتباعا لأهوائهم و ظنونهم ، و مفتريات الكذابين من سلفهم من السبئية و الرافضية ، فويل

---

[1] الصواعق المحرقة ، ج 1 ص: 145 .

[2] القاضي عياض: ترتيب المدارك ، ج 2 ص: 76 .

[3] المنتظم ، ج 8 ص: 248 .

لهم مما افتروا ، و ويل لهم مما كتبوا من أباطيل و أكاذيب عن الصحابة ، و الله تعالى قال فيهم ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ - سورة التوبة / 100 - ، فالله سبحانه قد شهد لهم بالجنة و الرضوان ،و هؤلاء الضالون سبوهم و كفّروهم !! .

كما انه سبحانه وعدهم –أي الصحابة– بالنصر و التمكين ، و قد تحقق على يدهم ، في قوله سبحانه : ((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) - سورة النور / 55 - و هذا الوعد تحقق بناء على شروط اشترطها الله تعالى على الصحابة ، و هي الإيمان ، و العمل الصالح ، و عدم الإشراك بالله ، فتحقق النصر على أرض الواقع ، ففتح الصحابة الفتوحات و بنوا دولة الإسلام ، و نشروا التوحيد و العدل ، فدل ذلك على أنهم كانوا مؤمنين صالحين زمن رسول الله و بعده عليه الصلاة و السلام .

و ثانيا : إن من مظاهر التكفير و التضليل أيضا : التكفير المتبادل بين الطوائف السنية ذاتها ، فهي أيضا كفّرت بعضها بعضا بسبب التعصب المذهبي الذي جرّها إلى التكفير و التضليل ، و الشواهد الآتية تُثبت ذلك بوضوح ، أولها ما ذكره الحافظ أبو نصر السجزي الحنفي(ت 444ه) من أن أبا الحسن الأشعري و أصحابه جعلوا عوام المسلمين –الذين لا يعرفون الله بالأدلة العقلية– ليسوا مؤمنين في الحقيقة ،و إن جرت عليهم أحكام الشريعة[1] . و ثانيها ما رواه المؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت597ه) ، من أن المتكلم

---

[1] السجزي : رسالة السجزي إلى أهل زبيد في مسألة الحرف و الصوت ، ص: 50 .

أبا ذر الهروي الأشعري (ت قرن: 5ه) كان يعتقد كفر المحدث ابن بطة العكبري الحنبلي[1] .

و ثالثها ما قاله الحافظ أبو نصر السجزي في مسألة كلام الله تعالى ، فإنه قرر إن من قال بمقالة أبي الحسن الأشعري في القرآن الكريم[2] ، فهو كافر بإجماع الفقهاء[3] . و الشاهد الرابع ما ذهب إليه ابن حزم الظاهري ، فإنه كفّر من يقول بمقالة الأشعري في كلام الله تعالى ، و جعلها من أعظم الكفر ، و هي مقالة مخالفة للقرآن و تكذيب لله تعالى[4] .

و الشاهد الخامس يتعلق بالفقهاء في دولة المرابطين بالمغرب و الأندلس (451-541ه) فإنهم كفروا كل من ظهر منه الخوض في شيء من علم الكلام[5] . و حكمهم هذا مبالغ فيه جدا ، و لا يصح على إطلاقه ، لأن علم الكلام فيه الضار و النافع ، و الحق و الباطل ، و ليس كل من خاضه هو كافر بالضرورة ، و فد تعاطاه علماء كبار لم تكفرهم الأمة و لهم لديها شأن كبير ، منهم : أبو الحسن الأشعري، و أبو بكر الباقلاني ، و أبو بكر بن العربي، و ابن عقيل الحنبلي، و القاضي أبو يعلى الفراء ، و ابن تيمية ، و ابن قيم الجوزية ، و غير هم كثير .

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 7 ص: 114 .

[2] تدعي الأشعرية و الكلابية أن القرآن الكريم ليس كلام الله حقيقة ، و إنما هو حكاية و عبارة عن كلام الله ، بعبارة جبريل أو محمد . و لا شك أن هذا زعم باطل لا دليل عليه من النقل و لا من الشرع ، و للتوسع في ذلك أنظر كتابنا : الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث .

[3] السجزي: المصدر السابق ، ص: 15 .

[4] ابن حزم ، الفصل ، ج 3 ص: 4 ، 5 ، ج4 ص: 159 .

[5] عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، حققه سعيد العريان ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة الإستقامة ، 1368 ، ج1 ص: 172 .

و الشاهد السادس ما حدث بين الحنابلة و الأشاعرة ببغداد – على إثر فتنة ابن القشيري– إذ أقدم فقيه أشعري من المدرسة النظامية ، على تكفير الحنابلة سنة 470 هجرية ، فأدى ذلك إلى وقوع فتنة دامية بين الطرفين[1] .

و الشاهد السابع يتعلق بالواعظ أبي بكر البكري المغربي ، فإنه لما وعظ بجامع المنصور ببغداد سنة 475 هجرية ، كان مما قاله إنه مدح أحمد بن حنبل ، ثم ذكر قوله تعالى: ﴿ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ - سورة البقرة/102- ، ثم قال : ما كفر أحمد بن حنبل ، و إنما أصحابه[2] ، أي أنهم كفروا .

و الشاهد الثامن يخص موقف محمد بن تومرت المصمودي الأشعري(ت 524ه) ، من المغاربة المخالفين له في المذهب –كانوا على مذهب السلف– ، فقد كفّرهم و ضللهم ، و استباح أموالهم و دماءهم[3] .

و الشاهد التاسع يتعلق بما حدث بين الصوفي المتكلم نجم الدين الخبوشاني الأشعري(ت587ه) و الحنابلة و أهل الحديث بمصر من نزاع و تناحر و تعصب ، فقد كان يُكفّرهم و يُكفّرونه . و هو الذي نبش قبر المحدث ابن الكيزاني المصري المدفون بجانب قبر الشافعي، فنبشه و وصفه بالزندقة ، بقوله : ((لا يكون صديق و زنديق في موضع واحد))[4] .

---

[1] الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 312،313 . و ابن كثير: البداية ، ج 12 ص: 117 .

[2] ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ، ج 2 ص:185 .

[3] الذهبي: السيّر ، ج19 ص: 646 .و السلاوي : الاستقصاء، ج 1 ص: 16، 196 . و ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج 11 ص: 478 .

[4] ابن تغري بلدي: النجوم الزاهرة ، ج 6 ص: 115–116 . و السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 7 ص: 15 .

و الشاهد العاشر يتعلق بما كان يحدث بين المتكلم فخر الدين الرازي (ت 606ه) و طائفة الكرّامية المجسمة ببلاد خُراسان ، من مناظرات و خصام و سباب ، و قد كفّر كل منهما الآخر[1] .

و الشاهد الحادي عشر يتعلّق بما حدث للحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي(ت600ه) ، فإنه لما أظهر مذهبه في صفات الله تعالى أنكر عليه طائفة من الأشاعرة ، و رفعوا أمره إلى ولي الأمر بدمشق (سنة 596هـ) ، و ناقشوه في مذهبه ، فلما أصر عليه كفّروه و بدّعوه[2] .

و الشاهد الثاني عشر يخص الفقيه تقي الدين عبد الساتر بن عبد الحميد المقدسي الحنبلي(ت679ه) ، فقد كانت فيه حزبية و تحرّق على طائفة الأشاعرة ، فناظرهم و كفّرهم ، فرموه هم أيضا بالتجسيم في موقفه من صفات الله تعالى[3] .

و الشاهد الثالث عشر يتعلّق بالشيخ تقي الدين بن تيمية ، فإنه لما أظهر مذهبه في صفات الله تعالى على طريقة السلف و أهل الحديث تألّب عليه جماعة من الأشاعرة و رفعوا أمره إلى السلطان ،ثم انتهى أمره إلى قضاة المذاهب الأربعة ، فحكم عليه القاضي المالكي ابن مخلوف بالسجن و الكفر[4].

و هذا القاضي–أي ابن مخلوف– قال فيه الشوكاني : كان جاهلا غبيا ((من الشياطين المتجرئين على سفك دماء المسلمين ، بمجرد أكاذيب ... و ناهيك بقوله إن هذا الإمام–أي ابن تيمية– قد استحق القتل ، و ثبت لديه كفره ، و لا يساوي شعرة من شعراته، بل لا يصلح أن يكون شسعا لنعله . و ما

---

[1] الذهبي: العبر ، ج5 ص: 18 . و ابن الأثير : الكامل ، ج 10 ص: 262 .

[2] الذهبي: السير، ج 21 ص: 446 .

[3] الذهبي: العبر ، ج 3 ص: 340 .

[4] الشوكاني: البدر الطالع ، ج1 ص: 67 .

زال هذا القاضي الشيطان يتطلّب الفرص التي يتوصل بها إلى إراقة دم هذا الإمام –أي ابن تيمية– فحجبه الله عنه ، و حال بينه ، و الحمد لله رب العالمين))[1] .

و الشاهد الرابع عشر مفاده أن الواعظ إبراهيم الحلواني الشافعي(ت780ه) كان له مجلس بجامع الأزهر يقرأ فيه صحيح البخاري، فجاءه ذات يوم رجل بكتاب فيه مناقب الشافعي ، و قال له : أمرك القاضي برهان الدين بن جماعة الشافعي بقراءة الكتاب على الناس ، فكان مما قرأه عليهم أن رجلا رأى النبي–عليه الصلاة و السلام– في المنام و هو يقرأ قوله تعالى ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾–سورة الأنعام / 89 – ، فلما قرأ ((فإن يكفر بها هؤلاء)) ، أشار إلى الإمام أبي حنيفة و أصحابه –أي كفّرهم–، و أشار ببقية الآية إلى الإمام الشافعي و أصحابه–مدحا و تعصبا لهم– ، فشكاه بعض الحنفية إلى قاضيهم–أي قاضي الحنفية– ، فعزّره و سجنه[2] .

و الشاهد الخامس يتعلق بالفقيه الحنفي العلاء بن محمد العجمي(ت814ت) ، كفّر الصوفي الاتحادي محي الدين بن عربي(ت 638ه) ، و بدّع تقي الدين بن تيمية و كفّره هو أيضا ، و قال إن من سماه شيخ الإسلام كافر مثله ، فرد عليه الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي(ت قرن:9ه) في كتاب سماه : الرد الوافر على من زعم أن من أُطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام كافر ، جمع فيه العلماء الذين سموا ابن تيمية بشيخ الإسلام ، من معاصريه ، من مختلف المذاهب ما عدا المذهب الجنبلي ، و ذكر فيه كثيرا

---

[1] نفسه ، ج1 ص: 67 .

[2] ابن حجر : إنباء الغمر ج1 ص: 70 .

من مناقبه ، ثم أرسل نسخة منه على القاهرة ، فاستحسنه جماعة من أعيان علماء مصر ، كابن حجر ، و علم الدين البلقيني[1] .

و الشاهد السادس مفاده أن الشاعر السراج الحمصي(ت قرن: 9ه) نظم قصيدة انتصر فيها لابن تيمية ،و كفّر فيها من كفّره ، فغضب الفقيه محمد بن زُهرة الدمشقي الشافعي(ت848ه) ، و تصدى له و كفّره ، – أي كفّر السراج الحمصي– ، فوقف الناس بجانب ابن زهرة ، حبا و تعصبا ، فاضطر السراج الحمصي إلى الفرار من بلده[2] .

و آخرها– أي الشاهد السابع عشر– يتعلق بالفقيه المفسر البرهان بن عمر البِقاعي الشافعي(ت885ه) ، قال بكفّر الصوفيين الاتحاديين : عمر بن الفارض (ت 633ه) و محي الدين بن عربي (638ه) ، و ألف فيهما كتابا سماع :تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض و ابن عربي ، فانتقده كثير من أهل العلم ، و تناولوه بالألسنة و الردود ، منهم : جلال الدين السيوطي (ت 911ه) ، و إبراهيم بن محمد الحلبي ، فألف الأول كتاب عنوانه : تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي. و ألف الثاني كتابا سماه : تسفيه الغبي في تكفير ابن عربي[3] .

و أما التضليل المتبادل بين السنيين فهو أيضا كانت سوقه رائجة ، بسبب التعصب المذموم ، في عصر سيطر عليه التقليد و العصب المذهبيين ، فمن ذلك ، الشواهد الآتية : أولها يتعلق بموقف الحافظ أبي نصر السجزي (ت444ه) من أئمة الكلابية و الأشعرية الأوائل ، كابن كلاب ،و أبي العباس القلانسي ،و أبي الحسن الأشعري ،و ابن مجاهد البصري، و أبي بكر

---

[1] الشوكاني: المصدر السابق ، ج 2 ص: 261 .

[2] نفس المصدر ، ج2 ص: 277 .

[3] ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج 9 ص: 510 . و حاجي خليفة : كشف الظنون ،بيروت ، دار الكتب العلمي' 1992ه ج 1 ص: 404 .

الباقلاني ، فإنه جعل كل هؤلاء من أئمة الضلال و ألحقهم بالمعتزلة ، لأنهم يدعون الناس إلى مخالفة السنة ، و ترك الحديث ، و ضررهم –عند السجزي– أكثر من ضرر المعتزلة[1] .

و ثانيها ما قاله ابن حزم عن الأشاعرة في موقفهم من كلام الله تعالى ، فعدّ مقالتهم فيه ضلالا و استهزاء بآيات الله ، و سخرية بالمسلمين[2] . و ثالثها ما كتبه علماء الأشاعرة في رسالتهم إلى الوزير نظام الملك بسبب فتنة ابن القشيري سنة 469 هجرية ، فكان مما وصفوا به الحنابلة ، إنهم تمادوا في ضلالهم ،و أصروا على جهالتهم[3] .

و الشاهد الرابع يتعلق بالمتكلم أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي البغدادي (ت 513ه) ، فإنه عدّ مقالة الأشاعرة في كلام الله تعالى ، ضلالة و بدعة و خطرا على المسلمين[4] . و الشاهد الخامس هو إن الحافظ عبد الغني المقدسي(ت600ه) ، لما تألب عليه جماعة من الأشاعرة و كفّروه و اتهموه بالتجسيم ، أصرّ هو على مذهبه و ضللهم كلهم[5] .

و آخرها –أي الشاهد السادس– يتعلق بالفقيه الموفق بن قدامة المقدسي (ت620ه) ، فإنه ألحق الأشاعرة بالمبتدعة ، و شبههم بالزنادقة – في موقفهم من كلام الله – بقوله: ((و لا نعرف في أهل البدع طائفة يكتمون مقالتهم ، و لا يتجاسرون على إظهارها ، إلا الزنادقة و الأشعرية ، رغم أنهم

---

[1] رسالة السجزي ، ص: 57 .

[2] الفصل في الملل ، ج 4 ص: 160 .

[3] ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص: 311 .

[4] ابن عقيل : الرد على الأشاعر ، نشرته مجلة نشرة الدراسات الشرقية ، المعهد الفرنسي بدمشق، العدد 24 1971، ، ص: 86 .

[5] الذهبي: السيّر ، ج 21 ص: 464 .

هم ولاة الأمر و أرباب الدولة ، و مع ذلك لا يُظهرون مقالتهم لعامة الناس))[1].

و بذلك يتبين مما ذكرناه أن أهل السنة هم أيضا فرّقتهم الخلافات الأصولية و الفروعية ، و قسّمتهم إلى طوائف متناحرة متنازعة ، فتبادلت التكفير و التضليل و التبديع ، انتصارا لمذاهبها و تعصبا لها و على خصومها.

و ثالثا فإنني أشير هنا إلى أن التكفير و التضليل لم ينحصر بين الشيعة و السنة ، و لا بين السنيين أنفسهم ، و إنما حدث أيضا بين المعتزلة و أهل السنة ، و بين الخوارج و السنيين ، فالمعتزلة كفّروا من خالفهم في أصولهم كمسألة الصفات و كلام الله ؛ فردّ عليهم أهل السنة بالتكفير هم أيضا ، بسبب انحرافهم عن الشرع في مسألة الصفات و كلام الله تعالى[2] .

و أما الخوارج فقد ظهر تطرفهم و تعصبهم مبكرا ، عندما كفّروا عليا ، و عثمان ، و الحكمين عمرو بن العاص و أبا موسى الأشعري ، و أصحاب الجمل ، و كل من رضي بتحكيم الحكمين ، كما أنهم كفروا أيضا مرتكب الذنوب[3] -أي الكبائر- . و كان صاحب الحمار مخلد بن كِداد الخارجي الإباضي المغربي (ت 336ه) يُكفر أهل الملة ، و يسب علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-[4] . فرد عليهم أهل السنة بالتضليل و التكفير و التبديع ، بسبب

---

[1] ابن قدامة : مناظرة في القرآن ، ط1 ، الكويت ، مكتبة ابن تيمية ، 1990 ص: 58 .

[2] انظر-مثلا- : عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، ص: 114 و ما بعدها ، 357 . و ابن كثير : البداية ، ج 10 ص: 305 . و أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 37 ، 537 .

[3] عبد القاهر البغدادي: نفس المصدر ، ص: 13 .

[4] ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 7 ص: 18 .

تكفيرهم لكثير من الصحابة و جماهير الأمة ، و ما ارتكبوه في حق المسلمين من تقتيل و ترويع[1] .

و ختاما لهذا المبحث يتبين أن التعصب المذهبي أوصل الطوائف الإسلامية إلى التكفير و التضليل و التبديع ، و أذهب أخوتهم و وحدتهم .و قد أصاب الفقيه المجدد محمد بن علي الشوكاني عندما قال : ((ها هنا تُسكب العبرات ، و يُناح على الإسلام و أهله ، بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين ، من الترامي بالكفر لا لسنة ، و لا لقرآن ، و لا لبيان من الله ، و لا لبرهان ، بل لما غلبت مراجل العصبية في الدين ، و تمكن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين ، لقنهم إلزامات بعضهم لبعض ، بما هو شبيه الهباء في الهواء ، و السراب البقيعة ، فيا لله و للمسلمين ، من هذه الفاقرة التي هي من أعظم فواقر الدين و الرزية))[2] .

رابعا القتل و محاولات القتل :

أوصل التعصب المذهبي كثيرا من المتمذهبين المتعصبين إلى قتل غيرهم من الطوائف الأخرى ، انتصارا للمذهب و تعصبا على المخالفين ، و حوادث القتل ذات الصبغة المذهبية كثيرة ، منها الحوادث الآتية ، منها ما فعله الشيعة العُبيديون بالسنيين في دولتهم ، فكان ملكهم عبيد الله المهدي (267-322ه) مستحلا لدماء السنيين بالمغرب الإسلامي، حتى أنه كان يرسل أعوانه

---

[1] انظر مثلا : عبد القاهر البغدادي: المصدر السابق، ص: 84 ، 357 . و أبو يعلى الفراء: المعتمد في أصول الدين ، ص: 267 . و ابن مفلح المقدسي : الفروع ، ج 6 ص: 155 .

[2] الشوكاني: السيل الجرار ، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1405ه ، ج 4 ص: 584 .

إلى منازل فقهاء أهل السنة و أعيانهم ليذبحوهم في بيوتهم و على فرشهم[1] . و كان ملكهم عبد الله العاضد (555-567هـ) سبابا خبيثا إذا رأى سنيا استحل دمه[2] .

و من المغاربة الذين قتلهم عبيد الله المهدي: محمد بن موسى التمار القيرواني ضربه 200 سوط فمات . و المؤذن عمروس ، أُتهم بعدم الالتزام بآذان الشيعة ، فقطع لسانه و طيف به ثم مات . و منهم أيضا : ابن البرذون ، و ابن الهُذيل ـ قتلهما ثم صلبهما[3] .

و منهم أيضا القاضي محمد بن الحبلي (ت فرن:4هـ) فإنه عندما رفض أن يفطر يوم عيد الفطر لاعتماد الشيعة على الحساب لا على الهلال ، طلبه المنصور بن القائم العبيدي(ت341هـ) عندما سمع به ، فلما حضر قال له : ((تنصّل و أعفوا عنك ، فامتنع ، فأمر به، فعُلّق في الشمس إلى أن مات ، و كان يستغيث من العطش فلم يُسق ، ثم صلبوه على خشبة ، فلعنة الله على الظالمين))[4] .

و منهم أيضا الزاهد أبو بكر محمد النابلسي (ت 364هـ) فإنه عندما أُخذ إلى الحاكم الفاطمي أبي تمام المعز العبيدي(341-365هـ) ، قال له : بلغني أنك قلتَ لو أن معي عشرة أسهم لرميتُ الروم بتسعة ، و رميتُ المصريين بسهم . فقال : ما قلتُ هذا ، فظن المعز أنه رجع عن قوله ، فقال له : كيف قلتَ ؟ ، قال : قلتُ يَنبغي أن نرميكم بتسعة ، ثم نرميهم بالعاشر . فقال المعز : لما ؟ ، قال : لأنكم غيرتم دين الأمة ، و قتلتم الصالحين ، و

---

[1] أبو شامة المقدسي : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ،حققه إبراهيم الزئبق ، ط 1 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1997، ج 2 : 218 .

[2] الذهبي: السير ، ج 15 ص: 208 .

[3] القاضي عياض: ترتيب المدارك ، ترجمة أبي جعفر بن موسى التمار ، ج 2 ص: 96 .

[4] الذهبي: السير ، ج 15 ص: 374 .

أطفأتم نور الإلهية ، و ادعيتم ما ليس لكم . فأمر المعز بالتشهير به في اليوم الأول ، ثم ضُرب في اليوم الثاني بالسياط ضربا شديدا مبرحا ، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث ، فتولى سلخه رجل يهودي ، فكان يسلخه و أبو بكر النابلسي يقرأ القرآن ، فلما بلغ تلقاء قلبه طعنه بالسكين فمات -رحمه الله تعالى- ، و كان يُقال له الشهيد ، و إليه يُنسب بنو الشهيد بنابلس ، زمن الحافظ ابن كثير المُتوفى سنة774هـ [1].

و من قتلاهم أيضا : رجل سني بدمشق ، و ذلك أنه عندما كانت مدينة دمشق تابعة للعبيديين ، أقدم واليهم عليها : تموصلت البربري على قتل ذلك الرجل سنة 393هجرية ، و قبل قتله أُركب حمارا و طيف به ، و قيل : هذا جزاء من يُحب أبا بكر و عمر ، ثم قُتل[2] .

و ذكر الحافظ الذهبي أن الذين قتلهم الحاكم الشيعي عبيد الله المهدي و بنوه بلغوا : 4 آلاف سني ، قتلوهم في دار النحر ليردوهم عن الترضي عن الصحابة- رضي الله عنهم- فأبوا و اختاروا الموت ، و فيهم قال أحد الشعراء:

و أحل دار النحر في أغلاله + من كان ذا تقوى و ذا صلوات[3]

و من حوادث القتل أيضا : ما فعله شيعة قرامطة[4] البحرين بحجاج أهل السنة ، ففي سنة 294هجرية اعترض القرامطة طريق حجاج خُراسان –

---

[1] ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 11 ص: 284 .

[2] الذهبي: السير ، ج 15 ص: 131 .

[3] نفس المصدر ، ج 15 ص: 145 . و العبر في خبر من غبر ، ج 2 ص: 200 .

[4] هم شيعة رافضية إسماعيلية باطنية ، يُظهرون الرفض و يُبطنون الكفر ، و يقولون بالأئمة المعصومين . و سموا قرامطة نسبة لقرمط بن الأشعث ، و مؤسس دولتهم هو أبو سعيد الجنابي القرمطي . ابن الجوزي: المنتظم ، ج 5 ص: 110 و ما بعدها . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 61، 62 .

أثناء عودتهم– فقتلوا الرجال ، و سبوا النساء ، و أخذوا الأموال ، و قيل أنهم قتلوا منهم : عشرين ألف قتيل[1] .

و في سنة 317هجرية دخل القرامطة الحرم المكي بغتة ، و وثبوا على حجاجه قتلا و نهبا ، بداخله و ما حوله ،و رموا بالقتلى داخل بيت زمزم ، و دفنوا بعضهم في أماكنهم من الحرم . ثم قلعوا الحجر الأسود ، و أخذوه معهم إلى بلدهم بالبحرين، فبقي عندهم عشرين سنة ، ثم ردوه إلى مكانه سنة 339ه . و قُدر عدد الحجاج الذين قتلوهم داخل المسجد الحرام ب : 1700 قتيل ، و قتلوا أكثر من ذلك خارج مكة المكرمة[2] .

و منها أيضا –أي حوادث القتل– ما فعله الشيعة الإسماعيلّية الباطنية بأهل السنة ببلاد فارس و خُراسان ، من قتل و اغتيالات ، ما بين سنتي 483–654ه ، فقتلوا منهم كثيرا من العوام و العلماء و الأمراء[3] . فمن ذلك ما حدث للوزير السلجوقي نظام الملك (ت475ه) ، فقد رُوي أن أحد الباطنية الملاحدة تقدم إليه في زيٍ الصوفية ليكرمه ، فطعنه بسكين في قلبه فمات[4] . و نفس الأمر حدث للوزير السلجوقي مسعود بن علي ، فقد قتلته الباطنية الإسماعيلية سنة 596هجرية[5] ،

و من ذلك أيضا ، ما جرى للقاضي شيخ الشافعية أبي المحاسن عبد الواحد الروياني الطبري(ت501ه) ، فقد كان في مجلس علم بجامع مدينة آمل

---

[1] ابن الأثير : الكامل ، ج 6 ص: 433 . و ابن كثير : نفس المصدر ، ج 11 ص: 101 .

[2] ابن كثير: نفس المصدر ، ج 11 ص: 160، 161 . و الذهبي : العبر ، ج2 ص: 174 .

[3] الذهبي: السير ، ج 19 ص: 403، 404 .

[4] ابن كثير: المصدر السابق، ج 12 ص: 619 . و السبكي: طبقات الشافعية ، ج 7 ص: 297 . و ابن العماد الحنبلي: شذرات ، ج 5 ص: 364 .

[5] السبكي: نفس المصدر ، ج 7 ص: 297 .

، فلما فرغ منه ، قام إليه أحد الباطنية الإسماعيليين و قتله بسب التعصب في المذاهب[1] .

و من ذلك أيضا ما حدث لأهل السنة بمدينة كرمان ببلاد فارس ، و ذلك أنه عندما تمذهب ملكها تيران شاه السلجوقي(ت قرن: 6ه) بالمذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني قتل من أهل السنة 4 آلاف شخص ، تعصبا عليهم ، لكونهم سنيين[2] .

و من حوادث القتل أيضا : ما حدث لثلاثة من أعيان أهل السنة –على يد الشيعة– بمكة المكرمة ، و ذلك أنه في سنة 472ه ، وقع خلاف بين السنة و الشيعة ، فاتصل أحد الشيعة بأمير مكة الشيعي : محمد بن أبي هاشم (ت487ه) ، و قال له إن أهل السنة ينالون منا ، فاستدعى ثلاثة من أعيانهم – أي من السنة– ، و هم : هياج بن عبيد الشامي، و أبو الفضل بن قوام ، و ابن الأنماطي ، فضربهم ضربا مبرحا ، فمات الثاني و الثالث في الحال ، و مات الأول –أي هياج– بعد أيام ، و فيه قال أحد العلماء : ((لو ظفرت النصارى بهياج ، لما فعلوا فيه ما فعله به صاحب مكة ، هذا الخبيث)) ، الذي كان متعصبا سبابا ظالما[3] .

و آخرها–أي حوادث القتل على يد الشيعة– ما حدث للفقيه جمال الدين طاهر الهندي (ت 986ه) ، كان كثير المناظرة للشيعة لإرجاعهم إلى الحق ، و قد قهرهم في عدة مجالس ، و أظهر فضائحهم و كفرهم ، و جزم

---

[1] نفس المصدر ، : 19 ص: 262 . و ابن خلكان : وفيات العيان ، ج 3 ص: 199 .

[2] الذهبي: السير ، ج 19 ص: 404 .

[3] نفس المصدر ، ج 18ص: 394 . ز ابن تغري بلدي: النجوم الزاهرة ، ج5 ص: 109 ، 140 .

بخروجهم من الدين ، ثم سعى للقضاء علي مذهبهم نهائيا ، فاحتالوا عليه و قتلوه قبل أن يصل إلى مراده[1] .

و أما حوادث القتل-ذات الصبغة المذهبية- التي تمت على أيدي أهل السنة ، في قتلهم للشيعة و الصوفية المنحرفين ، فمنها الحوادث الآتية :

أولها ما رواه المؤرخ ابن الأثير من أن الشيعة قُتلت بجميع إفريقيا -أي بتونس- سنة 407 هجرية ، و ذلك أن حاكمها المعز بن باديس الصنهاجي مرّ راكبا ببعض شوارع القيروان و الناس يُسلّمون عليه و يدعون له ، فمر بجماعة فسأل عنها ، فقيل له : هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر و عمر ، فقال : رضي الله عن أبي بكر و عمر . فأسرعت العامة إلى مكان يجتمع فيه الرافضة ، و قتلوا منهم طائفة ، و قد تلقت العامة دعما من رجالات في الدولة . ثم انتقل القتل إلى جميع نواحي إفريقيا ، فقُتل من الشيعة خلق كثير ، و احرقوا بالنار ، و نُهبت ديارهم ، و قد لجأت طائفة منهم إلى جامع بمدينة المهدية ، فقُتلوا كلهم[2] .

و الثانية مضمونها أنه لما زالت دولة الشيعة البويهية -على أيدي السلاجقة- ، و فقد شيعة بغداد الدعم السياسي سنة 447 هجرية ، ألزمهم رئيس الرؤساء ابن المسلمة(ت450ه) التخلي عن شعاراتهم ، و أمر بقتل شيخهم أبي عبد الله بن الجلاب، لما كان قد تظاهر به من الرفض و الغلو فيه ، فقُتل على باب دكانه[3] .

---

[1] ابن العماد الحنبلي: شذرات ، ج 10 ص: 102 . و العيدروس عبد القادر : تاريخ النور السافر على أخبار القرن العاشر ، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1405ه ، ج 1 ص: 323 .

[2] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 8 ص: 114

[3] ا بن كثير : البداية ، ج 12 ص : 69 .

و الحادثة الثالثة مفادها أنه في سنة 494 هجرية أمر السلطان السلجوقي بركياروق بقتل الشيعة الباطنية الإسماعيلية ، فقام أهل إصبهان للإنتقام منهم –أي من الشيعة– فحفروا ((أخاديد أوقدت فيها النيران ، و جعلوا يأتون بهم و يلقونهم في النار ، إلى أن قتلوا منهم خلقا كثيرا))[1] .

و الحادثة الرابعة–في قتل السنة للشيعة– إنه في سنة 600 هجرية ، اكتشف أهل مدينة واسط بالعراق، وجود جماعة من الشيعة الباطنية ، فتصايحوا عليهم و طاردوهم ، و قتلوا طائفة منهم ،و كل من اكتشفوا تعاونه معهم[2] .

و الحادثة الخامسة تتعلق بالشيعي الزنديق حسن بن محمد السكاكيني (ت744ه) ، فقد شهد عليه جمع من الناس عند القاضي شرف الدين المالكي بأنه كفّر الشيخين أبي بكر و عمر –رضي الله عنهما– ، و قذف عائشة و حفصة–رضي الله عنهما– ، و أنه زعم أن جبريل كان مرسلا إلى علي فغلط فأوحى إلى محمد ؛ فبسبب هذه الكفريات و الضلالات حكم عليه القاضي بالقتل ، فقُتل سنة 744ه بدمشق[3] .

و الحادثة السادسة تتعلق بالشيعي علي بن أبي الفضل بن محمد(ت755ه)، فإنه دخل الجامع الأموي ، وسب الصحابة ، و لعن الشيخين و غيرهما ، فأُخذ إلى مجلس القضاة الربعة ، فناقشه الحافظ بن كثير ، و وجده ضالا منحرفا ، يعتقد أشياء في الكفر و الزندقة ، و في النهاية حكم عليه القاضي المالكي بالقتل ، فضُربت عنقه و حرّقته العامة سنة 755 هجرية، و

---

[1] الذهبي: السير ، ج 19 ص: 404 .

[2] ابن الأثير : المصدر السابق، ج 10 ص: 293 .

[3] ابن كثير : المصدر السابق، ج 14 ص: 211 .

طيف برأسه في البلد ، و نادوا عليه ((هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله))[1] .

و الحادثة السابعة تتعلق بالشيعي محمد بن إبراهيم الشيرازي (ت766ه) ، فإنه دخل الجامع الأموي بدمشق ، و سبّ الشيخين أبا بكر و عمر و لعنهما علانية ، فأُخذ إلى القاضي فاستتابه فلم يتب و أصر على معتقده ، فهجمت عليه العامة و انهالت عليه بالضرب ، فكان يسب الصحابة و يقول : كانوا على ضلالة . ثم أُعيد إلى القاضي ، و شهد عليه الناس بأنه ضلل الصحابة ، فحكم عليه القاضي بالقتل سنة 766ه ، فقُتل و أحرقته العامة[2] .

و آخرها -أي الحادثة الثامنة- تتعلق بفقيه الشيعة بالمدينة المنوّرة : عبد الوهاب بن جعفر الشامي ، فإنه أفسد عقائد كثير من الناس ، و أظهر شنيع الكفريات ، و سبّ الصحابة-رضي الله عنهم- ، فحكم عليه قاضي المدينة بضرب عنقه فقُتل[3] .

و أما الصوفية المنحرفون الذين قتلهم أهل السنة ، فسأذكر منهم اثنين ، الأول هو الحسين بن منصور الحلاج البغدادي(ت 309ه) ، أنكر عليه فقهاء بغداد ادعاءه للنبوة ، و الألوهية ، و الحلول، و جدوا ذلك في كتاب له ، فسُجن سنة 301 هجرية ، و بقيت قضيته مُثارة إلى سنة 309 هجرية ، حيث عُقد له مجلس بإذن من الخليفة العباسي المقتدر بالله ، حضره قضاة و علماء و رجال من الدولة ، منهم القاضي أبو عمر المالكي ، فانتهت محاكمته

---

[1] نفس المصدر ، ج 14 ص: 250 .

[2] نفس المصدر ، ج 14 ص: 310 .

[3] لم يذكر المؤلف اسم القاضي ، و لا سنة القتل. السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة اللطيفة ، ط 1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1993 ، ج 2 ص: 222.

بإصدار حكم الإعدام في حقه ، بموافقة جميع الحاضرين ، فضُربت عنقه سنة 309هجرية ببغداد أمام جمع من الناس[1] .

و الثاني هو الصوفي الاتحادي عثمان الدكاكي الدمشقي(ت 741هـ) ، أُدعي عليه أنه ادعى الألوهية ، و انتقص من الأنبياء ، و خالط الصوفية دعاة وحدة الوجود ، فأُخذ إلى مجلس القضاء في حضرة الأمراء ، و الشهود ، و القضاة ، و أُقيمت عليه الحجة ، و حكم عليه القاضي المالكي بضرب عنقه و إن تاب ! ، فقُتل سنة 741 هجرية ، و نُودي عليه : هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية[2] .

و تعليقا على ما ذكرناه أقول : أولا إن قتل أهل السنة للشيعة الذين سبوا الصحابة و كفّروهم ، و أصروا على ذلك ،و رفضوا التوبة عن ضلالهم ، هو عمل لا تعصب فيه-بالمعنى المذموم- ، و إنما هو انتصار للحق ، و إقامة للشرع ، لأن ما أظهره هؤلاء الشيعة هو هدم لدين الإسلام ، و تعد سافر على عقائد و ثوابت أهل السنة و مشاعرهم ، لا يُمكنهم السكوت عنه ، و عليهم أن يتصدوا له ، مع العلم أن القتل في مثل هذه الحالات معروف في التاريخ و الحاضر ، فإذا ما تعدي إنسان ما على مقدسات أمة و داس عليها علانية ، يكون قد اعتدى عليها ، و ارتكب جريمة كبرى في حقها ، و ما عليه إلا التهيؤ لقطع رأسه .

و ثانيا إن قتلهم للشيعة الباطنية لم يكن اعتداء عليهم ، و إنما هو حماية للدين و المجتمع ، و تصدٍ للخطر الداهم الذي كان يهدد الأمة آنذاك ؛ لأن هؤلاء الباطنية كانت لهم قيادات تجندهم و تدربهم ، و تبعثهم لقتل السنيين ، فقتلوا كثيرا منهم ، و قطعوا الطرق ، و نشروا الرعب في بلاد فارس و خُراسان ، و الشام و العراق ، و التف حولهم ((كل شيطان و مارق، و كل

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 139 ، 140 ، و ما بعدها .

[2] نفس المصدر ، ج 14 ص: 190 .

ماكر و متحيّل)) ، و هم الذين بدؤوا بالعدوان على أهل السنة ، هذا فضلا عن ضلالاتهم و كفرياتهم[1] .

و ثالثا إن قتلهم للشيعة العبيدية الإسماعيلية بإفريقية سنة 407 هجرية ، كان عملا له دوافع سياسية و مذهبية ، ساهمت فيه أطراف في السلطة و المجتمع ، و كانت لها أحقاد و تعصبات مذهبية موروثة منذ كانت الدولة العبيدية بالمغرب الإسلامي و ارتكابها للمجازر الرهيبة في حق أهل السنة . و مع ذلك فإن ما قام به عوام أهل السنة من قتل واسع للشيعة الإسماعيلية بتونس ، هو عمل فيه مبالغة في القتل و الانتقام ، لأننا إذا اعتبرنا العبيديين مرتدين كان من اللازم محاكمتهم و استتابتهم ، و إقامة الحجة عليهم أولا . و إذا اعتبرناهم بمنزلة أهل الذمة ، فلا يجوز قتلهم إلا بحق . لكن الأمر الذي حدث هو أن عوام أهل السنة قتلوا الشيعة بلا محاكة و لا تمييز ، و هذا عمل فيه ظلم كبير ، لأن عوام العبيديين كثير منهم أو معظمهم مغرر بهم ، فلو وجدوا من يُبين لهم ضلالهم ،و يأخذ بيدهم ، و يقف معهم ، و يُبين لهم حقائق المذهب السني ، فلربما تخلوا عن مذهبهم و تبنّوا المذهب السني .

و رابعا إن قتلهم للصوفيين الحلاج و الدكاكي هو عمل صائب ، و انتصار للحق و تعصب له ، و ليس تعصبا للباطل ، لأن ما أظهره هذان الرجلان هو هدم للدين من أساسه ، و اعتداء صارخ على المسلمين ، و هدم أيضا لمبادئ العقل ، لأن من يدعي أنه إله ، أو أن الله حلّ فيه ، أو أن الكون هو الله و أن الله هو الكون ، يكون قد أوجب على المسلمين قطع رأسه ، بعد مناظرته و استتابته ، و إقامة الحجة عليه ، و علاجه إن كان مريضا .

و أما محاولات القتل ذات الصبغة المذهبية التي حدثت بين الطوائف الإسلامية ، فمنها أن المحدث محمد بن علي الصوري البغدادي(ت 442ه) لما حل بالكوفة لسماع الحديث من بعض شيوخها ، و كان يُظهر السنة ، و

---

[1] الذهبي: السير ، ج 19 ص: 403، 404 .

يترحّم على الشيخين أبي بكر و عمر ، ثار عليه شيعة الكوفة ، و هموا بقتله ، التجأ إلى احد الشيعة العلوية ، فأجاره و حماه[1] .

و الثانية هي محاولة قتل الحفظ الخطيب البغدادي(ت 463ه) ، و ذلك انه لما ارتحل إلى دمشق و استقر بها ، و نشر فيها علمه ، و تكلّم فيه بعض الناس ، استغل أميرها[2] الرافضي المتعصب ذلك الظرف و أمر صاحب الشرطة– و كان سنيا– بأخذ الخطيب ليلا و قتله ، فاتصل به صاحب الشرطة و أخبره بما أمره به الأمير ، و قال له أنه لا يجد حيلة إلا أن يهرب منهم – أي من الشرطة– إلى دار الشريف ابن أبي الحسن العلوي ، و عندما يطلبونه و لا يجدونه يُرجعون إلى الأمير و يُخبرونه بذلك ، فلمّا نجحت الحيلة أرسل الأمير إلى العلوي يطلب منه تسليم الخطيب البغدادي، فقال له العلوي: ((أيها الأمير أنت تعرف اعتقادي فيه و في أمثاله ، و ليس في قتله مصلحة ، و هو مشهور في العراق ، و إن قتله يُؤدي إلى قتل جماعة من الشيعة ، و تخريب المشاهد)) ، فقال له الأمير : ما ذا ترى ؟ ، فاقترح عليه إخراجه من البلد ، فأخرجه من منه ، و توجه إلى مدينة صور[3] .

و آخرها –أي المحاولة الثالثة– ما حدث للقاضي الشافعي البهاء بن سيد الكل القفطي المصري(ت 697ه) ، فإنه كان يسكن بمنطقة مشحونة بالروافض ، فلما نصر السنة ، و تاب على يده بعض الرافضة ، و ألف كتابه النصائح في فضائح الرافضة ، هموا به ليقتلوه ، فلم يبلغوا مرادهم و حماه الله تعالى من مكرهم[4] .

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 143 .

[2] لم أتعرف عليه ، و كان ذلك زمن الدولة العبيدية ، عندما كانت دمشق تابعة لهم .

[3] الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج 3 ص: 1141 .

[4] حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 2 ص: 1955 . و ابن العماد الحنبلي: شذرات ، ج 7 ص: 768 .

و ما حدث لهؤلاء الثلاثة هو تعصب مذهبي واضح ، يندرج ضمن التعصب المذهبي بين الطائفتين السنية و الشيعية ، بسبب التناقض المذهبي القائم بينهما ،–على مستوى الأصول و الفروع– ،و هو الذي أوصلهما إلى اللعن و التكفير ، و الاقتتال الذي نتوسع فيه في المبحث الآتي :

خامسا : الفتن المذهبية بين السنة و الشيعة :

تُعد الفتن المذهبية بين السنة و الشيعة من أكثر مظاهر التعصب المذهبي بروزا و خطورة و مأساوية ، حدث خلالها خراب كبير ، و قتل كثير ، كان ذلك خلال العصر الإسلامي عامة ، و القرن الرابع و الخامس و السادس للهجرة خاصة . و قد أحصيتُ منها اثنتين و خمسين (52) فتنة[1] ، من بينها 42 فتنة حدثت في بغداد ، و الباقي (10) بمدن أخرى بالمشرق الإسلامي . و كثير منها اكتفت المصادر بالإشارة إليها من دون تفصيل لها ، و أخرى ذكرتها بشيء من التفصيل . فالتي أوجزتها كثيرا قالت فيها : و حدثت فيها شرور و خُطوب ، و قُتل فيها خلق كثير من الطائفتين المتنازعتين ، كما حدث ببغداد في السنوات الهجرية الآتية : 338، 340 ، 346 ، 348، 349، 351، 391، 408، 425، 432، 437، 439، 440 ، 445، 447، 487، 479، 480، 481 ، 486 ، 487، 581 [2] .

و أما الفتن المذهبية التي ذكرتها المصادر بشيء من التفصيل ، فسنذكر منها طائفة فيما يأتي إن شاء الله تعالى .

---

[1] سيأتي توثيقها عند التعرّض لها لاحقا ، إن شاء الله تعالى .

[2] أمثلا : ابن الجوزي: المنتظم ، ج 6 ص: 369، ج 7 ص: 19، ج 8 ص: 127 ، ج 9 ص: 26، 38 . و ابن كثير : البداية ، ج 11ص: 221، 232، 234 ، 236 ، 241 ، ج12 ص: 5، 6 ، 36 ، 56 ، 58 ، 64 ، 66 ، 134 ، 145 ، 147 . و ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج 4 ص: 2–2 . و ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ص: 18 ، ج 10 ص: 138 .

فمن الفتن التي حدثت في القرن الرابع الهجري بين السنة و الشيعة ، -بسبب التعصب المذهبي- ما حدث سنة 327هجرية ، عندما قصد قوم من الشيعة زيارة قبر الحسين بكربلاء ، فتبعهم جماعة من حنابلة بغداد ليمنعوهم من زيارته ، فحدثت بينهم فتنة ،و تدخلت الشرطة و قتلت اثنين من الحنابلة ، و جرحت بعضهم ، و أحرقت منازل آخرين ، و قبضت على بعضهم ، و حاصرت بيت رئيسهم أبي محمد البربهاري شيخ الحنابلة ، الذي تمكّن من الفرار [1] .

و الفتنة الثانية ما حدث سنة 363 هجرية ببغداد ، و ذلك أن الشيعة عملوا عزاء الحسين يوم عاشوراء ، فقاتلهم السنيون ، و أركبوا امرأة سموها عائشة ، و تسمى اثنان منهم بطلحة و الآخر بالزبير ، و قالوا نقاتل أصحاب علي ، فقُتل من الطرفين خلق كثير ، و حدث دمار كبير ، و لم تهدأ الفتنة إلا بتدخل الشرطة التي قتلت طائفة من الجانبين و صلبتهم ليرتدع أمثالهم . و فيهم قال الحافظ ابن كثير : ((و كلا الفريقين قليل عقل ، أو عديمه ، بعيد عن السداد))[2] .

و الفتنة الثالثة ما حدث سنة 381 هجرية ببغداد ، عندما أحيى الشيعة يوم غدير خم في 18 ذي الحجة من هذه السنة ، فاندلع بينهم و بين أهل السنة قتال ضار ، ألحق فيه السنيون بالشيعة خسائر كبيرة ، و أحرقوا أعلام حاكم بغداد الأمير الشيعي بهاء الدولة البويهي (379-4-3ه) ، فتدخل و قبض على

---

[1] التنوخي: نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة ، دار صادر، بيروت ، 1971 ، ج 2 ص: 232-233 . و مؤلف مجهول : كتاب العيون و الحدائق في معرفة الحقائق ، حققه قمر السعيدي ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، 1972 ، مج 4 ج 1 ص: 356 .
[2] ابداية ، ج 11 ص: 275 .

جماعة منهم بتهمة إشعال النار في رايات السلطان ، و صلبهم ليرتدع أمثالهم[1].

و أشير هنا إلى انه يجب علينا أن نقف برهة عند يوم غدير خُم الذي حدثت بسببه فتن كثيرة بين السنة و الشيعة ، فهذا اليوم مرتبط بحادثة غدير خُم ، نسبة لمكان يُدعى خُماء ، و خُم ، بين مكة و المدينة ، و فيها وقف رسول الله –عليه الصلاة و السلام – خطيبا ، فوعظ و ذكّر ،و حثّ على التمسك بالقرآن الكريم ، و من جملة ما قاله : ((أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)) . و قد جعل الشيعة هذا الحديث –أي حديث غدير خُم – عمدتهم في الإمامة ،و في جدالهم لأهل السنة ، و يزعمون أن الرسول–عليه الصلاة و السلام– قال أيضا :((من كنتُ ملاه فعلي مولاه)) ، و اللهم وال من والاه ، و عاد من عاداه ، و ((انصر من نصره))[2] .

و قد تنازع علماء أهل السنة في حديث المولاة بين مُنكر و مُصحح له أو لبعضه ، . فمنهم طائفة أنكرت الحديث كلية كالبخاري ، و إبراهيم الحربي ،و ابن حزم ،و عبد الله الزيلعي[3] ، و ذكره في الضعيف و الموضوعات محمد بن القيسراني ، و ابن الجوزي و الجوزقاني،و مقبل بن هادي الوداعي، و ابن تبيط ،و عمر بن عثمان[4] . و طائفة أخرى حسّنت

---

[1] نفس المصدر، ج 11 ص: 309 .

[2] ابن تيمية / مجموع الفتاوى ، ج 4 ص: 417 .

[3] ابن تيمية : منهاج السنة ، حققه محمد رشاد سالم ، ط1 د م ، مؤسسة قرطبة ، 1406 ، ج 7 ص: 319 . و عبد الله الزيلعي: نصب الراية ، حققه يوسف البنوري، مصر ، دار الحديث ، 1357ه ، ج 1 ص: 360 .

[4]انظر : القيسراني : ذخيرة الحفاظ ج 3ص: 3254، ج3 ص: 5555 .و ابن الجوزي: العلل ج 1ص: 356.و الذهبي : أحاديث مختارة من موضوعات ابن الجوزي و الجوزقاني، المينة المنوّرة ، مكتبة الدار 1404 ج1 ص:52 . و ابن تبسيط : نسخة الأشجعي في الأحاديث الموضوعة ،مصر دار الصحابة ج1ص:55.و الوداعي: أحاديث

الجزء الأول من الحديث ، و هو : ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) ، و أنكرت الجزء الثاني منه ، و قالت أن الناس زادوه ، و قال بذلك أحمد بن حنبل ،و الترمذي ،و ابن عدي ،و الذهبي[1]. و طائفة قليلة حسّنت الحديث كله ، كابن حبان ،و الضياء المقدسي[2] .

و قد ترجح لدي أن موقف الطائفة الثانية هو الصحيح ، لأن الجزء الأول الذي أثبتوه من الحديث ، لا يثير أية اعتراضات ، فهو يقرر الموالاة بين المؤمنين ،و هي ليست خاصة بعلي-رضي الله عنه- بل هي بين جميع المؤمنين ، فهي موالاة و ولاية حب و تعاون ، لقوله تعالى: ((و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض))[3] . و أما الجزء الثاني الذي أنكروه و قالوا أن الناس أضافوه ، فهو كلام منكر حقا ، يثير كثيرا من الاعتراضات ،و يتناقض مع أصول الدين و سلوكيات الصحابة مع علي . فمن ذلك أولا ، أن الجزء الثاني من الحديث يقول : ((اللهم وال من والاه ، و عاد من عاداه)) و هذا يعني أن الله تعالى يعادي طلحة و الزبير و عائشة -رضي الله عنهم- لمجرد أنهم حاربوا عليا ، و هذا كلام باطل من أساسه ، لأنه ثبت عن رسول الله -عليه الصلاة و السلام- أنه بشّر طلحة و الزبير بالشهادة و الجنة ،و ينطبق ذلك-أيضا- على زوجات النبي-صلى الله عليه و سلم- و من بينهن

معلة ج1ص:155.عمر بن عثمان،الوضع في الحديث ،دمشق ، مكتبة الغزالي ج2 ص:102 .

[1] الذهبي : سيّر أعلام النبلاء ج 5 ص: 415 . و احمد بن حنبل : فضائل الصحابة ، حققه محمد عباس ، ط1 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1983 .و المسند ج1 ص: 152 . و ابن عدي : المصدر السابق ج 3 ص: 80 . ابن تيمية : منهاج السنةج7ص:320.

[2] ابن حبان : صحيح ابن حبان ، حققه شعيب الأرناؤوط ، ط2 بيروت، مؤسسة الرسالة، 1993ج 15 ص: 375 . الضياء المقدسي : الأحاديث المختارة ، حققه عبد الملك بن دهيش ، ط1 مكة ، مكتبة النهضة الحدية' 1410ه ،ج2ص: 105 .

[3] سورة التوبة : 71 .

عائشة ، فهن أمهات المؤمنين بنص القرآن الكـريم ((النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم و أزواجه أمهاتهم)) - سورة الأحزاب/ 6- .

و ثانيا أن ذلك الجزء من الحديث يجعل قتلة عثمان و طائفة السبئية الذين كانوا مع علي ، يجعلهم من الذين يـواليهم الله تعـالى و لا يعـاديهم ، لمجرد أنهم كانوا مع علي ، رغم أنهم من القتلة و المنحرفين ، و هذا استنتاج باطل و مضحك ، سببه ذلك الجزء الباطل من الحديث .

و ثالثا أن ذلك الجزء من الحديث ((اللهم وال من والاه ، و عاد مـن عاداه)) ، قد قلب القاعدة الإيمانية ((الحب في الله و الـبغض فـي الله)) ، رأسا على عقب و جعلها ((الحب في علي و البغض في علـي)) ، و هـذا كلام باطل و شرك صريح .

و يرى شيخ الإسلام ابن تيمية ، أن ذلك الجزء من الحديث ، هو كذب بلا ريب ، لأن الحق لا يدور مع معين إلا النبي ، فلو كان علي بن أبي طالب على ما وصفه ذلك الجزء من الحديث ، لوجب إتباعه في كل ما قال ،و هـذا كلام غير صحيح لأن الصحابة نازعوه في مسائل فقهية كثيرة و لم يتبعـوه . كما أن تلك الزيادة مخالفة لأصل من أصول الإسلام ، عنـدما نصـت علـى معاداة من عادى عليا ، لأن القرآن الكريم قرر أن المؤمنين إخوة مع قتـال و بغي بعضهم على بعض[1] و بذلك يتبيّن مما ذكرناه أن الحديث لم يصح منـه إلا الجزء الأول فقط ،و أن الجزء الثاني باطل .

كما أنه لا يغيب عنا أن القرآن الكريم قد حسم مسألة الخلافة حسـما نهائيا ، فقد جعلها شورى بين المسلمين ، و أمرهم بطاعة إمامهم المُختار من بينهم دون تخصيص له ، و إن تنازعوا في شيء عليهم برده إلى الله و رسوله ، قـال تعـالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ - سـورة الشـورى / 38 - ،

---

[1] ابن تيمة: مجموع الفتاوى ، ج 4 ص: 414 .

و ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ - سورة آل عمران / 159 -

و ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ -النساء / 59 -. و بناء على ذلك فنحن نرفض أية رواية تخالف ما قرره القرآن الكريم في مسألة الإمامة ، و عليه فإن حديث غدير خُم هو من أكاذيب الشيعة بلا شك

مع العلم أن الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن غدير خُم ليس فيه حكاية ((من كُنتُ مولاه فعلي مولاه ، فاللهم وال من ولاه ....)) ، فلو كانت هذه الزيادات صحيحة لذكرها مسلم ، و حديثه فيه تذكير بأهل البيت، و ليس فيه تذكير بآل البيت ، فالآل أعم من الأهل ، و حتى إذا وسّعنا معنى الأهل ليشمل آل البيت كلهم ، فإن ذلك الحديث –أي حديث مسلم- يعم كل آل البيت و لا يخص عليا و آل بيته ، و آل البيت هم : زوجات الرسول ، و آل علي ، و آل عقيل ، و آل جعفر ، و آل العباس[1] .

و أشير هنا أيضا إلى أمر غاية في الأهمية ، هو أن الشيعة أقاموا مذهبهم على أحاديث باطلة رواها شيوخهم ، كمحمد بن يعقوب الكُليني (ت 329ه) ، فروى أحاديث و أخبارا كثيرة باطلة في كتابه الكافي[2] . و مروياتهم التي اختصوا بها لا وجود لها عند أهل السنة ، لكنهم كثيرا ما يُحاولون استخدام الأحاديث الضعيفة و الموضوعة- التي عند السنيين و تخدمهم – لمجادلة أهل السنة ، و إقامة الحجة عليهم . لكنهم –أي الشيعة- من جهة

---

[1] النووي: رياض الصالحين ، ص: 141 . و ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج4 ص: 418-419 .

[2] أنظر مثلا : ج 1 ص: 185، 187، 258 .

أخرى لا يستخدمون الأحاديث السنية الصحيحة ، و لا يتطرقون لها ، و لا يُؤمنون بها .

و الفتنة الرابعة ما حدث سنة 398هجرية ، حيث وقعت فتنة مدمرة بين السنة و الشيعة ، عندما ذهب أحد الهاشميين إلى فقيه الشيعة الإمامية : ابن المعلم بمسجد بحي الكرخ و سبّه ، فثار أصحابه و استنفروا أهل الحي و اتجهوا إلى القاضي أبي محمد الأكفاني ، و إلى شيخ الشافعية أبي حامد الإسفراييني ، لأخبارهما بما حدث، و أخذوا معهم مُصحفا زعموا أنه مصحف عبد الله بن مسعود ،. فجمع القاضي الأعيان ، و الفقهاء ، و القضاة ، و عرض عليهم المصحف ، فوجدوه يُخالف المصحف العثماني المتداول بين المسلمين ، فأشار الإسفراييني بحرقه ، فأُحرق بحضرة الشيعة ، فغضبوا غضبا شديدا ، و دعوا على من فعل ذلك و سبّوه ، ثم اتجهت جماعة منهم إلى بيت الإسفراييني لإيذائه ، فانتقل إلى دار أخرى ، فصاحوا –أي الشيعة- :يا حاكم يامنصور . يقصدون حاكم مصر الشيعي الإسماعيلي ، للتعريض بالخليفة العباسي ، فلما سمع بذلك الحليفة القادر بالله ، أرسل أعوانه لمساندة أهل السنة و الانتقام من الشيعة ، فحدثت بين الطائفتين شرور كثيرة ، و أحرقت دور عديدة بالكرخ . ثم أرسل الخليفة القادر الوزير عميد الجيوش لنفي فقيه الإمامية ابن المعلم ، فأخرجه من البلد ، ثم أعاده بعدما شُفع فيه . ثم مُنع القُصّاص من التعرض للذكر أو السؤال باسم أبي بكر و عمر ، و علي – رضي الله عنهم- ، و عاد الشيخ أبو حامد الإسفراييني إلى داره[1] .

و لم يذكر لنا الحافظ ابن كثير محتوى ذلك المصحف الذي زعمت الشيعة أنه مصحف عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه- ، و ليته ذكرنا لنا محتواه بالتفصيل-إن كان ذلك ممكنا- ، ليمكننا من معرفة ما فيه ، لكنه اكتفى بالإشارة إلى أن ذلك المصحف المزعوم يُخالف المصحف العثماني المتداول

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 339 .

بين الناس . و ذلك المصحف المزعوم يؤكد ما هو ثابت في مذهب الشيعة الإمامية من اعتقادهم بتحريف القرآن الكريم ، و أن قرآنهم يُخالف القرآن المنتشر في العالم اليوم . و من أراد التأكد من ذلك فليرجع إلى أهم كتاب عندهم ، و هو : الأصول من الكافي ، لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكُليني(ت329ه) [1] . هذا فضلا على أن القول بتحريف القرآن ، و تكفير الصحابة ، هو من ضروريات المذهب الشيعي الإمامي .

و أما زعمهم بأن ذلك المصحف هو للصحابي عبد الله بن مسعود ، – رضي الله عنه– ، فهو كذب مفضوح من مفترياتهم ، لأنه لم يكن لابن مسعود مصحف يُخالف المصحف العثماني أصلا ، و هذا ثابت في تاريخ القرآن الكريم ، الذي جُمع و وُحدت حروفه بإجماع من الصحابة [2] ، . و قد تكفّل الله تعالى بحفظه من الزيادة و النقصان ، و من التحريف و التزوير ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ سورة الحجر / 9 – ، و ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ سورة فصلت/42– ، ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ سورة هود / 1 – . و عليه فإن أية رواية تدعي تحريف القرآن الكريم ، فهي رواية باطلة، و مردودة على رواتها .

و الفتنة الخامسة ما حدث سنة 345هجرية ، بين السنة و الشيعة بمدينة أصفهان –ببلاد فارس– عندما أقدم بعض أهل مدينة قم – الموجودون بإصفهان– بسب الصحابة ، فثار عليهم أهل السنة بإصفهان ، و قتلوا منهم

---

[1] انظر مثلا : ج 1 صك 228 ، 239، 417 ، ج 2 ص: 619 .

[2] أنظ مثلا : البخاري : صحيح البخاري، حققه ديب البغا ، ط3. ، بيروت ، دار ابن كثير ، 1987، ج 3 ص: 1033، 1291، ج 4 ص: 1720 ، 1908 .

خلقا كثيرا ، و نهبوا أموالهم ، فغضب أمير البلد ركن الدولة الشيعي البويهي ، و صادر الإصفهانيين بأموال كثيرة ، و أعطاها للذين نُهبت أموالهم[1] .

و أما الفتن التي حدثت بن السنة و الشيعة خلال القرن الخامس الهجري ، فمنها ما حدث سنة 421 هجرية ، و فيها أحيت الشيعة عزاء عاشوراء ، فغلّقوا الأسواق و أعلنوا النوح و البكاء ، و علّقوا المسوح في الأسواق ، فتصدى لهم أهل السنة بالحديد ، و اقتتلوا اقتتالا شديدا ، أدى إلى قتل خلق كثير من الطرفين ، و حدثت بينهم خُطوب و شرور مستطيرة ، لم أعثر على تفاصيلها[2] .

و ثانيها ما حدث سنة 422 هجرية ببغداد ، عندما مرّ نفر من شيعة مدينة قم- ببلاد فارس- ببغداد في طريقهم إلى زيارة قبر علي بن أبي طالب ، و ابنه الحسين -رضي الله عنهما-، فتعرّض لهم جماعة من أهل السنة ببغداد و منعوهم من إتمام زيارتهم ، و قتلوا منهم ثلاثة[3] .

و الفتنة الثالثة حدثت هي أيضا سنة 422 هجرية ، و مضمونها أن تجمعا ضم السنة و الشيعة ، فصاح فيه السنيون بأبي بكر و عمر -رضي الله عنهما- فانزعج الشيعة من ذلك ، و نشب بينهما قتال بجانبي بغداد ، و تقوى أهل السنة و كانت لهم الغلبة ، و نهبوا حي الكرخ الشيعي ، و دور اليهود لأنهم نُسبوا إلى مساعدة الشيعة ، و لم تتوقف الفتنة إلا بعد خراب كبير و قتل كثير[4] .

و الفتنة الرابعة وقعت بين السنة و الشيعة ببغداد سنة 441 هجرية ، و ذلك أن السنيين طلبوا من الشيعة عدم النياحة على الحسين يوم عاشوراء ،

---

[1] ابن الأثير : الكامل ، ج 7 ص: 276 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 230 .

[2] ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 28 .

[3] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 7 ص: 356 .

[4] نفس المصدر ، ج 9 ص: 419 . و ابن كثير : المصدر السابق ، ج 12 ص: 31 .

فلم يستجيبوا لهم ، فنشب بينهم قتال عنيف ، قُتل فيه خلق من الفريقين . ثم بنى الشيعة سورا حول حي الكرخ غرب بغداد ، فتبعهم بعض أهل السنة ، و أقاموا حائطا حول سوق القلائين بالجانب الغربي من بغداد ، ثم هدّم الطرفان السورين بالطبول و المزامير و الإنشاد ، و الأشعار في مدح الصحابة و ثلبهم ، ثم هدأ الحال و توقفت الفتنة[1] .

و الغريب في الأمر هو أن الطرفين المتناحرين –أي السنة و الشيعة– تصالحوا سنة 442 هجرية ، و زاروا قبر علي و ابنه الحسين ، و ترحّموا على كل الصحابة بحي الكرخ[2] ، و هذا عند ابن كثير : ((عجيب جدا ، إلا أن يكون من باب التقية)) من طرف الشيعة[3] ، لأنهم الذين يعتقدون بالتقية و يسبون الصحابة ، فتظاهروا بالترحم عليهم تقية .

و مما يُثبت ذلك ما حدث في فتنة[4] عام 443 هجرية، فسرعان ما عاد الشيعة إلى معتقدهم ، فكتبوا على جدرانهم : محمد و علي خير البشر ، فمن رضي فقد شكر ، و من أبى فقد كفر . و معنى كلامهم هذا تكفير الصحابة و أهل السنة كلهم لأنهم لا يعتقدون ذلك . فأنكر عليهم أهل السنة ذلك ، و تجدد القتال بين الطائفتين ، و استمر من شهر صفر إلى ربيع الأول من نفس السنة ، و لما اشتد القتال حاول الخليفة القائم بأمر الله وقف القتال فلم يُفلح في مساعيه ، و اشتد القتال أكثر ، و انتقل إلى الجانب الشرقي من مدينة بغداد ، و نهب السنيون مشاهد الشيعة المقدسة ، و احرقوا كثيرا من قبورهم ، فردّ عليهم الشيعة بالمثل ، فهدّموا قبورا لهم ، و هموا بتدمير قبر الإمام أحمد بن

---

[1] ابن كثير : نفس المصدر ، ج 12 ص: 59 .

[2] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 143 .

[3] نفس المصدر ، ج 12 ص: 68

[4] هي الفتنة الخامسة ضمن فتن القرن الخامس الهجري .

حنبل ، فمنعهم نقيبهم خوفا من العواقب التي قد تنجر عن ذلك ، ثـم هـدأت الفتنة و مال الطرفان إلى الهدوء[1] .

و الفتنة السادسة تتعلق بما حدث بين السنة و الشيعة ببغـداد سـنة 44هجرية ، عندما أعاد الشيعة كتابة : محمد و علي خيـر البشـر ، علـى مساجدهم ن و أذنوا بحي على خير العمل ؛ فأنكر عليهم أهل السنة ذلـك ، و اندلع القتال بين الطائفتين ، فأحرقت الدور ، و قُتل من الجانبين خلق كثيـر ، من بينهم 30 امرأة بسبب الازدحام خوفا من النيران ، و قـد تسـلّط علـى الشيعة عيار-لص- سني يُعرف بالقطيعي ، فلم يقر لهم معه قـرار ، و قتـل أعيانهم جهارا و غيلة ، و كان في غاية البأس و الشجاعة و المكـر ، فكـان ذلك من جملة الأقدار على حد قول الحافظ ابن كثير[2] . و هنا توقفـت أخبـار هذه الفتنة ، و لم أعثر لها على أية أخبار أخرى .

و الفتنة السابعة وقعت سنة 465 هجرية ، بين السنة و الشيعة ببغداد ، فحدث فيها قتال شديد ، و قُتل فيها خلق كثير من الجانبين ، و اُحترق قسم كبير من حي الكرخ-حي الشيعة- ، فتدخّلت السلطة ببغداد و انتقمت للشـيعة من السنين ، فأخذت منهم أموالا كثيرة جزاء بما فعلوه بشيعة الكرخ[3] . و لـم تذكر المصادر-التي أطلعتُ عليها- سببا لهذه الفتنة ، و لا رد فعل أهل السنة تجاه إجراءات السلطة ضدهم ، مع العلم أن هذه الفتنة تندرج ضـمن النـزاع المستمر بين الطائفتين ، و القائم على التعصب المذهبي القائم بين الجماعتين .

و الفتنة الثامنة وقعت سنة 479 هجرية ، بين السنة و الشيعة ببغداد ، و فيها حدثت مصادمات عنيفة ، و نُهبت فيها الممتلكات مـن الطـرفين ، و

---

[1] ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ص: 69 . و ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 62 .
[2] ابن كثير : نفس المصدر ، ج 12 ص: 62، 63 . و الذهبي: العبر ، ج 3 ص: 205 .
[3] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 177 . و ابن كثير : نفـس المصـدر ، ج 12 ص: 106 .

يُروى أن بعض ممتلكات الشيعة التي أُخذت في هذه الفتنة من حي الكرخ- بالجانب الغربي من المدينة- كانت تُباع بالجانب الشرقي من بغداد ، و يُقال فيها : ((هذا مال الروافض ، و شراؤه و تملّكه حلال))[1] .

و الفتنة التاسعة حدثت بين السنة و الشيعة ببغداد سنة 282 هجرية ، و فيها شهدت المدينة حربا طائفية عنيفة مدمرة استمرت شهورا ، و سببها المباشر أن بعض أهل السنة هجموا على شيعة الكرخ ، فقتلوا رجلا و جرحوا آخر ، فرفع أهل الحي المصاحف ، و أخذوا ثياب الرجلين ملطخة بالدماء إلى دار الوزير أبي الفتح كمال الدين الدهستاني و استغاثوا به ، فتدخل و أصلح بين المتخاصمين ، ثم غادر بغداد لاستقبال السلطان السلجوقي ملكشاه ، فعاد الطرفان إلى التخاصم و انتهى بهم الأمر إلى الاقتتال ، و عجزت الشرطة في وضع حد له ، فوقع خراب كبير ، و قُتل نحو 200 شخص ، و فُقد الأمن ،و أصبح القوي يقتل الضعيف و يأخذ ماله دون رادع ، و في هذا الظرف خرج الفقيه المتكلم أبو الوفاء بن عقيل (ت 513ه) إلى المسجد و ألقى خطبة تحدث فيها عن أوضاع البلد السيئة التي آل إليها ، و أبدى تخوّفه و حزنه من ارتفاع راية الشيعة الذين سبوا الصحابة ، و النبي-عليه الصلاة و السلام- و أزواجه ، على مرأى و مسمع من علمائهم[2] .

و عندما لم تتوقف هذه الفتنة- التي دامت شهورا – أرسل السنيون وفدا منهم إلى الشيعة قرأ عليهم منشورا من ديوان الخلافة طالبهم فيه بلزوم إتباع السنة ، فأذعنوا و كتبوا على مساجدهم : خير الناس بعد الرسول-صلى الله عليه وسلم- الخلفاء الأربعة بالترتيب : أبو بكر ، و عمر ، و عثمان ، و علي[3] -رضي الله عنهم- .

---

[1] ابن الجوزي: نفس المصدر ، ج 9 ص: 29 .

[2] نفس المصدر ، ج 9 ص: 49 .

[3] نفسه ، ج 9 ص: 49 .

و واضح من ذلك أن الشيعة لم يتراجعوا عن موقفهم في هذه الفتنة إلا بعدما تأكدوا أن مواصلة القتال ليس في صالحهم ، و أنـه مـن الضـروري النزول عند رغبة أهل السنة ، فتظاهروا بالموافقة و التراضي عـن الخلفـاء الأربعة ، تقية منهم و استمالة للسنيين . و هو أمر مكشوف لا ينطلـي علـى أحد ، فمن قبل سبوا هؤلاء و كفّروهم ،و الآن يترضون عنهم !! .

كما تُعد هذه الفتنة من اخطر الحوادث الدامية التـي شـهدها النـزاع السني الشيعي ببغداد ، طيلة القرنين الرابع و الخامس الهجـريين ، بسـبب التعصب المذهبي بين السنة و الشيعة ، و حرص كل طرف علـى تصـعيد النزاع بينهما ، و استغلال الفرص المناسبة للانقضاض على الآخر و الانتقام منه .

و الفتنة العاشرة حدثت بمدينة واسط بالعراق ، بين السنة و الشـيعة ، سنة 407 هجرية ، نهب خلالها أهل السنة أحياء الشيعة و أحرقوها ، و هرب أعيانهم من العلويين خارج المدينة طلبا للنصرة من بعض أمرائهم [1] . و لـم اعثر على تفاصيل أخرى عن أسباب هذه الفتنة و حوادثها و نهايتهـا ، فقـد أوجزها ابن الجوزي و لم يتوسع فيها .

و الفتنة الحادية عشرة حدثت بمكة المكرمة زمن الخليفـة العباسـي المقتدي بأمر الله (467-487هـ) ، و ذلك أن والي مكة محمد بن جعفر عندما أعاد الخطبة للعباسيين ، و أرسل إليه المقتدي بمال و منبر عليه اسمه كُتـب بالذهب ، حدثت فتنة بين السنة و الشيعة ، فكُسر المنبـر و أُحـرق ، و لـم تتعطل الخطبة للعباسين ، التي استمرت إلى سنة 486 هجرية ، ثـم انقطـع بموت السلطان السلجوقي ملكشاه[2] . و يبدو من هذه الفتنة أن الخطبـة بمكـة

---

[1] نفس المصدر ، ج 7 ص: 283 .

[2] القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، ط 2 ، الكويت ، مطبعة حكومة الكويت ، ج 2 ص: 6 .

ربما كانت لحكام مصر الشيعة الإسماعيليين ، لذا رفض شيعة مكة عندما حُولت الخطبة للعباسيين ، و دخلوا في مصادمات مع السنيين الموالين للعباسيين ، . و واضح أيضا أنهم –أي شيعة مكة– تمكنوا في النهاية من استعادة الأمر و قطع الخطبة للعباسيين بدافع من التعصب المذهبي القائم بين الطائفتين السنية و الشيعية .

و الفتنة الثانية عشرة – أي الأخيرة من فتن القرن الخامس الهجري– ما حدث بمدينة حلب بين السنة و الشيعة من مصادمات ، عندما اختلف أحد الشعراء مع الأديب السني سالم الكفرطابي(ت465هـ) ، فوضع ذلك الشاعر أبياتا شعرية على لسان الكفرطابي فيها بعض الذم للشيعة ، فتعرّضوا له–أي للكفرطابي– بالمكروه ، فأدى ذلك إلى حدوث فتنة بين السنة و الشيعة[1] لم أعثر لها على تفاصيل أخرى .

و أما الفتن المذهبية التي حدثت في القرن السادس الهجري بين السنة و الشيعة ، فمنها فتنة سنة 569 هجرية ببغداد ، حدثت بين شيعة الكرخ و سنة حي باب البصرة ، و بدايتها أنه لما زاد ماء نهر دجلة سدّ الشيعة الماء عنهم ، فغرق مسجد فيه شجرة ، ثم انقلعت الشجرة ، فصاح الشيعة : ((انقلعت الشجرة ، لعن الله العشرة)) –أي الصحابة العشرة المبشرون بالجنة رضي الله عنهم– ، فأنكر عليهم أهل السنة ما قالوه ، و دخل الطرفان في مواجهات مسلحة ، فأمر الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله (566–575هـ) أحد أعوانه الشيعة بالتدخل ، فوقف بجانب الشيعة و مال على أهل السنة ، و أراد دخول محلتهم ، فمنعوه و أغلقوا الأبواب و وقفوا على سور الحي ، فأراد إحراق أبوابه ، فلما سمع به الخليفة أنكر عليه ما أراد فعله ، و أمره بالعودة . لكن الفتنة لم تتوقف بين الطائفتين ، و استمرت أسبوعا ثم توقفت

---

[1] ابن جرادة : بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج 9 ص: 1456 .

دون توسط من السلطة[1] . و لم أعثر لها على أخبار أخرى فيما يخص خسائرها و كيفية توقفها.

و الفتنة الثانية حدثت سنة 582 هجرية ببغداد ، أحيى فيها شيعة الكرخ يوم عاشوراء ، فناحوا ، و سبوا الصحابة ، و كانوا يصيحون : ((ما بقي كتمان)) ، و تلقوا الدعم من بعض رجالات الدولة ، فتصدى لهم أهل السنة ، و دخل الطرفان في مصادمات عنيفة دامية ، قُتل فيها خلق كثير من الجانبين[2] .

و الفتنة الثالثة وقعت بمدينة طوس ببلاد فارس سنة 510 هجرية ، و فيها أحيى شيعة طوس يوم عاشوراء بمشهد إمامهم علي الرضا ، فتصدى لهم أهل السنة لمنعهم ، و دخل الطرفان في مصادمات دامية ، قُتل فيها خلق كثير[3] .

و الفتنة الرابعة حدثت سنة 554 هجرية بمدينة أسترباذ ببلاد فارس بين العلويين و أتباعهم من الشيعة ، و بين الشافعية و أعوانهم ، و سببها أن الواعظ محمد البروي وصل على مدينة أسترباذ و عقد بها مجلس وعظ حضره القاضي الشافعي سعيد بن محمد بن إسماعيل ، فثار الشيعة على الشافعية و من تبعهم ، و حدثت فتنة كبيرة انتصر فيها الشيعة ، و قُتل من الشافعية جماعة ، و هرب القاضي و نُهبت داره و دور أتباعه ، و جرى للشافعية أمور شنيعة كثيرة . فلما سمع حاكم البلد الشيعي شاه ما زندار بما حدث ، استعظمه و انكر على العلويين فعلتهم ، –مع شدة تشيعه– و قطع

---

[1] ابن الأثير : الكامل ، ج 10 ص:

[2] الذهبي: العبر ، ج4 ص: 247 .

[3] ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 12 ص: 179 . .

عنهم الجرايات التي كانت لهم ، و فرض على العامة الجبايات و المصادرات ، و عاد القاضي سعيد بن محمد إلى منصبه و سكنت الفتنة[1].

و الفتنة الخامسة وقعت سنة 568هجرية بمدينة واسط بالعراق ، حدثت عندما عمل الشيعة عزاء أحد أعيانهم المتوفين ، فأظهر أهل السنة الشماتة ، فانزعج الشيعة و دخل الطرفان في مصادمات دامية قُتل فيها جماعة من الطرفين[2] . و هذه الفتنة سببها العميق هو التعصب المذهبي القائم بين الطائفتين ، و الذي تعود جذوره قرون خلت .

و آخرها – أي الفتنة السادسة من فتن القرن السادس الهجري– حدثت بمدينة الري سنة 582 هجرية ، و ذلك أنه لما ماتَ حاكم البلد البهلوان محمد بن أيدلكز حدثت فتنة كبيرة بين السنة و الشيعة ، فخُرّبت المدينة و ما جاورها ، و هجرها أهلها هروبا من الفتنة[3] .

و أشير هنا إلى أن مدينة الري كانت مسرحا لفتن مذهبية متعصبة كثيرة ، جرّت على البلاد و العباد الخراب و الهلاك . فقد روى الرحالة المؤرخ ياقوت الحموي (ت626ه) أن مدينة الري كانت مدينة عظيمة في العصر الإسلامي الأول ، لكنها أصبحت في زمانه خرابا في أكثرها ، بسبب التعصب المذهبي بين طوائفها ، فقد كان نصف سكانها من السنة ، و النصف الآخر من الشيعة ، فحدثت العصبية بينهم ، و دخلوا في حروب طويلة ، انتهت بإبادة الشيعة إلا من أخفى حاله ، ثم بعد ذلك وقعت العصبية المذهبية بين السنيين أنفسهم ، و بالتحديد بين الشافعية و "حنفية ، فحدثت بينهم حروب

---

[1] ابن الأثير : ج 9 ص: 334 .

[2] نفس المصدر ، ج 10 ص: 51 .

[3] نفس المصدر ، ج 10 ص: 141 .

انتصر فيها الشافعية ، و لم يبق من الحنفية إلا من يخفي مذهبــه ، و بــذلك خُرّبت محلات الشيعة و الحنفية ،و لم يبق من مدينة الري إلا محلة الشافعية[1].

و أما الفتن المذهبية التي حدثت بين السنة و الشيعة في القرن الســابع الهجري ، فعثرت منها على فتنتين ، الأولى حدثت سنة 621ه بمدينة واسط ، قال فيها المؤرخ ابن الأثير أنها حدثت على جاري عادتهم ، دون أن يذكر أية تفاصيل عن أسبابها و مظاهرها و آثارها[2] .

و الثانية حدثت بينهما ببغداد سنة 655ه ، و هي فتنة كبيرة نهب فيها السنيون حي الكرخ و دورا لأعيان الشيعة ، من بينها دور أقربــاء الــوزير الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي (ت656ه) ، فكان ذلك من الأسباب التي دفعته إلى مكاتبة المغول[3] . و قد روى القلقشندي أن أهل السنة لما نهبــوا الكــرخ ارتكبوا قبائح شنيعة ، منها أنهم هتكوا النساء ، و ركبوا منهن الفواحش[4] . و هذه الفتنة لم أعثر على أسبابها ، لكن يبدوا لي أنها حدثت بسب تطاول الشيعة على أهل السنة بدعم من الوزير ابن العلقمي ضمن النزاع المذهبي القائم بين الطائفتين ، لذلك لما حدثت هذه الفتنة تدخل ولي العهد أبو بكر بــن الخليفــة المستعصم لمساندة السنيين[5] . و تُعد هذه الفتنة من أخطر الفتن التي حدثت بين السنة و الشيعة ، لما ترتّب عنها من تعاون الوزير مؤيد الدين بن العلقمي مع المغول في غزوهم لبغداد و تخريبهم لها[6] .

---

[1] ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج 3 ص: 117 .

[2] الكامل في التاريخ ، ج 10 ص: 442 .

[3] ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 196 . و الذهبي : السير ، ج 23 ص: 180 .

[4] مآثر الأنافة ، ج 2 ص: 90 .

[5] انظر : ابن كثير ، المصدر السابق، ج 13 ص: 196 . و. و الذهبي : الســير ، ج 23 ص: 180 .

[6] سنتناول مسألة تعاون ابن العلقمي مع المغول في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى .

و ختاما لمبحث الفتن المذهبية بين السنة و الشيعة ، يتبين جليا أن التعصب المذهبي بينهما كان شديدا ، أوصلهم إلى الاقتتال و إزهاق الأرواح ، و تخريب العمران ، و كثرة الفتن، على امتداد عدة قرون ، مما يدل على أنها لم تكن حالات استثنائية ، و إنما كانت كثيرة الانتشار ، بسبب التعصب المذهبي الذي كان يُغذيها .

كما أنها – أي الفتن المذهبية– أظهرت ما كان يُكنه كل طرف للآخر من حقد و كراهية ، و تعصب أعمى ، فكان كل منهما يتربص بخصمه الدوائر ، للإيقاع به ، و الانقضاض عليه، انتقاما منه و تعصبا عليه .

سادسا : الفتن المذهبية بين الطوائف السنية :

لم تكن الطوائف السنية الأربعة: الحنفية ، و المالكية ، و الشافعية ، و الحنبلية ، بمنأى عن التعصب المذهبي فيما بينها ، فقد كان متغلغلا فيها ، على مستوى أصول الدين و فروعه ، و أوصلها إلى الفتن المذهبية الدامية –خلال العصر الإسلامي –، و سأذكر منها الفتن الآتية إن شاء الله تعالى .

أولها ما حدث سنة 393هجرية بين الشافعية و الحنفية ببغداد ، سببها أن شيخ الشافعية أبا حامد الإسفراييني (ت406ه) أستطاع أن يُؤثر في الخليفة العباسي القادر بالله ، و يُقنعه بتحويل القضاء من الحنفية إلى الشافعية ، فلما فعل ذلك احتج الحنفية و دخلوا في مصادمات مع الشافعية[1] . و هذه الفتنة عثرتُ عليها عند المقريزي ، و لم يذكر تفاصيلها و لا مآلها ؛ لكن المعروف أن القضاء بقي بأيدي الحنفية ببغداد ، مما يعني أن الخليفة قد تراجع عن موقفه و أعاد القضاء للحنفية .

كما أن هذه الفتنة لها خلفيات بسبب التعصب المذهبي القائم بين الطوائف السنية ، لأنه ليس من العدل أن تحتكر طائفة منهم القضاء دون

---

[1] المقريزي : كتاب المواعظ و الاعتبار ، ج 2 ص: 333-334 .

الطوائف الأخرى ؛ لأن كل طائفة تريد أن تتولى القضاء و تحتكم فيه إلى مذهبها ، و لا تحتكم إلى غير مذهبها .

و الفتنة الثانية حدثت بمدينة مرو ببلاد خُراسان بين الشافعية و الحنفية ، عندما غيّر الفقيه منصور بن محمد السمعاني المروزي(ت 489ه) مذهبه ، فقد كان حنفيا مدة ثلاثين سنة ، ثم تحوّل إلى المذهب الشافعي ، و أعلن ذلك بدار الإمارة بمدينة مرو بحضور أئمة الحنفية و الشافعية ، فاضطرب البلد لذلك ، و هاجت الفتنة بين الشافعية و الحنفية ، و دخلوا في قتال شديد ، و عمّت الفتنة المنطقة كلها ، حتى كادت تملأ ما بين خُراسان و العراق ن لكن السمعاني ظل ثابتا على موقفه و لم يتراجع عنه ، لكنه اضطر إلى الخروج من مدينة مرو ، و الانتقال إلى مدينة طوس ، ثُم إلى نيسابور ، ثم عاد إلى مرو بعد سكون الفتنة[1] .

و الفتنة الثالثة حدثت بين الحنابلة و الشافعية ببغداد سنة 573 هجرية ، و ذلك أنه عندما تُوفي خطيب جامع المنصور محمد بن عبد الله الشافعي سنة 537 هجرية ، و منع الحنابلة من دفنه بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل ، لأنه شافعي و ليس حنبليا ، حدثت فتنة بين الطائفتين تدخل على إثرها الخليفة العباسي المقتفي(530-555ه) و أوقفها ، و أفشل محاولة الحنابلة منع دفن المتوفى بمقبرتهم ، و أمر بدفنه فيها ، فتمّ ذلك[2] .

و واضح من هذه الفتنة أن التعصب المذهبي كان على أشده بين الحنابلة و الشافعية ، حتى أنه أوصل الحنابلة إلى رفض دفن رجل مسلم شافعي بمقبرتهم بالمعروفة باسم إمامهم ، ثم الدخول في مواجهات مع الشافعية ، و هذا غريب جدا يأباه الشرع و العقل مهما كانت المبررات .

---

[1] أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ،حققه خليل الميس ، بيروت دار القلم ، دت ، ج1 ص: 240 . و السبكي: طبقات الشافعية ، ج 5 ص: 34- .

[2] سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ، ج 1 ص: 182 .

و الفتنة الرابعة حدثت بأصفهان -ببلاد فارس- بين فقهاء أصحاب المذاهب سنة 560 هجرية ، كان في مقدمتهم عبد اللطيف الخُجندّي الشافعي ، مع مخالفيه من المذاهب الأخرى ، فحدثت بينهم فتنة كبيرة بسبب التعصب للمذاهب ، فخرج المتعصبون إلى القتال لمدة 8 أيام ، فكثُرت بينهم الشرور و الخُطوب ، و قُتل منهم خلق كثير ، و أُحرقت و خُرّبت منازل و مرافق كثيرة ، و بعد ثلاثة أيام افترقوا على أقبح صورة[1] . و لم اعثر لها على أخبار أخرى من حيث تفاصيل أسبابها و مظاهرها و آثارها . و واضح أنها كانت فتنة مأساوية مدمرة أهلكت البلاد و العباد ، و عمقت الخلاف و التعصب المذهبيين .

و الفتنة الخامسة هي أيضا حدثت بأصفهان بين الشافعية و الحنفية في سنة 582 هجرية ، و ذلك أنه لما مات الملك العادل البهلوان محمد بن أيدلكز سنة 582 هجرية ، كثُرت الفتن بين الشافعية و الحنفية بسبب التعصب المذهبي ، فكان على رأس الحنفية قاضي البلد-لم يُذكر- ، و على رأس الشافعية ابن الخُجنّدي ، فحدث بين الطائفتين من القتل ، و النهب ، و الدمار ، ما يجل عن الوصف [2] .

و الفتنة السادسة هي أيضا حدثت بين الشافعية و الحنفية بمدينة مرو ، زمن الوزير الخوارزمي مسعود بن علي المُتوفى سنة 596 هجرية ، و ذلك أن هذا الوزير كان متعصبا للشافعية ، فبنى لهم جامعا بمرو مشرفا على جامع للحنفية ، فتعصبوا -أي الحنفية- و أحرقوا الجامع الجديد -الذي بناه الوزير مسعود- فاندلعت فتنة عنيفة مدمرة بين الطائفتين ، كادت ((بها الجماجم

---

[1] ابن الأثير : الكامل ، ج 9 ص: 478 . و ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 249 . و الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 169 .

[2] ابن الأثير : الكامل ، ج 10 ص: 141 . و الذهبي: تاريخ الإسلام ، حوادث: 581-590، ص: 14 .

تطير عن الغلاصم)) ، فلما توقفت أغرمهم -أي الحنفية- السلطان خُوارزم شاه الحنفي (ت 596ه) أموالا مقدار ما صُرف في بناء المسجد الذي أحرقوه[1].

و قد ذكر الرحالة ياقوت الحموي (ت 626ه) أن مدينة أصفهان في زمانه عمها الخراب بسبب كثرة الفتن و التعصب بين الشافعية ة الحنفية ، فكانت الحروب بينهما متصلة ، فكلما ((ظهرت طائفة نهبت الأخرى ، و أحرقتها ، و خرّبتها ، لا يأخذها في ذلك إلا و لا ذمة))[2] .

و نفس الأمر حكاه عن مدينة الري ببلاد فارس ، فذكر -أي ياقوت الحموي- أن هذه المدينة كان أكثرها خرابا في زمانه ، بسبب التعصب للمذاهب ، فكانت الحروب بين الشافعية و الحنفية قائمة ، انتهت بانتصار الشافعية ، و لم يبق من الحنفية إلا من يُخفي مذهبه[3] .

و أشير هنا إلى أن الفتن التي ذكرناه -بين الطوائف السنية- كان سببها في الغالب الاختلاف في المذاهب الفقهية و التعصب لها ، . و أما الفتن التي حدثت بينها بسبب الاختلاف في العقائد -أصول الدين- و التعصب لها ، فسأذكر منها بعض ما حدث بين الأشاعرة[4] من جهة ، و الحنابلة و أهل الحديث من جهة أخرى.

أولها فتنة ابن القشيري ببغداد سنة 469 هجرية ، و تفصيلها هو أنه لما قدم المتكلم أبو نصر بن عبد الكريم القشيري الأشعري(ت514ه) إلى

---

[1] ابن الأثير : نفس المصدر ، ج 7 ص: 250 . و ابن كثير : المصدر السابق ، ج 13 ص: 23 . و السبكي: المصدر السابق ، ج 7 ص: 296 .

[2] معجم البلدان ، ج 1 ص: 209 .

[3] نفسه المصدر ، ج 3 ص: 117 .

[4] هم فرق كلامية ينتسبون لأبي الحسن الأشعري البصري (ق: 4ه) ، و أتباعها من المالكية و الشافعية ، و عن فكرهم و نشاطهم و علاقتهم بأهل الحديث أنظر كتابنا: الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث ، ط1 ، دار الإمام مالك ، الجزائر ، 2005/1426 .

بغداد و استقر بالمدرسة النظامية ، عقد بها مجلسا للوعظ و التدريس ، فتكلم على مذهب الأشعري و مدحه ، و حطّ على الحنابلة و نسبهم إلى اعتقاد التجسيم في صفات الله تعالى[1] . فلما سمع به شيخ الحنابلة الشريف أبو جعفر (ت 470هـ) ، تألم لذلك و أنكر عليه فعلته ، ثم جنّد جماعة من أصحابه بمسجده تحسبا لأي طارئ مُحتمل ؛ و أما القشيري فقد التف حوله أصحابه و المتعاطفون معه ، و ساعده أيضا الشيخ أبو سعد الصوفي ،و شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي(ت 476هـ) , و غيرهما من علماء الأشعرية ، ثم هاجمت جماعة من أصحابه مسجد الشريف أبي جعفر ، فرماهم الحنابلة بالآجر ، و اشتبك الطرفان في مصادمات دامية ، قُتل فيها نحو عشرين شخصا من الجانبين ، و جُرح آخرون ، ثم توقفت الفتنة لما مالت الكفة لصالح الحنابلة[2] .

فلما حدث ذلك أجمع علماء الأشاعرة على الخروج من بغداد ، في مقدمتهم شيخهم أبو إسحاق الشيرازي ، إلى بلاد خُراسان حيث الوزير السلجوقي نظام الملك ، فلما سمع بهم الخليفة المقتدي بأمر الله (467-487هـ) أسرع إلى طلبهم لُيصلح بينهم و بين شيخ الحنابلة أبي جعفر ، فلما اجتمعوا فشلت محاولة الإصلاح و انفض الاجتماع دون اتفاق ، و كتب علماء الأشاعرة رسالة إلى نظام الملك أخبروه فيها ما حلّ بهم على يد الحنابلة ببغداد ، و وصفوهم له بأبشع الألفاظ القبيحة ،و اتهموهم بأشنع الاتهامات ، و

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 30 ، و ما بعدها .و السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط1 ، مصر ، مطبعة السعادة ، 1952 ، ص: 224 . و ابن أبي يعلى : طبقاتت الحنابلة ، ج 2 ص: 239 . و ابن رجب البغدادي : الذيل على طبقات الحنابلة ، ج 1 ص: 25 . و السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 7 ص: 162 .

[2] ابن أبي يعلى : نفسه ، ج 2 ص: 239 .و ابن رجب: نفسه ، ج 1 ص: 25 . و ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 115 . و الأثير : الكامل ، ج 10 ص: 1104 . و السبكي : المصدر السابق ، ج 4 ص: 234 .

حرّضوه على قطع دابرهم ،و أنه لا يجوز السكوت عنهم[1] ، لكن رده عليهم لم يُحقق لهم ما كانوا يرجونه منه[2] .

و الثانية حدثت سنة470 هجرية ببغداد ، بين الحنابلة و فقهاء أشاعرة من المدرسة النظامية ، و ذلك أنها وقعت بعد أيام من ورود كتاب الوزير نظام الملك ردا على رسالة الأشاعرة في فتنة ابن القشيري ، حيث أقدم فقيه أشعري على تكفير الحنابلة ، فتصدوا له و رموه بالآجر ، فهرب و لجأ إلى أحد أسواق بغداد و استغاث بأهله ، فأغاثوه و اندلع قتال بين الطرفين ، و عم النهب و كثُرت الجراح ، و لم تتوقف المواجهات إلا بتدخل الجند ، و قُتل فيها نحو عشرين شخصا من الطرفين ، و جُرح آخرون ، ثم نُقل المقتولون إلى دار الخلافة ، فرآهم القضاة و الشهود ، و كتبوا محضرا ضمّنوه ما جرى ،و أرسلوه إلي الوزير نظام الملك بخراسان ، ثم هدأت الأوضاع ببغداد[3] .

و هذه الفتنة هي امتداد لفتنة ابن القشيري ، و قد قُتل فيهما نحو أربعين شخصا من الطرفين ، و قد أظهرتا ما يكنه كل طرف للآخر من حقد و كراهية ، بسبب التعصب المذهبي المقيت الذي أوصلهم إلى هذه الفتن التي أزهقت الأرواح و خرّبت العمران ، و أضعفت الطوائف السنية و مزقتها.

و الفتنة الثالثة هي فتنة الواعظ المتكلم أبي بكر البكري المغربي الأشعري ، حدثت ببغداد سنة 476 هجرية ، عندما قدم إليها و معه كتاب من الوزير نظام الملك للتدريس و التكلّم بمذهب أبي الأشعري ، فاستقبله ديوان

---

[1] سنتوسع في ذلك في مبحث خاص من الفصل الثالث إن شاء الله تعالى .

[2] ابن أبي يعلى : المصدر السابق ، ج 2 ص: 239 .و ابن عساكر : تبيين كذب المفتري، ص: 310 ، و ما بعدها . و ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 312 .

[3] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 312-313 و ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 12 ص: 117 .

الخلافة استقبالا حارا ، و هيأ له كل ما يحتاجه ، و أثناء وجوده ببغـــداد درّس بالنظامية ،و في كل الأماكن التي أرادها ، فكان ينصـــر الأشـــعرية و يـــذم الحنبلية و يستخف بأهلها ، فحدث بينه و بينهم سباب و خصام و مواجهات ، من ذلك إنه مرّ ذات يوم بحي نهر القلائين ، فاعترضت جماعة حنبلية من آل الفراء ، بعض أصحاب البكري ، فحدث بينهم عراك و سباب و خصام ، مما جعل البكري ، يستنجد بالوزير العباسي العميد بن جهير ، فأرسل هذا الأخير من حاصر بيوت بني الفراء ، فنهبوها و أخذوا منها كتاب إبطال التـــأويلات للقاضي أبي يعلى الفراء ، و جعله الوزير بين يديه يقرأه على كل من يـــدخل عليه ، و يقول : ((أيجوز لمن يكتب هذا أن يُحمى أو يُؤوى في بلد !))[1] .

و الفتنة الرابعة هي فتنة الواعظ الغزنوي ببغداد سنة 495 هجرية ، و مفادها أن الواعظ عيسى بن عبد الله الغزنوي الشافعي الأشعري لما قدم إلـــى بغداد و مكث بها أكثر من عام ، وقعت بينه و بين الحنابلة فتن و مصادمات ، منها أنه وعظ ذات يوم بجامع المنصور و أظهر مذهب الأشعري، فمال إليـــه بعض الحاضرين ،و اعترض عليه الحنابلة ، فنشب عراك بـــين الجمـــاعتين داخل المسجد[2] . و لا ندري ما حدث بعد ذلك بين الفريقين ، لأن ابن الجوزي روى الخبر موجزا . و منها أيضا إن هذا الرجل –أي الغزنوي– مرّ ذات يوم برباط شيخ الشيوخ أبي سعد الصوفي ببغداد ليذهب إلى بيته ، فرجمه بعـــض الحنابلة من مسجد لهم هناك ، فهب أصحابه لنجدته و التفوا حوله[3] .

و الفتنة الخامسة هي فتنة ابن تومرت بالمغرب الإسلامي ، و ذلك أن المغاربة زمن الدولة المرابطية (451-541ه) كانوا على مذهب السلف فـــي

---

[1] ابن الجوزي : نفس المصدر، ج 9 ص: 3-4 . و ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي، د ت ، ج 2 ص: 185

[2] ابن الجوزي: نفس المصدر ، ج 9 ص: 131 .

[3] نفسه ، ج 9 ص: 131 .

أصول الدين ، فلما اظهر محمد بن تومرت المغربي المصمودي الأشعري (ت 524ه) دعوته ، كفّر مخالفيه من المغاربة ، و اتهمهم بالتشبيه و التجسيم ،و استباح دماءهم و أموالهم ، و دخل في حروب طاحنة مع المرابطين ، و أدخل المغرب الإسلامي في فتنة دامية ، و فرض الأشعرية على الرعية ، و عندما تُوفي واصل أتباعه دعوته ، و ارتكبوا مجازر رهيبة في حق المرابطين عندما دخلوا مدينة مراكش سنة 541ه ، و يُروى أنهم قتلوا منهم سبعين ألف شخص[1] .

و الفتنة السادسة هي فتنة الواعظ أبي الفتوح الإسفراييني الأشعري(ت538ه) ، و مفادها أنه لما قدم إلى بغداد سنة 515ه ، و مكث بها مدة طويلة ، تسبب في حدوث فتن كثيرة بينه و بين الحنابلة ، لأنه جعل شعاره إظهار مذهب الأشعري و ذم الحنابلة و التهجم عليهم ، و في أحد الأيام مرّ بأحد شوارع بغداد مع جم غفير من أصحابه ، و فيهم من يصيح و يقول : ((لا بحرف و لا بصوت ، بل عبارة))[2] ، فرجمه العوام ، ثم تراجموا فيما بينهم و حدثت مصادمات عنيفة أدت إلى حدوث فتنة كبيرة لم تصلنا تفاصيلها[3].

---

[1] انظر : الذهبي : السير ، ج 19 ص: 645-646 . و الناصري احمد بن خالد: الاستقصاءلأخبار دول المغرب الأقصى ط1 ، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1997 ، ج 1 ص: 96، 196 .

[2] هذه الكلمات هي مقولة أشعرية تتعلق بموقف الأشاعرة من كلام الله تعالى ، فالقرآن عندهم ليس كلام الله على الحقيقة ، و ليس بحرف و لا بصوت ، بل هو عبارة و حكاية عن كلام الله النفسي القديم الذي لا يتعدد و لا يتبعّض ،و لا ينفصل عن الذات الإلهية على ما تقوله الأشعرية . و قد ناقشناها في ذلك و بينا خطأها فيما ذهبت إليه ، في كتابنا : الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث .

[3] الذهبي : العبر ج 4 ص: 105 . و السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 6 ص: 172.

و الفتنة السابعة هي فتنة الشيخ الخبوشاني بمصر ، و مفادها أنه لما فتح السلطان صلاح الدين الأيوبي(ت 589ه) مصر سنة 567هجرية ، أراد شيخه الفقيه الصوفي نجم الدين الخبوشاني الشافعي الأشعري (ت587ه) نبش قبر المقرئ أبي عبد الله بن الكيزاني الشافعي (ت 562ه) المدفون بقرب ضريح الإمام الشافعي بمدينة مصر ، و قال عن ابن الكيزاني : هذا رجل حشوي لا يكون بجانب الشافعي. و في رواية أخرى إنه قال عنه : لا يكون زنديق بجانب صديق ، ثم نبش قبره و أخذ رفاته و دفنها في موضع آخر ، فثار عليه الحنابلة و أهل الحديث و تألبوا عليه، و جرت بينهما حملات حربية انتهت بانتصاره عليهم[1].

و كان هذا الشيخ -أي الخبوشاني- رجلا طائشا متهورا معروفا بكثرة الفتن منذ أن دخل مصر ، إلى أن تُوفي بها سنة 587ه ، فقد حدثت بينه و بين الحنابلة فتن كثيرة[2] لم أعثر على تفاصيلها .

و قد كان الرجلان -أي الخبوشاني و ابن الكيزاني- شافعيين في الفروع فرّق بينهما الاعتقاد في الأصول ، فكان ابن الكيزاني على مذهب أهل الحديث ،و كان الخبوشاني أشعري المعتقد ، لذا فهو قد تعصّب على الرجل تعصبا زائدا ، حين نبش قبره و لم يرع له حرمة ،و وصفه بأوصاف قبيحة ، لذا وجدنا الحنابلة يثورون عليه لأنه اعتدى على حرمة رجل مسلم شافعي الفروع سلفي الأصول مثلهم .

و الفتنة الثامنة حدثت بين الشافعية و الحنابلة بدمشق ، بسبب الاختلاف في العقائد ، زمن الفقيه العز بن عبد السلام الشافعي الأشعري المتوفى سنة 660 هجرية ، و كان هو من المشاركين فيها ، فانتصر فيها للشافعية و تعصب على الحنابلة ، فحدثت فتنة بين الطائفتين ، و كتب هو -

---

[1] الذهبي: السيّر ، ج 20، ص: 454 ، و ج 21 ص: 205 .

[2] ابن تغري بلدي: النجوم الزاهرة، ج 6 ص: 116 .

أي العز بن عبد السلام- إلى الملك الأشرف الأيوبي (ت635ه) يحرّضه على الحنابلة ، فردّ عليه الملك -كان يميل لأهل الحديث- بقوله : ((يا عز الدين الفتنة ساكنة لعن الله مُثيرها))[1] . و هذه الفتنة لم اعثر على تفاصيلها ، و قد رواها الحافظ الذهبي بإيجاز شديد .

و الفتنة التاسعة وقعت أيضا بدمشق بين الحنابلة و الشافعية سنة 716هجرية ، حدثت بينهما بسبب الاختلاف في العقائد ، فترافعوا إلى حاكم دمشق ، و حضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز ، فأصلح بينهم ، و انفصلوا على وفاق دون محاققة ، و لا تشويش على أحد من الفريقين[2] . و هذه الفتنة لم يفصل الحافظ ابن كثير أسبابها و لا تفاصيلها ، و اكتفى بذكر ما نقلناه عنه .

و الفتنة العاشرة حدثت بين الحنابلة و الأشاعرة بدمشق ، أثارها الفقيه تقي الدين بن محمد الحصني الشافعي الأشعري (ت829ه) ، بتعصبه للأشعرية و كثرة حطه على الشيخ تقي الدين بن تيمية ، فكان يُبالغ في ذلك علانية أمام طلابه بدمشق ، فأحدث فتنا مذهبية كثيرة بين الطائفتين لم أعثر على تفاصيلها[3] .

و الفتنة الأخيرة-أي الحادية عشرة- هي أيضا حدثت بين الحنابلة و الأشاعرة بدمشق سنة 835هجرية ، أثارها الشيخ علاء الدين البخاري عندما تعصب على الحنابلة ، و بالغ في الحط على شيخ الإسلام ابن تيمية و صرّح بتكفيره ، فأحدث بذلك فتنة كبيرة بين الطائفتين ، و تعصب جماعة من علماء دمشق لابن تيمية ، منهم الحافظ ابن ناصر الدين الذي صنف كتابا في

---

[1] الذهبي : السير ، ج 22 ص: 126 .

[2] ابن كثير : البداية ، ج 14 ص: 75 .

[3] ا بن حجر : إنباء الغمر ، ج 2 ص: 544 . و ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 9 ص : 274 .

فضل ابن تيمية و ثناء العلماء عليه ، و أرسله إلى القاهرة ، فوافق عليه غالب علماء مصر ، و خالفوا ما زعمه العلاء البخاري في تكفيره لابن تيمية و من سماه شيخ الإسلام ؛ ثم صدر مرسوم من السلطان أمر بعدم اعتراض أي أحد على مذهب غيره ، فهدأ الوضع و سكن الحال[1] .

و ختاما لما ذكرناه ، يتبين أن التعصب المذهبي بين الطوائف السنية أوصلها إلى المصادمات الدامية و الفتن الشنيعة ، بسبب الخلافات الفقهية و العقيدية القائمة على التعصب المذموم . فعبّرت تلك الفتن بوضوح على ما كانت تُكنه كل طائفة للأخرى من حقد و كراهية و حسد و تعصب . كما أنها دلّت على أنها لم تكن حوادث شاذة معزولة ، و إنما كانت حوادث جماعية كثيرة ، من ورائها جماعات مُنظمة و موجهة ذات أهداف محددة .

سابعا الفتن المذهبية بين أهل السنة و الكرّامية :

حدثت فتن مذهبية بين أهل السنة و الطائفة الكرّامية المجسمة[2] ببلاد خُراسان ، بسبب الخلافات المذهبية و التعصب لها ، الأمر الذي أوصلهم إلى المنازعات و المصادمات ، أذكر منها فتنتين ، الأولى حدثت بنيسابور سنة 489هجرية ، بين الشافعية و الحنفية من جهة و بين الكرامية من جهة أخرى ، فكان على رأس الشافعية أبو القاسم بن إمام الحرمين الجويني ، و على رأس الحنفية القاضي محمد بن احمد بن صاعد ، و على رأس الكرامية مقدمهم محمشاد ، فتعاون الشافعية و الحنفية على الكرامية ، و حدثت فتنة كبيرة مدمرة ، خُرّبت فيها مدارس الكرامية ، و قُتل فيها خلق كثير من الكرامية و

---

[1] ابن العماد الحنبلي: نفس المصدر ، ج 9 ص: 307 .

[2] ينتسبون إلى المتكلم أبي عبد الله محمد بن كرّام السجستاني(ت قرن:3ه) ، و هم يعتقدون التجسيم و التشبيه في صفات الله تعالى . أنظر : عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، ص: 215 و ما بعدها .

غيرهم[1] . و هذه الفتنة أوجزها المؤرخ ابن الأثير ، و لم يذكر تفاصيلها و لا أسبابها ، و إن كان ظاهرها يُشير إلى أنها حدثت بسبب الخلافات المذهبيــة و التعصب لها .

و الفتنة الثانية حدثت ببلاد خُراسان سنة 595هجرية بين الكرامية من جهة و المتكلم الفخر الرازي من جهة ثانية ، و ذلك أنيـه لمــا حــلّ الفخــر الرازي(ت606ه) عند الملك غياث الدين الغوري الغزنوي ، أكرمه و بنى لــه مدرسة بهراة ، فلم يُعجب ذلك الكرامية – و هم أكثر الغورييــة– ، الــذين أبغضوا الفخر الرازي و أحبوا إخراجه ، فجمعوا طائفة من فقهاء الحنفيــة و الشافعية و الكرامية بحضور شيخهم ابن القدوة لمنــاظرة الفخــر الــرازي ، فناظره ابن القدوة و انتهى بهما الأمر على السب و الشتم . فاستغل الكراميــة ذلك و جمعوا الناس في المسجد الجامع ، و قال أحدهم للناس : ((إنا لا نقول إلا ما صحّ عندنا عن رسول الله ، و أما علم أرسطاطالس ، و كفريات ابــن سينا ، و فلسفة الفارابي ، و ما تلبّس به الرازي ، فإنا لا نعلمها و لا نقول بها ، و إنما هو كتاب الله و سنة رسوله ؛ لأي شيء يُشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام–أي ابن القدوة– يذب عن دين الله و رسوله على لســان مــتكلم–أي الفخر الرازي– ليس معه على ما يقول دليل)) ، فبكى الناس و استغاثوا ، و هاجوا و ثاروا ، عمت الفتنة البلاد ، و كاد الأمر أن يتحول على الاقتتــال ، فلما علم السلطان بذلك أرسل إلى الناس من سكّنهم ، و أمر بــإخراج الفخــر الرازي[2] .

---

[1] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 9 ص: 23 .

[2] نفس المصدر ، ج 10 ص: 262 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 18–19 .

ثامنا : مظاهر أخرى من التعصب المذهبي في الحياة الاجتماعية :

توجد مظاهر اجتماعية أخرى تجلى فيها التعصب المذهبي بوضوح ، و كان فيها هو السبب الأساسي في ظهورها ، أذكر بعضها في النقاط الآتية :

أولا: تسلل بعض الشيعة إلى الطائفة السنية ، و نذكر على ذلك ثلاثة شواهد تاريخية ، أولها يخص حال الفقيه نجم الدين الطوفي المتحنبل الرافضي(ت 716هـ) ، كان محسوبا على طائفة الحنابلة ، و تولى التدريس في مدارسهم ، ثم اكتشفوا أمره و ثبت أنه شيعي يُمارس التقية ، و يقع في أبي بكر و عائشة و غيرهما من الصحابة -رضي الله عنهم- ، و كان يقول عن نفسه :

أشعري حنبلي رافضي + هذه إحدى الكُبَر[1]

و شعر كهذا لا يصدر إلا عن منافق يمارس التقية على طريقة الشيعة . و لما شاع أمره طلبه قاضي الحنابلة فحكم عليه بالضرب و التعزير و التشهير و الحبس[2] .

و الشاهد الثاني يتعلق بالشيعي محمود بن إبراهيم الشيرازي(ت 766هـ) ، فقد كان طالبا بالمدرسة العمرية الحنبلية بدمشق ، ثم أظهر الرفض ، فسجنه القاضي الحنبلي أربعين يوما ، فلم ينفع ذلك معه ، و استمر في سب الصحابة ، حتى أنه دخل الجامع الأموي و سب الشيخين أبي بكر و عمر و لعنهما بداخله ، ثم انتهي أمره إلى القاضي فحكم عليه بضرب رأسه فقُتل[3] .

---

[1] ابن العماد : شذرات ، ج 8 ص: 72 .

[2] نفسه ، ج 8 ص: 72، 73 .

[3] ابن كثير : البداية ، ج 14 ص: 310 .

و آخرها –أي الشاهد الثالث– يخص حال القاضي شمس الدين محمد بن يُوسف الدمشقي الحنفي (ت942هـ) ، فإنه ناب في القضاء بدمشق ، ثم ((ثبت عليه ، و على رجل يُقال له حسين اليقسماطي عند قاضي دمشق ، أنهما رافضيان ، فحُرّقا تحت قلعة دمشق ، بعد أن رُبطت رقابهما و أيديهما و ارجلهما في أوتاد ، و ألقي القنب و البوري و الحطب)) ، ثم أُحرقا حتى صارا رمادا . و سُئل مفتي الحنفية قطب الدين بن سليمان عن قتلهما فقال : ((لا يجوز في الشرع ، بل يُستتبان))[1].

و هذه الحادثة مثال على التعصب المذهبي المتبادل بين الطائفتين السنية و الشيعية ، فالرافضيان دفعهما تعصبهما إلى التسلل إلى صفوف أهل السنة لتحقيق أهداف ما ، و السنيون–الذين فعلوا ذلك– بالغوا في التعصب لطائفتهم و الانتصار لمذهبهم ، عندما أحرقوا الرجلين بتلك الكيفية ؛ و يبدوا أنهم لم يستتيبوا الرافضيين ، بناء على جواب القاضي مفتي الحنفية الذي لم يوافق على ما حدث للرجلين .

و أما لماذا أندس هؤلاء الرافضة في صفوف أهل السنة ، فيبدو لي – و الله أعلم– أنهم كانوا يهدفون إلى تحقيق جملة أمور ، أولها السعي لإفساد فكر أهل السنة و التشويش عليهم في موقفهم من الصحابة ، و في المسائل المختلف فيها بين الطائفتين . و ثانيها هو التشفي من الصحابة و السنيين و النكاية بهم في سبهم للصحابة و لعنهم علانية . و ثالثها إشباع الرافضة–أي الشيعة– لأهوائهم و أحقادهم الدفينة في موقفهم من الصحابة و السنيين ، تعصبا عليهم و انتصارا لمذهبهم . و آخرها هو التجسس على أهل السنة لمعرفة أحوالهم الداخلية ، عساهم ينتفعون بها في التعامل معهم و التآمر عليهم.

[1] ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق ، ج 10 ص: 325–326 .

و ثانيا : استخدام الضرب و التضييق التهديد في التعامل مع المخالفين في المذهب، فمن ذلك أن الخليفة العباسي القادر بالله (381-422هـ) لما عزل خُطباء الشيعة من المساجد ببغداد ، و عوّضهم بأهل السنة ، احتج هؤلاء-أي الشيعة- و تعرّضوا للخطيب السني بمسجد براثا الشيعي بالضرب بالاجر ، فكسروا أنفه و خلعوا كتفه ، فتدخل الخليفة و انتقم منهم عقابا لهم و انتصارا لأهل السنة ، فجاء كبراؤهم -أي الشيعة- و اعتذروا له- أي للخليفة- بأن الذي حدث فعله سفهاؤهم[1] .

و الشاهد الثاني يتعلق بما حدث للحافظ أبي إسحاق بن الحبال المصري(ت 482هـ) في دولة العبيديين بمصر ، فقد منعوه من التحديث (بعد سنة 476هـ) ، و أخافوه و هددوه ، فامتنع من قراءة الحديث النبوي . و لما أراد القاضي أبو علي الصدفي الأندلسي الدخول عليه ، اشترط عليه أن لا يُسمعه حديثا و لا يكتب له إجازة ، فلما دخل عليه و كلّمه ، خاف منه و خلّط في كلامه خوفا من أن يكون مدسوسا عليه ، فلما باسطه و أخبره أنه أندلسي يريد الحج ، أجاز له لفظًا لا كتابة . و قد علّق الذهبي على ذلك بقوله : ((قبّح الله دولة أماتت السنة و رواية الآثار ، و أحيت الرفض و الضلال ، و بثّت دعاتها في النواحي تغوي الناس ، و يدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية ، فبهم ضلّت جبلية الشام و تعثّروا))[2] .

و الشاهد الثالث يتعلق بما حدث للفقيه محمد بن خليل الحريري الدمشقي(ت 785هـ) ، فإنه لما أفتى ببعض فتاوى ابن تيمية ، و قال أن الله تعالى في السماء ، طلبه القاضي الشهاب بن الزهري الدمشقي و عزّره بالدرة ، و أمر بتطويفه على أبواب القضاة . ثم أن هذا القاضي اعتذر للحريري ، و قال له : إنه أخطأ فيه عندما قالوا له : إن فلانا الحريري قال كيت و كيت .

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 26 .

[2] سير أعلام النبلاء ، ج 18 ص: 497 .

و و يُروى أنه لما ضُرب هذا الرجل-أي الحريري- اغتم بعض النـــاس لمـــا جرى له ، فلما سمع الحريري قال : ((ما أسفي هذا ، إلا على أخذهم خطـــي بأن أشعري ، فيراه عيسى بن مريم إذا نزل))[1] .

و واضح من هذه الحادثة أن الاخـــتلاف المـــذهبي بـــين الحنابلـــة و الأشاعرة و تعصب القاضي للأشعرية ، هو الذي عرّض الرجل للضـــرب و التهديد و الإكراه و الإهانة ، و لم يتأسف على ذلك بقدر تأسفه على أنه أُكـــره على الاعتراف كتابيا بأنه أشعري ، فخاف أن ينزل عيسى-عليه الســـلام- و يرى اعترافه الذي أُجبر عليه ،و لا يعتقده !! .

و ثالثا: اختصاص الطوائف الإسلامية بأحياء سكنية خاصة بهـــا فـــي المدينة الواحدة ، و هذه الظاهرة موجودة في كثير من مدن المشرق الإسلامي ، أذكر منها ثلاثة نماذج ، أولها مدينة بغداد ، فكان معظم الشـــيعة يســـكنون جانبها الغربي عامة و حي الكرخ خاصة ، . و كان معظم أهل السنة يسكنون جانبها الشرقي ، بمحلة باب الأزج ، و سوق الثلاثاء ، و الحربيـــة . و كـــان كثير من الحنابلة يسكنون باب البصرة بالجانب الغربي من بغداد ، قبالة حـــي الكرخ[2] .

و النموذج الثاني يتمثل في مدينة دمشق ، فقد كانت سنية خالصة فـــي معظم تاريخها الإسلامي ، فسكن غالبية الحنابلة حي الصالحية شمال المدينـــة

---

[1] ابن حجر : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج 1 ص: 97 .

[2] امثلا : ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج4 ص: 448 . و ابن الجوزي : المنتظم ، ج 7 ص: 387 ، ج 8 ص: 78 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 338 ، ج 12 ص: 134 ، 160 .

خارج سورها . و كان غالبية الشافعية و الحنفية و المالكية يسكنون داخل مدينة دمشق[1] .

و النموذج الثالث يتعلق بمدينة الري-ببلاد فارس- فقد كانت مقسمة إلى ثلاث محلات حسب الطوائف المذهبية المكونة لها ، واحدة للحنفية ، و الثانية للشيعة ، و الثالثة للشافعية ، فخُرّبت الأولى و الثانية زمن الرحالة ياقوت الحموي المتوفى سنة 626هجرية ، بسبب الفتن المذهبية المدمرة بين تلك الطوائف ، و لم تبق إلا محلة الشافعية[2] ، التي سيخربها المغول في طريقهم إلى بغداد .

و واضح من هذه الظاهرة أن اختصاص تلك الطوائف بأحياء سكنية خاصة بها ، ساهم في تميزها ، و الحفاظ على كيانها مذهبيا و اجتماعيا و طائفيا ، الأمر الذي كرّس المذهبية الطائفية المتعصبة ، التي جرّت على أتباعها ويلات الفتن و الحروب .

و ختاما لهذا الفصل-أي الأول- يتبين أن التعصب المذهبي بين المسلمين -خلال العصر الإسلامي- كانت مظاهره في الحياة الاجتماعية كثيرة و عميقة ، أوصل طوائفه إلى اللعن و التكفير ، و السب و التشهير ، و التدابر و التنافر ، و التخريب و الاقتتال ، حتى أنه أوصل الشيعة إلى سب الصحابة و تكفيرهم ، إتباعا لأهوائهم و مذاهبهم و تعصبا لها .

---

[1] ياقوت الحموي: نفس المصدر ، ج 3 ص: 390 . و يوسف بن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد حققه اسعد طلس ، دمشق المهد الفرنسي ، 1943م ، ص: 145، 159 .

[2] ياقوت الحموي: نفس المصدر ، ج 3 ص : 117 .

الفصل الثاني

مظاهر التعصب المذهبي في الحياة العلمية

-خلال العصر الإسلامي-

أولا : التفاضل بالأئمة و المذاهب
ثانيا : الغلو في العقائد و المذاهب
ثالثا : مسائل خلافية أثارت التعصب المذهبي
رابعا : مؤلفات في الانتصار للمذاهب و التعصب لها
خامسا: حرق كتب المخالفين تعصبا للمذهب
سادسا :التعمد في رواية الأكاذيب و تحريف الأخبار
سابعا :المدارس و المساجد الطائفية
ثامنا : التعصب المذهبي عند أهل العلم
تاسعا : محن أصابت العلماء بسبب التعصب المذهبي

مظاهر التعصب المذهبي في الحياة العلمية

- خلال العصر الإسلامي -

أثّر التعصب المذهبي في الحياة العلمية تأثيرا كبيرا طيلة العصر الإسلامي ،فتجلى ذلك في مختلف مظاهر النشاطات العلمية على مستوى المؤسسات ، و الإنتاج العلمي ، و رجالات العلم ، و القضايا المذهبية على مستوى أصول الدين و فروعه. فما تفصيل ذلك ؟ .

أولا : التفاضل بالأئمة و المذاهب :

اتصف الأئمة الأربعة بصفات حميدة كثيرة ، فأحبهم الناس و تمذهبوا لهم لأجلها ، لكنهم-أي الناس- بالغوا في التفضيل و التعظيم ، و المدح و الافتخار ، و أصبحت كل طائفة تزعم أن إمامها هو أعظم الأئمة و أولى بالإتباع ، و قال بعضهم بوجوب إتباعه و الالتزام بمذهبه ، تعصبا للإمام و مذهبه .

فالحنفية كثيرا ما يُبالغون في تعظيم إمامهم و مدحه ، من ذلك إنهم كثيرا ما يلتزمون بوصف إمامهم أبي حنيفة ، بالإمام الأعظم ، و قد كررها عبد القادر القرشي (ت775ه) في طبقات الحنفية كثيرا ، و قال في بعضها : ((الإمام الأعظم ، و الهمام الأقدم ، و تاج الأئمة و سراج الأمة أبو حنيفة النعمان))[1] .

و الشاهد الثاني هو أن الفقيه مُسعر بن كِدام (ت 155ه) كان يقول : ((جعلتُ أبا حنيفة حجة بيني و بين الله تبارك و تعالى)) ، فقيل له : ((لقد استوثقت لنفسك))[2] . و قوله هذا فيه مبالغة شديدة، لأنه لا يُوجد لله حجة بينه

[1] الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، كراتشي – مير كتب خانة ، د ت ، ج 1 ص: 451، 524، 526 ، 556 .

[2] نفس المصدر ، ج 1 ص: 563 .

و بين خلقه إلا كتابه ، و سنة رسوله-عليه الصلاة و السلام- الصحيحة ، . و أما الرجال فكل طائفة تزعم ذلك في إمامها ، كما أن الرجال مهما عظموا فهم بشر يُخطئون و يُصيبون ، و لم يجعلهم حجة مطلقة على خلقه ، إلا بقدر التزامهم بشرعه ، قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ -سورة النساء / 59 - .

و الشاهد الثالث مضمونه أن بعض الحنفية اختلقوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فيها مدح لإمامهم و تبشير به و ذم لغيره ، منها حديثان ، الأول يقول : ((سيأتي بعدي رجل يُقال له النعمان بن ثابت يُكنى أبا حنيفة ، ليحيين دين الله و سنتي على يديه)) . و الثاني يقول : ((يكون في أمتي رجل يُقال له محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس ، و يكون في أمتي رجل يُقال لك : أبو حنيفة ، هو سراج أمتي)) [1] .

و المالكية هم أيضا فيهم من بالغ في مدح إمامهم و تعظيمه ، منهم القاضي عياض (ت) فإنه رجّح مذهب مالك على مذاهب الإئمة الآخرين ، و قرر وجوب تقليده و تفضيله على غيره ، مدعيا أنه هو الأفضل ، و الأعلم ، و أنه سكن المدينة بناء على حديث يقول : ((تضربون أكباد الإبل ، و تطلبون العلم ، فلا تجدون عالما اعلم من عالم المدينة)) . و قال أيضا إن مالكا أولى الأئمة بالإتباع لجمعه أدوات الإمامة ، و تحصيله وجه الاجتهاد ، و كونه أحق أهل وقته بذلك[2] .

---

[1] محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ،ط1 ، مصر مكتبة وهبة ، 1963ه ص: 210 .

[2] القاضي عياض: ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 19 ، و ما بعدها . و ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ، ص: 13

و الشافعية هم أيضا فيهم من بالغ في مدح الشافعي و تعظيمه ، منهم إمام الحرمين الجويني (ت478ه) ، صنف رسالة في ترجيح مذهب الشافعي على سائر المذاهب ؛ و قرر فيها أنه يجب على كل مخلوق إتباع الشافعي و تقليده ما لم يكن مجتهدا[1] .

و منهم الفقيه محي الدين بن شرف النووي (ت 676ه) ، قال إن الشافعي كان بارعا في العلوم ، و لم يُوجد بعده من بلغ محله في ذلك ، لذا فمذهبه أولى بالإتباع و التقليد[2] . و منهم أيضا الفقيه تاج الدين السُبكي (ت771ه) ، وصف الشافعي بأنه ((الإمام الأعظم المطلبي ، و العالم الأقوم ابن عم النبي)) [3] .

و الحنابلة هم أيضا فيهم من بالغ في مدح أحمد بن حنبل و فضله على سائر الأئمة ، منهم الحافظ يحيى بن مندة الأصفهاني(ت 511ه) ، قال : ((إن أحمد بن حنبل إمام المسلمين ، و سيد المؤمنين ، و به نحيى و به نموت ، و به نُبعث إن شاء الله تعالى ، فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين)). و قال أيضا في وصفه لأحمد: ((الإمام المرضي ،و إمام الأئمة ، و كهف الأمة ، و ناصر الإسلام و السنة ، و من لم تر عين مثله علما و زهدا ، و ديانة و إمامة ، و الإمام الذي لا يُجارى ، و الفحل الذي لا يُبارى))[4] .

و ذكر أيضا –أي ابن مندة– أن شيخا بمكة رأى رسول الله –صلى الله عليه و سلم– في المنام فقال له الرجل : يا رسول الله ، من تركت لنا في عصرنا هذا من أمتك نقتدي به في ديننا ؟ ، فقال رسول اله : أحمد بن حنبل .

---

[1] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج1 ص: 345 .

[2] العلموي: المعين في أدب المفيد ، حققه محمد زيغور ، ط1 ، بيروت ، دار إقرأ ، 1986 ، ص: 188 .

[3] السبكي: المصدر السابق ، ج 1 ص: 343 .

[4] ابن رجب البغدادي: الذيل على طبقات الحنابلة ، ج 1 ص : 101، 156 .

ثم قال ابن مندة : ((فما قاله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في منامه و يقظته فهو حق ، و قد ندب صلى الله عليه وسلم إلى الإقتداء به ، فلزمنا جميعا امتثال مرسومه و اقتفاء ماموره))[1] . و قوله هذا فيه باطل كثير ، و صواب قليل ، لأنه لا يصح الاعتماد على المنامات في تقرير الأحكام و العقائد و المذاهب ، لأنها –أي المنامات– ليست مصدرا من مصادر الاستدلال ، و لا نصا من النصوص الشرعية ، لأنه لو صح أنها كما زعم لأصبح كل إنسان يدعي ما يشاء و يقول رأيت في المنام كذا و كذا ، و نفس الشيء يقوله أتباع المذاهب الأخرى في تعظيم أئمتهم و الدفاع عن مذاهبهم . كما إنه وصف أحمد بن حنبل بأنه إمام المسلمين ، و الصحيح أنه من أئمة المسلمين . كما أنه أخطأ عندما و صفه بأنه : سيد المؤمنين ، و هذا يعني أنه شهد له بدخول الحنة ، و هذا أمر لا يعلمه إلا الله تعالى . و أقواله هذه دافعها المبالغة في تعظيم إمام المذهب و التعصب له .

و منهم الفقيه المؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت 597ه) ذكر أنه سبر سيرة السلف كلهم ليستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار مجتهدا ، و العمل حتى صار قدوة للعابدين ، فلم يجد أكثر من ثلاثة ، و هم : الحسن البصري ، و سفيان الثوري ، و أحمد بن حنبل ، ثم قال إنه لا ينكر على من ربّع بهؤلاء بسعيد بن المسيب[2] . فهو قد استبعد كلية أبا حنيفة و مالك و الشافعي الذين بالغ أتباعهم في تعظيمهم و مدحهم ، و جعل إمامه أحمد بن حنبل من بين الذين فضلهم ، و استبعد هؤلاء الأئمة الثلاثة المتبوعين ، لعدم بلوغهم ما أشترطه في مقياسه .

---

[1] نفسه ،ج 1 ص: 107 .

[2] ابن الجوزي :صيد الخاطر ، حققه محمد الغزالي ، الجزائر ، مكتبة رحاب ، 1988م ص: 57 .

و قال أيضا إنه-أي ابن الجوزي- فضل مذهب احمد بن حنبل على مذهب مالك و أبي حنيفة و الشافعي اعتمادا على العلم لا على النسب ، كما أنه وجد أحمد أوفر الأئمة حظا في العلوم الشرعية ، و كان حافظا لكتاب الله ، و متفردا بعلم الحديث جرحا و تعديلا ، و عارفا بالعربية و القياس ، زاهدا ورعا في الدنيا ، صابرا في المحنة ، لم يأخذ عطاء السلطان[1] .

و قد ترتب عن مبالغات هؤلاء أنها عمّت خاصة الناس و عامتهم ، و انتشر بينهم تقليد الأئمة و التعصب لهم بحق و بغير حق ، و تجاوزوا الحد في تعظيم أئمتهم و امتثال أرائهم ، إلى حد لا يُوصف عندهم للصحابة ، بل ولا لكلام الله تعالى و سنة رسوله -عليه الصلاة و السلام[2] .

و قد ذكر المؤرخ أبو شامة المقدسي (ت 665ه) أن المقلدين المتعصبين في زمانه بلغ بهم الأمر إلى أن أصبحت أقوال الأئمة عندهم بمنزلة الكتاب و السنة ، فصدق عليهم قوله تعالى :

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ -سورة التوبة /31- ؛ و لغلبة التعصب عليهم كفروا بالرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما أخبرنا أن الله تعالى يبعث في كل مائة سنة من ينفي تحريف الغالين و انتحال المبطلين ، فحجروا على الله تعالى كاليهود بأن لا يبعث بعد أئمتهم و ليا مجتهدا ؛ و انتهى بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا أُورد عليه دليل من القرآن و السنة اجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويلات البعيدة نصرة لمذهبه . ثم انتهى بهم الأمر على إهمال علوم الكتاب و السنة ، و تفضيل ما

---

[1] نفس المصدر ، ص: 496، 497 ، 501 ، 502 .

[2] الشوكاني: القول المفيد ، حققه عبد الرحمن عبد الخالق ، ط1 ، الكويت ، دار القلم، 1396، ص: 70 .

هم عليه الذي ينبغي المواظبة عليه ، فبدلوا بالطيب خبيثا ، و بالحق باطلا ، و بالهدى ضلالا[1] .

و من ذلك أيضا ما ذكره محمد بن الشوكاني من أنسه أُشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة بأنهم قالا : ((تعذّر وجود مجتهد بعد المائة السادسة))[2] . و ذكر الذهبي أن أحد أهل العلم المقلدين المتمذهبين المتعصبين قال : إن المقلد الذي التزم بتقليد إمامه ، هو مع إمامه كالنبي مع أمته ، لا يحل مخالفته[3] .

و من ذلك أيضا ما ذكره الفقيه المعاصر محمد الحامد من أن فقهاء الحنفية قرروا أن الاجتهاد المطلق في الأحكام ممنوع بعد فوات 400 سنة عن وفاة رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ، ليس حجرا على فضل الله ، و إنما هو لئلا يدعي الاجتهاد من ليس أهله ، فنقع في فوضى دينية واسعة ، لذلك رأى العلماء الأتقياء إشفاقا على الأمة إقفال ذلك الباب أمام أدعياء الاجتهاد[4] .

و من مظاهر مبالغاتهم أيضا ما ادعاه قاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني الحنفي (ت513ه) ، عندما منع أن يُحكم في القضاء بغير رأي أبي حنيفة و صاحبيه محمد و أبي يوسف ، و أعلن أمام الملأ بأعلى صوته بأنه لم يبق في الأرض مجتهد . فأنكر عليه الفقيه المجتهد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي البغدادي(ت513ه) ما ادعاه ، و قال إن كلامه هذا فيه فساد كبير[5] .

---

[1] أبو شامة : مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول ، ضمن مجموع : من هدى المدرسة السلفية ، الجزائر ، دار الشهاب ، ص: 217-218 .

[2] البدر الطالع ، ج 1 ص: 2 .

[3] السيّر ، ج 8 ص: 90 .

[4] محمد الحامد : مجموعة رسائل الشيخ محمد الحامد ، الجزائر ، دار الشهاب ، ص: 6 .

[5] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 10 ص: 210 .

و من ذلك أيضا ما ذهبا إليه الفقيهان الشافعيان أبو عمر بن الصلاح(ت643ه) ، و محي الدين بن شرف النووي(ت676ه) ، فإنهما أوجبا التقليد على الناس و ضيقا على الفقيه مجال حريته ، فإذا صح الحديث فليس له أن يعمل به حتى ينظر هل له معارض أو ناسخ أو نحوهما أم لا ، وإذا حز في نفسه مخالفة الحديث ، فالمختار عندهما إن لم يكن أهلا للاجتهاد في المذهب لم يجز له العمل به ، لاحتمال أن يكون خفي عليه شيء[1] . و نص النووي على أن التقليد أصبح لازما بعد تدوين المذاهب ، ولا يحق للمقلد أن يخالف صاحب مذهبه ،و لا يفتي إلا المجتهد[2] .

و آخرها –أي مظاهر المبالغة في التعظيم و التقليد– ما رواه المؤرخ المقريزي من أن فقهاء الأمصار زمن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (658-676ه) أفتوا في سنة 665 هجرية بوجوب إتباع المذاهب الأربعة و تحريم ما عداها ، و منعوا تقليد غير الأئمة الأربعة ، و كان عددهم كبيرا من مختلف الأمصار ، لم يذكر لنا المقريزي أي واحد منهم[3] .

و تعليقا على ما ذكرناه أقول : أولا إن أقوال هؤلاء المقلدين المتمذهبين المبالغين في تعظيم أئمتهم و الدعوة إلى تقليدهم و الالتزام بأقوالهم ، هي أقوال مبالغ فيها جدا ، سببها التقليد و التعصب المذهبيين ، و لا تقوم على أي أساس صحيح شرعا و لا عقلا .

و ثانيا إنه ما يُرد به على هؤلاء المتمذهبين المتعصبين ، هو أنه علينا أن نتذكر أن أقوالهم المُبالغ فيها تردها أقوال الطوائف الأخرى التي هي مُبالغ فيها أيضا . فالحنفية–مثلا– الذين بالغوا في تعظيم إمامهم و الدعوة إلى تقليده

---

[1] العلموي: المصدر السابق ص :175 ، 190 . والدهلوي: المرجع السابق ص : 108 .و محمد عيد عباس : حقيقة التعيين ص :22

[2] العلموي : نفس المصدر ص : 190 ، 199 .

[3] الخطط و الاعتبار ، ج 2 ص: 344 .

، عليهم أن يعلموا أن الطوائف الأخرى قالت نفس الشيء في أئمتها ، و يمكن الرد بأقوالها على الحنفية . و نفس الأمر يمكن استخدامه للـرد علـى بـاقي الطوائف .

و ثالثا إن هناك أقوالا كثيرة لعلماء آخرين يمكن استخدامها للرد على المتمذهبين المتعصبين المبالغين في تعظيم أئمتهم ، و هي أقوال تشهد على أن هؤلاء الأئمة الأربعة– المبالغ فيهم – وُجد من العلماء من انتقـدهم و فضـل غيرهم عليهم . فالحنفية المقلدون لإمامهم أبي حنيفة ، و المبالغون في تعظيمه و تفضيله و التعصب له ، عليهم أن يعلموا أن كثيرا مـن علمـاء الجـرح و التعديل تكلّموا فيه و انتقدوه ، و ذكروه في الضعفاء[1] . و انتقده أيضا حجـة الإسلام أبو حامد الغزالي(ت505ه) ، و حطّ عليه و خطّأه فـي طائفـة مـن الأحكام الفقهية ، في كتابه المنخول في تعليق الأصول[2] .

و المالكية المبالغون في إمامهم–تعظيما و تعصبا– عليهم أن لا ينسوا هم أيضا ما قاله بعض العلماء في إمامهم ، فقد قال عبد الله بن المبـارك : ((أبو حنيفة أفقه من مالك)) ، و قال الشافعي ((الليث بن سعد أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به)) ، و كان الشافعي يتأسف لفوات السـماع مـن الليث . و قال أيضا : ((كان الليث أتبع للأثر من مالك))[3] . و قال الحـافظ زكريا بن يحيى الساجي(ت307ه) : ((أحمد بن حنبل أفضل عندي من مالـك ، و الأوزاعي ، و الثوري ، و الشافعي ، و ذلك أن لهؤلاء نظراء ، و أحمـد بن حنبل فلا نظير له))[4] .

---

[1] أمثلا : العقيلي: الضعفاء ، ج 4 ص: 281 و ما بعدها . و عبد الله بن أحمد بن حنبل : السنة ، ج 1 ص: 186 و ما بعدها، 204 .

[2] انظر مثلا : ص : 500 و ما بعدها .

[3] الذهبي: السير ، ج 6 ص: 402 . و تذكرة الحفاظ ، ج 1 ص: 224، 225 .

[4] أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 1ص: 18 .

و الشافعية المبالغون في إمامهم -تعظيما و تعصبا- عليهم هم أيضا أن يتذكروا ما قاله بعض العلماء في إمامهم ، فقد انتقده الحافظ بن معين و قال إنه ليس بثقة[1] . و فضّل شيخ الحنفية أبو الحسن القدوري البغدادي (ت قرن:5ه) أبا حامد الإسفراييني الشافعي (ت406ه) على إمامه الشافعي ، بقوله : ((الشيخ أبو حامد عندي أفقه و أنظر من الشافعي))[2] . و فضّل الحافظ زكريا الساجي أحمد بن حنبل على طائفة من كبار العلماء ، من بينهم الإمام الشافعي . و قال الحافظ إسحاق بن راهويه : ((إن الله لا يستحي من الحق ، أبو عبيد -أي القاسم بن سلام- أعلم مني ، و من ابن حنبل ، و من الشافعي))[3] . و قال الشافعي لأحمد بن حنبل : ((انتم أعلم بالحديث و الرجال ، فإذا كان الحديث الصحيح فأعلموني ، إن شاء يكون كوفيا ن، أو شاء شاميا ، حتى أذهب إليه إن كان صحيحا))[4] . فهذا اعتراف منه بأن أحمد بن حنبل أعلم منه بالحديث و الرجال .

و الحنابلة المبالغون في إمامهم -تعظيما و تعصبا- عليهم هم أيضا أن لا ينسوا ما قاله بعض العلماء في إمامهم ، فقد قال أبو داود السجستاني : ((علي بن المديني أعلم من أحمد باختلاف الحديث)) . و قال أحمد بن أبي بكر المديني: ((محمد بن إسماعيل -أي البخاري- أفقه عندنا و أبصر من ابن حنبل))[5] . و قال احمد بن حنبل : ((ما جاوز الجسر -أي جسر بغداد- أفقه

---

[1] السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 2 ص: 22 .

[2] أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ، ص: 45 .

[3] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، ج 12 ص: 411 . و الذهبي : السير ، ج 10 ص: 500 .

[4] أبو الحسين بن أبي يعلى : المصدر السابق ، ج 1 ص: 6 .

[5] الذهبي: تذكرة الحفاظ ، ج 2 ص: 428 . و ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ط1 ، بيروت دار الفكر ، 1984،ج 9 ص: 43 .

من إسحاق بن راهويه ، و لا أحفظ من أبي زرعة))[1] . فهذا اعتراف منه -و هو قد جاوز الجسر- بأن الأول أفقه منه ، و الثاني أحفظ منه . و قد ذكرنا سابقا أن إسحاق بن راهويه قال : ((إن الله لا يستحي من الحق ، أبو عبيد -أي القاسم بن سلام- أعلم مني ، و من ابن حنبل ، و من الشافعي)) .

و قد كان بعض أهل العلم يُفضّلون عبد الله بن أحمد على أبيه أحمد بن حنبل ، في كثرة الرواية و المعرفة[2] . و كان بعض الطلبة يُفضلون أستاذهم إبراهيم الحربي على شيخه أحمد بن حنبل ، فلما اخبروه بذلك امتنع عن تدريسهم[3] . و كان الفقيه المفسر ابن جرير الطبري(ت 310ه) ، لا يعد أحمد بن حنبل من الفقهاء ، و عندما ألف كتابه اختلاف الفقهاء لم يذكره فيه ، و عده من المحدثين ، فثار عليه الحنابلة ببغداد[4] .

و رابعا إن الأقوال التي ذكرناها مؤخرا أيضا في بعضها مبالغات ، منها ما قاله الحافظ زكريا الساجي ، عندما فضّل أحمد بن حنبل على مالك ، و الأوزاعي، و سفيان الثوري، و الشافعي، بدعوى أن هؤلاء لهم نظراء ، و أحمد ليس له نظير . و قوله هذا يّشبه ما قاله الحافظ علي بن المديني (ت233ه) في احمد بن حنبل ، فقال: ((إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر يوم الردة ، و أحمد بن حنبل يوم المحنة)) ، و في رواية أخرى أنه قال : ((ما قام أحد من أمر الإسلام بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-ما قام به أحمد بن حنبل)) ، فقيل له : ((و لا أبو بكر ، قال ولا أبو

---

[1] أبو الحسين بن أبي يعلى : المصدر السابق ، ج 1 ص: 200 .

[2] الذهبي: المصدر السابق ، ج 2 ص: 75 .

[3] الذهبي: السير ، ج 13 ص: 364 .

[4] ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، ج 18 ، ص: 57 ، 58 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 146 .

إنسان كائن من كان ، فكل إنسان يُؤخذ من كلامه و يُـرد إلا النبـي -عليـه الصلاة و السلام . و أما حكاية الأعلم و الأزهد ،و الأعبد و الأشجع ، التـي ذكرها المتمذهبون المتعصبون ، فهي مقاييس لا دخل لها مطلقا فـي مسـألة الإتباع من عدمه. و عليه فإن ما تذرّع به المتمذهبون المتعصـبون فـي أن أئمتهم هم الأفضل و الأعلم و الأعبد ،هي ذرائع مرفوضة ، لأن الشرع أمرنا بـالرد إلـى الله و رسـوله عنـد التنـازع ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ -سـورة النسـاء / 59- .

و قـال لنـا : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾-سـورة النحـل / 43 - فأمرنا بسؤال أهل الذكر إن كنا لا نعلم ، و لم يأمرنا بتقليدهم و التزام أقوالهم ، و التعصب لها . و قد كان أبو بكر الصـديق-رضـي الله عنـه- أفضـل الصحابة مكانة و أكثرهم علما ، و لم يقل للصحابة قلدوني و التزموا أقـوالي لأني أفضلكم ، و هم أيضا ما ادعوا فيه ذلك ، و خالفوه في مسائل كثيـرة ، نجدها في كتب الفقه و التاريخ .

و سادسا إن ما قاله بعض كبار العلماء كابن الصلاح ، و النووي في وجوب التقليد و التضييق على المجتهدين ، هو قول مبالغ فيـه جـدا ، و لا مبرر صحيح له ، فلا داعي لهذا التضييق على أهل العلم ، شرعا و لا عقلا ، لأن الشرع قد ذم التقليد وأمرنا بإتباع الكتاب و السنة ،و لم يلزمنا بإتباع أحد من الناس . و تقليدنا للأئمة الأربعة مخالف لمنهاجهم في الاجتهاد ،و هم قـد نهونا عن تقليدهم . و أية فائدة من التقليد ؟ إنه تربية على العجز و الجمود و السلبية ، و إبعاد للناس عن الكتاب و السنة، و ربطهم بأقوال الرجال .و الشرع الحكيم قد حثنا على الاجتهاد و جعل للمصيب أجرين ،و للمخطئ أجرا واحدا ، فلماذا نحرم العباد من ذلك ،و ندفعهم إلى التقليد دفعا ؟ و لماذا نحـرص و نحتاط لكي يلتزم الناس بتقليد أئمتهم ،و لا نفعل ذلك معهم للعمـل بـالقرآن و

الحديث لتكون لهم علاقة مباشرة بهما ؟ إنه كان من الأولى أن يُفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام أهل العلم ، في كل المجالات ، ليتنافس في ذلك المتنافسون، في إطار آداب البحث و منهجيته .

و سابعا إن الحديثين اللذين ذكرهما الحنفية في مدح إمامهم أبي حنيفة ، هما حديثان مختلقان[1] . و كذلك الحديث الذي ذكره القاضي عياض في مدح مالك بن أنس ، فهو حديث ضعيف[2] . و بذلك يتبين أن التعصب المذهبي أوصل بعض المتمذهبين إلى الكذب على رسول الله –عليه الصلاة و السلام– تعصبا لإمامهم و انتصارا لمذهبه .

و ثامنا إن ما قاله الشيخ محمد الحامد في قوله بلزوم تقليد المذاهب الأربعة حسما للفوضى الدينية ، هو تبرير ضعيف جدا ، لأن التمذهب بالمذاهب الأربعة هو نفسه تكريس للتشرذم و الانقسام و الفوضى الدينية ، و ألم يُؤد ذلك إلى حدوث الفتن و المصادمات ، و قد ذكرنا طرفا منها في الفصل الأول ؟ . كما أن دعوته المغلفة بثوب الحرص على الوحدة ، هي دعوة لا حقيقة لها ، لأن دعوته نفسها هي تكريس للفرقة و التمزق و التناحر . هذا فضلا على أنها تخالف النصوص الشرعية التي تحث على الاجتهاد ، و قد أعطت الشريعة للمجتهد المصيب أجرين ، و أعطت للمخطئ أجرا واحدا ، و لم تمنعه من الاجتهاد لأنه أخطأ ، لأن الخطأ طريق إلى الصواب .

و نحن إذا منعنا الاجتهاد نكون قد حكمنا على أنفسنا بالبقاء منقسمين متشرذمين مختلفين تتجاذبنا أربعة مذاهب ، و نكون قد حرمنا الأمة من أن تراجع نفسها لتعود إلى وحدتها و تتخلّص من انقساماتها و اختلافاتها ، و لكي يتحقق ذلك لا بد لنا من الاجتهاد العلمي النزيه الذي يجمع القلوب و يحرر المسائل العلمية المختلف فيها تحريرا علميا صحيحا .

---

[1] محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص: 210 .

[2] ناصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير ، رقم : 6448 .

و يُستنتج مما ذكرناه في مبحثنا هذا ، أن ظاهرة التفاضل بالأئمة و مذاهبهم ، كانت مظهرا من مظاهر التعصب المذهبي المذموم في كثير من جوانبها ، أوصلت المتمذهبين إلى المبالغة في تعظيم أئمتهم و التعصب لهم ، الأمر الذي فتح عليهم بابا من أبواب الفتن و الشرور . و قد أصاب الفقيه حسن صديق خان عندما قال : إن الكلام على ترجيح فقه إمام و مذهبه على فقه إمام آخر و مذهبه ، ليس من العلم في شيء ، و ((أكثّر من اُبتلي بأمثال هذه الخرافات هم المقلدون للمذاهب و المتمذهبون)) ، و الحق عدم الترجيح ، و أصوبها و ((أشرفها ما كان موافقا للكتاب و السنة ، بعيدا عن شوائب الآراء و المظنة))[1] .

ثانيا :الغلو في العقائد و المذاهب:

أوصل التعصب المذهبي كثيرا من الطوائف الإسلامية إلى الغلو و التطرف ، و تجاوز الحدود الشرعية و العقلية ، بما اعتقدته من أصول و مذاهب باطلة ، و ميزاننا في تمييز ذلك و معرفته هو الاعتماد على النقل الصحيح ، و العلم الصحيح ، و العقل الصريح ؛ فمن ذلك الغلو : الغلو عند الشيعة[2] ، فمذهبهم كله يقوم على الغلو و التطرف ، لتعصبهم و مخالفتهم للنقل و العقل معا ، و مظاهر ذلك كثيرة جدا ، منها : سبهم للصحابة ، و قد سبق ذكر ذلك توثيقا و مناقشة و ردا في الفصل الأول . و المظهر الثاني تكفيرهم لصحابة رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ، و هذا أيضا سبق ذكره و توثيقه و إبطاله في الفصل الأول .

---

[1] القنوجي حسن خان : أبجد العلوم ، حققه عبد الجبار زكار ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1987 ، ج 3 ص: 122 .

[2] سبق تحديد معنى الشيعة في : أولا ، من الفصل الأول .

و المظهر الثالث – من غلوهم و تطرفهم– زعمهم أن الصحابة كتموا نص إمامة علي بن أبي طالب و خلافته[1] . و زعمهم هذا رده الحافظ ابن كثير بقوله : ((ثم لو كان مع علي –رضي الله عنه– نص ، فلِمَ لا كان يحتج به على الصحابة على إثبات إمارته عليهم ، و إمامته لهم ؟ ، فإن لم يقدر على تنفيذ ما معه من النص ، فهو عاجز ، و العاجز لا يصلح للإمارة ؛ و إن كان يقدر و لم يفعله فهو خائن ، و الخائن الفاسق مسلوب معزول عن الإمارة ؛ و إن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل . ثم و قد عرفه و علمه من جاء بعده ، هذا محال و افتراء و جهل و ضلال ، و إنما يحسن هذا في أذهان الجهلة الطغام و المغترين من الأنام ، يُزينه لهم الشيطان بلا دليل و لا برهان ، بل بمجرد التحكم و الهذيان ، و الإفك و البهتان، عياذا بالله مما هم فيه ، من التخليط و الخذلان ، و التخبيط و الكفران))[2] .

و أقول : إن حكاية النص باطلة من أساسها ، لأنه لا يُوجد نص أصلا ، و ما تلك الحكاية إلا خرافة من خرافات الأفاكين الذين تخصصوا في الكذب[3] . كما أن القرآن الكريم قد حسم مسألة الإمامة حسما نهائيا ، فقد أمرنا بأن نطيع الله و رسوله ، و أولي الأمر منا ، و بالرد إلى الله و رسوله عند التنازع ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ –سورة النساء / 59– فأولي الأمر منا ، أي من المسلمين دون تحديد و لا تخصيص بشخص و لا بأسرة ، على أن يتم ذلك في إطار من الشورى ،

---

[1] ابن تيمية: مجموع الفتاوى ، ج 3 ص: 356 . الذهبي: السير ، ج 1 ص: 140 .

[2] البداية و النهاية ، ج 5 ص: 252 .

[3] لمعرفة هؤلاء أنظر كتابنا : مدرسة الكذابين في رواية التاريخ الإسلامي و تدوينه .

لقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ - سورة الشورى / 38- و﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ - سورة آل عمران / 159 - - . و عليه فإن حكاية النص على علي بن أبي طالب هي حكاية باطلة مُفتراة ،و لا يصح -في أي حال من الأحوال- أن نترك ما قرره القرآن و نأخذ بروايات تخالفه ، لأن ما خالف القرآن الكريم فهو باطل مكذوب ، و إن روته كُتب الفرق و التراجم و التواريخ .

و المظهر الرابع – من غلو الشيعة و تطرفهم- زعمهم بأن أئمتهم- الإثنى عشر- معصمون من الخطأ ، و أنهم يعلمون ما كان و ما سيكون ، و أنهم يموتون بإرادتهم ، و كلامهم شرع مُقدس يجب إتباعه ، و الإيمان بهم واجب ، و من أنكر واحدا منهم فهو كافر[1] . حتى أن الخميني قال في كتابه : الحكومة الإسلامية : ((و إن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مُقرّب ،و لا نبي مُرسل))[2] . و قوله هذا هو زعم باطل ، و ادعاء كاذب مردود عليه ، لأن حكاية الأئمة خرافة لا وجود لها إلا في أذهان و أدبيات الشيعة ، و لا وجود لها أصلا في كتاب الله ، و لا في سنة رسوله الصحيحة ، و لا في التاريخ الصحيح . لكن التعصب المذهبي أوصل الشيعة إلى مثل هذا الغلو و التطرف و البهتان .

و المظهر الخامس- من غلو الشيعة و تطرفهم- زعمهم بأن القرآن الكريم مُحرّف بالزيادة و النقصان ، و قولهم هذا ثابت عنهم سجلته الكتب السنية و الشيعية معا ، فمن كتب السنة التي ذكرت عنهم قولهم بالتحريف ،

---

[1] انظر : الكليني: الكافي ، ج 1 ص: 187 ، 258، 263، 397 . و ابن تيمية : المصدر السابق ، ج 3 ص: 356 . و الذهبي: السير ، ج 12 ص: 265 .

[2] الحكومة الإسلامية ، ص: 52 .

كتاب الفِصل في الملل و الأهواء و النحل لابن حزم الأندلسي ، و كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي[1] .

و أما كتبهم ففي مقدمتها كتابهم الأساسي : الكافي في الأصول و الفروع ، لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكُليني (ت قرن :4ه) ، فيه تصريح واضح بتحريف القرآن ، و اعتراف بوجود مصحف فاطمة الذي يخالف القرآن الموجود بين المسلمين حسب زعمهم . و فيه أيضا نماذج من الآيات التي زعموا أنها مُحرّفة ، منها أنهم زعموا أن قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ - سورة البقرة / 23 - هو ناقص حُذف منه : في علي ، فتصبح الآية : ((مما نزلنا على عبدنا في علي فأتوا بسورة)) ، و هناك نماذج أخرى مكذوبة لا داعي لذكرها هنا[2] .

و قد اعترف بذلك عالمهم نعمة الله الجزائري (ت 1112ه) ، فذكر أن الأخبار عند الشيعة استفاضت و تواترت على وقوع التحريف في القرآن كلاما و مادة و إعرابا ، و قال إن قلة من علمائهم لم يقولوا بالتحريف ، و هم : الراضي ، و الصدوق، و الطبرسي ؛ ثم قال أن هؤلاء قالوا بعدم التحريف تقية ، لأجل مصالح كثيرة ، كسد باب الطعن عليهم . ثم ذكر أن في مؤلفات هؤلاء الثلاثة أخبار كثيرة نصت على وقوع التحريف في القرآن[3] .

---

[1] الفصل ، ج 2 ص: 64-65 . و البرهان في علوم القرآن ، ج 2 ص: 127 .

[2] انظر : الكافي : ج 1 ص: 187، 238 ، 239 ، 417 .

[3] نعمة الله الجزائري : النوار النعمانية ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ج 2 ص: 357، و ما بعدها .

و أقول : أولا إن علماء أهل السنة قد نصوا صراحة على تكفير القائل بتحريف القرآن ، فمن أنكر منه حرفا فقد كفر[1] . لأن القائل بذلك أنكر أمـرا معروفا من الدين بالضرورة ، و أنكر صريح القرآن و كفر به ، فالله تعـالى يقـول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ -سورة الحجر : 9- و قال : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾-سورة هود:1- فالقول بتحريفه يعني أنه غير مُحكم ، و هذا مخالف لآية السابقة . و قال أيضا عن كتابه العزيز ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ -سورة فصلت : 42- فالقول بتحريفه يعني أن الباطل قد تطرّق إليـه ، و هذا زعم باطل يخالف ما قررته الآية السـابقة . و بـذلك يتبـين أن القـول بتحريف القرآن هو كفر به ، و افتراء علـى الله و رسـوله و المـؤمنين و التاريخ. فالله سبحانه تعالى قال أنه حفظ كتابه ، و هؤلاء الغلاة المتطرفـون المتعصبون زعموا إنه مُحرّف ، تعصبا للباطل و انتصارا له .

و ثانيا يجب التنبه إلى أمر هام جدا ، هو أن القول بتحريف القـرآن هو من ضروريات عقائد الشيعة ، فهي لا تثبت إلا بالقول بتحريفـه ، فـإذا تصوّرنا عقائدهم منطقيا فبالضرورة يجب أن نقول بتحريف القرآن ، و مثال ذلك أننا إذا افترضنا-جدلا- صحة عقائد الشيعة في سبهم للصحابة و تكفيرهم لهم ، و قولهم بالنص و كتمان الصحابة له ، و قولهم بالأئمة المعصـومين ، فإننا نقول : المفروض أن تُوجد تلك العقائد في القرآن الذي أكمله الله تعالى ، لكن الثابت الأكيد أن تلك العقائد لا وجود لها في القرآن مطلقا ، و الموجـود فيه يخالفها و يُبطلها . و بما أننا افترضنا-جدلا- صحة عقائد الشيعة فهـذا يستلزم أن القرآن قد تعرّض للتحريف و نزعت منه تلك العقائد . لكن يا خيبة

[1] أنظر مثلا : ابن حزم : الفِصل ، ج 2 ص: 64، 65 . و ابن تيمية : الصارم المسلول ، ج 3 ص: 1121 . ز عبد القادر القرشي : الجواهر المضيئة ن ج 1 ص: 501 .

الشيعة إن العكس هو الصحيح ، فبما أن عقائدهم لا توجد في القرآن -الذي حفظه الله تعالى- فهذا يستلزم حتما أن عقائدهم هي الباطلة المكذوبة ، و ليس القرآن الكريم الذي هو الفيصل بين الحق و الباطل .

و كذلك الخوارج كان فيهم غلو و تطرف فكرا و سلوكا ، فقد أوصلهم تعصبهم إلى أن كفروا ((عليا ، و عثمان ، و أصحاب الجمل ، و الحكمين، و من رضي بالتحكيم و صوّب الحكمين أو أحدهما)) . و قال الأزارقة منهم : إن المخالفين لهم من الأمة هم مشركون ، و استباحوا نساءهم و أطفالهم . و قالت الإباضية منهم : إن مخالفيهم من هذه الأمة ليسوا بمؤمنين ، ولا مشركين ، لكنهم كفار[1] . و هذه الأفكار المتطرفة سببها الجهل بالشرع ، و التعصب للمذهب و الغلو فيه ، و إلا فإن الذي حدث في الفتنة الكبرى لا يُوصل إلى التكفير ، لأن الاقتتال الذي حدث كانت له ملابساته و ظروفه و اجتهاداته ، و رُويت فيه كثير من الأكاذيب و الأباطيل . و الله سبحانه و تعالى قد سمى المسلمين المقتتلين بالمؤمنين ، و أمر بالإصلاح بينهم في قوله سبحانه : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ - سورة الحجرات : 9 - .

و كذلك المعتزلة ، هم أيضا كان فيهم غلو ، أوصلهم إليه تطرفهم و تعصبهم لأفكارهم ، حتى أنهم نفوا عن الله تعالى صفاته الأزلية ، و قالوا : ((ليس لله عز و جل علم ، و لا قدرة ، و لا حياة ، و لا سمع ، و لا بصر ، و لا صفة أزلية)) . و قالوا : إنه لم يكن لله تعالى في الأزل اسم و لا صفة[2].و قولهم هذا هو خيال و هذيان ،و رجم بالغيب ، و قول على الله بلا

---

[1] عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص: 73، 83، 103 .

[2] نفس المصدر ، ص: 114 .

علم ، يخالف المنقول و المعقول معا ، لأن العقل يحكم بأن لكل موجود لا بد له من صفات تليق بذاته ، لأن الذي ليس له صفات هو المعدوم ، بحكم أنه غير موجود ، و أما الموجود فلا بد له من صفات .

و أمنا نقلا فإن النصوص الشرعية في إثبات صفات الكمال لله تعالى كثيرة جدا ، فالله تعالى هو الرحمن الرحيم ، و العلي الكبير ، و العزيز الحكيم ، و الرزاق الكريم ، و الأول و الآخر ، و الظاهر و الباطن . و الكون العجيب الذي نراه و نعيش فيه ، هو شاهد على عظمة خالقه ، و كمال صفاته ، فخالق هذا الكون العجيب المعجز لا بد أن يكون خالقا أزليا ، قادرا واسعا ، عليما حكيما ، عزيزا متكبرا ، جميلا لطيفا ... .

و من غلوهم أيضا –أي المعتزلة– أنهم قدموا عقولهم على الشرع مطلقا ،و خاضوا في مسائل غيبية لا تدركها العقول ، فتكلّموا في الصفات و نفوها ، و أنكروا رؤية الله تعالى يوم القيامة بلا دليل صحيح من العقل و لا من النقل . فأقحموا عقولهم في أمور غيبية يستحيل على العقل البشري إدراكها و تصوّرها على حقيقتها. و كان من الواجب عليهم أن يرجعوا إلى الوحي للأخذ منه مباشرة و الاستسلام له ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، و ركبوا رؤوسهم تعصبا و تطرفا ، و غرورا و تكبرا ، و تركوا الوحي من وراء ظهورهم ، فخالفوا بذلك النقل و العقل معا ، و لم يجنوا إلا الظنون و الأوهام ، و الخيالات و الشكوك .

و الصوفية هم أيضا كان فيهم غلو كبير ، أوصلهم إليه تعصبهم لمذهبهم و طائفتهم ، فمن ذلك : حرصهم على ارتداء المرقعة –الخرقة– و إصرارهم على القول بأنها موروثة عن الرسول –عليه الصلاة و السلام– ،و عن بعض صحابته[1] –رضي الله عنهم– . و قد ذكروا لها عدة روايات منها

---

[1] الشوكاني : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، حققه عبد الرحمن المعلمي، بيروت ، دار الكتب العلمية ،1995 ، ص: 253 .

ثلاثة طرق أوصلوها إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- ففي الطريق الأول يوجد فيه العبد الصالح الخضر . و الثاني فيه علي بن أبي طالب ، و عنه أخذ الحسن البصري الخرقة . و الثالث فيه علي بن أبي طالب و عنه أخذ جعفر الصادق الخرقة و عن هؤلاء أخذ الصوفية خرقتهم[1]. و هناك من يذكر الطريقين الأخيرين و يوقفهما عند علي -رضي الله عنه- دون ذكر للنبي- صلى الله عليه و سلّم-[2]. و لهم طريق رابع مفاده أن الصوفي أبا بكر بن هوار رأى في المنام أبا بكر الصديق فألبسه خرقتين ، فلما استيقظ وجدهما عليه ، و عنه توارثها الصوفية[3].

و أقول : لقد اتفق النقاد المحققون من المحدثين كابن الصلاح، و الذهبي و ابن حجر على أنه لم يرد في خبر صحيح ، ولا حسن ، ولا ضعيف ، أنّ الرسول – عليه الصلاة و السلام – ألبس الخرقة أحدا من أصحابه ، ولا أمر بها . وكل ما يروى في ذلك باطل ، ومن الكذب المفترى القول بأن عليا ألبس الحسن البصري الخرقة ، لأنّ أصحاب الحديث لم يثبتوا للحسن البصري سماعا منه[4] ، فضلا على أن يُلبسه الخرقة[5]. و أما القول بأن الخضر أخذها عن النبي -صلى الله عليه و سلّم- فباطل لأنه توفي قبله بقرون مديدة زمن موسى -عليه السلام-[6].

---

[1] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج3 ص :409، 410 .

[2] السبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج8 ص: 266 .

[3] الشعراني : الطبقات الكبرى ج1 ص :154 . و ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، ط1 بيروت ، دار المعرفة ،1970، ج2 ص :114 .

[4] إذا كان ذلك باطلا في حق الحسن البصري المتوفى سنة 110 ه/ 728 م ، فإنّ الإدعاء بأنّ جعفر الصادق (ت 158 ه /774م) أخذ الخرقة عن علي فهو أولى بالبطلان .

[5] الشوكاني : الفوائد المجموعة ص : 253 . و ابن الديبع : تمييز الطيب من الخبيث ص :205 .

[6] ابن القيم الجوزية : المنار المنيف ص :58 وما بعدها .

و يرى ابن الجوزي أن إسناد خرقة الصوفية كله كذب و محـــال[1]. و ذهب المؤرخ ابن خلدون إلى القول بأن الصوفية لما أرادوا أن يجعلوا للباسهم أصلا رفعوا لباس الخرقة إلى علي ابن أبي طالب الذي لم يكن يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لباس ولا حال . وقد كان الصديق و الفـــاروق أزهد الناس و أعبدهم بعد رسول الله ، ولم يختص واحد منهمـــا فـــي الـــدين بشيء[2]. و هذا ردّ من ابن خلدون على الصوفية ،و نقد لهم و تكذيب لهم فـــي دعواهم ، بطريقة لينة ذكية صحيحة . و أما دعواهم إلباس الصديق خـــرقتين لأحد الصوفية في المنام ، فهي هروب من الحقيقة و إحالة على مجهول . فهم عندما أعوزهم الدليل التاريخي الصحيح و تبيّن لهم بطـــلان روايـــتهم عـــن الخرقة لجؤوا إلى المنامات هروبا من النقد . و ما أسهل الاستنجاد بـــالأحلام لاختلاق الأخبار ، فهي في متناول كلّ إنسان ! و متى كانت المنامات من أدلّة الشرع ، ومن طرق إثبات الحوادث التاريخية ؟ .

و من غلوهم و ضلالهم ، ادعاء بعضهم لوحدة الوجود ، بمعنـــى أن الوجود كله واحد ، فالله تعالى هو الوجود ، و الوجود هـــو الله ، بمعنـــى إن الخالق هو المخلوق ، و المخلوق هو الخالق ، و لا فرق بينهما .و هذا الجنون و الهذيان ، و هذا الزعم الباطل المخالف للنقل و العقل معـــا ، قالـــه كبـــار منحرفي الصوفية ، كعمر بن الفارض المصري(ت632ه) ، و محي الدين بن عربي الطائي الأندلسي(ت638ه) ،و القطب بن سعيد الأشـــبيلي(ت669ه) ، و العفيف التلمساني(ت690ه)[3] ، و الذي أوصل هؤلاء إلى هذا الضـــلال ، هـــو جهلهم ،و تعصبهم ، و إتباعهم لأهوائهم و ظنونهم ، و إعراضهم عن الشرع ، و عدم احتكامهم إلى العقل الصريح .

---

[1] ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص : 216 .

[2] ابن خلدون : المقدمة ص :386 .

[3] ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 2 ص: 143 .

و قد وُجد في تاريخنا الإسلامي من كان يتعصب لهؤلاء الضالين و يُدافع عنهم جهلا و تعصبا ، فعندما صنف الفقيه برهان الدين البِقاعي الشافعي (ت 885ه) كتابا سماه : تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض و ابن عربي ، انتقده كثير من أهل العلم ، و تناولوه بالألسنة ،و كَثُر الرد عليه ، منهم جلال الدين السيوطي (ت911ه) ، رد عليه بكتاب : تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي ،، و رد عليه أيضا الشيخ إبراهيم بن محمد الحلبي (952ه) ، بكتاب سماه : تسفيه الغبي في تكفير ابن عربي[1] .

و منهم أيضا : القاضي الحنفي سراج الدين عمر بن إسحاق الغزنوي الهندي ثم القاهري(ت773ه) ، كان يتعصب للصوفية الاتحادية-دعاة وحدة الوجود- ، حتى أنه عزّر رجلا تكلّم في الصوفي الاتحادي عمر بن الفارض[2].

و المتكلمون هم أيضا كان فيهم غلو و تطرف-تعصبا للمذهب و إتباعا للظن- ، فوُجدت من بينهم طائفة نفت الحكمة[3] الإلهية في الكون ، و أنكرت طبائع المخلوقات ، و ما فيها من قوى و أسباب و غرائز ، و من

---

[1] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج 9 ص: 510 . و حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 1 ص: 404 .

[2] ابن العماد الحنبلي : نفس المصدر ، ج 8 ص: 391 .

[3] يقصد بالحكمة العلم النافع ،و العمل الصالح الموصلان إلى الغاية المحمودة ،و لا يعتبر الكلام حكمة إلا إذا كان مرشدا إلى ذلك و مؤديا إلى الغايات المحمودة ،و المطالب النافعة ،و إذا لم يراد به مصلحة المخاطبين و سعادتهم ،و هدايتهم إلى ما ينفعهم لم يكن حكمة،ولا قائله حكيما . [3] ابن القيم الجوزية : شفاء العليل ، ط 3 بيروت ، دار الكتب العلمية ص :319 .و ابن تيمية : التفسير الكبير، حققه عبد الرحمن عميرة ، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1988 ، ج 4 ص :207-208 . و ابن تيمية : درء تعارض العقل و النقل ج 4 ص :131 .و مجموع الفتاوى ج 8 ص :137 .و التفسير الكبير ج 4 ص : 207 208 ، 211 .

الذين نفوا ذلك : الجهمية ، و بعض متكلمي الحنابلة ، كالقاضي أبي يعلى الفراء(ت485ه) ،و أبي الحسن الزاغوني(ت527ه) ، و من هم أيضا الأشاعرة ، نفوا ما ذكرناه ، و قالوا أن الله تعالى يفعل عند الأسباب لا بها ، بمعنى أنها–أي الأسباب– مجرد اقتران دون تأثير ، و أرجعوا الحكمة إلى علم الله بأفعال عباده ، و إقاعها على ما أراده ، و لم يثبتوا إلا العلم و الإرادة و القدرة[1] . فهؤلاء بموقفهم هذا قد جحدوا السببية المشهودة في الواقع ،و التي صرحت بها آيات قرآنية كثيرة ، كقواه تعالى : ((وما انزل الله من السماء من ماء ،فأحيا به الأرض بعد موتها))–سورة البقرة/163-164– وهم يرون أن إثبات الحكمة لله يؤدي إلى إثبات الحاجة في حقه ، و هو منزه عنها[2]. و هذا قياس للخالق بالمخلوق ، فالعبد هو الذي يعمل لحاجة ، أما الله فهو منزه عنها و غني بذاته ، حكمته كمال وغاية محمودة ،و ليست حاجة و لا نقصا .

و قد ذكر ابن الأهدل اليمني الاشعري(ت855 ه) أن خصوم أبي الحسن الأشعري(ت342 ه) يذمونه لقوله : ((الخبز لا يشبع ،و الماء لا يروي ،و النار لا تحرق ،و هذا كلام أنزل لله معناه في كتابه ، فإن الشبع و الري و الاحراق حوادث انفرد الرب سبحانه بخلقها ، فلم يخلق الخبز الشبع ، و لم يخلق الماء الري ،و لم تخلق النار الاحراق ، و إن كانت أسباب في

---

[1] ابن الأهدل اليمني: كشف الغطاء ص :75 .و ابن تيمية: التفسير الكبير ج 4 ص :207-208 .و الرسالة التدمرية ، الجزائر ، دار الشهاب ، 1989 ، ص : 92 .و مجموع الفتاوى ج 8 ص : 37 .و و قاعدة في المحبة ، حققه محمد رشاد سالم الجزائر دار الشهاب د ت ، ص :28-29 .و السفاريني : لوامع الأنوار البهية ، حققه رشيد رضا ، القاهرة ، مطبعة المنار الإسلامية ، 1323ه ، ج 1 ص :262-263 .و محمد المبارك : التفكير العلمي في الإسلام ط2 بيروت ، دار الفكر 1980 ، ص :62 .و سفر الحوالي : منهج الأشاعرة في العقيدة ، ط1 ، الجزائر ، الدار السلفية ، 1990 ، ص :45 .

[2] ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج 8 ص :37 .

ذلك))[1] . فهو هنا قد اعترف أن الأشعري يقول: أن الخبز لا يشبع ،و الماء لا يروي ،و النار لا تحرق، لكنه لم يرد على منتقديه في هذه المسألة ،و قرر أمرا متفق عليه ، وذلك أن مثبتي الحكمة و التعليل يقولون أن الله خلق كل شيء ، وجعل في مخلوقاته خصائص و طبائع و غرائز ، فالنار فيها خاصية الإحراق ،و الماء فيه خاصية الإرواء ، وهذا الأمر لم يتطرق إليه ابن الأهدل .و مما يزيد الأمر وضوحا أنه لما أُلقي إبراهيم –عليه السلام –في النار قال لها الله تعالى : ﴿قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾ –سورة الأنبياء/69– فهذا يعني أن النار فيها خاصية الإحراق، لكن تدخل االإرادة الإلهية عطل خاصيتها المجبولة عليها إلى حين من الزمن، في حق نبي الله إبراهيم عليه السلام .

و ذكر شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية أن الذين أنكروا الأسباب و طبائع المخلوقات و غرائزها ، قولهم على خلاف الكتاب و السنة ، لقوله تعالى : ﴿و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ،و بث فيها من كل دابة﴾ – سورة البقرة/163–164– و ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ – سورة النمل/88– و قد قيل : ((تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب و القوى و الطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم))[2] .فعلى العبد أن يعلم أن علم الله و قدرته و حكمته و رحمته ، في غاية الكمال الذي لا يُتصور زيادة عنها ، و الناس متفاوتون في العلم بذلك ،و كلما ازداد العبد علما بحقائق الأمور ازداد علما بحكمة خالقه وعدله ،و رحمته و قدرته ،لأنه تعالى لا يخلق شيئا إلا لحكمة، لقوله : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه﴾سورة السجدة/7- و ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾-سورة النمل/88- و لا يعلم تفاصيل بعض حِكَمه إلا القليل من الناس ، منها

---

[1] ابن الأهدل : المصدر السابق ص : 75 .

[2] ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج 8 ص : 137 ، 514 .

ما يعجز عن معرفته جميع الخلق ، بما فيهم الملائكة، فحين تساءلوا عن خلق أدم –عليه السلام– قال لهم الله تعالى: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون﴾ سورة البقرة /30- و من أنكر تأثير الأسباب ،و قال أن الله يفعل عندها لا بها –أي مجرد اقتران دون تأثير متبادل– فقد خالف ما جاء في القران الكريم ، و جحد ما خلقه الله من القوى و الطبائع ،و من جعل الأسباب هي المبدعة لذلك فقد أشرك بالله و أضاف فعله إلى غيره[1] .

و يرى المحقق ابن قيم الجوزية أن الكون كله مظهر للحكمة الإلهية ، تقصر عقول العالمين– بعلومهم و حِكمهم– عن الإحاطة بتفاصيلها في أصغر المخلوقات .و في العبادات حِكم و أسرار لا تهتدي العقول إلى إدراكها على جهة التفصيل ،و إن أدركتها جملة[2] .و قد جعل سبحانه و تعالى مصالح ((العباد في معاشهم و معادهم، و الثواب و العقاب ،و الحدود و الكفارات ،و الأوامر و النواهي ، والحل و الحرمة ، كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها)) ،و شرعه و مقاديره كلها أسباب و مسببات[3] .

و قال أيضا إنه ليس مع نفاة الأسباب و المسببات ، نقل و لا عقل و لا إجماع ،و الكل يشهد ببطلان قولهم ،و جِماعه أن ((كمال الرب تعالى و جلاله ،و حكمته وعدله،و رحمته و قدرته ،و إحسانه.و حمده ، و مجده و حقائق أسمائه الحسنى ، تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ،و لا لغاية مطلوبة))[4] .و قولهم أن الله– عز و جل– رد الأمر إلى محض المشيئة بقوله:

---

[1] ابن تيمية: نفسه ج 8 ص :514 .و الرسالة التدمرية ، الجزائر دار الشهاب 1989 ، ص :92 .

[2] ابن القيم الجوزية : شفاء العليل ص :314 .و مختصر الصواعق المرسلة ، حققه جامع رضوان ، بيروت ، دار الفكر ، 1979 ،ج 1 ص :298-299 .

[3] نفس المصدر ص : 315 .

[4] نفس المصدر ص :343 .

﴿يعذب من يشاء و يرحم من يشاء﴾ -سورة العنكبوت/21- و ﴿لا يُسأل عما يفعل﴾ -سورة الأنبياء/23- فهو كلام حق ، لا يوجد فيه إبطال حكمته و حمده ، وإنما هو يفعل ما يشاء بأسباب و حِكَم لغايات مطلوبة ،و عواقب محمودة ، و قوله : ((لا يُسأل عما يفعل و هم يُسألون)) فهو لكمال علمه و حكمته ، لا لعدمهما[1] .و لا يحصل الكمال و الصلاح بالقدرة و العلم المجردين عن الحكمة ، وإنما يحصلان بهما و بالحكمة معا ؛و اسمه: الحكيم يتضمن ((حكمته في خلقه،و أمره في إرادته الدينية و الكونية ،و هو حكيم في كل ما خلقه و أمر به)) ،و حِكمته في هذا الوجود تقع على الوجه المقدر لها ، بما ((خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها . فوجود هذه الأسباب بالنسبة للخالق الحكيم هو من الحكمة ، ولهذا يقرن-سبحانه- في كتابه بين اسمه الحكيم و اسمه العليم تارة ،و بين اسمه العزيز و اسمه الحكيم تارة- أخرى- كقوله : ﴿ والله عليم حكيم﴾ -سورة الأنفال/71- و ﴿ الله عزيز حكيم﴾[2] -سورة الأنفال/10- .

و نبّه ابن قيم الجوزية إلى أن القرآن الكريم مملوء بإثبات الأسباب كقوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعملون﴾ -سورة لقمان/15- و ﴿ بما كنتم تكسبون﴾ -سورة الأعراف/39- و ﴿ بما كسبت أيديكم﴾ -سورة الشورى/30- ،و أشار إلى أنه لو تتبعنا ما يفيد الأسباب في الكتاب و السنة لزاد عن عشرة آلاف موضع ،و لا يوجد كتاب أعظم إثباتا للأسباب من القرآن الكريم ، ومن الخطأ إيهام الناس بأن التوحيد لا يتم إلا بإنكار الأسباب ، فإن الله هو الذي خلق الأسباب و المسببات،و هي طوع مشيئته و قدرته ، و منقادة لحكمه[3] .

---

[1] نفس المصدر ص : 441 ، 442 .

[2] ابن القيم الجوزية : طريق الهجرتين ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د ت ، ص : 135 ، 136 ، و 138 .

[3] ابن القيم الجوزية: شفاء العليل ص : 317 .

و يقول الباحث محمد المبارك: أن الكون مُحكم بسنن مقدرة مطردة ، جعلت حوادثه تقترن ببعضها اقترانا خاصا ،و تتلاحق بحيث يستتبع بعضها بعضا ،وتسير على نسق منتظم مطرد ،و هذا قد دلت عليه آيات قرآنية كثيرة ، كقوله تعالى: ﴿ و أرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾ سورة الحجر/22- و ﴿ جعلنا من الماء كل شيء حيا ﴾ سورة الأنبياء/30- . فيتبين من ذلك أن نفي الأسباب لا يتفق مع آيات الكتاب و السنة النبوية ،و يسد باب العلم القائم على مشاهدة الارتباط المطرد بين الحوادث ،و الكشف عن سنن الكون[1] .

و تعقيبا على ما ذكرناه أقول: إن مظاهر الحكمة و السببية و طبائع المخلوقات ، حقيقة مشاهدة في الواقع ، وأشارت إليها نصوص شرعية كثيرة ؛ وإثباتها لا يؤدي إلى اعتقاد الشرك ،ولا إلى القول بالحاجة في حق الله تعالى، فهو غني بذاته ، خالق كل شيء ، وفق حِكم و سنن مقدرة ، لقوله تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ سورة الفرقان/2- .و الذين أنكروا ذلك من الحنابلة و الأشاعرة ليس لهم ما ينقضون به تلك الحقيقة ، إلا تأويلات وظنون لا تصمد أمام النقد العلمي؛ و جحودهم لطبائع الأشياء و الأسباب المتحكمة فيها يستلزم إنكار كل العلوم ، لأنها تقوم أساسا على السببية و السنن الاجتماعية و الطبيعية .

و فيما يخص الحكمة و الغائية في الطبيعة فقد كشفت الدراسات العلمية الحديثة عن وجود توازن مدهش يتحكم في كل مظاهر الكون،و أن خواص المادة ملائمة تماما للحياة على وجه الأرض بطريقة فذة محكمة،وأن أدنى زيادة أو نقص فيها يجعل الحياة عليها مستحيلة،ودل التاريخ الطبيعي للأرض أن التطورات التي شهدتها عبر مراحلها الجيولوجية،كانت كلها تسير

---

[1] محمد المبارك : المرجع السابق ص :56-57 .

نحو الغائية و التدبير [1]؛ ثم توجت في النهاية بظهور الإنسان الذي وَجَد الأرض مهيأة ومسخرة له وفق سُنن إلهية مُحكمة.الأمر الذي يؤكد مرة أخرى أن العالم مبني على الحكمة والغائية .

كما أن في القرآن الكريم آيات كثيرة أشارت إلى الحكمة من أوامر الله و أفعاله كتحريم الخمر و الميسر ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴾-سورة المائدة/90 -، وبيان الغاية من خلق الإنسان في قوله تعالى: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق ،وما أريد منهم أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين))_سورة الذريات/ 56 57- فهذه الآية بينت الغاية والحكمة من خلق الإنسان ، ودفعت ما قد يتوهمه بعض الناس من أنه تعالى في حاجة إلى أن يعبده الجن والإنس، وهو الحكيم الغني بذاته المتفرد باسمائه وصفاته.

مذاهبهم ، ذكرنا طرفا منه فيما سبق[2] ،و نذكر هنا زيادات أخرى ، فكانوا – أبي المتمذهبون المتعصبون- يردون الحديث الصحيح إذا ما تعارض مع مذاهبهم ، و يأخذون باجتهادات أئمتهم و يتركون الحديث ، و هذه الظاهرة كانت منتشرة جدا زمن الفقيه المؤرخ أبي شامة المقدسي المتوفى سنة 665هجرية . و قال أن المقلدين الشافعية في زمانه كانوا إذا جاءهم الحديث الصحيح احتالوا في دفعه بما لا ينفعهم ، لأن الشافعي قد حثّ على ترك قوله إذ صحّ الحديث . حتى أن بعضهم كان يستجيز مخالفة قول الشافعي بقول آخر في مسألة أخرى بخلاف القول الأول ، لكنهم لا يرون مخالفته–أي الشافعي–

---

[1] جورج ستانسيو ،و روبرت أغروس: العلم في منظوره الجديد،ترجمه كمال خليلي، سلسلة عالم المعرفة الكويت المجلس الوطني للثقافة و الفنون ، 1984 ص :68.

[2] أنظر المبحث الأول من هذا الفصل . من هذا

لأجل حديث رسول الله -صلى الله عليه و سلم- ، و قد حثهم إمامهم على ترك قوله و الأخذ بالحديث[1].

و ذكر أن شافعية زمانه كانوا يتعصبون لكتب أبي حامد الغزالي، و أبي إسحاق الشيرازي ، حتى و لو خالفت الحديث الصحيح الصريح . و كان أكثر متعصبة الشافعية يردون أقوال أكابر الصحابة ، كأبي بكر و عمر - رضي الله عنهما- ،و لا يردون قول الشيرازي و الغزالي ، لقلة معرفتهم و كثرة جهلهم بمراتب السلف[2] .

و يتبين مما ذكرناه في هذا المبحث ، أن ظاهرة الغلو و التطرف في العقائد و المذاهب وُجدت عند كل الطوائف الإسلامية عامة و الشيعة خاصة ، الذين تجاوزوا -في غلوهم-حدود الشرع و العقل معا . فكان الذي أوصلها إلى ذلك الغلو ، هو التعصب الأعمى للمذاهب ،و إتباع الظنون و الأهواء و الشهوات ، و عدم الالتزام بالنقل الصحيح ، و لا بالعقل الصريح ،و لا بالعلم الصحيح .

ثالثا: مسائل خلافية أثارت التعصب المذهبي:

أثارت بعض المسائل الخلافية -الأصولية و الفروعية- كثيرا من التعصبات المذهبية بين الطوائف السنية الأربعة ، خلال عصر التقليد و التعصب المذهبيين (ق: 4-14ه) ، أذكر منها المسائل الآتية .

فبخصوص مسائل أصول الدين -التي أثارت التعصب- فمنها ثلاث مسائل ، أولها مسألة الصفات ، و هي قد تسببت في تعصبات كثيرة بين السنيين ، تُبينها الشواهد الآتية : منها أنه لما ألف القاضي أبو يعلى الفراء الحنبلي البغدادي(ت458ه) كتابه إبطال التأويلات لأخبار الصفات ، ردا على

---

[1] أبو شامة : مختصر كتاب المؤمل ، ص: 217، 218 ، 227 ، 230 .

[2] نفسه ، ص: 227، 230 ، 237 .

المتكلم الأشعري أبي بكر بن فورك (ت406ه) ،و أثبت فيه الصفات التي أولها ابن فورك ، و زاد عليها صفاتا أخرى ، احتج عليه الأشاعرة ببغداد ، و اتهموه بتجسيم الله تعالى ، و تشبيهه بمخلوقاته ، فأحدث ذلك تعصبا بينهم و بين الحنابلة و أهل الحديث سنة 429هجرية ، ثم تجدد النزاع سنة 432هجرية ، فتدخل الخليفة القائم بأمر الله (422-467ه) و أصلح بينهما . ثم عاد الأشاعرة و احتجوا مرة أخرى على الكتاب ، تعصبا لمذهبهم في الصفات ،و كان ذلك سنة 445هجرية ، فتدخل الخليفة ثانية و أصلح بين الطرفين في اجتماع جمعهما ، انتصر فيه القاضي أبو يعلى و أصحابه[1] .

و الشاهد الثاني مفاده أن واعظا أشعريا جلس ذات يوم بجامع المنصور ببغداد (سنة 461ه) ، فتعصب على الحنابلة و أهل الحديث ، و انتصر لمذهبه ، و أشاد بفضل أبي الحسن الأشعري و من وافقه ، و أوهم الحاضرين بأن هؤلاء-أي الحنابلة و أصحاب الحديث- يُشبهون صفات الله بصفات البشر ، فقام إليه بعضهم و أنزلوه من على الكرسي ، و عوّضوه برجل منهم[2] .

و الشاهد الثالث مفاده أن الخلاف المذهبي- في الصفات- بين الأشاعرة و أهل الحديث ولّد تعصبا شديدا بين الطائفتين ، و جعل كل طرف يذم الآخر و يطعن فيه ، فالأشاعرة و صفوا أصحاب الحديث بأنهم مُشبهة و مُجسمة ، و جعلوهم ممن كاد للإسلام ن و وصفوهم أيضا بأنهم رعاع أوباش ، مُبتدعة

---

[1] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 8 ص: 16 ، 104، 228 . و ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 6 ص: 54 . و أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 197، 198 .

[2] أبو علي بن البناء : يوميات ابن البناء ، نشرته مجلة الدراسات الشرقية بالمركز الفرنسي بدمشق ، مج 19 ، 1957 ، ص: 15 .

حشوية[1] . و أهل الحديث هم أيضا ذموا الأشاعرة بمختلف ألفاظ الذم و التشنيع ، و اتهموهم بالتمويه على الناس ، و شبّهوهم بالزنادقة ، لأنهم يخفون مقالتهم في الصفات عن قوم ، و يُظهرونها لآخرين[2] .

و الشاهد الرابع هو أن من مظاهر تعصب الأشاعرة على الحنابلة و أهل الحديث ، هو التشنيع عليهم بإثبات صفات وردت في القرآن و السنة الصحيحة ، فيقولون إن هؤلاء يُثبتون صفة النزول، و الاستواء على العرش، و الضحك، و تكليم الله لموسى ، فينسبون إليهم كلام الله الذي وصف به نفسه ، و هم –أي الحنابلة و أهل الحديث– لا يصلحون لذلك و لا يبلغونه[3] . حتى إن بعضهم قال عن الحنابلة – في إثباتهم لتلك الصفات– إنه ((ما بين شيوخ الحنابلة و بين اليهود إلا خصلة واحدة)) ، فردّ عليه الحافظ أبو نصر السجزي (ت444هـ) بقوله : ((و لعمري إن بين الطائفتين خصلة واحدة، لكنها بخلاف ما تصوّره الساقط ، و تلك الخصلة إن الحنابلة على الإسلام و السنة ، و اليهود على الكفر و الضلالة))[4] .

و واضح إن تشنيع الأشاعرة على أهل الحديث بذلك الطريق الملتوي ، هو في حقيقته رد للشرع ،و قدح فيه ، و تحايل على المسلمين ، بإلقاء التهمة على أصحاب الحديث ، بدلا من الإعلان صراحة رفضهم لتلك الصفات التي وردت في الكتاب و السنة الصحيحة ،و هو في النهاية رفض للقرآن و

---

[1] ابن عساكر : تبيين كذب المفتري، ص: 310 و ما بعدها .

[2] ابن تيمية : درء التعارض، ج 2 ص: 91 ..و أبو نصر السجزي : رسالة السجزي إلى أهل زبيد ، ص: 51، 57 . و الموفق بن قدامة المقدسي : مناظرة في القرآن ، ص: 58 .

[3] الموفق المقدسي : تحريم النظر في كتب أهل الكلام ، نشره جورج مقدسي لندن، مطبعة لوزاك ، ص: 58 .و ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج 4 ص: 186 .

[4] السجزي: رسالة السجزي ، ص: 45 .

السنة ، فالمفروض إنه كان عليهم أن يُعلنوا موقفهم صراحة من تلك الصفات ليعرف الناس حقيقة موقفهم منها .

و الشاهد الخامس يتعلق بما ادعاه الفقيه تاج الدين السُبكي الشافعي الأشعري(ت قرن:8ه) ، من أن الرعاع من الحنابلة هم الذين خرجوا عن عقيدة الأشعري و التحقوا بأهل التجسيم[1] . و قوله هذا فيه تعصب مفضوح و افتراء مكشوف ، لأنه بما أن معظم علماء الحنابلة ما كانوا أشاعرة ، و إنما كانوا على مذهب السلف و أهل الحديث في أصول الدين ، فهذا يعني حسب زعمه–أي السُبكي– أن غالبية علماء الحنابلة كانوا رعاعا مجسمة ، و هو اتهام خطير و بهتان مُتعمد مكشوف ، و دعوى لا دليل عليها ، و مجازفة دافعها التعصب المذموم ، فأعيان الحنابلة الذين كانوا على مذهب السلف ، كغلام الخلال ، و ابن شاقلا، و الشريف أبي جعفر، و أبي البركات الأنماطي، و ابن هبيرة ، و الحافظ عبد الغني، و الموفق بن قدامة، و الحافظ الضياء، و مجد الدين بن تيمية ، و تقي الدين بن تيمية ، و ابن القيم الجوزية ، و غيرهم كثير ، هؤلاء كلهم هم عند التاج السُبكي رعاع مجسمة ، و هذا–بلا شك – ادعاء باطل مردود على صاحبه ، دافعه تعصب أعمى ممقوت .

و المسألة الثانية–من مسائل الأصول التي أثارت التعصب– هي مسألة المقام المحمود ، و مفادها أنه حدث ببغداد (سنة 317ه) خلاف بين أصحاب أبي بكر المروزي الحنبلي و طائفة من العامة ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾- سورة الإسراء/49- ، فقال الحنابلة : إن الله تعالى يُجلس رسوله–عليه الصلاة و السلام– إلى جانبه على العرش يوم القيامة . و قال معارضوهم : إن المقام المحمود المذكور في الآية ، هو الشفاعة العظمى يوم القيامة ، فنشب قتال بين الجماعتين قُتل فيه خلق كثير ،

---

[1] السبكي: طبقات الشافعية ، ج 3 ص: 365-366 . و معيد النعم و مبيد النقم ، حققه محمد علي النجار ، ط1 ، القاهرة ، جماعة الأزهر ، 1948 ، ص: 75 .

و لم يتوقف القتال إلا بتدخل الجند[1] . و كان شيخ الحنابلة أبو محمد البربهاري(ت329ه) لا يحل بمجلس إلا ذكر فيه إن الله يُجلس رسوله بجانبه على العرش[2] .

و الصواب في هذه المسألة هو أن الحنابلة –في تعصبهم لرأيهم– كانوا على خطأ ، لأنهم تمسكوا بآثار ضعيفة و أخرى موضوعة ، قاتلوا من أجلها ،و تركوا أحديث صحيحة تُبطلوا ما ذهبوا إليه . لأنه قد ثبُت في أحاديث صحيحة رواها البخاري ،و أحمد ، و ابن خزيمة ، و غيرهم من المحدثين ، مفادها أن المقام المحمود هو شفاعة النبي–صلى الله عليه وسلم – العظمى لأمته يوم القيامة[3] ، و ليس ما ذهب إليه هؤلاء الحنابلة ، تعصبا لروايات ضعيفة ، و تركاً لروايات صحيحة .

و المسألة الأخيرة–أي الثالثة– تتعلق بمسألة الاستثناء في الإيمان ، فقد اختلف فيها العلماء ،و أثارت بنهم تعصبات ، فبعضهم قال بمشروعية الاستثناء في الإيمان ، كأن يقول المسلم : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى . و بعضهم عارض ذلك و جعل الاستثناء شكا في الإيمان و لا يصح قوله ، و على المسلم أن يقول : أنا مؤمن . و قد أحدثت هذه المسألة خلافات و تعصبات و مواجهات بين المالكية بمدينة القيروان ، فأنقسم أهل العلم بها إلى طائفتين ، الأولى عُرفت بالسحنونية نسبة للفقيه محمد بن سُحنون (ت256ه) ، و كانت لا تستثني في الإيمان . و الثانية عُرفت بالعبدوسية ، نسبة إلى

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 162 . و أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني، د ت مج 1ج 3 ص: 94 .

[2] أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 43 .

[3] أنظر : ابن كثير : المصدر السابق ، ج 11 ص: 162 . و تفير القرآن العظيم ، ج 4 ص: 335 . و ابن خزيمة : كتاب التوحيد ، دار الكتب العلمي ، بيروت ، 1978 ، ص: 305، 306 . و ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 14 ص: 394 . و الألباني: صحيح الجامع الصغير ، مج 2 رقم : 6721 . و مختصر العلو للعلي الغفار ، ص: 15 .

الفقيه غالب بن عبدوس (ت260ه)، و كانت تقول بالاستثناء في الإيمــان ، و تنكر على السُحنونية مقالتها ،و تُنسبها إلى الإرجاء لقولها : أنا مؤمن عند الله ، دون أن تستثني في ذلك . و كانت الأولى –أي السُحنونية–تسمي الثانيــة–أي العبدوسية– بالشكوكية لاستثنائها في الإيمان ؛ فأصبحت كل طائفة تتعصــب على الأخرى[1] .

فمن ذلك أنه رُوي أن أحدا من الطائفة السُحنونية ذهب إلى الفقيه ابن عبدوس و سأله عن مسألة الاستثناء في الإيمان ، فأجابه ابن عبدوس بقولــه : أنا مؤمن و سكت . فقال له الرجل : أعند الله ؟ ، فقال ابن عبدوس : قد قلتُ لك ، فأما عند الله فلا أدري بما يُختم لي ، فبصق الرجــل فــي وجــه ابــن عبدوس و انصرف[2] .

و من ذلك أيضـــا أنـــه رُوي أن إبــراهيم بــن عتــاب الخــولاني القيرواني(ت261ه) كان إماما لمسجد ابن سُحنون ، متعصبا للطائفة السُحنونية شديد التحامل على ابن عبدوس و أصحابه ، فلما مات ابن عبدوس لم يُصــل عليه ابن عتاب –إمام مسجد ابن سُحنون– و قال فيــه : إنـــه كــان رجــلا شكوكيا[3].

و يرى القاضي عياض أن الخــلاف بــين الطــائفتين السُــحنونية و العبدوسية هو خلاف لفضي لا حقيقي ، فمن نظر إلى الخاتمة و الحال المغيب و ما سبق به القدر ، قال بالاستثناء . و من نظر إلى نفسه و صحة معتقده في وقته لم يقل بالاستثناء[4] . و قوله هذا صحيح ، مع العلم أن الإيمان الذي يُدخل

---

[1] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 382، 386 .

[2] نفسه ، ج 1 ص: 386 .

[3] نفس المصدر ، ترجمة إبراهيم بت عتاب، ص: 460 .

[4] نفس المصدر ، ج 1 صك 382 .

الجنة هو الإيمان الذي يجمع بين الاعتقاد بالجنان ، و النطق باللسان ، و العمل بالجوارح ،و هذا الإيمان لا يعلم قبوله ومصيره إلا الله تعالى .

و من ذلك أيضا ما حدث بين الشافعية و الحنفية في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، و ذلك أن أحدشيوخ الشافعية بطرابلس الشام ذهب إلى المفتي ،و قال له : ((اقسم المساجد بيننا و بين الحنفية ، لأن فلانا من فقهائهم يعتبرنا كأهل الذمة ، بما أذاعه في هذه الأيام من اختلاف الأحناف في : هل يجوز للحنفي أن يتزوج شافعية ؟ ! . فقال بعضهم : لا يصح لأنها تشك في إيمانها ، لأن الشافعية يُجيزون أن يقول المسلم : أنا مؤمن إن شاء الله . و هذا يدل على عدم تيقنها في إيمانها ، و الإيمان لابد فيه من اليقين[1] . و هذا اعتراض في غير محله ، لأن الذين يستثنون في الإيمان يقصدون بذلك تعليق قبوله و تحقيقه بالمشيئة الإلهية ، و لا يقصدون الشك في الله تعالى و رسوله-عليه الصلاة و السلام .

و أما مسائل الفروع-التي أثارت التعصب بين السنيين- فسأذكر منها خمسا إن شاء الله تعالى ، أولها مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة ، اختلف فيها الفقهاء ، و تضاربت حولها الروايات ، فمنهم من قال بالجهر بها في الصلاة ، و منهم من قال بالسر بها في الصلاة ، فأحدث ذلك تعصبا مذهبيا بين السنيين ، من ذلك أن جماعة من الحنابلة ببغداد أحدثوا فتنة في المجتمع سنة 323هجرية ، عندما اعترضوا على كل ما يرونه مخالفا للشرع حسب مذهبهم ، كاعتراضهم على من يجهر بالبسملة في الصلاة ، الأمر استدعى تدخل الشرطة ضدهم ، فأمرت بأن لا يُصلي حنبلي بالناس إلا إذا جهر بالبسملة في صلاتي الصبح و العشاء ، فلم يرتدع الحنابلة و استمروا في عنفهم و مشاغباتهم تجاه الشافعية ، و لم يُوقفوا ذلك إلا بعدما أصدر الخليفة

---

[1] عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي، الجزائر ، قصر الكتاب ، 1990 ، ص : 166-167 ..

الراضي بالله(322-329ه) توقيعا عنيفا زجرهم فيــه ، و هــددهم بالقتــل و التنكيل ، و التشريد و حرق البيوت[1] .

و في سنة 447 هجرية حدثت فتنة بين الحنابلة و الشافعية الأشــاعرة ببغداد ، كان من أسبابها جهر الشافعية بالبسملة في الصلاة ، فانقسمت العامة بين مؤيد و مخالف لهم ، ثم انحازت كل طائفة إلى الطرف الذي مالت إليه ، و لم تفلح مساعي ديوان الخليفة في التوفيق بين الفريقين و بقي الخلاف قائمــا ، ثم توجه الحنابلة إلى أحد مساجد الشافعية ، و نهوا إمامه عن الجهر بالبسملة ، فأخرج مصحفا و قال لهم : ((أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها)) ، ثم تطور النزاع إلى الاقتتال ، فتقوى جانب الحنابلة و تقهقــر جانــب الشــافعية الأشاعرة ، حتى ألزموا البيوت ،و لم يقدروا على حضور صلاة الجمعة و لا الجماعات ، خوفا من الحنابلة[2] .

و هذه الفتنة أسبابها الظاهرة فقهية ، لكن خلفياتها المحركة لهــا هــي أسباب أصولية عقيدية ، تعود إلى النزاع القائم بين الحنابلة و الأشاعرة بسبب الخلاف في مسائل الصفات و الإيمان و غيرها ، لذا وجدنا المؤرخيّن ابــن الجوزي ،و ابن كثير يطلقان على الشافعية اسم الأشاعرة في هذه الفتنــة[3] . كما إن حدوث الاقتتال بينهما هو دليل آخر على إن الأســباب عميقــة ، و لا تقتصر على مسألة فقهية فرعية مختلف فيها .

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 182 .

[2] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 163 .و ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ص: 73 . و ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 12 ص: 66 .و أبو الفداء : المختصر في أخبــار البشــر ، ج4 ص: 77 .

[3] ابن الجوزي: نفس المصدر، ج 8 ص: 163.و ابن كثير: نفــس المصــدر، ج 12 ص: 66 .

و الصواب في مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة ، هو أن رسـول الله -عليه الصلاة و السلام- جهر و أسر ، و كان إسراره أكثر من جهـره ، و مذهب جمهور الفقهاء عدم الجهر ؛ و قد صحّت في ذلك أحاديث كثيرة مروية في الصّحاح و المسانيد . و أما أحاديث الجهر بالبسملة فقد ضـعّفها بعـض المحققين[1] .

و المسألة الثانية – التي أثارت التعصب- هي قراءة دعاء القنوت في صلاة الصبح ، و هي أيضا اختلف فيها الفقهاء ، فقال المالكية و الشافعية إنها سنة ، و قال الحنابلة و الحنفية أنها ليست سنة ، فأحدث ذلك تعصـبا مـذهبيا بين السنيين[2] ، و كان من أسباب فتنة 447هجرية بين الحنابلـة و الأشـاعرة التي[3] سبق ذكرها .كما أن هذا الخلاف هو الذي جعل ابـن الجـوزي يـتهم الخطيب البغدادي بالتعصب و التعمد في استخدام الأحاديث الضعيفة في مسألة دعاء القنوت ، تأييدا لمذهبه الشافعي في هذه المسألة[4] .

---

[1] ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد ، حققه شيعب الأرنـاؤوط ، و عبـد القادر الأرناؤوط ، ط14 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1986، ج 1 ص: 272 . و بـدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ، حققه حامد الفقي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د ت ، ص: 46 و ما بعدها . و ابن يوسف الزيلعي : نصب الراية ، ج 1 ص: 355 . و الألباني: تمام المنة في التعليق على فقه السنة ، ط3 دار الراية ، السـعودية ، 1409ه ص: 169 .

[2] ابن الجوزي: التحقيق في أحاديث الاختلاف ، ج 1 ص: 45، 459 . و نصب الراية ، ج 2 ص: 136 .

[3] أنظر : ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 163 . و ابن الأثير : الكامل ، ج 8 ص: 73 . و ابن كثير : المصدر السابق ، ج 12 ص: 66 .

[4] ابن الجوزي: التحقيق في أحاديث الخلاف ،ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلميـة ، 1415ه ، ج 1 ص: 462 و ما بعدها .

و قد حقق ابن قيم الجوزية هذه المسألة ، و قرر أن الصحيح فيها هو أن رسول الله–عليه الصلاة و السلام– قنت و ترك ، و تركه له أكثر من فعله ، فإنه ((إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم ، و للدعاء على آخرين ، ثم تركه لما قَدِم من دعا لهم و تخلّصوا من الأسر ، و أسلم من دعا عليهم و جاؤوا تائبين . فكان قنوته لعارض ، فلما زال ترك القنوت ، و لم يختص بالفجر ، بل كان يقنت في صلاة الفجر و المغرب))[1] .

و المسألة الفقهية الثالثة –التي أثارت التعصب– هي مسألة رفع اليدين عند الركوع و الرفع منه في الصلاة ، فقال كثير من الفقهاء بمشروعيته، و قال الحنفية و غيرهم إنه مُبطل للصلاة[2] . فأحدث ذلك تعصبا مذهبيا بين السنين ، أذكر منه ثلاثة أمثلة ، أولها إن الفقيه أصبع بن خليل القرطبي المالكي(ت272ه) دفعه تعصبه لمذهب مالك إلى اختلاق حديث نسبه إلى الرسول–عليه الصلاة و السلام– ، فيه ترك لرفع اليدين عند الركوع و الرفع منه في الصلاة ، تأييدا لمذهبه الذي لا يرى ذلك ، لكن أمره انكشف للناس[3] .

و ثانيها–أي الأمثلة– ما رواه القاضي أبو بكر بن العربي(ت 543ه) فيما حدث لشيخه أبي بكر الطرطوشي الفهري المالكي(ت520ه)عندما رآه بعض متعصبة المالكية يرفع يديه عند الركوع و الرفع منه ، فقال : ((ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه في الركوع وعند الرفع منه وهو مذهب مالك والشافعي ويفعله الشيعة فحضر عندي يوما في محرس ابن الشواء بالثغر موضع تدريسي ثم صلاة الظهر ودخل المسجد من المحرس المذكور فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعدا على طاقات البحر أتنسم الريح من شدة الحر

---

[1] ز، ج 1 ص: 272 .

[2] محمد السيواسي: شرح فتح القدير ، ط 2 ، بيروت ، دار الفكر ، د ت ، ج 1 ص: 436 . و سيد سابق : فقه السنة ، ج 1 ص: 108 .

[3] ابن حجر: لسان الميزان ، ج 1 ص: 458 .

ومعي في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر و قائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ويتطلع على مراكب تخت الميناء فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشـــرقي كيـــف دخل مسجدنا ، فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به إلى البحر فلا يراكم أحد . فطار قلبي من بين جوانحي رجاء ، سبحان الله هذا الطرطوشي فقيه الوقت فقـــالوا لي ولم يرفع يديه فقلت كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعـــل ، وهـــذا مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه ، وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فـــرغ من صلاته وقمت معه إلى المسكن من المحرس ورأى تغير وجهـــي فـــأنكره وسألني فأعلمته فضحك وقال ومن أين لي أن أقتل على سنة ؟ فقلت لـــه ولا يحل لك هذا فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك فقـــال دع هذا الكلام وخذ في غيره))[1] .

و المثال الثالث– و هو الأخير– مفاده أن القاضي الحنفي أمير كاتـــب بن عمر الأكفاني(ت 758ه) ، صنّف كتابا تناول فيه مسألة رفع اليدين عنـــد الركوع و الرفع منه ، أدعى فيه بطلان صلاة من يفعل ذلك . و عنـــدما رأى أحد الأمراء يصلي و يرفع يديه عند الركوع و الرفع منـــه ، قـــال لـــه : إن صلاتك باطلة في مذهب أبي حنيفة[2] .

و الصواب في هذه المسألة هو أنه ثبت أن رسول الله –عليه الصلاة و السلام– كان يرفع يديه عند الركوع و الرفع منه ، و قد روى ذلك البخاري و مسلم و غيرهما . و الذي ذهب إليه الحنفية هو مذهب ضعيف ، و قد طعـــن

---

[1] القرطبي : تفسير القرطبي ، حققه أحمد البردوني ، ط2 ، القاهرة ، دار الشعب ، 1372ه ، ج 19 ص: 281 .

[2] ابن حجر : الدرر الكامنة ، حققه محمد العيد خان ، ط2 ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، 1972 ،ج 494 .

كثير من أئمة النقد في الحديث الذي اعتمدوا عليه ، و ترده أيضا الأحاديث الصحيحة التي بلغت حد الشهرة[1] .

و المسألة الرابعة -من مسائل الفروع- هي مسألة إقتداء الشافعية و الحنفية ببعضهم بعض في الصلاة ، و هي مسألة اختلف فيها فقهاء الطائفتين بين مُجيز و مانع لها ، فأحدثت تعصبا غريبا مذموما بين الفريقين . فالحنفية أفتى كثير من فقهائهم -كابن الهمام- ببطلان صلاة الحنفي خلف إمام شافعي ، و قال بعضهم : ((إقتداء الحنفي بشافعي غير جائز)) ، لأن رفع اليدين- في الصلاة- عند الركوع و الرفع منه مُفسد للصلاة . و قيد بعضهم الجواز بأن لا يكون الشافعي متعصبا ، و لا شاكا في إيمانه ، و يحتاط في موضع الخلاف[2].

و أما الشافعية ، فهم أيضا اختلف فقهاؤهم في حكم إقتداء الشافعي بالحنفي في الصلاة ، فقالوا : إذا توضأ حنفي و اقتدى به شافعي و ((الحنفي لا يعتقد وجوب نية الوضوء و الشافعي يعتقدها)) ، فإن في ذلك أوجه ، أولها ((قول الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني ، لا يصح اقتداؤه ، نوى أو لم ينو ، لأنه إن نوى فلا يراها واجبة ، فهي كالمعدومة ، فلا تصح طهارته)) . و الثاني ((و هو قول القفال : يصح و إن لم ينو ، لأن كل واحد مؤاخذ بموجب اعتقاده ، و الاختلاف في الفروع رحمة)) . و الثالث ((هو قول الشيخ أبي حامد الإسفراييني : إن نوى صحّ و إلا فلا)) . و الرابع ذكره النووي ، و

---

[1] السيد سابق : فقه السنة ، ج 1 ص: 108 .

[2] محمد السيواسي : شرح فتح القدير ، ج 1 ص: 436 . و عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي ، ص: 165، 167 . و الصنهاني محمد بن إسماعيل : إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد ، حققه صلاح الدين مقبول ، ط 1 ، الكويت ، الدار السلفية ، 1396هـ ، مقدمة المحقق ، ص: 18 .

مفاده أنه ((يصح الاقتداء بالحنفي و نحوه ، إلا إن يتحقق إخلاله بما نشترطه و نوجبه ، و هذه الأوجه جارية في صلاة الشافعي خلف حنفي و غيره))[1] .

و نقل الفقيه المعاصر عمر سليمان الأشقر عن الشيخ النووي إنه قال : ((لو مسّ حنفي امرأة ، أو ترك الطمأنينة أو غيرها ، صحّ اقتداء الشافعي به عند القفال –أحد علماء الشافعية– ، و خالفه الجمهور –أي جمهور الشافعية– ، و هو الصحيح))[2] .

و واضح مما ذكرناه أن الذي أوقع هؤلاء في الحكم ببطلان اقتداء الشافعية و الحنفية ببعضهم بعض في الصلاة ، هو التعصب المذهبي ، لأنهم أصدروا أحكامهم بالمنع انطلاقا من خلفياتهم المذهبية الضيقة المتعصبة ، و هو حكم غريب جدا ، و مؤسف حقا ، و غير صحيح أيضا ، لا يتفق مبادئ الإسلام و روحه و مقاصده ، فكيف يصح في الدين و العقل أن يُقال : لا تصح صلاة المسلم الملتزم بالإسلام خلف صلاة أخيه المسلم الملتزم مثله بالإسلام ؟ ، فإذا كان هذا لا يصح ، فكذلك لا يصح أن يُقال : لا تصح صلاة المسلم الشافعي الملتزم بالإسلام خلف صلاة أخيه المسلم الحنفي الملتزم بالإسلام هو أيضا . و لا شك أن القول بعدم جواز اقتداء الشافعية و الحنفية ببعضهم بعض في الصلاة ، هو من الأحكام التي أوصلنا إليها التعصب المذهبي ، و لابد من التحرر منها و من أسبابها و من أمثالها ، لتجنيب الأمة شرورها و ويلاتها .

و المسألة الخامسة – و هي الأخيرة من مسائل الفروع– تتعلق بحديث ((اختلاف أمتي رحمة)) ، هذا الحديث جعله المتمذهبون المتعصبون

---

[1] النووي: المجموع ، حققه محمود مطرحي ، ط1 ، بيروت ، دار الفكر ، 1996 ، ج1 ص: 257 .

[2] تاريخ الفقه الإسلامي ، ص: 169 .

معتمدهم فيما هم فيه من تقليد و تمذهب و تعصب[1] ، لتكريس الوضع على ما هو عليه ،و إيجاد المبررات الشرعية و الواقعية له . و قد قال الفقيه عبد الرؤوف المناوي إن ذلك الحديث هو للمقلدين ، و إن اختلاف الأمة في الفروع مغفور لمن أخطأ ، ثم ذكر أن الذين قالوا إن حديث ((اختلاف أمتي رحمة)) يُخالف القرآن ، لأن الله نهى عن الاختلاف في قوله ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ -سورة آل عمران /103- ، و ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ -سورة آل عمران : 105 - ، هو إن قولهم هذا هو دسيسة من بعض من في قلبه مرض . و قد رد جمع من العلماء على ذلك ، و قالوا إن الله تعالى ذم كثرة الاختلاف على الرسل ، و الله تعالى أهلك السابقين لكثرة اختلافهم على أنبيائهم ، و أما هذه الأمة ((فمعاذ الله أن يدخل فيها أحد من العلماء المختلفين))[2] .

و ردا عليه أقول : أولا إن حديث ((اختلاف أمتي رحمة)) الذي استدل به هؤلاء ، هو حديث موضوع مكذوب لا أصل له[3] ؛ و عليه فلا يصح الاستدلال به أصلا . و كيف نستدل بحديث هذا حاله في أمر هام يتعلق بوحدة

---

[1] النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ، ط2 ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1392ه ، ج 11 ص: 91 . و المناوي: فيض القدير ، مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1356 ، ج 1 ص: 210 .

[2] المناوي: نفس المصدر ، ج 1 ص: 210 .

[3] أنظر : علي القارئ : الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة ، حققه محمد الصباغ ، ط2 ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، 1406 ، ج 1 ص: . و الألباني: الأحاديث الضعيفة و الموضوعة ، ط3 ، عمان المكتبة الإسلامية ، ذ406، ج 1 ص: 57 . و ضعيف الجامع الصغير ، ص: 230 . و صفة صلاة النبي ، السعودية مكتبة المعارف، د ت ، : ص: 49 . و طاهر بن علي الفتني : تذكرة الموضوعات ، ص: 59 .

الأمة ؟ . و متن هذا الحديث ظاهر البطلان ، لأن الاختلاف مذموم و ليس ممدوحا ، سواء تعلّق بالأصول أو بالفروع ، و هذا هو الأصل في الاختلاف ، و هو أمر ثابت شرعا و عقلا ، تاريخا و واقعا ، و لا يُمدح الاختلاف إلا في حالات استثنائية عندما يكون اختلاف تنوّع و إثراء في أمور محدودة متعلقة بمجالات التنمية في التعليم و السياسة ، و الاقتصاد و الاجتماع ، و لا يصح أن يُقال : إن الاختلاف ممدوح مُطلقا في مجال الفروع-أي الفقه- لأن كثرا من الاختلافات الفقهية أوصلت الأمة إلى كبائر الذنوب ، كاللعن و التكفير ،و الاقتتال و التدابر ، و قد سبق أن ذكرنا على ذلك أمثلة كثيرة جدا . و ذلك الحديث لا يصح شرعا و لا عقلا إلا إذا جعلناه هكذا ((اختلاف أمتي شر و عذاب)) ، و أما أن يكون رحمة فلا .

و ثانيا إن النصوص الشرعية واضحة وضوح الشمس في النهي عن الاختلاف مطلقا ، فحذّرتنا منه ، و حثتنا على الوحدة و الأخوة ، و هي في ذمها للاختلاف لم تُفرّق بين الاختلاف في أصول الدين و فروعه ، و إنما نهتنا عن الاختلاف ، و حَذرتنا منه مُطلقا ، كقوله تعالى ﴿ و اعتصموا بحبل الله و لا تفرّقوا ﴾-سورة آل عمران /103- ، و ﴿ و أن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، و لا تتبعوا السُبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾-سورة الأنعام/153- ، و ﴿ إن الذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعا لست منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله ثم يُنبئهم بما كانوا يعملون ﴾-سورة الأنعام/159- ، و ﴿ و لا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم ﴾- سورة الأنفال /46- . و قال الرسول -عليه الصلاة و السلام- لا ترجعوا بعدي كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض))[1]. و قال أيضا :

---

[1] مسلم : الصحيح ، ج 1 ص: 81 ، رقم الحديث: 65 .

((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا))[1] و ((إن أمتي ستفترق على اثنتين و سبعين فرقة ن كلها في النار إلا واحدة ، و هي الجماعة))[2] . و قال أيضا : ((لا تباغضوا و لا تحاسدوا و لا تدابروا ، و كونوا عباد الله إخوانا ،و لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال))[3]. و هذه الشرور و المنهيات التي حذّرت منها هذه النصوص الشرعية ، كلها حدثت بين الطوائف الإسلامية ، بسبب اختلافاتهم و تعصباتهم في أصول الدين و فروعه .

و ثالثا إن الذين اعتمدوا على حديث((اختلاف أمتي رحمة)) ، و خصصوه بالاختلاف في الفروع ، قد جانبوا الصواب ، لأن الحديث –و هو باطل– مدح الاختلاف مطلقا و لم يُقيده ، و الذين قيّدوه ليس لهم في ذلك دليل من الشرع و لا من العقل ، خاصة و أن الحديث لا يصح و تعارضه نصوص شرعية كثيرة ذكرنا بعضها آنفا . و هم من جهة أخرى تناسوا ما جرّه ذلك الاختلاف– الذي مدحوه – على الأمة من كبائر الذنوب ، من فرقة و فتن و اقتتال .

و ختاما لمبحثنا هذا يتبين مما ذكرناه أن المسائل الخلافية –الأصولية و الفروعية– التي أوردناها كانت نماذج واضحة للتعصب المذهبي المذموم ، و لم تبق في دائرة الخلاف العلمي بين أهل العلم ، و إنما انتقل تأثيرها السلبي إلى الأتباع ،و أوصلهم إلى الفرقة و التنافر ، و المهاترات و الاقتتال .

رابعا : مؤلفات في الانتصار للمذاهب و التعصب لها :

كثُرت المصنفات المذهبية بين الطوائف السنية الأربعة –خلال العصر الإسلامي– ، التي كان هدفها الأساسي الانتصار للذهب و الرد على مخالفيه ، و كثيرا ما غلب عليها التعصب المذهبي المتمثل في الحط على المخالفين و

---

[1] الألباني: صحيح الجامع الصغير ، ج21 ، رقم : 6654 .

[2] نفس المرجع ، ج 1 ، رقم : 2042 .

[3] الألباني: صحيح الأدب المفرد ، ط2 ، دار الصديق ،1421ه رقم : 307/398 .

عدم التأدب معهم ،و المبالغة في مدح المذهب -المُنتصر له- و تعظيم شيوخه.

فمن ذلك ما صنفه بعض الحنفية ، و منهم القاضي أبو سعيد بن إسحاق النيسابوري (ت348ه) ، له كتاب : الرد على الشافعي فيما خالف فيه القرآن[1] . و الكتاب الثاني له عنوانان هما : المصيب في الرد على الخطيب- أي الحافظ الخطيب البغدادي (ت463ه) . و السهم المصيب في كبد الخطيب ، للفقيه الحنفي عيسى بن أبي بكر الأيوبي (ت642ه) ، صنفه ردا على الخطيب البغدادي لأنه تعصّب على الحنفية على حسب رأيه[2] . و الكتاب الثالث عنوانه : الرد على أصحاب الشافعي ، للفقيه الحنفي علي بن موسى[3] .

و أما مؤلفات الردود المالكية فهي كثيرة[4] ، و منها كتاب : الرد على الشافعي و أهل العراق ، للفقيه محمد بن سُحنون (ت 265ه)[5] .و الكتاب الثاني هو : الرد على الشافعي فيما خالف فيه القرآن و السنة ، للفقيه محمد بن عبد الحكم الشافعي ثم المالكي(ت268ه) ، و عندما صنّفه أصابته محنة ، قال فيها التاج السُبكي : يَطول شرحها ، و لم يُفصلها[6] . و يبدو أن سبب محنته هو تحوّله من المذهب الشافعي إلى المذهب المالكي ، فهو من تلاميذ الشافعي ، فلما انتقل إلى المالكية ردّ عليه ،و هذا لا يُعجب الشافعية بلا شك . و عنوان كتابه و موضوعه- فيما خالف فيه الشافعي القرآن و السنة- يُشير إلى أنه اشتد في الرد على الشافعي . و قد ذكر ابن عبد الحكم حادثة وقعت له

---

[1] حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 2 ص: 1420 .

[2] نفس المصدر ، ج 2 ص: 1010 .

[3] الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص: 147 .

[4] أنظر مثلا : ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص: 94، 107، 135 ، 332 ، 352 .

[5] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 376 . و الذهبي: السير ، ج 13 ص: 61 .

[6] السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 2 ص:

مع الشافعي هي شاهد على ما نقول ، و مضمونها أن ابن عبد الحكم قال للشافعي : لأي شيء أخذتم أنه إذا مسح الإنسان بعض رأسه و ترك بعضه ، أنه يُجزيه ؟ ، قال الشافعي : بسبب الباء الزائدة ، قال تعالى : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ ﴾ -سورة المائدة : 6- ،و لم يقل رؤوسكم . فقال ابن عبد الحكم : فأي شيء ترى في التيمم إذا مسح الإنسان بعض وجهه ،و ترك بعضه ؟ ، قال الشافعي: لا يُجزيه . فقال ابن عبد الحكم : لِمَ ، و قد قال الله تعالى : ((فامسحوا بوجوهكم و أيديكم منه))-سورة المائدة/6 - ، فسكت الشافعي[1] .

و الكتاب الثالث -من مؤلفات المالكية- صنفه الفقيه يوسف بن يحيى المغامي الأندلسي(ت 288ه) ن خصصه للرد على الشافعي في عشرة أجزاء ، و كان شديدا على الشافعي[2] . و آخرها -أي الكتاب الرابع- عنوانه : النصرة لإمام دار الهجرة ، صنفه القاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي البغدادي ، و يُروى أن هذا الكتاب لما وقع بيد قاضي الشافعية بمصر غرّقه في نهر النيل ، و تكررت هذه الحادثة بمصر في القرن التاسع الهجري زمن السلطان المملوكي فرج بن برقوق[3](80-815ه).

و أما مؤلفات الشافعية فهي كثيرة أيضا ، منها : كتاب مُغيث الخلق لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني (ت478ه) ، رجّح فيه مذهب الشافعي على مذهب أبي حنيفة ، و ذكر فيه كيفية الصلاة عنده-أي عند أبي حنيفة- عابه فيها[4] . و الكتاب الثاني صنّفه الفقيه محمد الطبري البغدادي (ت 504ه)

---

[1] القاضي عياض : المصدر السابق ، ج 1 ص: 358 .

[2] ابن فرجون : الديباج ، ص: 357 .

[3] المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 2 ص:

[4] حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 2 ص: 1754 . و الصنعاني : إرشاد النقاد ، مقدمة المحقق ، ص : 18 .

خصصه للرد على أحمد بن حنبل فيما انفرد به من اجتهادات و فتاوى ، لم يُنصفه فيه[1] .

و الكتاب الثالث –من ردود الشافعية– هو كتاب المنخول في تعليق الأصول ، لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت505ه) ، أفرد فيه مبحثا نصر فيه مذهب الشافعي ، و انتقد فيه المذهبين المالكي و الحنفي ، و ركّز على الحنفي ، فحطّ عليه و ذمه بشدةٍ ، حتى قال الحافظ الذهبي عن ذلك : ((و في أواخر المنخول للغزالي ، كلام فج في إمام ، لا أرى نقله هنا))[2] .

و آخرها –أي الكتاب الرابع– كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التي يستشنعها أصحاب الشافعي و غيرهم ، صنّفه القاضي أبو محمد الحسن بن عقامة الشافعي اليمني (ت قرن : 6ه) ، فلما صنّفه أصبح نادر الوجود باليمن ، لأن الحنفية اجتهدوا في تحصيله و جمعه لإتلافه[3] .

و أما مؤلفات الشيعة في الردود المذهبية المتعصبة ، فهي كثيرة أيضا ، منها : كتاب في مثالب الشيخين أبي بكر و عمر ، –رضي الله عنهما– صنّفه ابن خراش المروزي الرافضي (ت 283ه) ، و عندما ألفه قدمه لأحد أعيان الرافضة فأجازه بألفي درهم[4] .

و الكتاب الثاني صنّفه الكذاب عيسى بن مهران المستعطف ، خصص كتابه للطعن في الصحابة و تضليلهم و تفسيقهم . و قد ذكر الخطيب البغدادي (ت463ه) أن هذا الرجل الكذاب كان من شياطين الرافضة و مردتهم . و قال إنه لما اطلع على كتابه : وقف شعره و تعجّب مما ذكره في كتابه من

---

[1] الذهبي : السير ، ج 19 ص: 352 . و ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 172 .

[2] الغزالي : المنخول ، ص: 496 ، و ما بعدها . و الذهبي : السير ، ج 19 ص: 344 .

[3] العماد الكاتب الأصفهاني: خريدة القصر و جريدة العصر ، ج 3 ص: 238 ، هامش ص: 251 .

[4] الذهبي : السير ، ج 13 ص: 509 .

الأحاديث الموضوعة ،و الأقاصيص المختلقة ،و الأنباء المفتعلة ، بالأسانيد المظلمة عن سُقاط الكوفة من المجهولين و المعروفين بالكذب[1] . و الكتاب الثالث هو : الواصب على أرواح النواصب للفقيه نجم الدين الطوفي الحنبلي ثم الرافضي _ت716ه) ، و كان هذا الرجل يقع في الصحابة ، و منهم: أبو بكر الصديق و ابنته عائشة[2]– رضي الله عنهما– .

و الكتاب الرابع لفقيه الشيعة حسن بن المطهر الحلي(ت726ه) ، عنوانه : منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة[3] ، خصصه لموضوع أئمة الشيعة الاثنى عشرية المزعومين ، و ملأه بالأكاذيب و المغالطات ، و المبالغات و المجازفات في ذم الصحابة و مدح أئمة الشيعة[4] ، و فيه قال الفقيه تقي الدين السُبكي (ت قرن : 8ه) :

و ابن المُطهر لم تُطهر خلائقه   داع إلى الرفض غال في تعصبه

لقد تقّول في الصحب الكرام   و لم يستح مما افتراه غير منجيه

و لما صنّف كتابه هذا ردّ عليه شيخ الإسلام بن تيمية بكتابه : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة و القدرية ، فجاء كتابا قيما ، حافلا بالردود الحاسمة و الفوائد النافعة ، قال فيه ابن كثير : أتى فيه بما يُبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة ، و هو كتاب حافل[5] .

و قال فيه–أي في الكتاب– الشيخ تقي الدين السُبكي :

و لابن تيمية رد عليه + وفّى بمقصد الرد و استيفاء أضرابه

---

[1] تاريخ بغداد ، ج 11 ص: 167 .

[2] ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 8 ص: 72..

[3] ابن كثير : البداية ، ج 14 ص: 125 .

[4] تبين لي ذلك من خلال مطالعة ما نقله ابن تيمية من كتاب ابن المطهر أثاء رده عليه .

[5] البداية و النهاية ، ج 14 ص: 125 .

لكنه خلّط الحق المبين بما يشوبه كدرا في صفو مشربه

يُخالط الحشو أنى كان فهو له حثيث سير بشرق أو بمعرب

و انتقاده لابن تيمة و كتابه هذا ، يتعلق بمسألة صفات الله تعالى ، و هو انتقاد غير صحيح ، لأن ابن تيمية تناول مسألة الصفات بمنهج السلف و أهل الحديث في إثباتها بلا تأويل ، و لا تشبيه ، و لا تعطيل ؛ لكن السبكي نظر للمسألة بمنهج الأشاعرة المُؤول لمعظم الصفات ، و هو منهج مخالف لمنهج ابن تيمية[1] .

و قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في الكتاب و مؤلفه : ((أطنب فيه و أسهب ، و أجاد في الرد ، إلا انه تحامل في مواضع عديدة ، و ردّ أحاديث موجودة ، و إن كانت ضعيفة بأنها مُختلفة)) . و قال أيضا : ((و وجدته-أي ابن تيمية- كثير التحامل إلى الغاية ، في رد الأحاديث التي يُوردها ابن المطهر ، و إن كان معظم ذلك من الموضوعات و الواهيات ، لكنه رد في رده كثيرا من الأحاديث الجياد ، التي لم يستحضر حالة التصنيف مظانها ، لأنه كان لاتساعه في الحفظ يتكل على ما في صدره ، و الإنسان عامد للنسيان ، و كم من مبالغة لتوهين كلام الرافضي أدته أحيانا إلى تنقيص علي -رضي الله عنه-))[2] .

و أقول : أولا إن اشتداد ابن تيمية في رده على ابن المطهر ، هو أمر لابد منه ، و يستلزمه المقام ، لأن هذا الرجل -أي ابن المطهر- ملأ كتابه بالأكاذيب و بالبهتان و الافتراء على الصحابة ، و بالغ في تعظيم أئمته المزعومين ، فعندما رد عليه ابن تيمية لم يكن يهدف إلى الطعن في آل علي -رضي الله عنهم- ، و إنما كان يريد الوصول إلى الحق ،و كشف أكاذيب

---

[1] للتوسع في مسألة الخلاف بين منهج الشاعرة و منهج أهل الحديث ، أنظر كتابنا : الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث .

[2] الدرر الكامنة ، ج 2 ص: 188 . و لسان الميزان ، ج 6 ص: 319 .

ابن المطهر ، و إلا فإن ابن تيمية لم يكن ناصبيا ، فهو سني معتدل[1] يوالي آل البيت كلهم ،و كتبه شاهدة على ذلك .

و ثانيا إن الانتقادات التي وجهها ابن تيمية لعلي و ابنه الحسين-رضي الله عنهما- لم تكن من باب الطعن و الذم ، و إنما استدعاها مقام الرد على مزاعم ابن المطهر ، الذي كان يزعم أن عليا و آل بيته أئمة معصمون من الخطأ ، و هم أئمة يجب طاعتهم ، و كلامهم شرع و عبادة ، فهذه الضلالات استدعت ردا قويا صحيحا ، لإظهار بشرية علي و آل بيته ، ليُثبت أنهم بشر كغيرهم يُخطئون و يُصيبون ، لذا وجدناه-أي ابن تيمية – أظهر بعض أخطاء علي و الحسين ، لكنه مع ذلك لم يُغمطهما حقهما ، و كتابه هذا شاهد على ذلك .

و ثالثا يبدو أن ابن تيمية في تضعيفه لبعض الأحاديث الحسنة الأسانيد -التي أشار إليها ابن حجر- هو أنه اعتمد أساسا في ردها على نقد متونها لا أسانيدها ، عندما وجدها تخالف الحقائق الشرعية و العقلية و التاريخية الثابتة ، فردها لشذوذ و علل في متونها ، و الله اعلم .

و أُشير هنا إلى أن كُتب الشيعة في سب الصحابة و السلف الأول كثيرة ، فكان بعض علمائهم لهم مصنفات في ذلك ، منهم : شيخ الشيعة المفيد بن محمد (ت413ه)، كانت له مؤلفات طعن فيها على السلف[2] . و منهم : الشاعر المرتضي العلوي البغدادي(ت 436ه) ، له مصنفات فيها سب لأصحاب رسول الله -عليه الصلاة و السلام-[3] .

و عندما دخل عوام أهل السنة بعض مشاهد الشيعة ببغداد سنة 517هجرية ، وجدوا فيها كتابا فيه سب للصحابة . و سنة 574هجرية وجدوا

---

[1] أنظر مثلا : مجموع الفتاوى ، ج 25 ص: 309 .
[2] الذهبي: الميزان ، ج 6 ص: 325 .
[3] الذهبي: السير ، ج 17 ص: 590 .

عند شاعر شيعي ببغداد كتبا كثيرة فيها سب للصحابة ، فلما كُشف ذلك أقدم شيعة آخرون -بحي الكرخ- على حرق كتب كانت عندهم خوفا من أن يطلع عليها أهل السنة[1] . و عندما أحيوا -أي الشيعة- عاشوراء ببغداد سنة 582هجرية ، و سبوا الصحابة و لعنوا عائشة أم المؤمنين-رضي الله عنها- ، وُجدت عندهم كتب في سب الصحابة[2].

و وصل التعصب بهؤلاء -أي الشيعة- إلى أنهم اعترضوا على من يُؤلف في إنصاف الصحابة و إظهار موقف آل البيت المعتدل و المعظم للصحابة ، و مثاله ما ذكره المحقق محمد بن علي الشوكاني ، فقال أنه لما صنف كتابا سماه : إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي ، و ذكر فيه إجماعهم-أي آل البيت- من ثلاثة عشر طريقا على عدم ذكر الصحابة بسب أو ما يُقاربه ، احتج جماعة من رافضة صنعاء المخالفين لمذهب آل البيت ، و جالوا و صالوا و ((تعصبوا و تحزبوا ، و أجابوا بأجوبة ليس فيها إلا محض السباب و المشامتة ، و كتبوا أبحاثا نقلوها من كتب الإمامية و الجارودية)) ، فأحدث هذا الكتاب فتنة بين الناس . و قال الشوكاني إنه لم يقصد بكتابه هذا إلا الذب عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون ، مقتصرا على أقوال أئمة أهل البيت ، ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم[3] .

خامسا : حرق كتب المخالفين تعصبا للمذهب :

حدثت في تاريخنا الإسلامي عدة وقائع أُحرقت فيها كُتب المخالفين تعصبا عليهم و انتصارا للمذهب ، فكان ذلك مظهرا من مظاهر التعصب المذهبي ، أذكر منها-أي حوادث الحرق- ما يأتي : أولها ما حدث لكتب أبي

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 9 ص: 243 ، ج 10 ص: 286 .

[2] الذهبي: تاريخ الإسلام ، حوادث (581-590ه) ، ص: 12 .

[3] الشوكاني: البدر الطالع ، ج 1 ص: 233 .

محمد بن حزم الأندلسي (ت456ه)، فبسبب الخصومة التي كانت بينه و بين فقهاء المالكية بالأندلس جعلتهم –أي الخصومة– يمقتوه و يحرقون كتبه علانية ، حتى قال ابن حزم في ذلك : فإن يحرقوا القرطاس ، لا يحرقوا الذي تضمّنه القرطاس ، بل هو في صدري[1] .

و ثانيها ما حدث لكتب الباطنية و المعتزلة ، و الشيعة و الفلاسفة بمدينة الري سنة 420هجرية ، و ذلك لما أظهر هؤلاء الكفر البواح ، و سبوا الصحابة ،و استحلوا المحرمات ، تصدى لهم والي خُراسان الأمير أمين الملة أبو القاسم محمود ، فشرّدهم و قتلهم ،و أحرق كتبهم أمام الناس ، من بينها كُتب زعيم هؤلاء : رستم بن علي الديلمي ، التي قُدّرت بخمسين(50) حملا من الكتب[2] . و الذي فعله هذا الأمير هو تعصب للحق و ليس للباطل ، لأن ما أظهره هؤلاء الضالون هو خطر على دين الإسلام و أمته ، فاصبح على المسلمين من الواجب عليهم التصدي لهم و قطع شأفتهم .

و الحادثة الثالثة ما جرى لكتب حجة الإسلام أبي حامد الغزالي(ت 505ه) بالمغرب الإسلامي زمن دولة المرابطين(451–541ه) ، و ذلك أن السلطان علي بن يُوسف بن تاشفين أمر بإحراق كتب الغزالي ، و هدد بقتل و مصادرة أموال كل من وُجدت عنده مصنفات الغزالي أو بعض منها[3]. و كان القاضي عياض (544ه) من بين الذين طالبوا بحرق كتب الغزالي ، و يبدوا أنهم فعلوا ذلك لما وجدوه فيها من مقالات كلامية و أشعرية و فلسفية و

---

[1] ابن حجر : لسان الميزان ، ج 4 ص: 200 .

[2] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 40 .

[3] ابن العماد الحنبلي : شذرات ؛ ج 6 ص: 227 . و عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المعرب ، حققه سعيد العريان ، ط 1 ، القاهرة مطبعة الاستقامة ، 1368، ، ج 1 ص: 172 .

صوفية ، تخالف ما هم عليه من مذهب السلف و أهل الحديث في أصول الدين[1] .

و الحادثة الرابعة تتعلق بما حدث لكتب فقيه الشيعة أبي جعفر محمد الطوسي (ت460ه) ، و ذلك أنه كان غاليا في التشيع يطعن في السلف ، فأحرق أهل السنة كتبه عدة مرات في رحاب جامع القصر ببغداد بحضور جمع من الناس ، فأضطره ذلك إلى الاختفاء خوفا على نفسه ، ثم ترك بغداد و التحق بالكوفة[2] موطن الرافضة. و قد كان تعصبهم عليه انتصارا للحق و ردا للباطل ، بسبب غلوه و انحرافه .

و الحادثة الخامسة هي أيضا تتعلق بكتب الشيعة ، و ذلك أنهم لما سبوا الصحابة ببغداد سنة 574هجرية وجد عندهم أهل السنة كتبا في سب الصحابة-رضي الله عنهم- فقمعوهم و أحرقوا كتبهم[3] . فكان تصرّفهم هذا تعصبا للحق و انتصارا له من الشيعة المتعصبين للباطل .

و الحادثة السادسة تتعلق بما حدث لكتب الفقه عامة ، و كتب الفقه المالكي خاصة ، في زمن دولة الموحدين (541-668ه) بالمغرب الإسلامي ، و ذلك أن الموحدين كانوا متعصبين على المذاهب الفقهية الأربعة ، و خاصة المذهب المالكي ، فدعوا الناس إلى تركها و أخذ الأحكام الشرعية مباشرة من الكتاب و السنة على طريقة الاجتهاد المطلق ؛ فكتب بعض ملوكهم إلى طلبة العلم بالمغرب و الأندلس بحرق كُتب الفروع (سنة 550ه). ثم تكرر ذلك زمن السلطان الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (ت595ه) ، فأعرض عن المالكية ،و هدد كل من يشتغل بكتب الفروع-أي الفقه- و أمر بإحراقها ،

---

[1] أنظر : ابن العماد الحنبلي: نفس المصدر ، ج 6 ص: 60 و ما بعدها . و الناصري السلاوي: الاستقصا ، ج1 ص: 74 ، 75 .

[2] الذهبي : السير ، ج 18 ص: 335 . و ابن حجر : لسان الميزان ، ج 5 ص : 135 .

[3] الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 218-219 .

فأُحرقت مؤلفات كثيرة من كتب المالكية ، منها : مدونة سُحنون بن سعيد ، و الواضحة لابن حبيب ، و نوادر ابن أبي زيد و مختصره[1] .

و الحادثة السابعة تتعلق بما حدث لكتب أهل السنة على يد المغـول و أعوانهم لما استولوا على العراق و الشام سنة 656 هجرية ، و ذلك أنهم لمـا دمروا البلاد و قتلوا العباد قام وزيرهم نصـير الـدين الطوسـي (ت672ه) بالاستيلاء على كتب أهل السنة ، فأخذ منها المؤلفات التي تهمه –منها كتـب الفلسفة و علم الكلام– و أحرق كتب العلوم الشرعية[2] .

و أشير في هذا المقام إلى أنه من المفيد أن نعقد مقارنة سريعة بـين ثلاثة تصرفات مرتبطة بالكتب ، أولها يتعلق بما فعله النصير الطوسي بكتـب أهل السنة و قد ذكرناه . و ثانيها ما فعله العبيـديون الإسـماعليون بكتـب الخوارج الإباضية ، و ذلك أنهم عندما دخلوا مدينة تيهرت و أسقطوا الدولـة الرستمية الإباضية سنة 296ه ، أخذوا من مكتبتهم –المعروفة بالمعصـومة– ما يحتاجونه من مؤلفات في الرياضيات و الفلك ، و الطب و الهندسـة ، ثـم خرّبوا المكتب و اتلفوا ما بقي فيها[3] .

و التصرّف الثالث يتمثل في تصرّف السلطان صلاح الدين الأيـوبي (ت589ه)، فإنه لما فتح مصر –حررها من العبيديين– و استولى على كنـوز قصر العبيديين كان من بينها خزانة كتبهم الحافلة بالمصنفات، فلما وقعت بيده باعها في المزاد العلني[4] .

---

[1] الذهبي : السير ، ج 21 ص: 314 . و الناصري السـلاوي : الاستقصـا ، ج 1 ص: 125، 197 ، 200 .

[2] الكتبي : فوات الوفيات ، ج 2 ص: 3، 302 . و الصفدي : الوافي في الوفيـات ، ج 2 ص: 307 . و ابن تيمية : التفسير الكبير ، ج 2 ص: 6 ، ج 3 ص: 132 .

[3] عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، ص: 490 .

[4] أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ج 2 ص: 210 .

و أقول : إن التصرفين الأول و الثاني متشابهان ، فيهما تعصب واضح ، لكنهما يتفقان مع مصلحة كل طرف ، و ذلك أن كلا منهما أخذ من الكتب ما ينفعه ، و ترك ما يضره حسب اعتقاده و مذهبه و مصلحته . لكن صلاح الدين كان تصرّفه غريبا و بعيدا عن الحكمة و المصلحة ، لأنه أدى إلى تبديد تلك المصنفات ، و الإضرار بالقراء خاصة و المجتمع عامة ، لما كانَ فيها كثير من مؤلفات الشيعة و أهل الأهواء المليئة بالانحرفات و الضلالات . فقد كانت أمامه خيارات أخرى في التعامل مع تلك المكتبة ، منها إنه كان في إمكانه الاحتفاظ بها كلها لأهل العلم المختصين . و منها كان في مقدوره حرق ما يضر منها من المصنفات ،و الاحتفاظ بما ينفع منها و ينسجم مع مذهب أهل السنة و الجماعة . لكنه تصرّف تصرفا آخر كان بعيدا عن الحكمة و المصلحة العامة .

و الحادثة الثامنة– و هي الأخيرة من حوادث حرق الكتب– ما حدث لكتب الصوفي الاتحادي محي الدين بن عربي(ت قرن: 8ه) على يد برمش بن يوسف التركماني الحنفي المصري (ت 823ه) ، فإنه كان شديد التعصب على الصوفية الاتحادية المتفلسفة ، خاصة كبيرهم ابن عربي ، فكان يحرق ما يقدر عليه من كتبه ، و في إحدى المرات ربط كتاب فصوص الحِكم لابن عربي بذيل كلب و جرّه ،و لم يُبال بمعارضة الصوفية الاتحادية له[1] .

سادسا : التعمد في رواية الأكاذيب و تحريف الأخبار :

أوصل التعصب المذهبي كثيرا من المتعصبين إلى التعمد في رواية الأكاذيب و تحريف الأخبار ، انتصارا لمذاهبهم و تعصبا على مخالفيهم ، و قد كانت هذه الظاهرة واسعة الانتشار في تاريخنا الإسلامي و بالأخص في القرون الأربعة الأولى للهجرة ، فكان لها الأثر البالغ في تشويه تاريخنا و تحريفه . و قد كان هؤلاء الكذابون المتعصبون ينتمون إلى مختلف الطوائف

---

[1] ابن حجر : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج 2 ص: 487 .

الإسلامية ، غير أن أكثرهم و أخطرهم كانوا من الشيعة[1] . و سأذكر من هؤلاء الطائفة الآتية بحول الله تعالى .

أولهم المتكلم المعتزلي عمرو بن عبيد البصري(ت قرن: 2ه) ، كان يكذب في رواية الأحاديث ،و يكذب على الحسن البصري[2] . و ثانيهم الفقيه المالكي أصبغ بن خليل القرطبي (ت272ه) ، دفعه تعصبه لمذهبه إلى الكذب على الرسول–عليه الصلاة و السلام– باختلاف حديث ونسبه إليه[3] .

و الثالث هو الشيعي أبو الجارود زياد بن المنذر الثقفي ، كان يختلق الأحاديث في مثالب الصحابة ، و ينسب لآل البيت فضائل لا أصل لها[4] . و الرابع هو رجل من الخوارج تاب عن مذهبه ، فذكر أنه كان هو و أصحابه إذا هووا أمرا جعلوه حديثا[5] . و الخامس هو المتكلم المعتزلي عمر بن بحر الجاحظ (ت255ه) ، قال فيه بعض نُقاد الحديث : كان من أكذب الناس ، و أوضعهم للكذب[6] .

و السادس هو المحدث الشيعي محمد بن عبد الله الشيباني الكوفي(ت387ه) ، كان يضع الأحاديث للشيعة ،و يُملي عليهم في مجالسه ، أحاديث فيها مثالب الصحابة[7] . و السابع هو المحدث أبو سعيد أبان بن جعفر البصري(ت قرن :4ه) ، كان متخصصا في الكذب على أبي حنيفة النعمان ، و قد وضع عليه أحاديث كثيرة تزيد عن 300 حديث ، ما حدث بها أبو

---

[1] أنظر كتابنا : مدرسة الكذابين في رواية التاريخ الإسلامي و تدوينه .

[2] العقيلي: كتاب الضعفاء ، ج 3 ص: 280 . و الذهبي: الميزان ، ج 5 ص: 33– .

[3] ابن حجر : لسان الميزان ، ج 1 ص: 458 .

[4] ابن حبان : كتاب المجروحين ، حققه محمود زايد ، حلب ، دار الوعي ، د ت ، ج 1 ص: 306 .

[5] الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، ص : 123 .

[6] ابن حجر : اللسان ، ج 4 ص: 356 .

[7] نفس المصدر ، ج 5 ص: 231 .

حنيفة قط ، و عندما ذهب إليه الحافظ ابن حبان ليحدّثه و أخـرج لـه تلـك الأحاديث غضب منه ، فنهاه و قال له اتق الله ، ثم خرج من عنده[1] .

و الثامن هو الوزير عضد الدولة البويهي الشيعي (ت 372هـ) ، كـان متعصبا للشيعة و المعتزلة ، و انتصر لهما ، حتى أنه وصل به الأمـر إلـى الكذب و مخالفة الروايات التاريخية الصحيحة ، عندما أظهر قبـرا بمدينـة النجف–جنوب غرب بغداد– و زعم أنه قبر علي بن أبي طالب ، و بنى عليه مشهدا و جعله شعارا للشيعة[2] و مزارا لهم . و الصحيح في قبره هو أنـه–أي علي– لما استشهد دُفن بقصر الإمارة بالكوفة ،و عُمي قبره لكـي لا تنبشـه الخوارج ؛و بعد أكثر من 300 سنة قيل أن قبره بالنجف ، مكان فبر الصحابي المغيرة بن شعبة[3](ت50 هـ/670م).و قد ذكر المؤرخ ابـن كثيـر أن غالبيـة المؤرخين قالوا أن قبر الإمام علي يوجد بدار الإمارة بالكوفة ،منهم : محمـد بن عمر الواقدي(ت207هـ) ،و ابن جرير الطبري(ت310 هـ)، وأبـو بكـر الخطيب البغدادي(ت 463 هـ) .و أما الادعاء بأن قبره بالنجف ، فلا دليل عليه و لا أصل له[4] .

و التاسع هو الواعظ أبو بكر البكري المغربي الأشـعري (ت476هـ)، فإنه لما حلّ بغداد دخل مع الحنابلة في نزاع مذهبي ، فأوصله تعصبه إلى أن حكى عنهم ما لا يصح أن يُذكر ، فروى ابن الجوزي أنه –أي البكري– قـال إن الحنابلة يقولون : إن لله ذكرا ، فرماه الله تعالى بالخبث في ذلـك العضـو

---

[1] الذهبي : ميزان الاعتدال ، ج1 ص: 131، 132 .

[2] الذهبي: السير ، ج 16 ص: 250 .

[3] ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ، ج4 ص : 12 .و التفسير الكبيـر ج 7 ص : 559 .و بدر الدين الحنبلي : المصدر السابق ص : 207-208 .

[4] ابن كثير : البداية ج 7 ص : 330-331 .

فمات[1] . و قوله هذا-إن صح- هو افتراء مفضوح ،و زندقـــة مكشـــوفة ، لا يقوله إنسان عاقل ، فضلا عن مسلم .

و العاشر هو أحد شيوخ بغداد ، فقد روى عنه القاضي أبو بكـــر بـــن العربي المالكي الأشعري(ت 546هـ) ، انه لما كان ببغداد أخبره هذا الشيخ – و هو أحد شيوخه- بأن القاضي أبا يعلى الفراء الحنبلي البغدادي(ت458هـ) كـــان يقول: إذا ذُكر الله ، وما ورد من هذه الظواهر في صفاته ، فألزموني ما شئتم ، فإني التزمه ، إلا اللحية و العورة[2] . و روايته هذه غيـــر صـــحيحة- فـــي رأيي- للمعطيات الآتية ، أولها إن قوله هذا لم أعثـــر عليـــه فـــي المصـــادر الحنبلية من إنه -أي أبو يعلى- قال ذلك ، و إنمـــا رواه ابـــن العربـــي عـــن مجهول هو من خُصوم القاضي أبي يعلى ، و خبر هذا حاله لا يُقبل في أمـــر خطير كهذا .

و ثانيها إن ذلك القول القبيح من المستبعد جدا أن يقوله القاضي أبـــو يعلى ، لأنه عالم فقيه زاهد ، متبحر في مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، و لأنه أيضا كان على منهاج السلف في الصفات لا يُثبت صـــفة إلا إذا وردت فـــي الشرع ، و لا شك إن ذلك القول المذموم لا يوجد في الشرع ما يُؤيده ، و إنما هو منسوب للمجسم الضال داود الجويباري ، الذي كان يقول : ((اعفوني عن الفرج و اللحية ، و اسألوني عما وراء ذلك))[3] .

و ثالثها إن الحنابلة قالوا إن بعض الأشاعرة كان يتعمد الكذب عليهم ، نكاية فيهم و انتصارا لمذهبه ، فقالوا إن أعيان الأشاعرة عندما أرسلوا كتابهم

---

[1] المنتظم ، ج 9 ص: 4 .

[2] العواصم ، ج2 ص: 283 .

[3] الشهرستاني: الملل و النحل ، حققه علي مهنا، بيـــروت ، دار المعرفـــة ، 1998، ج 1 ص: 1057 . و أبو المظفر الاسفراييني : التبصير في الدين ، ط1 ، بيروت ، دار عـــالم الكتب ، 1983، ص: 120 .

إلى نظام الملك ، كذبوا عليهم فيه ، و ذكروا له عنهم أشياء زورا و بهتانا[1] . و ذكر المتكلم أبو الوفاء بن عقيل أن الأشاعرة في نزاعهم مع أصحاب الحديث كانوا يكذبون عليهم[2] ،و عليه فمن الممكن جدا أن تلك المقولة هي من ضمن تلك الأكاذيب .

و الحادي عشر هو المتكلم ابن الأهدل اليمني الأشعري ،ادعى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561ه) كان أشعري المعتقد حنبلي الفروع[3] ، مسايرا للمؤرخ اليافعي المكي الصوفي(ت 768ه) الذي روى إن الشيخ الجيلاني غيّر اعتقاده في آخر عمره ، مدعيا إن الشيخ نجم الدين الأصفهاني أخبره بأن الجيلاني لما ((بلغه أن الفقيه الإمام البارع المشكور تقي الدين بن دقيق العيد المشهور تعجّب من شذوذ الشيخ عبد القادر المذكور ، في اعتقاده عن موافقة الجمهور العارفين،و العلماء المحققين في مسألة الجهة المعروفة)) غيرّ-أي الجيلاني- عقيدته في الجهة و المكان ، في آخر عمره[4] .ثم أضاف اليافعي أنه لا يشك في الشيخ نجم الدين-الذي أخبره بذلك- لأنه من ذوي الكشف و النور ، و يسكن في العراق ، فهو قريب من موطن الشيخ الجيلاني[5] .

و ردا عليه أقول : إن ما ادعاه اليافعي باطل لا يصح لعدة و جوه ، أولها إن الشيخ عبد القادر أثبت الصفات الإلهية ، كالعلو ، و الجهة ، و الاستواء على العرش ، في كتابه الغنية و لم يؤولها ، و رد فيه على الأشاعرة

---

[1] ابن أبي يعلى الفراء: طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 239 .

[2] ابن عقيل : الرد على الأشاعرة العزال ، ص: 91 .

[3] ابن الأهدل : : كشف الغطاء ، تونس ، الاتحاد العام التونسي للشغل ، د ت ص : 83 .

[4] اليافعي : مرآة الجنان ، ج 3 ص : 362 ، 363 .

[5] نفسه ج 3 ص : 362 .

في مسألة النزول و الصوت و الحرف ، و ذمهم و وصفهم بالابتداع[1] . و الثاني هو إن اليافعي انفرد بهذا الخبر عن غيره من المؤرخين ، فأنني لم أعثر عليه في كتب التراجم و التواريخ ، و الطبقات التي اطلعت عليها . لذا فمن المستبعد جدا أن يغيّر الجيلاني اعتقاده الحنبلي ، و لا يشتهر ذلك عنه بين الحنابلة و الطوائف الإسلامية الأخرى ، و بين خصومه الحنابلة الذين يبحثون عن أي شيء للطّعن فيه[2] . و الثالث إن خبره يحمل في ذاته الدليل القاطع على بطلانه ، لأن فيه أن الشيخ عبد القادر غيّر اعتقاده ، عندما بلغه ما قاله عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد . فكيف يبلغه ذلك و هذا الأخير- أي ابن دقيق العيد- قد وُلد في سنة 625ه ، و توفي في سنة 702ه ، و والده مجد الدين قد وُلد في عام 581ه ، و توفي في عام 667ه[3] ، و الشيخ الجيلاني توفي في سنة 561ه ، فبينه و بين الابن أربع و ستين سنة ، و بينه و بين الأب عشرين سنة ؟ أليس هذا دليل قاطع على بطلان خبر اليافعي ؟.

و الوجه الرابع هو إن اليافعي كان متعصبا للأشعرية ، و يذم كبار علماء الحنابلة[4]، لذا يبدو أنه عزّ عليه أن يكون أحد أقطاب الصوفية حنبليا أصولا و فروعا، و لا يكون أشعريا ، لذلك روي خبر تغيير الجيلاني لاعتقاده في آخر عمره و هو يعلم ما بينه و بين ابن دقيق العيد من زمن طويل ، و لم يُبال بذلك ، فهذا ما يصنعه التعصب بأهله ! .

---

[1] عبد القادر الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق ج 1 ص : 71 ، 72 ، 74 ، 78 .

[2] منهم عبد الرحمن ابن الجوزي الذي كان خصما للجيلاني .

[3] الأدفوي كمال الدين: الطالع السعيد ، الدار المصرية للتأليف ، 1966 ، ص : 432 ، 575 .و ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق ج 5 ص : 324 ، 325 ، ج 6 ص : 5 .

[4] المناوي : الكواكب الدرية ، ط1 ، بيروت ، دار صادر، 1999 ، ج 3 ص : 36 .

و آخرهم هم طائفة من الشيعة الزيدية باليمن تعمدوا تحريف كتاب زمن الفقيه محمد بن علي الشوكاني (ت 1250ه) ، فذكر أنهم تواطؤوا على تحريف كتاب مجموع زيد بن علي بن الحسين ، فحذفوا منه أبوابا اختاروها منه ، ثم نسخوا مجموعة من النسخ و نشروها بين الناس ، ثم علّق على فعلهم هذا بقوله : ((و هذا أمر عظيم ،و جناية كبيرة ، و في ذلك دلالة على مزيد الجهل و فرط التعصب ،و هذه النسخ التي بثوها بين الناس موجودة الآن ، فلا حول و لا قوة إلا بالله))[1] . لكنه لم يذكر لنا لماذا فعلوا ذلك ؟ ، و ما هي أهدافهم المرجوة منه ؟ ، و ما مضمون الأبواب التي حذفوها من الكتاب ؟ .

و يُضاف إلى هؤلاء طائفة أخرى من الكذابين ، و هي طائفة الزنادقة ، دفعها تعصبها الأعمى إلى افتراء الأكاذيب على رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ،و قُدّر مجموع ما كذبوه عليه باثنى عشر ألف حديث ،و ذكر إسحاق بن راهويه أن زنديقا تاب عن الزندقة ، فكان يبكي و يقول : ((كيف تَقبل توبتي ،و قد زوّرتَ أربعة آلاف حديث تدور في أيدي الناس[2] .و يُروى أن الخليفة هارون الرشيد أخذ زنديقا ليقتله ، فقال للرشيد : أين أنت من ألف حديث وضعتها ؟ فرد عليه الرشيد : أين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري ،و ابن المبارك ، يتخللانها فيخرجانها حرفا حرفا[3] .

و من هؤلاء الزنادقة : عبد الكريم بن أبي العوجاء، قتله الخليفة العباسي المهدي ، بعد سنة160 هجرية ، قتله بسبب الزندقة ،و عندما أُخذ لقطع عنقه، اعترف بوضع أربعة آلاف حديث ، حرّم فيها الحلال و حلل فيها الحرام[4] . و الثاني هو عبد الرحمن بن خراش ، مَتهم بالزندقة ، روى

---

[1] الشوكاني : البدر الطالع ، ج 2 ص: 330 .

[2] العقيلي : الضعفاء ،، ج 1ص: 14 .و الذهبي : السير ، ج11 ص: 37 .

[3] الذهبي : نفس المصدر ، ج8 ص: 542 .

[4] الذهبي : الميزان ، ج4 ص: 386 .و ابن حجر : المصدر السابق ، ج3 ص: 51 .

الأباطيل في مثالب الشيخين الصديق و الفاروق رضي الله عنهما ، و حدّث بالمراسيل و وصلها[1] . و ثالثهم الزنديق محمد بن سعيد المصلوب(ق:2ه) ، قتله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ، بسبب الزندقة ، قال عنه أهل الحديث : كذاب زنديق ، وضع أكثر من أربعة آلاف حديث[2] .و آخرهم –أي الرابع– الأديب المتفلسف أبو حيان التوحيدي(ق:4ه) ، مَتهم بالزندقة و الكذب و الانحلال ،و التعطيل و القدح في الشريعة[3] .

و أشير هنا إلى أنه إذا كان الكذابون المتعصبون ينتمون إلى مختلف الطوائف الإسلامية ، فإن أكثرهم ينتمون إلى الطائفة الشيعية ، التي هي أكثر الفرق رواية للأكاذيب و تحريفا للتاريخ ،و الشواهد الآتية تُثبت ذلك بوضوح ، أولها إنه سبق أن ذكرنا روايات كثيرة عن الشيعة فيها سب و تكفير الصحابة ،و اتهام لهم بكتمان النص ،و تحريف القرآن ، و وجود هذه الروايات عندهم دليل قاطع على روايتهم للأكاذيب و تعصبهم للباطل ، لأنها تخالف القرآن الكريم و السنة و التاريخ الصحيحين .

و الشاهد الثاني يتعلق بموقف بعض العلماء المحققين من مرويات الشيعة ، منهم : أبو محمد بن حزم الأندلسي (ت 456ه) ، قال :إن سائر الأحاديث التي تتعلق بها الشيعة موضوعة ، يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار و نقلها[4] . و منهم : الشيخ تقي الدين بن تيمية (ت 728ه) ، ذكر أن الشيعة ليس لهم نقل صحيح و لا عقل صريح، فهم يصدقون بالمنقولات المعروفة بالاضطرار أنها باطلة ، ويكذّبون بالأخبار المتواترة الصحيحة،

---

[1] الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج2 ص: 185 ، 684 .و ابن حجر : اللسان ،ج3 ص: 444 .

[2] ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ج9 ص: 163 .

[3] ابن حجر : لسان الميزان ، ج7 ص: 163 .

[4] الفِصل في الملل و الأهواء و النحل ، ج 4 ص: 116 .

ويعتمدون في رواياتهم على التقليد ، دون تمييز بين المؤرخ المعروف بالكذب أو الغلط ، أو الجهل بما ينقل،و بين المؤرخ العدل الحافظ المشهور بالعلم و الأثر[1].و عمدتهم في المنقولات تواريخ منقطعة الأسانيد ، كثير منها من وضع الكذابين ، كأبي مخنف لوط(ت 157ه) ،و هشام بن محمد بن السائب الكلبي(ت204 ه) .و ليس لهم أسانيد متصلة صحيحة قط ،و كل إسناد متصل عندهم إلا و فيه من هو معروف بالكذب و كثرة الغلط . فهم كاليهود و النصارى ليس لهم إسناد ، وكتبهم في الرجال ليست ككتب الرجال عند أهل السنة ، لكي ننظر فيها و في عدالة رجالها[2] .و بسبب فرط جهلهم و هواهم فإنهم يقلبون الحقائق التاريخية و ينكرونها ،و يثبتون محلها أخبارا مكذوبة و يصدقونها[3] .

و منهم أيضا الحافظ شمس الدين الذهبي (ت748ه) ، ذكر أن أكثر ما ينقله الرافضة–أي الشيعة– في مصنفاتهم هو ((باطل ، و كذب ، و افتراء ، فدأب الروافض رواية الأباطيل ، و رد ما في الصحاح و المسانيد ، و متى أفاقة من به سكران)) ؟ ! . و قال فيهم أيضا : ((بل الكذب شعارهم ، و التقية و النفاق دثارهم ، فكيف يُنقل نقل من هذا حاله ؟ ، حاشا و كلا)) [4].

و الشاهد الثالث هو كثرة أكاذيبهم على علي بن أبي طالب آل البيت – رضي الله عنهم– فقد وضع هؤلاء الشيعة أحاديث كثيرة في فضائلهم و أخبارهم ، و قد ذكر المحقق ابن قيم الجوزية أن الحافظ أبا يعلى الخليلي ذكر

---

[1] ابن تيمية : منهاج السنة ج 1 ص :3 .و درء تعارض العقل و النقل ج 4 ص : 133 .

[2] ابن تيمية : منهاج السنة ج 1 ص : 13 , و ج 2 ص : 116 .و ج 4 ص :11 .

[3] نفس المصدر ج 3 ص : 159 .و خلاف الأمة ص : 122 .

[4] الذهبي : السير ، ج 10 ص: 93 . و الميزان ، ج 1 ص: 118 .

في كتابه الإرشاد ، أن الرافضة وضعت في فضائل علي و آل بيته نحو : 300 ألف حديث ؛ ثم قال ابن القيم : إن هذا الرقم لا يُستبعد ((فإنك لو تتبعت ما عندهم من ذلك لوجدت الأمر كما قال))[1] .

و الشاهد الرابع مضمونه هو وجود طائفة من الشيعة هي من كبار الكذابين المتعصبين المتخصصين في رواية الأكاذيب و تحريف التاريخ ، منهم أن أحد شيوخهم اعترف أنه هو و أصحابه كانوا يجتمعون لأجل الكذب على الرسول-عليه الصلاة و السلام- بوضع الأحاديث و نسبتها إليه[2] . و منهم : محمد بن عثمان النصيبي ، و محمد بن عبد الله الشيباني ، كانا متخصصيّن في وضع الأحاديث المختلقة للشيعة[3] .

و منهم أيضا جماعة كانت ببغداد ، حذّر منهم الناس و سموهم الكذابين ،و عُرفوا بينهم بالسبئية[4] ؛ نسبة لعبد الله بن سبأ اليهودي المتمسلم . و منهم كذلك ثلاثة كانوا من كبار الكذابين على آل البيت ، و هم : محمد بن السائب الكلبي(ت قرن:2ه) ، و بنان بن سمعان ،و المغيرة بن سعيد الكوفي[5] . و هذا الأخير-أي المغيرة- كان قد ادعى النبوة ، و زعم أن عليا يُحيي الموتى ،و أنه لو شاء لأحيي عادا و ثمودا ! ! ، فقال له أحد علماء السنة : من أين علمت ذلك ؟ قال له أنه ذهب إلى رجل من أهل البيت – لم يسميه – فتفل

---

[1] نقد المنقول ، حققه حسن السماعي ، ط 1 ، بيروت دار القادري ، 1990، ص: 105 .

[2] السيوطي: تدريب الراوي ، حققه عبد الوهاب عبد اللطيف ، الرياض ، مكتبة الرياض ، د ت ، ص: 285 .

[3] ابن الجوزي: الضعفاء و المتروكين ، ج 3 ص: 84 .

[4] الذهبي : ميزان الاعتدال ، ج 6 ص: 159 .

[5] ابن حجر : اللسان ، ج 4 ص: 369 . و ابن عدي: الكامل في الضعفاء ، ج 6 ص: 352 . و الذهبي : الميزان ، ج 2 ص: 171 ، ج 4 ص: 31، 39 ، ج 6 ص: 159، 161 .

في فمه ، فأصبح يعلم كل شيء ، و بذلك العلم علم أن عليا يحي الموتى[1] !! . فأنظر إلى هذا الدجال الزنديق الوقح ، كيف يكذب على أهل البيت دون حياء ، و يزعم أنه أصبح يعلم كل شيء ، و هذه صفة لا يتصنف بها إلا الله تعالى الواحد الأحد .

و أشير هنا أيضا إلى أن أهل السنة قد اختلفوا في الاحتجاج بروايات الشيعة على ثلاثة أقوال : أولها المنع المطلق ،و ثانيها الترخّص مطلقا إلا فيمن يكذب و يضع الحديث ، و ثالثها التفصيل فتقبل رواية الرافضي الصدوق العارف بما يّحدّث ، و تّرد رواية الرافضي الداعية لمذهبه و لو كان صدوقا[2] . و الموقف الأول هو الصحيح في اعتقادي ، لأنه هو الأصوب و الأسلم و الأحوط ،و ذلك أن الرافضة يسبون الصحابة و يكفرونهم ،و الكذب شعارهم و التقية و النفاق دثارهم[3] . فمن كان ذلك هو حالهم فالكذب و الصدق عندهم سيان ، من فعلهما فهو في عبادة ،و من هذه حاله لا تقبل روايته كائنا من كان ،و في أي حال من الأحوال .

و مما يؤيد ما ذهبتُ إليه ، ما قاله كثير من كبار العلماء في الشيعة ، فقال فيهم الإمام مالك : لا تكلموهم ، لا تروا عنهم ، فإنهم يكذبون .و قال عنهم الإمام الشافعي : لم أر أشهد بالزور من الرافضة .و قال شريك : احمل العلم من كل ما لقيت إلا الرافضة ، فإنهم يضعون الحديث و يتخذونه دينا .و قال يزيد بن هارون : يكتب عن كل صاحب بدعة إذا لم يكن داعية إلا الرافضة ، فإنهم يكذبون[4] .

---

[1] ابن عدي: نفسه ، ج6 ص: 352 .

[2] الذهبي : الميزان ، ، ج1ص: 146 .

[3] الذهبي : نفس المصدر ، ج1ص: 118، 119 .

[4] عن قوال هؤلاء انظر : الذهبي : نفس المصدر ، ج1 ص: 146 .

و قال بن القيم الجوزية : الرافضة أكذب خلق الله ،و أكذب الطوائف .و قال الذهبي : أكثر ما ترويه الرافضة كذب ،و أن دأبهم رواية الأباطيل ،و رد ما في الصحاح و الأسانيد ،و تكفير الصحابة ،و التدثر بالتقية و النفاق ، فمن كان ذلك حالهم لا تقبل روايتهم و لا يحتج بقولهم . و قال ابن حجر : الشيعة لا يوثق بنقلهم[1] .

و أما لماذا كان الشيعة أكثر الطوائف كذبا ؟ ، فيبدو لي أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية أوصلتهم إلى المبالغة في الكذب و التخصص فيه ، أولها إن الشيعة الرافضة الأوائل لما كانوا على منهاج باطل و فكر ضال، مخالفين لأهل البيت ، – و هم يزعمون أنهم على منهاجهم و فكرهم– ، دفعهم ذلك إلى الكذب عليهم ،و تأسيس مذهب جديد يوافق أفكارهم الضالة ، ثم نسبوه لأهل البيت .

و السبب الثاني هو أنه لما كان مذهب الرافضة –على اختلاف تياراته – يتناقض تماما مع القرآن الكريم ، دفعهم ذلك إلى الكذب على أهل البيت ، و اتخاذ أقوالهم المكذوبة عليهم أدلة شرعية مقدسة لرد ما جاء في القرآن الكريم ، و تأسيس مذهبهم الباطل . و السبب الثالث هو أنهم لما كانت السنة النبوية الصحيحة ، و الحوادث التاريخية المتواترة تناقض مذهبهم ، لجؤوا إلى الكذب على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– و أهل بيته و صحابته ، لرد المتواترات من السنة النبوية ، و الحوادث التاريخية ، تأسيسا لمذهبهم و نصرا لباطلهم و تعصبا له .

و هؤلاء–أي الشيعة– في احترافهم للكذب كانوا مدفوعين بتعصب أعمى لمذهبهم ،و بحقد دفين لمن يُخالفهم ، و إلا ما وصل بهم الأمر إلى اختلاق الأكاذيب لرد ما في القرآن ،و الزعم بتحريفه ، و سب الصحابة و

---

[1] ابن القيم : المنار المنيف ، ص: 52، 57، 152 .و الذهبي: السير ، ج10ص: 93 . الميزان ، ج1ص: 118، 119 .و ابن حجر : اللسان ، ج2ص: 119 .

تكفيرهم ، و هم خير الناس بعد رسول الله –عليه الصلاة و السلام– ، بشهادة القرآن و السنة و التاريخ .

و بذلك يتبين – مما ذكرناه في هذا المبحث– أن التعصب المذهبي أدى بكثير من المتعصبين– من مختلف المذاهب– إلى التعمد في رواية الأكاذيب و تحريف التاريخ ، انتصارا لمذاهبهم و تعصبا على خُصومهم ، و قد ذكرنا منهم طائفة من مختلف الفرق و الجماعات كشواهد على ما قلناه .

سابعا : المدارس و المساجد الطائفية :

تُعتبر المدارس و المساجد الطائفية من المظاهر المادية للتعصب المذهبي الذي كان سائدا بين الطوائف السنية الأربعة ، فهي مؤسسات ظاهرة للعيان ، و شاهدة على مدى تأثير التعصب المذهبي في تلك الطوائف ، حتى أوصلها إلى اختصاص كل منها بمدارسها و مساجدها ، تكريسا للفرقة ،و انتصارا للمذهب ، و تعصبا على المخالف . و الشواهد على ذلك كثيرة جدا[1] ، أذكر بعضها حسب الطوائف السنية الأربعة .

فبخصوص الحنفية ، فقد كانت لهم مدارس كثيرة خاصة بهم ، ببغداد و دمشق و مصر[2] و غيرها من أمصار المشرق الإسلامي ، منها المدرسة الخاتونية ، و المدرسة الإقبالية بدمشق ،و كان لهم بها أكثر من 50 مدرسة[3] . و منها أيضا مدرسة مشهد أبي حنيفة ، و مدرسة باب الطاق ببغداد[4] . و

---

[1] للتوسع في ذلك انظر : عبد القادر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، حققه جعفر الحسيني ، دمشق ، المجمع العلمي ، 1951 .

[2] عن مدارسهم بمصر انظر : المقريزي: الخطط ، ج 2 ص: 363، 403 .

[3] انظر : عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس .

[4] و لهم مدارس أخرى ببغداد، و عن مدارسهم بها أنظر : عماد عبد السلام رؤوف : مدارس بغدادفي العصر العباسي ، ط 1 ، بغداد ، مطبعة العاني ، 1965 ، ص: 32 و ما بعدها .

كانت لهم مدرسة بمدينة سنجار بناها لهم الملك قطب الدين محمد (ت594ه) ،- كان شديد التعصب للحنفية- اشترط فيها أن يكون النظر فيها للحنفية من أولاده دون الشافعية منهم ، و أن يكون البواب و الفراش على المذهب الحنفي[1] .

و أما المالكية ، فهم أيضا كانت لهم مدارس خاصة بهم ، بمصر و دمشق ، و حلب و بيت المقدس[2] ، منها : المدرسة الصمصامية ، و الصلاحية بدمشق[3] .

و أما الشافعية فقد كانت لهم مدار كثيرة ، ببغداد و مصر ، و دمشق و بيت المقدس[4] ، و غيرها من مدن المشرق الإسلامي ، و قد زادت مدارسهم بدمشق عن 60 مدرسة ، منها : العادلية الكبرى ، و العادلية الصغرى ، و العصرونية[5] .و من مدارسهم ببغداد : المدرسة النظامية ، و مدرسة قراح ظفر[6] . و قد بنى لهم الملك غياث الدين الغوري مدرسة بمدينة هراة سنة 595 هجرية ، و قدمها للمتكلم الفخر الرازي(ت606ه) ، فتعصب عليه الكرّامية و ألبوا عليه الناس[7] . و بنى لهم التاجر ابن رواحة (ت623ه) مدرسة

---

[1] ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 2 ص: 331 .

[2] انظر : المقريزي: الخطط ، ج 2 ص: 363، 403 . و ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة ، حققه سامي الدهان ، دمشق ، المهعد الفرنسي ، 1956ه ، 119، 229 ، 253 . و محمد كرد علي : خِطط الشام ، ج 6 ص: 115 .

[3] النعيمي : المصدر السابق .

[4] انظر مثلا : ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ص: 119 و ما بعدها . و السوطي : حسن المحاضرة ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي ، 1965 ، ج1 . و النعيمي : الدارس ، ج 1 .

[5] انظر : النعيمي : المصدر السابق ، ج 1 ص: .

[6] عماد عبد السلام : المرجع السابق ، ص: 76 و ما بعدها .

[7] ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 18 .

بدمشق ، و اشترط فيها شروطا صعبة ، منهـا : لا يـدخلها يهـودي ، و لا نصراني ، و لا حنبلي حشوي[1] . فسوّى – في شرطه هذا – بين اليهـودي و النصراني الكافريّن و بين الحنبلي المسلم ، و هذا– بلا شك– تعصب أعمـى بغيض .

و أما الحنابلة فهم أيضا كانت لهم مدارس خاصـة بهـم ، ببغـداد و دمشق و حلب و غيرها من مدن المشرق الإسلامي[2] ، منها المدرسة العمرية ،و الجوزية ، و الضيائية ، و العالمية بدمشق[3] .و من مدارسـهم ببغـداد : مدرسة المخرّمي ، و مدرسة الأبرادي ، و مدرسة الوزير ابـن هبيـرة ، و مدرسة السيدة بنفشا[4] .

و للوزير الفقيه عون الدين بن هبيرة الحنبلي البغدادي(ت 560ه) رأي في تعدد مدارس و مساجد الطوائف السنية ، مفاده أنه شخصيا لا يحبّذ تعـدد مساجدها ، لكنه لا يرى مانعا في تعدد مدارسها ، علـى أن لا يُضّـيق فـي شروطها على المسلمين لينتفعوا بها ،و حكى عن نفسه أنه امتنع مـن دخـول مدرسة لم تتوفر فيه شروطها، ولو دخلها ربما وجد فيها ما ينفعـه[5] . وهـو بموقفه هذا يُقر بالانقسامات المذهبية التي كانت سائدة في زمانه ،و يكرسـها بموافقته إنشاء مدارس طائفية ، مع المطالبة بعدم تضييق مجال الانتفاع بها ؛ سعيا منه للتخفيف من حدة التعصب المذهبي ،و ليس لاقتلاعه من جذوره .

---

[1] النعيمي: المصدر السابق ج 1 ص: 200، 201 .

[2] أنظر مثلا : النعيمي : الدارس ، ج 2 . و كرد علي : خطط الشام ، ج 6 ص: 115 . و عماد عبد السلام : مدارس بغداد .

[3] انظر : النعيمي : نفس المصدر ، ج 2 .

[4] ابن الجوزي : المنتظم ، ج 10 ص: 258 ..و ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ، ج 1 ص: 286 ، 359 .

[5] ابن رجب : المصدر السابق ج 1 ص :280 .و العليمي : المصـدر السـابق ج 2 ص :307 .

و لا شك أنه قد كان لهذه المدارس الطائفية جوانب ايجابية لا يجب إغفالها ، كخدمة المذاهب التي أنشئت لها ، و نشر العلم و تكوين الطلبة ، و المساهمة في تنشيط الحياة العلمية . لكنها من جهة أخرى كانت لها سلبيات خطيرة جدا ، كتكريس الفرقة المذهبية ، و إيجاد أرضية خصبة للتشجيع على التعصب و رعايته ، و تكوين الطالب المقلد المتمذهب المتعصب لمذهبه ، الأحادي النظرة المدافع عن مذهبه المنتصر له ، و هذا هو الهدف الأساسي من بناء تلك المدارس الطائفية المذهبية .

و رغم أنه وُجدت مدارس مشتركة بين الطوائف السنية ببغداد و القاهرة و دمشق ، كالمدرستين المستنصرية و البشيرية ببغداد ،و المدرستين الصالحية و المنصورية بالقاهرة [1] ؛ فإنها لم تكن مشتركة إلا في البناية و المرافق و الجرايات ، و كانت كل طائفة مستقلة بجهتها و قاعاتها ،و طلابها و أساتذتها ، و مذهبها و برامجها[2] . فهي و إن خففت نوعا ما من التعصب والنزاع ، فإنها من جهة أخرى قد كرّست الفرقة و التمذهب و التعصب في بناية واحدة .

و أما المساجد الطائفية فهي أيضا كانت كثيرة ، بسبب الانقسام الطائفي و المذهبي بين الفرق الإسلامية ، فقد كانت مساجد دمشق مقسمة بين الطوائف السنية ، فمعظم مساجدها -داخل السور- كانت للشافعية ، ثم للحنفية ، ثم للمالكية ، ثم للحنابلة ؛ و كانت معظم مساجد الصالحية-خارج سور

---

[1] الذهبي : السير ، ج 23 ص: 156، 159 . و ابن الفوّطي : الحوادث الجامعة ، بيروت ، دار الفكر الحديث ، 1987، ص: 149 . و الصفدي: نكت الهيمان ،حققه أحمد زكي باشا ، مصر ، المطبعة الجمالية ، 1911، ص: 100 . و السيوطي: حسن المحاضرة ، ج 2 ص: 263، 264 . و المقريزي : الخطط ، ج 2 ص: 374 .

[2] أنظر مثلا : السيوطي: نفسه ، ج 2 ص: 263 . و ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ط 2 ، بغداد ، مطبعة العاني ، 1965.

دمشق– للحنابلة ، و الباقي للشافعية و الحنفية ، و كان هـذا الوضـع سـائدا بدمشق زمن الفقيه يوسف بن عبد الهادي الحنبلي المُتوفى سنة 909 هجرية[1].

و نفس الظاهرة كانت بمدينة مرو الشاهجان –بـبلاد خُراسـان– ، فوُجد بها مسجدان يفصلهما سور ، واحد للشافعية و الآخر للحنفية . وكـذلك الحال بمدينتي بغداد و حرّان ، فقد وُجدت بهما مساجد طائفية تابعة للطوائـف السنة[2] .

و الأغرب من ذلك أنه وُجدت محاريب متعددة داخل المسجد الواحـد حسب الطوائف المذهبية ، فتصلي كل جماعة في محرابها ، و لا تصلي فـي المحاريب الأخرى ؛ ففي الحرم المكي كانت فيه خمسة مقامـات–محاريـب– للصلاة حسب الطوائف المكونة للمجتمع المكي ، و هي : الشافعية ، و الحنفية ، و المالكية ، و الحنبلية ، و الشيعة ، فكان لكل منها مقامها الذي تصلي فيـه ،و في صلاة المغرب كانت كل الطوائف تصلي في وقت واحد لضيق الوقت ، فيحدث تشويش و خلط في الركوع و السجود و التسليم ، و قـد كانـت هـذه الظاهرة موجودة بالحرم المكي في القرن السادس الهجري و ما بعده [3] .

و المسجد الأقصى هو أيضا كان مقسما بين الطوائف السنية الأربعة ، فكان لكل منها محرابها الذي تصلي فيه ، و تعقد فيه حلقاتها العلمية .و نفـس

---

[1] يوسف بن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، ص: 145، 159 .

[2] انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 5 ص: 114 . و ابن الجوزي : المنتظم ، ج 9ص: 176 ، ج 10 ص:103 . و ابن رجب : الذيل ، ج 1 : 119 ، 214، 215 ، ج 2 ص: 202 ، 203 .

[3] ابن جبير : رحلة ابن جبير ،الجزائر ، موفم للنشر ، 1988، ص: 71 . و التجيبـي : مستفاد الرحلة و الاغتراب ،حققه عبد الحفيظ منصور ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، ص : 296، 297 .

الظاهرة كانت بمسجد مدينة الخليل ، فقد كان مقسما على الطوائف السنية ، ما عدا الحنابلة الذين لم يكن لهم فيه إمام[1] .

و كذلك الجامع الأموي بدمشق ، فقد كانت بداخله أربعة محاريب حسب الطوائف السنية الأربعة ، لكل منها محرابها تصلي فيه ،و تعقد فيه أيضا حلقاتها العلمية[2] . و هذه المحاريب ما تزال موجودة بالجامع الأموي إلى يومنا هذا ، كشواهد تاريخية ، لكنها معطلة ، إلا واحد منها يصلي فيه كل الناس .

و للوزير عون الدين بن هُبيرة البغدادي رأي في ظاهرة تعدد المساجد السنية ، مفاده أن اختصاص المساجد ببعض أرباب المذاهب بدعة محدثة ، فلا يقال : هذه مساجد أصحاب احمد ، فيمنع منها أصحاب الشافعي ، ولا العكس ؛ و قد قال الله تعالى في المسجد الحرام ((سواء العاكف فيه و الباد))[3] – سورة الحج/25– ،وقوله هذا صحيح فيما يخص اختصاص جماعة بمساجد دون غيرها ، لكنني لم أعثر على ما يشير إلى أن طائفة من السنيين منعت غيرها من دخول مساجدها . لكنه وجد فيهم–أي من السنيين–من امتنع من الصلاة مع غير إمامه و أصحابه، كما هو الحال في الحرم المكي، و المسجد الأقصى، و الجامع الأموي، إذ كان لكل طائفة محرابها و إمامها ،و هذا كله ثمرة مرة للتعصب المذهبي الذميم المسيطر على العقول أولا ؛و نتيجة لعجز وتخاذل أولي الأمر و العلماء ، من القيام بواجباتهم الشرعية تجاه أمتهم ثانيا .

---

[1] أبو اليمن مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل ، النجف ، المطبعة الحيدرية و مكتبتها ، 1968 ، ج 2 ص: 32 .

[2] النعيمي: الدارس ، ج 2 ص: 217 ، 394 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 339 .

[3] ابن رجب : المصدر السابق ج 1 ص :279–280 . والعليمي : المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ، حققه محي الدين عبد الحميد ، ط 1 ، القاهرة ،1963 ،ج 2 ص : 307 .

و يتبين مما ذكرناه -في مبحثنا هذا- أن ظاهرة تعدد المدارس و المساجد بين الطوائف السنية الأربعة ، كانت منتشرة بكثرة بين السنيين ، و أظهرت مدى عمق الخلاف المذهبي بينهم من جهة ، و عمّقته و كرّسته من جهة ثانية ، بسبب غلبة التعصب المذهبي عليهم ،و عدم قيام علمائهم و حكامهم بواجبهم الشرعي لجمع شمل أمتهم .

ثامنا : التعصب المذهبي عند أهل العلم :

كان التعصب المذهبي واسع الانتشار بين أهل العلم، حتى أصبح يُمثل ظاهرة بارزة و مؤثرة في الحياة العلمية -خلال العصر الإسلامي- ، و عنهم - أي العلماء- انتقل التعصب المذهبي إلى عامة الناس و خاصتهم ، و الشواهد التاريخية -على تعصب العلماء- كثيرة جدا ، أذكر منها ما يأتي :

أ - نماذج من تعصب العلماء فيما بينهم :

توجد شواهد كثيرة على تعصب أهل العلم على بعضهم بعض ، و تبادلهم للاتهامات بالتعصب المذهبي ، أذكر منها تسعة نماذج ، أولها ما حدث للفقيه المحدث بقي بن مخلد الأندلسي(ت276ه) ، فإنه رحل إلى المشرق و حصّل علم أهل الأثر ، ثم عاد إلى بلاده بالأندلس و شرع في نشر علمه ، فتعصب عليه فقهاء الأندلس-و هم مالكية- ، فتدخل أمير البلد محمد بن عبد الرحمن المرواني و منعهم من التعرّض له ، و قال له : انشر علمك . و كان بقي ابن مخلد يقول : ((لقد غرستُ للمسلمين غرسا بالأندلس لا يُقلع إلا بخروج الدجال))[1] . لكن نبوءته هذه لم تحقق ، لأننا نعلم أن مذهبه لم يسد بلاده الأندلس ، التي نفسها خرجت من ملك المسلمين ، فكيف يبقى غرسه بها إلى خروج الدجال ؟ ! .

---

[1] الذهبي:تذكرة الحفاظ ، ج 2 ص: 630 .

و ثانيها يتعلق بما حدث لصاحب الصحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256ه) فإنه لما حدثت قضية اللفظ بالقرآن ، هل هو مخلوق أم غير مخلوق ؟ ، و تناولها هو -أي البخاري- في كتابه خلق أفعال العباد و الرد على الجهمية ، و انتهى إلى التاكيد على أن التلاوة-أي القراءة- من العبد ، و المقروء المتلو هو كلام الله تعالى ، معتمدا في ذلك على آيات و أحاديث كثيرة[1] ؛ عارضته طائفة من أهل الحديث ، و تعصبت عليه و هجرته ، و ألبت عليه أصحاب الحديث ، رغم أن الحق كان معه [2] .

و النموذج الثالث هو قول للمحدث إسماعيل بن أبي الفضل القومسي (ت5 ه) في ثلاثة من كبار الحفاظ ، يقول فيه : ((ثلاثة من الحفاظ لا أحبهم لشدة تعصبهم ، و قلة إنصافهم : الحاكم أبو عبد الله ، و أبو نُعيم الأصفهاني، و أبو بكر الخطيب)). فعقّب عليه ابن الجوزي -موافقا له- بقوله : ((لقد صدق إسماعيل ، و قد كان من كبار الحفاظ ثقة صدوقا ، له معرفة حسنة بالرجال و المتون غزير الديانة)) ، لأن ((الحاكم كان متشيعا ظاهر التشيع ، و الآخران كانا يتعصبان للمتكلمين و الأشاعرة ، و ما يليق هذا بأصحاب الحديث ، لأن الحديث جاء في ذم الكلام ، و قد أكد الشافعي هذا حتى قال : رأيي في أصحاب الكلام أن يُحملوا على البغال و يُطاف بهم)) [3] .

و النموذج الرابع يتعلق باتهام ابن الجوزي للخطيب البغدادي بالتعصب لمذهبه الشافعي ، و بالتعصب على الحنابلة أيضا ، فقال -أي ابن الجوزي- : إنه تكلّم في الحنابلة بما لا يليق ،و ذمهم و تعصب عليهم ، و قدح

---

[1] خلق أفعال العباد ، الجزائر ، دار الشهاب ، ص: 75، 76 ، 84، 86 . و ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة ، ج 2 ص: 660، 661 .

[2] ابن القيم : نفسه ن ج 2 ص: 660، 661 ، 664 . و ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 12 ص: 208 . و البيهقي : الأسماء و الصفات ، 1 ج ص: 306 .

[3] ابن الجوزي : المنتظم ، ج 8 ص: 269 .

فيهم بما أمكنه ، و له في ذلك دسائس ، منها أنه عندما ترجم لأحمد بن حنبل وصفه بأنه سيد المحدثين ، و عندما ترجم للشافعي وصفه بأنه تاج الفقهاء ، فوصفه بالفقه ،و لم يصف ابن حنبل بالفقه أيضا . و عندما ترجم للمتكلم حسين الكرابيسي البغدادي (ت قرن:3ه) ، ذكر أنه قال عن احمد بن حنبل : ((إيش نعمل بهذا الصبي ؟ ، إن قلنا لفظنا بالقرآن مخلوق قال: بدعة ، و إن قلنا غير مخلوق ، قال : بدعة[1] .

و منها أيضا أن ابن الجوزي ذكر أن الخطيب البغدادي لما ترجم للمحدث مهنأ بن يحيى الحنبلي ، أورد ما قاله فيه الحافظ أبو الحسن الدارقطني البغدادي (ت 385ه) ، فقال : إنه ثقة نبيل . ثم عاد الخطيب و ذكر ما قاله أبو الفتح الأزدي من أن مهنأ هذا مُنكر الحديث . ثم أنكر ابن الجوزي على الخطيب البغدادي فعله هذا ، لأنه يعلم أن الأزدي مطعون فيه عند الجميع ، أفلا ((يستحي الخطيب أن يُقابل قول الدارقطني في مهنأ بقول هذا-أي الأزدي- ، ثم لا يتكلم عليه ، هذا يُنبئ عن عصبية و قلة دين))[2] .

و ذكر ابن الجوزي أن الخطيب البغدادي دفعه تعصبه لمذهبه إلى الانتصار له باستخدام بعض الأحاديث الضعيفة و الموضوعة في قضايا فقهية ، ذكرها و سكت عنها و هو على علم بها ، و قد صحّ عن رسول الله -عليه الصلاة و السلام- إنه قال : ((من روى حديثا يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين)) ،و قال -أي ابن الجوزي- إن من يطلع على كتابه في الجهر بالبسملة ،و مسألة الغيم ،و احتجاجه بالأحاديث الباطلة ، يتحقق أن هذا الرجل فيه فرط عصبية ،و قلة دين [3] . ثم ذكر ابن الجوزي أنه كان في الخطيب ((

---

[1] نفس المصدر ، ج 8 ص: 267، 268 .

[2] نفسه ، ج 8 ص: 268 .

[3] نفسه ، ج 8 ص: 268، 269 . و التحقيق في أحاديث الخلاف ، ج 1 ص: 462 و ما بعدها .

شيئان ، أحدهما الجري على عادة عوام أهل الحديث في الجرح و التعديل ، فإنهم يُجرّحون بما ليس يُجرّح ،و ذلك لقلة فهمهم . و الثاني التعصب على مذهب أحمد و أصحابه)) ، و التعصب لمذهبه أيضا[1] .

و النموذج الخامس يتعلق باتهام ابن الجوزي للحافظ أبي سعد السمعاني الشافعي(ت562ه) بالتعصب البارد على الحنابلة ،و طعنه في جماعة منهم بما لا يُوجب طعنا[2] . فمن ذلك أنه-أي السمعاني- عندما ترجم للحافظ أبي الفضل بن ناصر السلامي البغدادي الحنبلي (ت550ه) في تاريخه ، وصفه بأنه ديّن ثبت متقن عارف بالمتون و الأسانيد . ثم قال عنه : لكنه يحب أن يقع في الناس ،و يتكلم في حقهم ،و يحرص على تسجيل ما يقع له من مثالبهم[3] ؛ وأنه لا يحسن الكلام في الرواة ، إذ قال في أحدهم: ((كان كذابا ضعيفا في الرواية ، لا يُحتج به و لا يُعتمد علي روايته)) ، فبما أنه قال: ((كذابا)) لا يحتاج أن يقول : ((لا يُعتمد على روايته)) ،و إذا رماه بالكذب فلا يُقال : ((أنه ضعيف في الرواية ، فإن الضعف دون الكذب))[4] . ثم تصدى ابن الجوزي للرد عليه ، فاتهمه بالتعصب على الحنابلة و الطعن فيهم ، و عدم التفريق بين الجرح و الغيبة ،و أنه متناقض في موقفه من ابن ناصر ، فهو قد احتج كثيرا بكلامه في كتابه ذيل تاريخ بغداد ، ثم هو يطعن فيه من

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 8 ص: 155 ، 156 ، 268 .

[2] نفس المصدر ، ج 10 ص: 224 . و الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج 4 ص: 1289 .

[3] ابن الجوزي : المنتظم ج 10 ص : 163 .و الذهبي : سير أعلام النبلاء ج 20 ص : 268 .و تذكرة الحفاظ ج 4 ص : 1289 .و ابن رجب : المصدر السابق ج 1 ص : 227 . و ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، حققه حسن الشماع ، بغداد ، دار الطباعة الحديثة ، 1969 ، مج4 ج 1 ص : 12 .

[4] ابن رجب : نفسه ج 1 ص : 227 .

جهة أخرى[1] . لذا فهو-في نظر ابن الجوزي- قد أزرى على نفسه ، و ما كان ينبغي أن يحتج بكلامه في شيء ، و أي شغل للمحدث غير الجرح و التعديل ؟ فمن عدّ ذلك طعنا مذموما فما عرف علم الحديث . فلقد ((شفي أبو سعد غيظه بما لا معنى له في كتابه ، فلم يُرزق نشره لسوء قصده ، فتُوفي و ما بلغ الأمل))[2] .

ثم ذكر ابن الجوزي أنه لم تكن للسمعاني طريقة سليمة في الترجمة للأعلام ، فيقول عن الرجل : حسن القامة . و عن إحدى الشيخات أنها: كانت عفيفة .و هذا ليس كلام من يدري كيف الجرح و التعديل . و قال عن إحدى النساء أنه كان يقال له : دخل.خرج . و هذا كلام لا يقوله عاقل[3] . و ذكر عنه كذلك أنه كان يُدلس على الناس في التحديث، فيأخذ الشيخ البغدادي و يعبر به نهر عيسى[4] ،و يقول : حدثني فلان فيما وراء النهر[5] ،و يجلس معه في رقة بغداد ، و يقول :حدثني فلان بالرّقة[6]))[7].

---

[1] ابن الجوزي : المصدر السابق ج 10 ص : 163 .و الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 4 ص : 1289 .

[2] ابن الجوزي : نفس المصدر ج 10 ص : 225 .

[3] نفسه ج 10 ص : 225 . و ابن الفرات : المصدر السابق مج 4 ج 1 ص : 12 .

[4] يجري بالجانب الغربي من بغداد و يصب في نهر دجلة . احمد سوسة : خارطة بغداد ص : 72 .

[5] هي البلاد التي تقع فيما وراء نهر جيحون الذي يصب في بحيرة خُوارزم ، أي بحر آرال ، عبد المنعم ماجد : الأطلس التاريخ للعالم الإسلامي ، دار الفكر العربي ، مصر ، الخريطة رقم 7 . .

[6] تقع في بلاد الجزيرة على نهر الفرات . عبد المنعم ماجد : نفس المرجع ، الخريطة رقم : 4 .

[7] ابن الجوزي : المصدر السابق ج 10 ص :225 . و ابن الفرات : المصدر السابق مج 4 ج 1 ص : 12 .

وقد شرح الحافظ عبد العزيز بن الأخضر البغدادي الحنبلي (ت 611 ه/ 1214 م) ما عابه السمعاني على ابن ناصر في طريقة جرح الرواة ففي قوله : ((كذاب ضعيف لا يُحتجّ به ، ولا يُعتمد على روايته)) فهو جرح صحيح ، وصفه بالكذب لأنه روى ما ليس من سماعه ،و نُهي فلم ينته . وقوله : ضعيف في الرواية ،لأنه لم يميز صحيح حديثه من سقيمه . ولا ((يُحتجّ به)) لأنه كذاب و ضعيف ،و لا ((يُعتمد على روايته)) لوجود هذا التخليط في معرفته و حديثه . فلو وصفه بمجرد الكذب لما كان من أهله ، فالمترجم له لم ((ينفرد بوصف من هذه الأوصاف بل اشتمل عليها جميعا فكان الجرح على حسبها[1].

وأما عن اتهام ابن الجوزي للسمعاني بالتدلبس في التحديث، فيرى المؤرخان ابن الأثير (ت 630 ه/ 1232م) و العماد أبو الفدا (ت 732 ه/ 1331 م) أن ما قاله ابن الجوزي بارد جدا ؛ فأي حاجة للسمعاني إلى هذا التدليس ، بأن يأخذ شخصا ليحدثه و يقطع به نهر عيسى في بغداد ، و يقول : حدثني فلان من وراء النهر . وهو قد سافر فعلا إلى بلاد ما وراء النهر ؟ ! و إنما ذنبه عند ابن الجوزي هو أنه شافعي[2].

و أقول :إنه حقا لم يكن السمعاني في حاجة إلى هذا التدليس ، لكننا من جهة أخرى يصعب تكذيب ابن الجوزي فيما رواه عنه ، فهل يسمح لنفسه أن يتعمد الكذب عليه ، و يذكر الخبر بصيغة التأكيد لا التمريض ؟ و إذا افترضنا أنه تعمد الكذب عليه ، أليس في إمكان أهل بغداد كشفه و فضحه ؟ و ألم يستح و يخاف من افتضاح أمره في تعمده الكذب عليه ؟ كلّ هذا يجعلني أرجح صحة الخبر عن بطلانه . وما جاء عن السمعاني فهو ربما فعله مع

---

[1] ابن رجب : المصدر السابق ج 1 ص 227 .

[2] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 9 ص :98 . و أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج 3 ص :44 .

بعض أهل العلم من باب التمثيل و الحكاية و التنكيت ؛ ولم يكن هدفه التمويه و التدليس ، لأن ما فعله ليس تدليسا في حقه لأنه رحل فعلا إلى بلاد ما وراء النهر . فجاء ابن الجوزي و حمل تصرفه على الحقيقة ، و وجده فرصة للطعن فيه .

و للمؤرخ شمس الدين الذهبي رأي في مسألة طعن السمعاني في ابن ناصر ، مفاده أن السمعاني لم يكن يتعصب على الحنابلة ، و لم يجرّح ابن ناصر ولم يعدّله وإنما قال عنه : ((إنه يحب أن يقع في الناس)) و هو فعلا قد كان فيه تعصب و تعسف في جرّحه و تعديله لبعض الشيوخ[1] . ثم انتقل الذهبي للرد على ابن الجوزي قائلا له: ((لا تنه عن خلق و تأتي مثله)) ، فأنت الذي تتفاخم على السمعاني ،و قد ملأت كتابك المنتظم بتراجم السمعاني- التي في تاريخه- منذ نيّف[2] و ستين و أربعمائة إلى زمانك[3] . ثم ذكر أن السمعاني أعلم من ابن الجوزي بالحديث و الرجال و التاريخ ،و لا يصل مرتبته . فأين من رحل في طلب الحديث إلى الشام ،و العراق ،و الحجاز ،و خراسان ،و ما وراء النهر ، و سمع في أكثر من مائة مدينة ، من ابن الجوزي الذي لم يسمع إلا في بغداد ،و لا روى إلا عن بضعة و ثمانين نفسا . لذا فلا ينبغي أن يطلق على ابن الجوزي اسم الحفظ باعتبار الاصطلاح ، بل بالنظر إلى أنه ذو حافظة قوية ،و علم واسع ،و فنون كثيرة ،و اطلاع عظيم[4].

---

[1] الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 4 ص : 1289 .و تاريخ الإسلام ج : 541-550ه/ ص : 406 ، 407 .

[2] هو ما زاد عن العقد من واحد إلى ثلاثة . علي بن هادية : قاموس الطلاب الجديد ص : 1263 .

[3] الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج: 541-550 ه/ص : 406 ، 407 .

[4] نفسه ج: 541-550 ه/ص : 407 .و سير أعلام النبلاء ج 20 ص : 268 .

و يرى الباحث بشار عواد أن ابن الجوزي قد ((نال من أبي سعد السمعاني بكلام قبيح ، على عادته مع من ينتقد الحنابلة من العلماء ، و نسب إليه أشياء لا صحة لها))[1] . لكن حقيقة الأمر –على ما يبدو– أن هناك تحاملا من الاثنين ، فالسمعاني بالغ في الحط على ابن ناصر ، فهو من جهة يصفه بأنه : حافظ ثبت ، و ديّن مُتقن ، و عارف بالمتون و الأسانيد ، ثم يتهمه من جهة أخرى بعدم إتقان استعمال ألفاظ جرح الرواة . و ابن الجوزي دفعه تعصبه لأصحابه ،و انتصاره لشيخه ابن ناصر ، إلى الإفراط في الحط على ابن السمعاني ، فهو و إن خطأه في طريقة الترجمة للأعلام ، فإنه قد روى عنه كذلك حادثة ما وراء النهر للطعن فيه بتعمد التدليس.و الكذب ؛ و هو يعلم أن السمعاني قد رحل بالفعل إلى بلاد ما وراء النهر ، فكان عليه في هذه الحالة، إما أن يسكت عن هذا الخبر ،و إما أن يرويه بصيغة التمريض لا بصيغة الإثبات و التأكيد، و إما أن يذكره و يبحث له عن تأويل مناسب .

و النموذج السادس يتعلق بتعصب النحوي أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي(ت 745هـ) على الشيخ تقي الدين بن تيمية ، و ذلك أنهما اجتمعا في مجلس فتكلما أبو حيان في مسألة نحوية ، فقاطعه ابن تيمية فيها و ألزمه الحجة ، فذكر أبو حيان قَول سيبويه في المسألة ، فقال له ابن تيمية : ((أسيبويه نبي النحو أرسله الله به حتى يكون معصوما ، إن سيبويه أخطأ في القرآن ثمانين موضعا لا تعقلها أنت و لا هو ...))، فغضب أبو حيان و نافر ابن تيمية بسبب ذلك ، و أصبح أكثر الناس ذما له ، و كان من قبل قد مدحه بأبيات شعرية ، فلما اختلف معه كشطها –أي الأبيات– من ديوانه[2].

وهذه الحادثة تُظهر لنا نموذجين من أهل العلم في القرن الثامن الهجري ، الأول هو رمز للتحرر من أغلال التقليد و التمذهب و التعصب ، و

---

[1] المنذري : المصدر السابق ج 1 هامش ص : 98 .

[2] ابن الدين : الرد الوافر ، ص: 63 و ما بعدها .

هو ابن تيمية ؛ و الثاني هو رمز للتقليد و التعصب للأشخاص ،و هو أبو حيان الأندلسي ، لأن الخلاف الذي حدث بينهما هو خلاف علمي عادي يحدث بين كل أهل العلم ، المفروض أنه لا يُفسد ودا بين الرجلين ، لكن أبا حيان لم يكن في المستوى المطلوب ، فأقدم على أعمال هي حمقات لا تليق بأهل العلم النزهاء .

و النموذج السابع يتعلق باتهام الفقيه الحنفي عبد الله الزيلعي (ت 762هـ) لمحمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح بالتعصب على مذهب أبي حنيفة ، فقال في البخاري: إنه كان شديد التعصب و التحامل عليه -أي مذهب أبي حنيفة- ، حتى أنه عندما ذكر في أول كتابه-أي الصحيح- : باب الصلاة من الإيمان ، و ذكر الأحاديث على ذلك ، كان يقصد الرد على أبي حنيفة في قوله بأن الأعمال ليست من الإيمان[1] .

و أقول : إن الحقيقة هنا هي أن الزيلعي هو المتحامل على البخاري و المتعصب عليه ، و هو أيضا مخالف لما كان قاله قبل ذلك بقليل ، عندما نصح طالب العلم بترك التعصب و التحلي بالإنصاف[2] .ثم هو هنا يتعصب على البخاري و ينتصر لمذهبه ، و المفروض أن يكون مُنصفا ، لأن البخاري ذكر الصواب عندما قرر أن الصلاة من الإيمان ، بدليل الأحاديث التي ذكرها ؛ و هي شاهدة على مخالفتها لقول أبي حنيفة في هذه المسألة ، سواء قصد البخاري الرد عليه أم لا . و حتى إذا قصد الرد عليه ، فمن حقه أن يرد عليه تحقيقا للصواب في هذه المسألة .

و النموذج الثامن يتعلق باتهام الفقيه تاج الدين السُبكي الشافعي(ت قرن: 8هـ) للحافظ عبد الله الأنصاري الهروي الحنبلي(ت 481هـ) بالتعصب لمذهبه ، فقال : إنه كان شديد التعصب للحنبلية حتى كان ينشد على المنبر :

---

[1] الزيلعي: نصب الراية ، ج 1 ص: 356 .

[2] نفس المصدر ، ج 1 ص: 355 .

أنا حنبلي ما حييتُ و إن متُ + فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

حتى أنه أيضا ترك الرواية عن شيخه القاضي أبي بكر الحيري لكونه أشعريا ، ثم قال السُبكي: ((كل هذا تعصب زائد ، برّأنا الله من الأهواء))[1] .

و آخرها –أي النموذج التاسع – يتضمن نموذجا لتعصب التلميذ على أستاذه و تحامله عليه ، و يتعلق بتعصب تاج الدين السُبكي على شيخه الحافظ شمس الدين الذهبي (ت748ه) ، فقال –أي السُبكي– إن شيخه الذهبي مع علمه و ديانته كان شديد التحامل على أهل السنة ، فلا يجوز أن يُعتمد عليه ؛ حتى أنه وصل من التعصب المفرط إلى حد يُسخر منه ، ثم قال : ((و أنا أخشى عليه يوم القيامة من غالب المسلمين و أئمتهم الذين حملوا لنا الشريعة النبوية ، فإن غالبهم أشاعرة ،و هو إذا وقع بأشعري لا يبقي و لا يذر ، و الذي اعتقد أنهم خُصماؤه يوم القيامة))[2] .

ثم طعن في علم شيخه بأنه كان قليل المعرفة بمدلولات الألفاظ ، مع عدم ممارسته لعلوم الشريعة ، كما أنه كان قليل التحري فيما يكتب عن علماء الحنفية و الشافعية و المالكية، ثم قال : ((فإني اعتقد أن الرجل كان إذا مدّ القلم لترجمة أحدهم غضب غضبا شديدا مفرطا ، ثم قرطم الكلام و مزقه ،و جعل من التعصب ما لا يخفى على ذي بصيرة))[3] .

و قال أيضا أن شيخه الذهبي ذكر أخبارا عن الأشاعرة ربما اعتقد أنها من الدين ، و أخرى ذكرها و هو يعرف أنها كذب و لم يختلقها ، لكنه كان يحب ((وضعها في كتبه لتُنتشر ،و يحب أن يعتقد سامعها صحتها تعصبا للمتحدث فيه ، و تنفيرا للناس))[4] . و قال أيضا إن شيخه على ما فيه من

---

[1] طبقات الشافعية الكبرى ، ج 2 ص: 473 .

[2] نفس المصدر ، ج 2 ص: 13 .

[3] نفس المصدر ، ج 2 ص: 14 .

[4] نفسه ، ج 2 ص: 14 .

حسنات ، فإن تاريخه مشحون بالتعصب المفرط .. . ، فلقد أكثر من الوقيعة في أهل الدين ، و هم الفقراء–أي الصوفية– الذين هم صفوة الخلق . كما أنه استطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعية و الحنفية ، و مال فأفرط على الأشاعرة ، و مدح فزاد في المجسمة[1] .

و أقول : أولا إن السبكي تحامل على شيخه تحاملا كبيرا ، و طعن فيه بلا حق ، و أشبع غليله فيه ، معتمدا على الظن و التهويل ، مدفوعا بتعصب مذهبي ممقوت على شيخه . كما أنه لهم يرع له مكانة كشيخ له ، و ناقض نفسه عندما وصفه بأنه كان دينا ، ثم هو يتهمه بتعمد ذكر الأخبار المكذوبة عن الأشاعرة إشباعا لهواه و تعصبه . و نحن لا ندعي أن الذهبي لم يكن متعصبا مطلقا ، و إنما نقول أن الذهبي كان موضوعيا إلى حد كبير فيما دوّنه من مصنفات و لم يتعمد ذكر الأكاذيب ، ، و مؤلفاته شاهدة على ما نقول.

و ثانيا إن السُبكي افترى على شيخه عندما زعم أن الذهبي ما كان يذر أشعريا و لا حنفيا ، و لا مالكيا و لا شافعيا إلا و طعن فيه . و هذا زعم باطل من أساسه ، فإن كتابه سيّر أعلام النبلاء مثلا ، فيه مدح و ثناء كثيرين لكثير من هؤلاء ، فقد أثنى على أبي الحسن الأشعري ، و أبي بكر الباقلاني ، و أبي الحجاج الفندلاوي المالكي ، و شيخ الحنفية أبي حفص بن مازة ، و غير هؤلاء كثير جدا[2] .

و ثالثا إن زعمه بأن الذهبي ذم الصوفية و هم صفوة الخلق ، هو زعم باطل ، لأن الصوفية ليسوا هم صفوة الخلق و لا هم شر الخلق ، بل فيهم الصالح و الطالح ، كغيرهم من طوائف الناس . مع العلم أن كثيرا من

---

[1] نفس المصدر ، ج 2 ص: 22 .

[2] أنظر مثلا : السير ، ج 15 ، ص: 85، ج 17 ص: 57 ، ج 18 ص: 117 ، ج 2– ص: 97 ،210 ، ج 22 ص: 175، 311 .

أعلام الصوفية كان فيهم انحراف كثير ، خاصة أصحاب الاتحاد و الحلــول ، و الذهبي لم يتحامل على كل الصوفية ، فإن كتبه التاريخية فيها كثيــر مــن المدح لهم ، لكنه ذم المنحرفين منهم المُستحقين لذلك[1] .

و رابعا إن السبكي كان متعصبا على شيخه تعصبا زائدا ، حتى أنــه استخدم المغالطات للحط عليه و الطعن فيه ، نذكر منها ثلاثة مغالطات ، أولها إنه –أي السُبكي– قال إن الذهبي كان فيه تحامل مفرط على أهل السنة. و هذا يعني أن الذهبي ليس من أهل السنة ، و أنه خصم لهم ، و هذا افتــراء علــى الرجل ، و تدليس على القراء ، لأن الذهبي كان سنيا على مذهب الســلف و أهل الحديث ، لكن السُبكي أوصله تعصبه إلى إخراج هؤلاء من الطائفة السنية ، و جعلها مقتصرة على الأشاعرة ، و هم الذين عناهم بقوله السابق ، و هــذا زعم باطل بلا شك ، لأن الطائفة السنية في– زمانه و ما بعده –كانت تتكــون من طائفتين ، الأولى كانت تمثل مذهب السلف ، و هم الحنابلة و أهل الحديث ، و الثانية كانت تمثل مذهب الخلف ، و هم الأشاعرة و الماتريدية[2] .

و المغالطة الثانية هي أن السُبكي أدعى أن الذهبي بــالغ فــي مــدح المجسمة . و هذا يعني أن الذهبي كان موافقا للمجسمة ، و ســاكتا عــنهم و مدافعا عنهم ، و هذا افتراء على الرجل ، فهو –أي الذهبي– قد ذم المجســمة مرارا في مصنفاته[3] ، و أهل السنة كلهم ذموا هؤلاء ، لكن السُبكي لم يُفصــح علانية مما يريد من قوله ، فهو يقصد بالمجسمة الحنابلة و أهل الحــديث ، و هذا افتراء آخر على هؤلاء ، لأن في أهل الحديث أعلام كبار كانوا على

---

[1] أنظر مثلا : الســير ، ج 14 ، 70 ، 318 ، 514 ، ج 22 ص: 373، 374، 387 ، ج 23 ص: 19 ، 73 .

[2] للتوسع في ذلك أنظر كتابنا : الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث .

[3] انظر مثلا : السير ، ج 1 ص: 305 ،ج 6 ص: 314 .

مذهب السلف و أصحاب الحديث ، و لم يكونوا مجسمة و لا أشاعرة ، منهم : مالك بن أنس ، و الشافعي ، و أحمد بن حنبل ، و ابن خزيمة ، و البخاري ، و مسلم ، و أبو نصر السجزي ، و أبو عثمان الصابوني ، و أبو الحسن الكرجي ، و الموفق بن قدامة المقدسي ، و ابن تيمية ، و ابن قيم الجوزية ، و ابن كثير، و غير هؤلاء كثير[1] .

و المغالطة الثالثة هي أنه قال في الذهبي : ((إنه لا ينبغي أن يُسمع كلامه في حنفي و لا شافعي ،و لا تؤخذ تراجمهم من كُتبه، فإنه يتعصب عليهم كثيرا))[2] . و هذا يعني أن الذهبي كان خصما و معاديا للحنفية و الشافعية و المالكية متعصبا عليهم ، و هذا افتراء على الرجل ، لأن الذهبي هو نفسه كان شافعي الفروع ، و كتبه التاريخية مملوءة بمدح و ثناء الحنفية و المالكية و الشافعية . فكان على السُبكي أن يُفصح عن مراده صراحة بلا تدليس و لا مغالطات ، فيقول إن الذهبي كان متعصبا على الأشاعرة ، و لا يُغالط القراء بأنه كان متعصبا على الحنفية و الشافعية ، و حتى زعمه بأنه كان متعصبا على الأشاعرة فليس صحيحا على إطلاقه ، فقد أثنى على كثير منهم ، و ذكر عنهم ما وصله من أخبار عنهم .

و خامسا إن السُبكي في تحامله على شيخه لم يكن مصيبا عندما قال : إن غالبية علماء الشريعة هم من الأشاعرة[3] . فكلامه هذا هو افتراء على التاريخ ،و مغالطة للقراء ، لأن علماء أهل السنة من القرن الأول إلى الثالث الهجري كانوا كلهم على مذهب السلف و أهل الحديث في الصفات ، و لا يُوجد فيهم أشعري ، لأن الأشعرية لم تكن ظهرت بعد ، فهي قد ظهرت في القرن الرابع ،و لم تنتشر إلا في القرن الخامس الهجري و ما بعده . و عليه ،

---

[1] للتوسع في ذلك أنظر كتابنا السبق ذكره .

[2] طبقات الشافعية الكبرى ، ج 7 ص: 16 .

[3] طبقات الشافعية الكبرى ، ج 2 ص: 13 .

فغالب علماء أهل السنة في القرن الرابع لم يكونوا أشاعرة ، و حتى في القرن الخامس و ما بعده ، فإن كثيرا من أعيان أهل السنة لم يكونوا أشاعرة ، و منهم : أبو نصر السجزي ، و أبو عثمان الصابوني ، و أبو الحسن الكرجي ، و ابن عقيل البغدادي، و الحافظ عبد الغني ، و الموفق بن قامة المقدسي ، و الضياء محمد المقدسي ، و ابن تيمية ، و ابن القيم ، و ابن كثير ، و علم الدين البرزالي ، و أبو الحجاج المزي ، و الشوكاني[1]، و ابن أبي العز الحنفي صاحب شرح العقيدة الطحاوية ، و هو كتاب مطبوع و متداول بين أهل العلم.

لكن حقيقة الخلاف بين السُبكي و شيخه ، هو أن السُبكي كان متعصبا على شيخه لأن الذهبي كان على مذهب أهل الحديث فيَ أصول الدين ، و السُبكي كان على مذهب الأشعرية المتأخرة ،و مما زاد في الخلاف و تعصب السُبكي على شيخه ، هو أن الذهبي كان شافعيا مثله ، فعزّ على السُبكي ذلك ، إذ كيف يكون شافعيا في الفروع ، سلفيا في الأصول ، و لا يكون أشعريا كحال معظم الشافعية زمن السُبكي ؟ ، و الله تعالى أعلم بالصواب .

ب- تعصب الفلاسفة المسلمين للفلسفة اليونانية :

كان معظم الفلاسفة المسلمين-خلال العصر الإسلامي- متعصبين للفلسفة اليونانية سلبيين تجاهها ، فتبنوها و دافعوا عنها و تعصّبوا لها ، على كثرة انحرافاتها و ضلالاتها، و مخالفتها لدين الإسلام في كثير من أصولها و فروعها ،و بالأخص في الإلهيات و النبوات ، و الشواهد على ذلك كثيرة جدا ، أذكر منها أربعة شواهد :

أولها تعصبهم المفرط لآرسطو و تقليدهم أياه ، حتى قال فيهم ابن خلدون : إنهم اتبعوه حذو النعل بالنعل إلا في القليل[2] . و منهم ابن سينا ، و ابن رشد ، فقد كل منهما متعصبا لآرسطو ، و قال ابن تيمية في ابن رشد :

---

[1] راجع كتبنا السابق الذكر .

[2] المقدمة ، ص: 515 .

إنه كان مفرط التعصب للفلاسفة و المشائين –أتباع آرسطو– بالتعصب ، مع عدم معرفته بتحقيق مذهبهم ، و كان دائما يتعصب لآرسطو [1] .

و الشاهد الثاني –على تعصبهم للفلسفة اليونانية– قولهم بقدم العالم مسايرة لأستاذهم آرسطو و المشائين من بعده[2] . و قولهم هذا هو رجم بالغيب ، و ظن و خيال ، و زعم باطل لا دليل عليه من العلم ،و لا من العقل ، و لا من النقل ، و لم يقل به كثير أساطين الفلاسفة قبل آرسطو و بعده[3] . كما أن زعمهم بأزلية الكون يتعارض تماما مع دين الإسلام ، و مع ما قرره العلم الحديث ، من إن الكون حادث و ليس أزليا ، و إن له عمرا تقديريا يقرأه التلاميذ في الإكماليات و الثانويات .

و الشاهد الثالث هو قولهم بأن الله تعالى يعلم الكليات و لا يعلم الجزئيات ، بدعوى أن عدم قولهم بذلك يؤدي إلى المحال ، و هو تغير علم الله ، لأن الجزئيات زمانية تتغيّر بتغير الزمان و الأحوال ، و العلم تابع لذلك في الثبات و التغيّر ، فيلزم ذلك تغيّر علمه ،و علمه قائم بذاته ، فيكون محلا للحوادث ،و هو محال . و زعمهم هذا رده الحافظ ابن حجر بقوله : إن الله تعالى عالم بما كنا عليه أمس ، و بما نحن عليه الآن ،و بما سنكون عليه غدا ، و ليس هذا خبرا عن تغيّر علمه ، بل التغيّر جار على أحوالنا نحن ، و هو عالم في جميع الأحوال دون تغيّر [4] .

و أقول : إن كلام هؤلاء دليل على جهلهم بالله تعالى ، فهم قاسوه على مخلوقاته و طبقوا عليه ما يجري عليهم من أفعال و أحوال ، و هذا باطل بلا

---

[1] ابن تيمية : درء تعارض العقل و النقل ، ج 3 ص: 324، ج 9 ص: 397 .

[2] أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ، ج 27 ، 28 . و ابن تيمية : منهاج السنة ، ج 1 ص: 62، 99 ، 100 . و الذهبي: السير ، الجزء المفقود ، ص: 296 .

[3] ابن تيمية : نفس المصدر ، ج 1 ص: 99 و ما بعدها .

[4] ابن حجر : فتح الباري ، ج 13 ص: 363 .

شك ، فهو تعالى ليس كمثله شيء ، في ذاته و صفاته و أفعاله لقوله تعالى :

﴿ ليس كمثله شيء و هو السميع البصير ﴾ سورة الشورى /11 ،

و ﴿ لم يكن له كفوا أحد ﴾- سورة الإخلاص /4- و علمه خارج عن حدود الزمان و المكان التي يخضع لها كل مخلوق .و علمه تعالى بكل صغيرة و كبيرة ، هو من كمال صفاته و ألوهيته . و زعمهم الذي قالوه هو قول على الله بلا علم ، و مناقض لعقيدة الإسلام ، فقد أخبرنا الله تعالى أنه

﴿ يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور ﴾ سورة غافر/19 -،

و ﴿ أنه يعلم الجهر و ما يخفى ﴾ سورة الأعلى /7 -،

و ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء ﴾ سورة آل عمران/ 5 -،

و ﴿ إن تجهر بالقول فإن الله يعلم السر و أخفى ﴾ سورة طه/7- .

و هذا الذي زعموه هو من تخيلاتهم و ظنونهم ،و طامة من طاماتهم ، يستحي الإنسان من أن يحكيه ، و يضحك منه الغبي قبل الذكي .

و الشاهد الرابع تصوّرهم الباطل لله تعالى ،و المخالف للنقل و العقل معا ، فهم يعتقدون أن الله تعالي هو الوجود المطلق ، لا صفة ثبوتية له ، و لا يفعل شيئا باختياره ،و لا يعلم شيئا من الموجودات ،و لا شيئا من المغيبات ، و لا كلام له ،و لا صفة تقوم به . و كلامهم هذا –عند ابن القيم – هو كفر بالله ، و خيال في أذهانهم لا حقيقة له في الواقع [1] .

و قوله هذا صحيح ، فإن تصوّر هؤلاء لله تعالى يختلف تماما عن التصوّر الإسلامي لله ، فهو تعالى عالم قادر ،مريد جميل ، متكلم ودود ، خالق مصوّر ، حكيم رزاق ، رحيم غفور ، إلى آخر أسمائه و صفاته الحسنى ؛ أما تصوّر هؤلاء لله تعالى ، فهو تصوّر ميت يرفضه العقل الفطري العلمي

---

[1] إغاثة اللهفان ، ج 2 ص: 260 .

، فهم سلبوا خالقهم صفات الكمال ، و وصفوه بصفات النقص ، و جعلوا الإنسان أحسن منه ، و هذا ضلال ما فوقه ضلال . كما أن الكون البديع يكذّبهم و يبكتهم ، فهو شاهد على أن خالقه لابد أن يكون عظيما جليلا ، عليما حكيما ، قويا مريدا ، بديعا جميلا ، حائزا على كل صفات الكمال و الجلال .

و أشير هنا إلى أن الفلاسفة المسلمين ليسوا في درجة واحدة في نفيهم للصفات الإلهية ، فمنهم من نفاها مطلقا كأبي علي بن سينا و أبي نصر الفارابي ، فهما على نهج جهم بن صفوان ؛ و منهم من اثبت بعضها ، كأبي الوليد بن رشد ،و أبي البركات البغدادي (ق :6ه)[1] . و هؤلاء النفاة لصفات الله تعالى هم جُهال به ، و متناقضون في موقفهم ، فبما أنه لابد لكل موجود من صفات يتصف بها ، فهم في الحقيقة لم ينفوا الصفات مطلقا ، و إنما نفوا عن الله تعالى صفات الكمال ، و وصفوه بصفات الجمادات و المنقوصات و المعدومات ؛ و وصفوا أنفسهم بكثيرٍ من صفات الكمال التي نفوها عن خالقهم ، كالعلم و الحكمة ،و السمع و البصر !! .

و بسبب تعصبات الفلاسفة المسلمين ،و كثرة انحرافاتهم و ضلالاتهم ، ذمهم كثير من علماء الإسلام ، و أجمعوا على تكفيرهم ، و حذّروا مهم ، و ردوا عليهم ، منهم : أبو حامد الغزالي ، و ابن الجوزي، و أبو عمرو بن الصلاح ، و ابن تيمية ، و الذهبي، و ابن القيم ، و ابن كثير ، و السيوطي[2] . كما أنهم تصدوا لهم و قاوموهم عمليا ، فضيّقوا عليهم ، و نفّروا الناس

---

[1] ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 12 ص: 205، 206 .

[2] أنظر : أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال ، ص: 27، 28 . و الذهبي: الميزان ، ج 5 ص: 173. و السير ، ج 17 ص: 35 . و ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 2 ص: 92 . و ابن الجوزي: صيد الخاطر ، ص: 226 . و ابن حجر : فتح الباري ، ج 12 ص: 202 . و ابن العماد الحنبلي : 4 ص: 213 . و ج 5 ص: 137 .

عنهم ، و قتلوا بعضهم ، و أحرقوا كتبهم في بعض الفترات[1] ، لأنهم كانوا يمثلون خطرا على الإسلام و المسلمين ، بسبب انحرافاتهم الفكرية و السلوكية.

و أشير هنا إلى أن تعصب هؤلاء للفلسفة اليونانية جعلهم سلبيين انهزاميين تجاهها ،و على رأسهم كبار الفلاسفة المشائين ،و هم : يعقوب الكندي،و أبو نصر الفارابي ،و أبو علي بن سينا ،و ابن رشد الحفيد ،و يؤيد ذلك الشواهد الآتية ، أولها إن معظم مصنفات كبار الفلاسفة المسلمين ، كانت تصب في تيار خدمة الفلسفة اليونانية شرحا و تلخيصا ، دعوة و دفاعا[2] . و ثانيها إنني لم أعثر لكبار الفلاسفة المشائين على مصنفات نقدية هدمية عميقة شاملة و متخصصة ، في نقد الفلسفة اليونانية من حيث طبيعياتها و إلهياتها و منطقها ؛ في حين وجدتُ لهم عشرات المصنفات –و ربما مئات– في شرحها و الدفاع عنها و التعصب لها [3].

و ثالثها إنهم أهملوا الوحي– القرآن الكريم و السنة النبوية – و العقل الصريح في معظم مصنفاتهم ،و اكتفوا –في غالب الأحيان – بالشرح و التلخيص ،و التقليد و التعصب لأرسطو و فلسفته و شيعته .

و رابعها إن هناك أقوالا لعلماء سنيين تؤيد ما قلته عن سلبية هؤلاء و إنهزاميتهم و تبعيتهم لفلسفة اليونان ، من خلال أعمالهم الفكرية ، فمن ذلك ما

---

[1] الذهبي: السير ، 13 ص: 449 ، ج 17 ص:15 ،، ج 19 ص: 19 ، 334 ، ج 20 ص: 124 ، ج 23 ص: 111 .

[2] أنظر مثلا : ابن النديم : الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، 1978ه ، ج 1 ص: 358 . و الذهبي: السير ، ج 13 ص: 449 . و ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،حققه نزار رضا ، بيروت ، مكتبة الحياة ، ج 1 ص: 294 . و حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 2 ص: 2028 . و صديق حسن خان القنوجي: أبجد العلوم ، ج 2 ص: 255 .

[3] عن ذلك أنظر المصادر المذكورة في الهامش السابق .

ذكره ابن تيمية ، من أن عمل المسلمين في المنطق اليوناني تركّز أساسا في تهذيبه و تنقيحه و توضيحه و تتميمه[1] . و قال تاج الدين السبكي (ت ق: 8ه) أن أكثر فلاسفة المسلمين كانوا على رأي آرسطو[2] ، و نحن نعلم أن معظم أفكاره في الإلهيات باطلة شرعا و عقلا ، فهم تابعوه في ضلالاته . و قال عبد الرحمن بن خلدون : إن الفلاسفة المسلمين اتبعوا آرسطو في رأيه ((حذو النعل بالنعل ، إلا في القليل))[3] .

و أما ما يُذكر لكبار الفلاسفة المسلمين من انتقادات للفلسفة اليونانية ، فهي قليلة جدا بالمقارنة إلى ما كتبوه في شرحها و الدعوة إليها و الدفاع عنها و التعصب لها و الانتماء إليها . وقد قال عنهم ابن خلدون أنهم اتبعوا آرسطو ((حذو النعل بالنعل إلا في القليل)) ،و أشار ابن تيمية إلى أن ابن رشد خالف آرسطو و ابن سينا و لم يقل بقولهما في نفي علم الله تعالى بالجزئيات[4].

و ذكر صديق خان القنوجي أن ابن سينا جمع في كتابه الشفاء علوم الفلسفة السبعة ، لكنه في كتابه الإشارة خالف آرسطو في كثير من المسائل ، قال فيها برأيه[5] . لكن انتقادات هؤلاء للفلسفة اليونانية هي انتقادات جزئية لا تُخرجهم عن أصول الفلسفة المشائية ، و لا تجعل منهم فلاسفة أحرارا مجددين مبدعين ، فلو كانوا كذلك ما انتسبوا إلى تلك الفلسفة ، و لأسسوا لأنفسهم مذاهب فلسفية جديدة ،و لثاروا على فلسفة اليونان الوهمية البالية ، و لرفعوا من شأن دينهم و لا خالفوه فكرا و سلوكا .

---

[1] الرد على المنطقيين ، ص: 240 .

[2] طبقات الشافعية الكبرى، ج 4 ص: 67 .

[3] المقدمة ، ص: 515 .

[4] درء التعارض ، ج 9 ص: 401-402 .

[5] القنوجي: أبجد العلوم ، ج 2 ص: 367 .

و أما بالنسبة لأسباب سلبية هؤلاء و انهزاميتهم تجاه فلسفة اليونان ، فهي كثيرة و متداخلة ، يبدو لي أن أهمها ثلاثة أسباب ، أولها ضعف إيمانهم بدين الإسلام ، أوجد فيهم فراغا روحيا و انهزامية نفسية ، ملأتهما فلسفة اليونان . و ثانيها ضعف احتكامهم للكتاب و السنة حرمهم من الانتفاع بنورهما و علمهما ،و أوقعهم في الاعتماد على عقولهم القاصرة و حواسهم الناقصة ،و على ظنونهم و أهوائهم من جهة ،و على أوهام فلاسفة اليونان و ضلالاتهم من جهة أخرى .

و ثالثها تقليدهم و تعصبهم لفلاسفة اليونان عامة و لأرسطو و شيعته خاصة ، فحرمهم ذلك استقلالية الفكر ، و أبعدهم عن النقل الصحيح و العقل الصريح ،و أضعف فيهم الشجاعة الأدبية و الروح العلمية النقدية الهدمية المبدعة ، و أغرقهم في المتناقضات و الانحرافات الفكرية و السلوكية .

و قد يتساءل بعض الناس فيقول : ألم يكن أهل السنة متعصبين على الفلاسفة عندما قاوموهم ؟ ، و ألم يجنوا على العقل في تصديهم لهؤلاء و فلسفتهم ؟ .

أولا إن السنيين انتصروا للحق و لم يتعصبوا للباطل ، و قاوموا هؤلاء لأنهم كانوا يُمثلون خطرا على دين الإسلام و أمته ، بما كانوا متلبسين به من ضلالات فكرية و انحرافات سلوكية . فالسنيون تعصبوا للحق، و هؤلاء تعصبوا للباطل ، و الحق أحق أن يُنصر و يُتبع .

و ثانيا إن مما لاشك فيه أن في الفلسفة اليونانية جانب عقلي صحيح في الطبيعيات و الرياضيات و غيرها ، و هذا أمر أقر به علماء أهل السنة[1] ، لكنهم ذكروا أن جانبها الميتافيزيقي قد سيطر عليها و أفسدها و لطخها

---

[1] أنظر : ابن تيمية : منهاج السنة ، ج 1 ص: 357 . و درء التعارض، ج 7 ص: 334 . و ابن القيم : إغاثة اللهفان ، ج 2 ص: 258، 259 . و الصواعق المرسلة ، ج 2 ص: 404 .

بشركياته و ضلالاته ، فأفسدت هي الأخرى العقل و صرفته عن مجاله الصحيح ، و زجّت به في غيبيات وهمية ،و ملأته بالخرافات و الضلالات و الشبهات ،و أبعدته عن المنطق الاستقرائي التجريبي ،و أغرقته في الظنون و التجريدات في ظل المنطق الآرسطي العقيم ؛ و بناء على ذلك يتبين لنا أن الفلسفة اليونانية هي التي أفسدت كثيرا من العقول و حمّلتها ما لا تُطيق ،و أبعدتها عن مصدر الهداية الربانية خلال العصر الإسلامي .

و ثالثا إن ما قام به أهل السنة ، هو ليس حربا على العقل و لا تجنيا عليه ولا طعنا فيه و لا تقزيما له ، و إنما هو إنقاذا له من الأهواء و الانحرافات و الضلالات ،و انتصارا له و للحقيقة و للدين ضد الأساطير و الظنون و الشبهات و الأهواء ، و ذلك أن العقل السليم و الفلسفة الصحيحة هما اللذان يُوصلان الإنسان إلى عبادة ربه و الخضوع له و الالتزام بشريعته ، وهذا قمة الفلسفة و العقلانية و الموضوعية العلمية .

جـ - علماء آخرون شديدو التعصب لمذاهبهم :

إتماما لما ذكرناه عن العصب بين العلماء و إثراء له ، أذكر هنا جماعة أخرى من أهل العلم كانوا شديدي التعصب لمذاهبهم ، أولهم القاضي الحسن بن علي التنوخي البغدادي(ت 372هـ) ، كان حنفيا متعصبا شديد التعصب على الإمام الشافعي ، و يطلق لسانه فيه[1] . و ثانيهم المتكلم المعتزلي الوزير عميد الملك الكندري(ت456هـ) ، كان شديد التعصب على الشافعية ، كثير الوقيعة في الشافعي ، حتى أنه طلب من السلطان السلجوقي ألب أرسلان أن يسمح له بلعن الرافضة فأذن له ، فأضاف إليهم الأشاعرة ، و هم شافعية في معظمهم[2] .

---

[1] ابن الأثير : الكامل ، ج 7 ص: 400 .

[2] ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 5 ص: 138 . و ابن الجوزي: المنتظم ، ج 6 ص: 333 . و السبكي: طبقات الشافعية ، ج 3 ص: 376 .

و الثالث هو الفقيه الحنفي أبو عبد الله محمد البلاساغوني التركي(ت 506ه) ، كان غاليا في التعصب للمذهب الحنفي ،و كثير الوقيعة في المذهب الشافعي ، و كان يقول : لو كان لي ولاية لأخذتُ الجزية من الشافعية[1] ، فجعلهم بمرتبة أهل الذمة من اليهود و النصاري و المجوس !! .

و الرابع هو أبو الحجاج يوسف بن دوناس القندلاوي المالكي المغربي (ت543ه) ، كان شديد التعصب للمذهب الأشعري ، و صاحب تحرق على الحنابلة[2] .

و الخامس هو الشاعر ابن منير (ت584ه) ، كان شيعيا متعصبا يسب الشيخين أبا بكر و عمر – رضي الله عنهما– . و يُروى أن السلطان نور الدين محمود(ت569ه) لما بلغه أن ابن منير هذا يسب الصحابة ، قال له يوما : ((ما تقول في الشيخين ؟ فقال : مُدبران ساقطان سفلتان)) ، فغضب نور الدين ، و قال له : من هما ويلك ؟ ، فقال ابن منير : ((أنا و القيسران – شاعر منافس له– ، فهدأ نور الدين و ضحك[3] .

و السادس هو الفقيه الشافعي أبو المظفر محمد بن محمد البروي (ت 567ه) ، كان شديد التعصب على الحنابلة و التحامل عليهم ، حتى أنه كان يقول : ((لو أن لي أمر لوضعتُ على الحنابلة الجزية)) ، فجعلهم بمنزلة أهل الذمة !! و بسبب شدة تعصبه عليهم رُوي أن أحدهم دس إليه بعض جهلة الحنابلة من أهدى له شيئا فمات[4] .

---

[1] معجم البلدان ، ج 1 ص: 476 .

[2] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج 6 ص: 222 .

[3] ابن جرادة : بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج 3 ص: 1162 ، 1164 .

[4] ابن كثير : طبقات فقهاء الشافعيين ، ج 2 ص: 671 .

و السابع هو الفقيه الحنبلي محمد بن علـــي الســـلامي البغـــدادي (ت 610ه) ، كان غاليا في التسنن متعصبا له ، حتى أنه كانت تصدر منه أقول لا يلزمه التلفظ بها ، كقوله : إن عليا شرب الخمر ، و إن بلالا خير من موسى بن جعفر الصادق و من أبيه ، فنفاه الوزير القمي الشيعي من بغداد إلى مدينة واسط -شمال بغداد- ، و كان ناظرها شيعيا متعصبا غاليا في التشيع ، فأخذه و طرحه في مطمورة إلى أن مات[1] . فهذا المثال نموذجٌ للتعصب المتبادل و الغلو فيه ، فجاء تعصب الثالث أكبر من تعصب الأول و الثاني .

و الثامن هو المتكلم الشيعي نصير الدين الطوسي (ت 672ه) ، دفـــه تعصبه إلى عدم التسوية بين المدرسين في مدرسته بمدينة مراغة بأذربيجان ، فقرر لهم أجورا يومية كالآتي : ثلاثة دراهم للفيلسوف ، و درهمان للطبيب ، و درهم واحد للفقيه ، و نصف درهم للمحدث . فهذه قسمة غيـــر عادلـــة ، و شاهدة على تعصب صاحبها على أهل الحديث أولا ،و على الفقهاء ثانيا .

و التاسع هو الفقيه القاضي أمير كاتب بن عمر الحنفـــي (ت758ه) ، كان شديد التعصب للحنفية مُعجبا بنفسه ، متعصبا علـــى مخالفيـــه عامـــة و الشافعية خاصة ، و قد سعى لدى رجال الدولة بمصر و الشام إلى إتلافهم-أي الشافعية- فما أفلح في مسعاه[2] .

و آخرهم-أي العاشر- الفقيه الحنفي محب الدين محمـــد بـــن محمـــد الدمقراني الهندي(ت 789ه) ، كان شديد التعصب للمذهب الحنفي ، و يـــتكلم في الإمام الشافعي و يقع فيه ، و يرى أن طعنه فيه هو عبادة[3] ! ! .

و بذلك يتبين مما ذكرناه -في مبحثنا هذا- أن التعصب المذهبي كـــان متغلغلا بين مختلف طوائف العلماء المسلمين -علـــى اخـــتلاف مـــذاهبهم و

---

[1] ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 69 .

[2] ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج 1 ص: 495 .

[3] ابن العماد الحنبلي: شذرات ، ج 8 ص: 531 .

تخصصاتهم – فأوصلهم إلى التنازع و التنابز ، و التنافر و التناحر ، و أوصل كثيرا منهم إلى الانحرافات الفكرية و السلوكية ، الأمر الذي أدى إلى تكريس التعصب المذهبي في المجتمعات الإسلامية ، و نقله إلى عامة الناس و خاصتهم .

تاسعا: مِحَن أصابت العلماء بسبب التعصب :

لما أصبح التعصب المذهبي –خلال العصر الإسلامي– من القواعد الأساسية التي قامت عليها الحياة الاجتماعية و العلمية و السياسية ، تعرّض كثير من العلماء لمحن و شدائد بسبب ذلك التعصب ، أذكر منها عشر حالات ، أولها حالة الفقيه المتكلم إبراهيم بن عبد الله الزبيري القيرَواني(ت 359ه) ،فإنه عندما صنف كتاب الإمامة في الرد على الرافضة ، تعصب عليه الحاكم العبيدي أبو القاسم بن عبيد الله المهدي و ضربه 700 سوط ، ثم سجنه أربعة أشهر[1] .

و الثانية حالة الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري(ت قرن:4ه) ، فإنه لما كان متشيعا مظهرا لذلك ، منحرفا مغاليا في معاوية بن أبي سفيان و آل بيته ، تعصّب عليه الكرّامية بنيسابور ، و منعوه من الخروج إلى المسجد ، و حصروه في داره ، و كسروا منبره بالمسجد الذي يصلي فيه ؛ فدخل عليه الصوفي أبو عبد الرحمن السلمي و قال له : لو خرجتَ و ((أمليتَ في هذا الرجل –أي معاوية– حديثا لاسترحتَ من المحنة)) ، فقال له : ((لا يجيء من قلبي ، لا يجيء من قلبي))[2] .

و الحاكم هذا هو محسوب على أهل السنة ، صاحب كتاب المستدرك على الصحيحين ، لكنه كان متشيعا مُتهما بالتعصب للرافضة ، حتى أنه

---

[1] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ترجمة إبراهيم الزبيري ، ج 2 ص: 196 .

[2] الذهبي: السير ، ج 17 ص: 174 .

صحح أحاديث وضعها الشيعة ، قال فيها ابن الجوزي: إما أنه كان يجهلها فلا يُعتمد عليه فيها ، و إما أنه كان على علم بها ، فيكون معاندا كذابا دساسا[1].

و الحالة الثالثة تتعلق بمحنة الفقيه أبي محمد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ) ، فنه لما اختلف مع فقهاء المالكية بالأندلس تعصّبوا عليه و اجمعوا على تضليله ، و شنّعوا عليه و حذّروا أكابرهم منه ، و نهوا عوامهم من الاقتراب منه ،و استعانوا عليه بأمراء البلد ، و آذوه و مقتوه ، و طردوه و شردوه من وطنه ،و أحرقوا كتبه و مزقزها علانية بإشبيلية ، و جرت له معهم مصائب أخرى[2] .

و لما أصابته تلك المحنة تعرّض بعض أصحابه أيضا للمطاردات و المضايقات ، منهم : المحدث أبو عبد الله الحميدي الميورقي(ت 488هـ) ، فإنه كان من المتعصبين لابن حزم ، فلما اشتد عليه الحال تعرّض هو أيضا لمحنة جعلته يترك بلاده و يلتحق بالمشرق هروبا من ذلك[3] .

و بسبب مطاردة هؤلاء لابن حزم لم يُقبل أهل العلم –بالمغرب و الأندلس– على مصنفاته ، فأهملوها و أغفلوها و ازدروها و حاصروها ، حتى أصبح بيعها ممنوعا في الأسواق[4] . و أما لماذا حدث ذلك كله بينه و بين فقهاء المالكية ؟ ، فيبدو أن ذلك يعود إلى سببين رئيسيين ، الأول هو أن ابن حزم كان مخالفا لهم في المذهب ، فهو كان ظاهريا مجتهدا لا يُقلد أحدا ، و هم كانوا مالكية مقلدين مذهبيين[5] . و الثاني هو طول لسانه–أي ابن حزم– و كثرة اعتداده بنفسه ،و استخفافه بكبار العلماء ، و وقوعه في أئمة الاجتهاد

---

[1] ابن الجوزي : العلل المتناهية ، ج 1 ص: 236 ، 237 .

[2] الذهبي: تذكرة الحفاظ ، ج 3 ص: 1145 . و ابن حجر : اللسان ، ج 4 ص: 200 .

[3] الذهبي: نفس المصدر ، ج 4 ص: 1220 .

[4] ابن خلدون : المقدمة ، ص: 354 . و ابن حجر: نفسه ، ج 4 ص : 200 .

[5] ابن خلدون : نفسه ، ص: 354 .

بأقبح عبارة و أبشع رد ، حتى قيل : سيف الحجاج و لا لسان ابن حـــزم . و كتبه شاهدة على ذلك ، فهي مملوءة بالسب و الشتم الاســتخفاف بالمخـــالف ، لذلك تألب عليه فقهاء المالكية و اشتدوا في مطاردته .

و الحالة الرابعة تتعلق بمحن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلـــي (ت 600ه) ، فإنه تعرّض لعدة مِحن ، منها إنه عندما قرأ يوما شيئا من أحاديـــث الصفات بالجامع الأموي بدمشق ، تعصّب عليه جماعة من الأشاعرة و اتهموه بالتجسيم ، و رفعوا أمره إلى والي دمشق ، و في حضرته حاكموه ، فـــأفتوا بكفره و قتله ، و إخراجه من دمشق طريدا[1] .

و المحنة الثانية أصابته بأصفهان ، و ذلك أنه عَندما دخلها و رد على الحافظ أبي نُعيم الأصفهاني(ت 430ه) في بعض ما كتبه ، و انتقده فـــي 290 موضعا ، تعصب عليه رئيس البلد أبو بكـــر الخُجنـــدي الأشـــعري(590ه)- انتصارا لأبي نُعيم- و طلبه ليقتله ، فاختفى الحافظ و أخرجه أصحابه مـــن أصفهان خُفية[2] .

و المحنة الثالثة أصابته بمدينة الموصل ، و ذلك أنه لما حـــل بهـــا و سمع كتاب الضعفاء للحافظ العُقيلي ، تعصّب عليه الحنفيـــة لأن إمـــامهم أبـــا حنيفة مذكور في الكتاب من بين الضعفاء ، و ســـجنوه و أرادوا قتلـــه ، ثـــم فحصوا الكتاب فلم يجدوا إمامهم مذكورا فيه ، لأن زميله كان قد أخفى القســـم الذي فيه اسم أبي حنيفة ، فأطلقوا صراحه لذلك[3] .

---

[1] الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 286 . و السير ، ج 21 ص: 455 ، 459، 463، 464 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 21 .

[2] الذهبي: السير ، ج 21 ص: 458، 459 . و ابن كثير : البدايـــة ، ج 13 ص: 39 . و محمد بن عبد الهادي: طبقات علماء الحديث ، حققه أكرم البوشي ، ط2 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1996 ج 4 ص: 154 .

[3] ابن عبد الهادي: نفسه ، ج 4 ص: 154 .

و الحالة الخامسة هي محنة الفقيه المالكي محمد بن زرقون (ت 622ه) ، و ذلك أنه لما أمر السلطان الموحدي يوسف بن يعقوب بعدم قراءة كُتب الفروع عامة و المالكية خاصة ، استمر ابن زرقون في تدريس الفقه المالكي متحديا لأمر السلطان ، فلما ظُفر به يُدرّس الفقه أُخذ للقتل صبرا (نحو سنة591ه) ، ثم سُجن و لم يُقتل ، فطال سجنه و أحرقت كتبه[1] .

و الحالة السادسة تتعلق بمحنة الأصولي المتكلم سيف الدين الآمدي الشافعي الأشعري(ق : 7ه) ، فقد رُوي أنه لما كان بمصر و اُشتهر بها بالعلم و قصده الطلبة ، تعصب عليه جماعة من الفقهاء و نسبوه إلى فساد العقيدة و انحلال الطوية ،و تعطيل الصفات على مذهب الفلاسفة ، و كتبوا محضرا يتضمن ذلك، و وقعوا عليه بما يُستباح به دمه ، فلما علم بذلك فرّ من مصر مستخفيا و التحق بمدينة حماة [2] .

و الحالة السابعة هي محنة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية(ت 728ه) ، فإنه لما أظهر مذهب السلف في الصفات ،و أفتى مجتهدا في مسائل فقهية كثيرة ، و أظهر انتقاده الشديد للصوفية الاتحادية المنحرفين ، تعصب عليه جماعة من الأشاعرة و الفقهاء و الصوفية ،و رفعوا أمره إلى السلطان ، و أفتي بعضهم بضلاله و كفره ، و أدخلوه السجن عدة مرات ، كان آخرها سنة 726 هجرية ، فبقي مسجونا نحو عامين ، و لم يتركوا –أي خُصومه– له دواة و لا قلما و لا ورقة ، فبقي بعد ذلك أشهرا مُقبلا على العبادة حتى تُوفي في سجنه رحمه الله تعالى[3] .

---

[1] الذهبي : السير ، 22 ص: 311 .

[2] ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 3 ص: 293 .

[3] ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج 1 ص: 169، 170 . و ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج 1 ص: 75 . و الشوكاني: البدر الطالع ، ج ذ ص: 67 .

و الحالة الثامنة محنة الفقيه الفقيه أحمد بن مري البعلي الحنبلـــي(ق: 8ه) ، و ذلك انه كان على منهج ابن تيمية في الأصول و الفروع ، و يتعصب لمسائله ، فلما كان يوما بالقاهرة و خطب بأحد مساجدها و حط على الصوفية ، و نصر بعض اجتهادات الشيخ ابن تيمية ، تعصـــب عليـــه جماعـــة مـــن الحاضرين و أرادوا قتله فهرب ، فرفعوا أمره إلى القاضي المالكي تقي الدين الأخنائي ، فعقد له مجلسا بين يدي السلطان المملوكي و أعوانـــه ســـنة 725 هجرية ، و بعد اخذ و رد اتفقوا على ترك أمره للقاضي الأخنائي ، فضـــربه ضربا مُبرحا حتى أدماه ، ثم شهّر به على حمار أركبه عليه معكوسا و نُودي عليه ، فكادت العامة أن تقتله ، ثم أُعيد إلى السجن ، و بعد فترة شُفع فيـــه ، فأُخرج و سُفّر من القاهرة إلى مدينة الخليل بفلسطين و معه أهله[1] .

و واضح من هذه الحادثة أن القاضي كان متعصبا تعصـــبا أعمـــى ، جعله يتجاوز الحد في العقاب ، إذا كان هذا الرجل يستحق العقاب فعلا ، لأن الكلام الذي قاله لا يستحق العقاب أصلا ، لأنه تكلّم في الصوفية المنحرفين و هو كلام صحيح ، و أخذ برأي ابن تيمية في مسألة عدم جواز شد الرحال إلى قبر النبي –عليه الصلاة و السلام– ، و هي مسألة خلافية بـــين العلمـــاء ، و الأصح فيها ما ذهب إليه ابن تيمية و ابن مري ، لأن الحديث الصحيح يقول : ((لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدي هذا ، و مسجد الحـــرام ، و مسجد الأقصى))[2].

و مما يُؤيد ما قلناه عن تعصب القاضي المالكي على ابن مري ، هـــو أن العامة جاءت إلى هذا القاضي نفسه برجل صوّب رأي ابن مري في عـــدم جواز التوسل بالأموات ،و شهدوا عليه بذلك ، لكنه –أي القاضي– لم يســـمع

---

[1] ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج 1 ص: 358 .

[2] مم : الصحيح الجامع ، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، ج 2 ص: 1014 .

لهم و دافع عن الرجل ، فالح عليه الناس أن يفعل به بمثل ما فعل بابن مــري فلم يفعل ، فنسبوه إلى التعصب و قالوا فيه شعرا انتقدوه فيه[1] .

و الحالة الثامنة هي محنة الفقيه المحقق ابن قيم الجوزية (ت 751ه) ، فإنه أُذي مرارا لأخذه بمذهب شيخه ابن تيمية و انتصاره له أصولا و فروعا ، و سُجن معه–منفردا– في المرة الخيرة سنة 726 هجرية ،بقلعة دمشق و لم يُفرج عنه إلا بعد موت شيخه سنة 728هجرية[2] .

و آخرها –أي الحالة العاشرة– محنة الفقيه المجتهد محمد بن إسماعيل العلوي الصنعاني (ت 1182ه)، فإنه لما كان مجتهدا حرا لا يتقيد بأي مذهب ، و يرد على المتمذهبين ،و يحب أهل الحديث ،و يهتم بتدريس كُتب الحــديث السنية ، اتهمه خُصومه –الشيعة– بالنصب –أي معــاداة أهــل البيــت فــي زعمهم– رغم أنه علوي ، و ألبوا عليه العوام ،و اتهموه بمخالفة آل البت –في زعمهم– و إهمال مذهبهم ، فجرّ عليه ذلك مِحــن و خُطُــوب مــع هــؤلاء المتعصبين عليه ، لم يذكر الشوكاني تفاصيلها[3].

و ختاما لهذا الفصل يتبين جليا أن التعصب المذهبي كانت مظاهره في الحياة العلمية كثيرة و عميقة –خلال العصر الإسلامي– أوصــلت الطوائــف الإسلامية إلى المبالغة و الغلو في أئمتهم و مذاهبهم و عقائدهم ، و التعمد في رواية الأكاذيب و تحريف الأخبار ، و التضييق على كثير من العلماء و إذائهم ، انتصارا لطوائفهم و مذاهبهم ،و تعصبا على مُخالفيهم ، فأصــبح التعصــب المذهبي الأرضية الأساسية التي قامت عليها الحيــاة العلميــة بمؤسســاتها و طلابها ، و علمائها و تراثها الفكري .

---

[1] نفسه ، ج 1 ص: 358 .

[2] ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 8 ص: 288 .

[3] البدر الطالع ، ج 2 ص: 133 و ما بعدها .

الفصل الثالث

مظاهر التعصب المذهبي في الحياة السياسية

-خلال العصر الإسلامي-

أولا : تمذهب الدول الإسلامية و تعصبها لمذاهبها

ثانيا : تعصب الخلفاء و الملوك و الأمراء لمذاهبهم

ثالثا :تمذهب جهاز القضاء و تعصبه

رابعا : استخدام الطوائف المذهبية للسلطة خدمة لمذاهبها

مظاهر التعصب المذهبي في الحياة السياسية
- خلال العصر الإسلامي -

لما تمذهبت الدول الإسلامية-خلال العصر الإسلامي- بمذاهب أصولية و فروعية مختلفة ، و تعصّبت لها ، ظهر أثر ذلك جليا في كثير من سلوكيات رجالها ،و في بعض مؤسساتها ، كما أنه مكن الطوائف المذهبية – المتنفذة في تلك الدول- من خدمة مذاهبها و التعصب لها على حساب مخالفيها.

أولا : تمذهب الدول الإسلامية و تعصبها لمذاهبها :

كانت معظم الدول الإسلامية – التي شهدها العصر الإسلامي- متمذهبة متعصبة للمذاهب التي تبنتّها ، مع اختلاف درجة التعصب من دولة لأخرى ، فالدولة العباسية اتخذت الفقه المذهب الحنفي مذهبا رسميا لها و انتصرت له ، لكنها في أصول الدين لم تتبن مذهبا معينا لها ، و إنما كانت تنتصر للمذهب الذي يتبناه خليفة الوقت ، ففي زمن الخليفة المأمون و المعتصم و الواثق (198-232ه) ، كانت –أي الدولة العباسية- متعصبة لمذهب المعتزلة تعصبا سافرا ، اضطهدت من أجله معارضيها بلا شفقة[1] .

و في عهد الخليفتين القادر بالله (381-422ه) و ابنه القائم بأمر الله (422-567ه) ، كانت –أي الدولة العباسية- على مذهب الحنابلة و أهل الحديث في الأصول ، فتعصبّت له و ضيّقت على معارضيه[2] . و لكنها–أي

---

[1] سيأتي ذلك قريبا إن شاء الله تعالى .

[2] سبق ذكر بعض ذلك في الفصلين الأول و الثاني ، و سنذكر شواهد أخري قريبا .

الدولة العباسية– في زمن الوزير السلجوقي نظام الملك(ت 485هـ) و بتأثير منه انتصرت للمذهب الأشعري و ضيقت على خُصومه[1] .

و أما الدولة العُبيدية الفاطمية –بالمغرب و مصر و الشام– فكانت شيعية إسماعيلية المذهب ، شديدة الانتصار له و التعصب على أهل السنة ، فارتكبت في حقهم جرائم بشعة ، و منعتهم من رواية السنة النبوية ، و سبّت الصحابة علانية ، و أحيت الرفض و أماتت السنة ، فكان ظاهرها الرفض – أي التشيع– و باطنها الضلال و الانحلال ، و فيها قال الحافظ شمس الدين الذهبي : ((قبّح الله دولة أماتت السنة و رواية الآثار النبوية ، و أحيت الرفض و الضلال ، و بثت دعاتها في النواحي تغوي الناس و يدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية ، فبهم ضلّت جبلية الشام و تعثّروا))[2] .

و كذلك دولة القرامطة بالبحرين و ما جاورها ، فقد كانت إسماعيلية المذهب ظاهرها الرفض و باطنها الزندقة و الإلحاد ، شديدة التعصب على أهل السنة ، حتى أنها قتلت منهم آلاف الأبرياء داخل الحرم المكي بلا ذنب ارتكبوه إلا أنهم من أهل السنة [3] .

و أما الدولة البويهية (334–447هـ) ، فقد كانت شيعية زيدية المذهب ، و تعصبت للاعتزال و الرفض ، و أظهرتهما علانية و دعمتهما ،و وقفت

---

[1] أنظر مثلا : ابن الجوزيك المنتظم ، ج 9 ص: 93 . و الذهبي : السير ، ج 19، ص: 94 . السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 3 ص: 393 .

[2] الذهبي : السير ، ج 15 ص: 196 ، ج 16 ص: 468 ، ج 18 ص: 497 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 233 .

[3] الذهبي: نفس المصدر ، ج 13 ص: 470 ، ج 14 ص: 539 ، ج 15 ص: 152 .

بجانب الشيعة في صراعهم مع أهل السنة ،و شجّعت سب الصحابة و تكفيرهم[1] .

و منها أيضا الدولة الأيوبية بمصر و الشام و اليمن (569-648هـ) ، تمذهبت في الأصول بالمذهب الأشعري ، و في الفروع بالمذهب الشافعي ، و تعصبت لهما علانية ، و مكّنت لهما في الدولة ، و ضيّقت على مخالفيها من الحنابلة و أهل الحديث[2] .

و كذلك الدولة المملوكية بمصر و الشام (648-923هـ) ، فقد سارت على نهج الدولة الأيوبية ، في التمذهب بالأشعرية ، و تعصبت لها تعصبا شديدا ، حتى أنه كان من يجرؤ على مخالفتها علانية- زمن المؤرخ المقريزي(ت 855هـ)- يكون مصيره القتل[3] .

و أما دول المغرب الإسلامي ، فمنها الدولتان الخارجيتان : المدرارية و الرستمية ، تمذهبت الأولى بالمذهب الصُفري ، و الثانية بالمذهب الإباضي ، و كل منهما تعصب لمذهبه[4] . و منها الدولة الزيرية ، فإنها تمذهبت بالمذهب المالكي عندما انفصلت عن الدولة العبيدية الفاطمية نحو سنة 434هـ ، و انتصرت له انتصارا كبيرا ، و فرضته على رعيتها ،و تعصّبت على غيره من المذاهب[5] .

---

[1] نفس المصدر ، ج 15 ص: 364 ، ج 16 ، ص: 250 ج 17 ص: 650. و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 233 .

[2] أنظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج 4 ص: 382 . و ابن كثير : نفس المصدر ، ج 13 ص: 18 . و المقريزي : الخطط ، ج 2 ص: 343 ، 358 .

[3] الخطط المقريزية ، ج 2 ص: 343 .

[4] أنظر : عبد لعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، مصر ، د ت ، 447 و ما بعدها .

[5] الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج 1 ص: 194 .

و منها أيضا الدولة المرابطية (453-541ه) ، تمذهبت في الفروع بالمذهب المالكي ، و تمذهبت في الأصول بمذهب السلف و أهل الحديث ، و انتصرت لهما انتصارا كبيرا ، و تعصبت على من يُخالفهما من المتكلمين ، و الفلاسفة ، و الصوفية[1] .

و منها الدولة الموحدية (441-668ه) ، تمذهبت بالأشعرية في الأصول ، و انتصرت لها انتصارا كبيرا ، و تعصّبت على المالكية تعصبا زائدة ، و حاربت التمذهب عامة ، و اشتدت في التعصب على خُصومهم المرابطين ، فكفّرتهم و استباحت دماءهم و أعراضهم[2] .

و يتبين مما ذكرناه أن تمذهب تلك الدول و تعصبها لمذاهبها ، كان هو الأرضية التي قام عليها التعصب المذهبي في الحياة السياسية أولا ، و هي -أي الدول- التي غذته و رعته و شجعته ثانيا .

ثانيا : تعصب الخلفاء و الملوك و أعوانهم لمذاهبهم :

انتشر التعصب المذهبي بين الخلفاء و الملوك و رجالهم انتشارا واسعا -خلال العصر الإسلامي- فكانوا فيه طرفا فاعلا مؤثرا في رعايته و دعمه ، و تكريسه في المجتمع ، أذكر منهم ما يأتي :

فبخصوص الخلفاء العباسيين فمنهم المأمون (198-218ه) ، و هو أول خليفة عباسي معتزلي متشيّع ، انتصر للمعتزلة و الشيعة في دولته ، و تعصب على أهل السنة تعصبا مفرطا ، و فرض عليهم القول بخلق القرآن بالقوة ، و هدد من يُخالفه بالقتل و السجن و الحرمان. و عندما حضرته الوفاة وصى أخاه المعتصم (218-227ه) بمواصله نهجه في مسألة خلق القرآن ،

---

[1] الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 60 . و الناصري ، نفس المرجع ، ج 1 ص: 74 ، 75 .

[2] الذهبي : السير ، ج 21 ص: 314 . و ابن خلدون : المقدمة ، ص: 290 . و الناصري : المرجع السابق ، ج 1 ص: 125 ، 200 .

فسار على ذلك المنهاج في امتحان رعيته بالقول بخلق القـرآن ،و التمكـين للمعتزلة في دولته ، و على نهجه سار خليفته أبو جعفـر هـارون الواثـق (227-232هـ)[1] .

و منهم أيضا الخليفة القادر بالله (381-422هـ)، كـان علـى مـذهب الحنابلة و أهل الحديث في أصول الدين ، فانتصر لهم و ضيّق على مخالفيهم ، و أعانهم في نزاعهم مع الشيعة . و اسـتتاب المعتزلـة مـن الاعتـزال و الرفض ، و من كل ما يُخالف الإسلام ، و أخذ على ذلك توقيعاتهم ، على أنهم إن خالفوا ذلك حلّ بهم من النكال و العقوبة ما يتعظ به أمثالهم .و أصدر أيضا رسالة عُرفت بالاعتقاد القادري ، نصر فيه مذهب أهل السنة من الحنابلـة و أهل الحديث ، و رد فيه على المعتزلة و الشيعة الأشاعرة ،و قد وافق عليـه- أي الاعتقاد- فقهاء بغداد و أعيانها في سنة420 هجرية [2] .

و على نهجه سار ابنه الخليفة القائم بأمر الله (422-467هـ) ، فقد كان على مذهب الحنابلة و أصحاب الحديث في أصول الدين ، و انتصـر لـه و تعصب على مخالفيه ، و اخرج اعتقاد والده سنة 432 هجريـة ، انتصـارا للقاضي أبي يعلى الفراء الحنبلي (ت458هـ) في نزاعه مع الأشاعرة في مسألة صفات الله تعالى .كما أنه –أي القائم- انتصر أيضا لأهل الحديث و الحنابلـة في نزاعهم مع الشيعة ببغداد في سنة 458 هجرية ، و أصدر توقيعا نصّ فيه على لعن من يسب الصحابة و يُظهر البدع[3] .

---

[1] ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 10 ص: 267 ، 33 ، 337 .

[2] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 7 ص: 287 ، ج 8 ص: 109 ، 110 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 339 ، ج 12 ص: 26 .

[3] ابن الجوزي: نفس المصدر ، ج 8 ص: 240 . و ابن رجب البغـدادي : الـذيل علـى طبقات الحنابلة ، ج 2 ص : 197 ، 198 .

و منهم أيضا الخليفة المقتدي بأمر الله (467-487 ه) ، كان على مذهب أهل السنة أصولا و فروعا ، و انتصر له و شدد على خُصومه ، و في سنة 479 هجرية أصدر توقيعا عنيفا و جهه لشيعة الكرخ ببغداد ، حثهم فيه على التأسي بأهل السنة في تولي الصحابة و ذكر فضائلهم ، و حذّرهم من عدم موالاتهم ، و استمرارهم عل جهالتهم و ضلالتهم في موقفهم منهم-أي الصحابة- و التي استوجبوا بها النكال ،و استحقوا بها عظيم الخزي و الوبال[1].

و آخرهم – أي الخلفاء العباسيون- هو الناصر لدين الله (575-622ه)، كان متشيعا لمذهب الشيعة الاثنى عشرية ، فمكن لهم في دولته ، و سبوا الصحابة علانية تحت حمايته ، و في المقابل ضيق على أهل السنة .و في زمانه تمكن وزيره الشيعي ابن القصاب من إلحاق الأذى بابن الجوزي و نفيه إلى مدينة واسط[2] .

و أما الحكام العُبيديون الفاطميون بالمغرب و مصر و الشام ، فقد كانوا متعصبين تعصبا أعمى لمذهبهم الإسماعيلي من جهة ، و كانوا حربا على المذهب السني من جهة أخرى ، فضيقوا على أهله و طاردوهم ، و قتلوا منهم خلقا كثيرا ، حدث ذلك في زمن كبيرهم عبيد الله المهدي (297-322ه) ،و ابنه أبي القاسم محمد القائم (322-334ه) ، و العزيز بالله نزار بن المعز (365-386ه) ، و أبي تميم المستنصر (427-487ه)[3]

و فيما يخص الملوك و السلاطين المتعصبين ، فمنهم الملك محمود بن سبكتكين (ت 421ه) ، كان حنفيا ثم تحول إلى المذهب الشافعي ، فأحدث

---

[1] ابن الجوزي : نفس المصدر ، ج 9 ص: 28 ، 29 .

[2] الذهبي : العبر ، ج 4 ص: 241 . ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 19 . و ابن رجب : الذيل ، ج 1 ص: 304 ، 426 . و ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 7 ص: 173 .

[3] الذهبي : السير ، ج 15 ص: 152، 154 ، 170 ، 196 .

بذلك تعصبا بين الحنفية و الشافعية . كما أنه كان في الأصول على مذهب أهل الحديث محبا لأهله و منتصرا له ، سيرا على طريقة الخليفة العباسي القادر بالله في انتصاره للسنة و قمعه لمخالفيها، ففي سنة 409 هجرية لّعنت الرافضة و القرامطة ،و المشبّهة و المعتزلة ، و الجهمية على المنابر و هددهم بالقتل[1] .

و ثانيهم السلطان صلاح الدين الأيوبي(ت 589ه) ، فقد كان شافعي الفروع أشعري الأصول ، و انتصر لهذين المذهبين انتصارا كبيرا علانية و تعصب لهما على حساب مذاهب الطوائف الأخرى ، فأعطى القضاء للشافعية في دولته ، و مكّن للأشعرية في مملكته ، و على نهجه سار أولاده من بعده في التمكين للأشعرية التي حرص على تربيتهم عليها[2] .

و الثالث هو السلطان العزيز بن صلاح الدين الأيوبي (ت 595ه) ، كان على طريقة والده في الانتصار للشافعية و الأشعرية ، و لما سمع بما حدث من خلاف بين جماعة من الأشاعرة و الحافظ عبد الغني الحنبلي المقدسي (ت 600ه) في مسألة صفات الله تعالى قال إنه إذا رجع من سفرته هذه –خرج للصيد– فإنه سيُخرج الحنابلة و من قال بمقالتهم ، من مصر و الشام ، لكن الموت لم يُمهله ليعود إلى القاهرة ، فقد قتله فرسه عندما رماه و وقع عليه و خسف صدره[3] . و تصرّفه هذا غريب جدا ، لا حكمة فيه ، و لا يمت بصلة لسياسة الحكم الرشيد ، و يبدو إنه كان واقعا تحت تأثير طائفة من خصوم الحنابلة و أهل الحديث المتعصبين الذين حرّضوه عليهم .

---

[1] نفس المصدر ، ج 15 ص: 135 .

[2] أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج 4 ص: 382 . و المقريزي : الخطط ، ج 2 ص: 343 ، 358 .

[3] الذهبي: السيّر ، ج 29 ص: 292 . و ابن كثير: البداية ، ج 13 ص: 18 .

و الرابع هو الملك قطب الدين محمد بن الملك صاحب سنجار الزنكي(ت بعد :594ه) ، كان حنفيا شديد التعصب على الشافعية كثير الذم لهم ، فمن تعصّبه عليهم أنه بنى مدرسة للحنفية بمدينة سنجار و اشترط على أن يكون النظر فيها للحنفية من أولاده دون الحنفية منهم ،و أن يكون بواب المدرسة و فراشها على المذهب الحنفي[1] .

و الملك الخامس هو شرف الدين عيسى بن العادل الأيوبي (ت624ه) ، كان فقيها أديبا شديد التعصب للمذهب الحنفي ،و لم يكن في بني أيوب حنفي قبله سواه ، و قد تبعه أبناؤه في تبنيهم للمذهب الحنفي[2] .

و السادس هو ملك المغول خربندا محمد بن أرغون بن هولاكو (ت 716ه) ، تمذهب أولا بالمذهب السني لمدة عام ، ثم تحوّل إلى المذهب الرافضي-أي الشيعي- و تعصّب له تعصبا شديدا ، فأقام شعائره و شجّعه على حساب المذهب السني ، و تسبب في حدوث فتن و شرور كثيرة بين الشيعة و السنة بالعراق و بلاد فارس و خُراسان ؛ فلما مات و خلفه ابنه أبو سعيد تغير حال أهل السنة ، لأنه كان على مذهبهم ، فأمر بإقامة الخطبة بالترضي على الشيخين أبي بكر و عمر أولا ، ثم عثمان و علي ثانيا -رضي الله عنهم أجمعين- ففرح أهل السنة بذلك ،و توقفت الفتن التي أثارها والده خربندا[3] .

و آخرهم -أي الثامن[4]- هو ملك مصر و الشام الظاهر سيف الدين ططر المملوكي(ت824ه) ، كان شديد التعصب لمذهب أبي حنيفة النعمان ،

---

[1] ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 2 ص: 331 .

[2] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج 7 ص: 202 .

[3] ابن كثير : البداية ، ج 14 ص: 77 .

[4] السابع هو الملك أبو سعيد بن خربندا .

حتى أنه كان يريد أن لا يدع أحدا من فقهاء المذاهب الأخرى إلا فقهاء الحنفية[1] .

و أما لوزراء المتعصبون لمذاهبهم ، فمنهم الوزير السلجوقي نظام الملك (ت 485هـ) ، كان كثير التعصب للشافعية ، و مكّن لهم في دولته . و قد اتهمه بعض الحنفية بأنه كان يولي الحنفية القضاء ، و يُسند المدارس للشافعية لكي يتفرغون لطلب العلم و الاشتغال به فيكثر فقهاؤهم ؛ و ينشغل الحنفية بالقضاء فيقل اشتغالهم بالفقه فيتعطلون[2] .

كما أنه -أي نظام الملك- دعّم الشافعية الأشاعرة دعما كبيرا ، فرفع عنهم المحنة التي فرضها عليهم الوزير السلجوقي عميد الملك الكندري المعتزلي في سنة 445هجرية . و منع من سبهم و لعنهم ،و أنّب من فعل ذلك .و دعمهم ماديا و معنويا حين بنى لهم المدارس ، و أجرى عليهم الأرزاق ،و شجّعهم على نشر الأشعرية، و أطلق يدهم في دولته، حتى عظُم أمرهم في البلاد ،و انتقموا من الحنابلة و أهل الحديث ، و تطاولوا عليهم تتطاول السلاطين ، و استعدوا عليهم بالسجن و الأذي و السعايات ، و نبزوهم بالتجسيم[3] .

و هو -أي نظام الملك- الذي أرسل ابن القشيري إلى بغداد سنة 469 هجرية ، فأحدث فتنة كبيرة قُتل فيها خلق كثير من الناس ، فلما أحدث ذلك استدعاه إليه ، فلما التحق به أكرمه و عظّمه ، و جهّزه و أرسله إلي بلده نيسابور[4] . و سلوكه هذا مع ابن القشيري غريب جدا ، لأن هذا الرجل ظالم

---

[1] الشوكاني : البدر الطالع ، ج 1 ص: 302 .

[2] ابن جرادة : بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج 5 ص: 2494 ، 2495 .

[3] ابن الجوزي: المنتظم، ج 9 ص: 93 . و الذهبي: السيّر ، ج 19 ص: 94 . السبكي: الطبقات، ج3ص: 393 . و ابن مفلح : الفروع، ج 2 ص: 14 .

[4] الذهبي: السير، ج 19 ص: 425 . و ابن خلّكان : وفيات الأعيان ، ج 3 ص: 208 .

و فتان ، و معتد و مجرم ، ذهب إلى بلد غير بلده ،و سب معظم أهله ،و اتهمهم بالتشبيه ،و تسبب في حدوث فتنة قُتل فيها نحو عشرين شخصا ، فالواجب على الوزير أن يُعاتبه و يُحذّره ، و يُوبخه و يُعاقبه ، لا أن يُكرمه و يُعظمه و يُكافئه ، فهو -أي الوزير- بسلوكه هذا قد شارك في فتنة ابن القشيري، و شجّع أشاعرة آخرين على القيام بنفس ما قام به ابن القشيري ، انتصارا المذهب و تعصبا على خُصومه .

و أرسل أيضا الواعظ أبا بكر البكري المغربي الأشعري إلى بغداد سنة 475 هجرية ، و معه كتاب للتدريس في المدرسة النظامية – بناها الوزير– و التكلم بمذهب الأشعرية ، فلما حلّ ببغداد أحدث فتنة بين الأشاعرة و الحنابلة[1] . فهو– أي نظام الملك– قد أرسله ليُظهر مذهبه الأشعري ، و هو يعلم أن الحنابلة و أهل الحديث لا يسمحون له بذلك ، و قد سبق أن تصادموا من قبل مع ابن القشيري ، فسلوكه هذا دليل على تعمده لإحداث تلك الفتنة–و غيرها– انتصارا لمذهبه و تعصبا على معارضيه .

و الوزير الثاني هو عون الدين بن هُبيرة البغدادي الحنبلي (ت 560ه) ، كان حنبليا على مذهب أصحاب الحديث في أصول الدين ، انتصر لهم مدة وزارته ، و مكن لهم في الدولة العباسية ، و نشر فكرهم ، لكنه لم يكن فيه تعصب سافر[2] كحال نظام الملك في تعصبه للشافعية و الأشعرية .

و الثالث هو الوزير الخوارزمي مسعود بن علي(ت 596ه) ، كان شافعيا متعصبا ، بنى للشافعية المدارس ،و أنشأ لهم جامعا بمدينة مرو بناه

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 3 ص: 3 ، 4 ، 220 . و ابن النجار : ذيل تاريخ بغداد ، ج 2 ص : 185 .

[2] العليمي : المنهج الأحمد ، ج 2 ص: 289 .

مقابلا لجامع الحنفية ، فتعصب عليه الحنفية و أحرقوه ، فحدثت فتنة كبيرة بين الطائفتين [1] .

و آخرهم-أي الرابع- هو وزير عباسي[2] تولى الوزارة زمن الخليفة العباسي المستعصم بالله (640-656هـ) ، فعندما بنى الخليفة مسجدا جديدا ببغداد و كلّف وزيره الشافعي بجمع القراء لاختيار إمام له ، كان من بين هؤلاء القراء : أبو محمد عبد الصمد بن أحمد البغدادي (ت676هـ) ، فعرض عليه الوزير أن يترك مذهبه الحنبلي و ينتقل إلى المذهب الشافعي ، لكي يُعينه إماما للمسجد الجديد ، فأبى عبد الصمد ، فقال له الوزير : أليس مذهب الشافعي حسنا ؟ ، قال : بلى ، لكن مذهبي ما علمتُ فيه عيبا أتركه لأجله . فسمع به الخليفة فأعجبه رده ، فجعله إماما للمسجد[3] .

فالوزير الشافعي لما كلّفه الخليفة بمهمة جمع القراء لاختيار منهم إمام للمسجد ، تحركت فيه عصبيته المذهبية مستغلا في ذلك منصبه كوزير ،و رغبه ذلك الرجل الحنبلي في تولي إمامة المسجد ، فعرض عليه تغيير مذهبه الحنبلي و الالتحاق بالشافعية ، كشرط ليُعينه إماما ، لكنه اخفق في مسعاه .

و أما الأعوان المتعصبون-من الأمراء و الخدم و المسؤولين- فمنهم رئيس الرؤساء ابن المسلمة البغدادي(450هـ) ، فقد كان شديد التعصب على الشيعة كثير الأذية لهم ، فعندما زالت دولة بني بويه سنة 447 هجرية ، قمعهم و أمر بقتل شيخهم الرافضي السباب : ابن الجلاب . لكنهم انتقموا منه عندما دخلت جيوش العبيديين الفاطميين بغداد سنة 250 هجرية ، فإنهم تقووا بإخوانهم ،و تمكنوا من ابن المسلمة و عذّبوه شر عذاب حتى مات انتقاما منه

---

[1] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج 7 ص: 296 ، 297 .

[2] لم أتعرف عليه .

[3] ابن رجب : الذيل ، ج 2 ص: 292 .

و تعصبا عليه ، و كان آخر كلامه : ((الحمد لله الذي أحياني سعيدا ، و أماتني شهيدا))[1] .

و الثاني هو أمير عُبيدي[2] كان واليا على دمشق ، كان شيعيا متعصبا لمذهبه ، و شديد التعصب على أهل السنة ، فلما حلّ الحافظ الخطيب البغدادي (463هـ) بدمشق و نشر بها السنة النبوية ، سعى الأمير إلى قتله ، و كلّف صاحب الشرطة بذلك ، فلم يُفلح في مكره ، لأن صاحب الشرطة كان سنيا و تحايل في إنقاذه[3] .

و الثالث هو مرجان (ت 560) خادم الخليفة العباسي أبي المُظفّر المستنجد (555-566هـ) ؛ فقد كان شافعيا شديد التعصب لمذهبه ، و متعصبا على الحنابلة شديد الكره لهم ، و يُعادي الوزير الحنبلي عون الدين بن هبيرة و المؤرخ ابن الجوزي معاداة شديدة ، و كان يقول لابن الجوزي : ((مقصودي قلع مذهبكم ، و قطع ذكركم)) ، فلما مات ابن هبيرة سنة 560 هجرية ، نزع مرجان مقام الحنابلة من الحرم المكي تعصبا عليهم ، من دون إذن من الخليفة العباسي المستنجد . ثم ضيّق على ابن الجوزي حتى خافه ، و سعى به إلى الخليفة ليُوقع به ، حتى قال ابن الجوزي إنه التجأ إلى الله تعالى يدعوا عليه ليُذهب عنه شره ، فمات -أي مرجان- بعد مدة قصيرة ، ففرح- أي ابن الجوزي- بذلك فرحا شديدا[4] .

و الرابع هو رئيس مدينة أصفهان : أبو بكر الخُجنَدي (ت 590هـ) ، كان أشعريا متعصبا للحافظ أبي نُعيم الأصفهاني (ت430هـ) ، فلما جاء الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي إلى أصفهان و ردّ على أبي نُعيم و اظهر أخطاءه

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 69 ، 82 ، 83 .

[2] لم أتعرف عليه .

[3] الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج 3 ص: 1141 .

[4] ابن الجوزي : المنتظم ، ج 10 ص: 213 . و ابن كثير : البداية ، ج 250 .

في بعض كتبه ، تعصب عليه الخُجنّدي و طلبه ليقتله ، فاختفى عبد الغنـــي و خرج من المدينة خُفية[1] .

و الخامس هو أبو بكر بن الخليفة المستعصم بالله (ت 656ه) ، إنه لما حدثت فتنة بين السنة و الشيعة سنة 655 هجرية ببغداد ، انتصر لأهل السنة و دعمهم بالعساكر ، و يُروى أنه تعصب على الشيعة تعصـــبا زائـــدا ، فسلّط عليهم العساكر الذين هتكوا النساء و ركبوا منهن الفواحش[2] .

و آخرهم –أي السادس– هو الأمير المملـــوكي يلبغـــا بـــن عبـــد الله الخاصكي الناصري(ت 768ه) ، كان شديد التعصب للحنفية حتى أنه ((كـــان يُعطي لمن يتمذهب لأبي حنيفة العطاء الجزيل ، و رتب لهـــم الجامكيـــات – العطاءات– الزائدة ، فتحوّل جمع من الشافعية لأجل الدنيا حنفية))[3] .

و من مظاهر تعصب هؤلاء أيضا–أي الخلفاء و الملوك و أعـــوانهم– بناؤهم المدارس للطوائف التي يتمذهبون بمذاهبها ، و الشواهد على ذلك كثيرة جدا ، منها أن الوزير السلجوقي نظام الملك(ت 485ه) بنى مدارس للشـــافعية ،و بني السلطان صلاح الدين الأيوبي(ت589ه) مدارس للشافعية و المالكية و الحنفية ، و بني السلطان نور الدين محمـــود(ت569ه) مـــدارس للحنفيـــة و الشافعية و الحنابلة و المالكية ،و بنى كل من الوزير عون الدين بن هبيرة (ت قرن: 6ه) ،و زوجة الخليفة المستضيء الســـيدة بنفشـــة (ت 558ه) مدرســـة للحنابلة[4] .

---

[1] الذهبي : السير ، ج 21 ص: 458 ، 459 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 39 .

[2] القلقشندي : مآثر الآناقة ، ج 2 ص: 90 .

[3] ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج 6ر ص: 209 .

[4] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 10 ص: 203، 253 .و ابـــن كثيـــر: البدايـــة ، ج 12 ص: 296، ج 13 ص: 23، 61 . و محمد كرد علي: خطط الشام ، دمشق ، مطبعة الترقـــي، 1926 ، ج6 ص: 115 .

و ختاما لمبحثنا هذا أشير هنا إلى أمـــرين هـــامين ، الأول هـــو أن تعصب الخلفاء و الملوك و أعوانهم كان له الأثر السلبي الكبير فـــي تكـــريس الطائفية و التعصب و الحفاظ عليهما و تشجيعهما ، الأمر الذي ساهم في دفع الطوائف المذهبية إلى النزاعات و المصادمات .

و ثانيهما هو أنه ليس كل الخلفاء و الملوك و أعوانهم كانوا متعصبين لمذاهبهم تعصبا أعمى ، فإن بعضهم سعى للتخفيف من التعصب و احتوائه ؛ و بعضهم لم يكن يُظهر تعصبه السافر لمذهبه على حساب الطوائف الأخرى ، فمن ذلك ما فعله عميد الجيوش السني الحسين بن أبي جعفر البغدادي ، فإنـــه منع الشيعة ببغداد من عمل عزاء الحسين يوم عاشوراء في سنة 393 هجرية ، ثم بعد أيام منع جهلة أهل السنة بباب البصرة و باب الشعير من النوح على مصعب بن الزبير ، فالتزم الفريقان بالمنع[1].

و الثاني هو الخليفة العباسي أبو عبد الله محمد المقتفي (530- 555هـ) ، فعندما رفض الحنابلة دفن أحد أعيان الشافعية بمقبرة الإمام أحمد ببغـــداد ، لأنه شافعي و ليس حنبليا ، تدخل الخليفة و أوقف الفتنة ،و دُفن الرجل بتلـــك المقبرة[2] .

و الثالث هو السلطان نور الدين محمود بن عماد الـــدين زنكـــي (ت 569هـ) ، كان حنفي الفروع بلا تعصب في تعامله مع الطوائف السنية ، لكنـــه فضل بعضها على بعض في بناء المدارس ، و انتصـــر لهـــا علـــى حســـاب الشيعة[3] .

و الرابع هو الملك غياث الدين محمد بن سالم الغـــوري الغزنـــوي(ت 599هـ) ، كان شافعي المذهب يميل للشافعية ، و بنى لهم مدارس و مســـاجد

---

[1] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 332 .

[2] سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ق: 1 ج 8 ص: 182 .

[3] الذهبي : السير ، ج 20 ص: 532 ز و ابن رجب : الذيل ، ج 1 ص: 158 .

بخراسان ، و لم يكن فيه تعصب أعمى على المذاهب الأخرى . و ذكر المؤرخ ابن الأثير أن هذا الملك كان يقول : ((التعصب في المذاهب من الملك قبيح)) ، ثم قال ابن الأثير : إنه –أي الملك– مع ميله للشافعية لم يُطمعهم في غيرهم ،و لا أعطاهم ما ليس لهم[1] .

و آخرهم –أي الخامس– هو السلطان المملوكي الأشرف برسباي (825–841هـ) ، فإنه عندما حدثت فتنة بين الأشاعرة و الحنابلة بدمشق سنة 835 هجرية ، و وصل أمرها إليه ، أصدر مرسوما نص على أن لا يعترض أي طرف على مذهب الآخر، فسكن الأمر[2] .

و يُلاحظ على هؤلاء أن تصرفاتهم كانت للتخفيف و الاحتواء و التهدئة ، استدعتها سياسة الملك و لم تكن تهدف إلى وضع حد نهائي للتعصب المذهبي ، لأن هذا التعصب لم يكن من السهل القضاء عليه ،و لأنهم هم أنفسهم – أي الخلفاء و الملوك–كانوا متمذهبين فيهم تعصب لمذاهبهم .

ثالثا : تمذهب جهاز القضاء و تعصبه :

يُعد القضاء جهازا من أجهزة الدولة ، و مظهرا من مظاهرها السياسية ، يتولى الخليفة أو الملك تعيين القضاة و عزلهم . و قد أصبح –أي القضاء – متمذهبا فيه كثير من العصب ، بحكم تمذهب الدول الإسلامية و رجالها –خلال العصر الإسلامي– و تعصبهم لمذاهبهم ، و الشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ، منها إن القضاء في الدولة العباسية كان– في الغالب الأعم– بأيدي الحنفية ، فلما حاول شيخ الشافعية أبو حامد الإسفراييني (ت 406هـ)

---

[1] الكامل في التاريخ ، ج 10 ص: 282 ، 283 .

[2] ابن حجر : إنباء الغمر ، ج 2 ص: 586 .

تحويله –أي القضاء– إلى الشافعية سنة 393هجرية عن طريق التـأثير فـي الخليفة القادر بالله ، حدثت فتنة بين الحنفية و الشافعية[1] .

و واضح من ذلك أن تمذهب الدولة العباسية بمذهب الحنفية يعني أنه على الطوائف الأخرى الاحتكام إلى مذهب الحنفية في معاملاتها بحكـم أنـه مذهب الدولة الرسمي ، و هذا الوضع أوجد ردود فعل معارضة لـدى بـاقي الطوائف ، التي هي بدورها تريد أن تتعامل بمذهبها و تتعصب له ، و تتطلع لأن يكون هو مذهب الدولة الرسمي ، مما يعني أن ما فعله العباسـيون فـي تعاملهم مع المذاهب الفقهية لم يكن صوابا و لا حكيما .

و الشاهد الثاني هو أن الدوّلة الأيوبية (569–648هـ) جعلت القضـاء بيد الشافعية و مكنتهم في دولتها[2] . ثم تغير الحال في دولة المماليك (648–923هـ) ، ففي سنة 663 هجرية أمر السلطان الظاهر بيبرس بتعيـين أربـع قضاة بمصر يمثلون المذاهب السنية الأربعة ، ثم طُبق نفس الأمر بالشام فـي سنة 664 هجرية[3] . و بذلك كُرس التعصب و التفرق المذهبيين باسم القانون ،و أصبحت الدولة تحتكم إلى أربعة مذاهب تختلف أحكامها فـي كثيـر مـن المسائل ، فكان تصرّفها هذا هو أيضا ليس صوابا و حكيما[4] .

و الشاهد الثالث يتعلق بالقاضي الحنفي محمد بن موسى البلاساغوني التركي(ت 506هـ) ، فإنه عندما كان قاضيا على دمشق اسـتغل نفـوذه فـي الدولة و أخذ محراب الشافعية بالجامع الأموي و أعطاه للحنفيـة ، و جعـل الإمامة لهم ، فثار عليه العوام فلم يلتفت إليهم ، و بقي المحراب بأيدي الحنفية

---

[1] المقريزي : الخطط ، ج 2 ص: 333، 334 .

[2] ابن تغري بلدي : النجوم الزاهرة ، ج 7 ص : 134 . و المقريزي : المصدر السـابق ، ج 2 ص: 343 .

[3] المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ، ج 1 ق : 2 ص: 342 ، 539 .

[4] سنطرح الحل لهذه القضية في الفصل الرابع ، إن شاء الله تعالى .

إلى أن ملك السلطان صلاح الدين دمشق ، فنزعه منهم و أعاده للشافعية سنة 570 هجرية[1] .

و الشاهد الرابع يخص القاضي المالكي ابن مخلوف ، إنه عندما اعترض الأشاعرة على الشيخ تقي الدين بن تيمية في مسألة صفات الله تعالى و رفعوا أمره إلى القضاء ، حكم عليه ابن مخلوف بالكفر و السجن[2] . فكان هذا القاضي أشد القضاة الأربعة تعصبا و انحرافا على ابن تيمية ، لذا وصفه المحقق محمد بن علي الشوكاني بأنه كان : جاهلا غبيا من الشياطين المتجرئين على سفك دماء المسلمين بمجرد الأكاذيب ، و ناهيك بقوله : ((إن هذا الإمام –أي ابن تيمية– -قد استحق القتل ، و ثَبُت لديه كفره ، و لا يُساوي شعرة من شعراته ، بل لا يصلح أن يكون شسعا لنعله)) ، و قد كان هذا ((القاضي الشيطان يتطلب الفرص التي يتوصل بها إلى إراقة دم هذا الإمام ، فحجبه الله عنه ، و حال بينه و بينه ، و الحمد لله رب العالمين))[3] . فهذا القاضي أعماه تعصبه المذهبي حتى جعله يُكفر الشيخ تقي الدين ابن تيمية و يُفتي بإباحة دمه ، مُستغلا في ذلك نفوذه في الدولة كقاض ، رغم أن الشيخ عالم جليل مشهود له بالتقوى و الصلاح و الجهاد بالسيف و القلم .

و الشاهد الخامس يتعلق بما حدث للفقيه احمد بن مري البعلي الحنبلي(ت ق:8ه) على يد القاضي المالكي تقي الدين الأخنائي سنة 725 هجرية ، فإنه –أي ابن مري– لما أظهر انتصاره لآراء شيخه ابن تيمية ،و أُتهم بالحط على الصوفية و العصب لشيخه ، و رُفع أمره إلى القاضي الأخنائي ، تعصب عليه و بالغ في عقابه ، فضربه ضربا مُبرحا حتى أدماه

---

[1] صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج 5 ص: 87 . السبط : مرآة الزمان ، ج 1 ق : 8 ص: 44 .

[2] الشوكاني : البدر الطالع ، ج 1 ص : 67 .

[3] نفسه ، ج 1 ص: 67 .

،و شهّر به بين الناس ، فكادت العامة أن تقتله ، ثم سجنه ، و بعد مدة شُفع فيه فأخرجه و رحّله من القاهرة إلى الخليل بفلسطين[1] .

و الشاهد الأخير –أي السادس– يتعلق بتعصب القاضي الشهاب بن الزهري الدمشقي و تهوّره في تصرّفه مع الفقيه محمد بن خليل الحريري الدمشقي(ت 785ه) ، فلما بلغه أن الحريري أفتى برأي ابن تيمية في الطلاق ، و قوله أن الله في السماء ، طلبه و ضربه بالدرة ،و طوّف به على أبواب دور القضاة ، ثم اعتذر له و قال له : أخطأتُ فيك عندما قيل لي : إن فلانا الحريري قال كيت و كيت[2].

و أشير هنا إلى أن الفقيه المحقق محمد بن علي الشوكاني (1250ه) قد انتقد قضاة المالكية المتعصبين انتقادا لاذعا ،و قال : ((و قد امتحن الله تلك الديار –أي المصرية و الشامية– بقضاة من المالكية يتجرؤون على سفك الدماء ، بما لا يحل به أدنى تعزير ، فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم جهالة و ضلالة و جرأة على الله ، و مخالفة لشريعة رسول الله ، و تلاعبا بدينه ، بمجرد نُصوص فقهية ، و استنباطات فروعية ليس عليها أثارة من علم ، فإنا لله و إنا إليه راجعون))[3] .

و بذلك يتبين مما ذكرناه أن تمذهب جهاز القضاء في الدول الإسلامية–خلال التاريخ الإسلامي– زاد في انتشار التعصب المذهبي و كرّسه ، و مكّن كثيرا من القضاة المتعصبين من استغلال نفوذهم في الدولة لخدمة مذاهبهم ، و التعصب على خُصومهم .

---

[1] ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج 1 ص: 358 .

[2] ابن حجر : إنباء الغمر ، ج 1 ص: 97 .

[3] البدر الطالع ، ج 1 ص: 21 .

رابعاً : استخدام الطوائف المذهبية للسلطة خدمة لمذاهبها :

لما كانت الدول الإسلامية متمذهبة و متعصبة لمذاهبها -خلال العصر الإسلامي- استغلت الطوائف المذهبية ذلك الوضع لخدمة مذاهبها و التعصب على معارضيها ، فكانت كل طائفة – في الغالب- تصل إلى السلطة ، أو لها فيها نفوذ قوي ، إلا و سعت إلى تحقيق مكاسب مذهبية على حساب معارضيها من الطوائف الأخرى .

فبالنسبة للمعتزلة ، فقد استغلوا وجودهم في السلطة لخدمة مذهبهم و التعصب على مخالفيهم ، من ذلك ما فعله الخليفة المعتزلي المأمون بن هارون الرشيد (198-218ه)، فإنه مكّن للمعتزلة في دولته ، و فرض رأيهم على الناس في القول بخلق القرآن ، مستخدما في ذلك الترغيب و الترهيب معا ، و جعل من لم يقل برأيهم كافرا ملحدا ، و هدد جماعة من العلماء بالقتل إن هم لم يقولوا بخلق القرآن[1] .

و منهم أيضا الخليفة المعتزلي المعتصم (218-227ه) ، سار على نهج أخيه المأمون -كان قد أوصاه بذلك – فانتصر للمعتزلة ، و واصل امتحان أهل السنة بالقول بخلق القرآن ، و أرسل إلى واليه بمصر يأمره بامتحان أهلها بذلك ، فنالت علماء مصر محنة عظيمة ، و ضُرِب كثير منهم بالسياط ، كمحمد بن عبد الحكم ، و أبي إسحاق الفريقي ، و أبي جعفر الإيلي[2]

---

[1] السيوطي : تاريخ الخلفاء ، حققه محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 1 ، مصر ، مطبعة السعادة ، 1952 ، ص: 308 .

[2] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 269 .

و كذلك الخليفة الواثق (227-232ه) ، فقد كان على رأي المعتزلة في مسالة خلق القرآن ، و سار على نهج سابقيه في ذلك ، فامتحن رعيته ببغداد ،و أرسل إلى ولاته يأمرهم بذلك ، و كان قاضيه على مصر : أبو بكر الأصم ، قد اشتد في امتحان الناس بالقول بخلق القرآن ، و ملأ السجون من المعارضين له ، و أمر بكتابة : القرآن مخلوق، على أبواب المساجد[1] .

و رابعهم شيخ المعتزلة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد البغدادي(ت 240ه) ، هو رأس الاعتزال في زمانه ، و كان له نفوذ قوي على المأمون و المعتصم و الواثق ، تولى قضاء القضاة زمن هذين الأخيرين ، و هو الذي حرّض هؤلاء الخلفاء على امتحان رعيتهم بالقول بخلقَ القرآن ، و أن الله تعالى لا يُرى يوم القيامة ،و هو الذي شغّب على الإمام أحمد بن حنبل و أفتى بقتله . و هو الذي قال في أحمد بن نصر -عندما عارض الواثق- : ((هو كافر يُستتاب ، لعل به عاهة ، أو نقص عقل يا أمير المؤمنين)) ، فنهض الواثق و طعن ابن نصر بالسيف و جزّ رأسه ، و أمر بتعليقه بالجانب الشرقي من بغداد[2] .

و الخامس هو الأمير عضد الدولة البويهي (ت 372ه) ، جمع بين الاعتزال و التشيع ، و أظهرهما في دولته و شجعهما ، فكانا طافحين في زمانه خاصة ، و في عهد بني بويه عامة[3] .

و آخرهم -أي السادس- هو الوزير السلجوقي عميد الملك الكندر المعتزلي(ت 456ه) ، استغل نفوذه في الدولة لقمع مخالفيه و التعصب عليهم ، و كان شديد التعصب على الشافعية ، كثير الوقيعة في إمامهم -أي الشافعي-

---

[1] نفس المصدر ، ج 1 ص: 359 . و ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 3 ص : 140 .

[2] ابن كثير : البداية ، ج 10 ص: 305 . و ابن العماد ، نفس المصدر ، ج 3 ص: 179 ، 180 .

[3] الذهبي: السير ، ج 17 ص: 650 .

.و هو الذي تسبب في محنة الشافعية الأشاعرة المشهورة ، و ذلك أنه طلب من السلطان السلجوقي بأن يأذن له بلعن الرافضة على منابر خُراسان فأذن له بلعنهم ، ثم ألحق بهم الأشاعرة لتعصبه الشديد عليهم ، فمنعهم من الوعظ و الخِطابة ، و لعنهم في صلوات الجُمع ، فأصابت الأشاعرة محنة و حدثت فتنة كبيرة بأصفهان ، و لم تُرفع عنهم المحنة إلا بعزل الكندري و مجيء نظام الملك الشافعي الأشعري إلى الوزارة[1] .

و قد عانى كثير من العلماء من تعصب المعتزلة الأعمى–عندما كانوا في السلطة– ، فضيقوا على بعضهم ، و سجنوا آخرين ، و عذّبوا بعضهم الآخر ، و مات آخرون على يدهم ، منهم : نُعيم بن حماد ، و أحمد بن حنبل ، و يعقوب بن يحيى البويطي ، و هؤلاء سُجنوا عندما رفضوا القول بخلق القرآن ، مات منهم نُعيم و يعقوب في السجن ، و بقي أحمد مسجونا أكثر من عامين ، ثم أفرج عنه المعتصم بعدما ناظره و عذّبه[2] .

و منهم أيضا أحمد بن نصر الخزاعي قتله الواثق بيده ، و مثّل به ،و علّق رأسه بالجانب الشرقي من بغداد .و مهم : محمد بن عبد الحكم ، و أبو إسحاق الفريقي ، و أبو جعفر الإيلي ، و يحيى بن بكير ، و قد امتحنهم والي مصر و ضربهم بالسياط ، فلم يستجيبوا له[3] .

و هناك طائفة أخرى من العلماء رفضوا القول بخلق القرآن ، فلما هددهم المعتزلة بالقتل قالوا بخلق القرآن خوفا من القتل لا اعتقادا بذلك ، منهم

---

[1] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 8 ص: 365 . و الذهبي : السير ، ج 18 ص: 143 ، 313 .

[2] الذهبي : العبر ، ج 1 ص: 405 ، 411 . و ابن كثير : البداية ، ج 10 ص: 333 . و السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص: 308 .

[3] القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 269 .

: الحافظ يحيى بن معين البغدادي[1] ، و أبو مُسهر عبد الأعلى الدمشقي ، الذي لما رفض القول بخلق القرآن حُمل إلى الخليفة المأمون -كان خارج بغداد- ، فلما وقف بين يديه أخذ المأمون السيف ليقتله ، فخاف أبو مُسهر و قال بخلـق القرآن ، فتركه و أرسله إلى بغداد ، فلما وصلها سُجن ،و لم يلبث إلا يسيرا و مات[2] .

و أما أهل السنة فهم أيضا استغلوا السلطة للانتصار لمـذهبهم و التضييق على مخالفيهم من جهة ، و استخدموها أيضا في الانتصار لمـذاهبهم و التعصب على بعضهم بعض من جهة ثانية . فبخصوص انتصارهم لمذهبهم و التضييق على مخالفيهم ، فإنهم عندما رفع عنهم الخليفـة المتوكـل (227-247ه) محنة خلق القرآن ، طاردوا المعتزلة، و نبذوهم ، و آذوهم ، و حالوا بينهم و بين تكوين جماعة قوية منظمة ذات تأييد شعبي و نشاط مذهبي واسع ببغداد ، حتى أن السلطة العباسية أمرت بمنع بيع كُتب المعتزلة و تداولها ، و كان ذلك في سنة279 هجرية[3] .و في سنة 408 هجريـة جمعهـم الخليفـة القادر بالله و استتابهم من الاعتزال و الرفض ، و من كل ما يُعـارض ديـن الإسلام ، فأعلنوا توبتهم ، و وقعوا على ذلك بخطـوطهم ، و حـذّرهم مـن العودة إلى ما كانوا عليه[4] .

و عندما زالت دولة بني بويه الشيعية و جاءت محلها الدولة السلجوقية السنية ، تغير حال أهل السنة ببغداد و ترجّت كفتهم على الشيعة -الذين فقدوا دعم بني بويه - فلما زالت دولتهم أمر الوزير السني أبو القاسم بن المسـلمة بنصب أعلام سود- شعار العباسيين- بحي الكرخ رغم انزعاج الشـيعة . و

---

[1] السيوطي : المصدر السابق ، ص : 308 .

[2] القاضي عياض : المصدر السابق ، ج 1 ص: 221 .

[3] ابن الجوزي : المنتظم ، ج 8 ص: 236 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 64-65 .

[4] نفس المصدر ، ج 7 ص: 287 . و نفس المصدر ، ج 12 ص: 6 .

أمرهم أيضا بترك الأذان بحيى على خير العمل ، و أن يقول مؤذنهم في أذان الصبح : الصلاة خير من النوم ، يردد ذلك مرتين . و أجبرهم على إزالة ما كتبوه على المساجد : محمد و علي خير البشر ، و قتل شيخهم ابن الجلاب لغلوّه في التشيع . و في هذا الظرف نظّم أهل السنة بحي البصرة مسيرة انطلقت من حيهم إلى حي الكرخ الشيعي ، و هم يُنشدون قصائد في مدح الصحابة[1].

و أما بالنسبة للسنيين فيما بينهم ، فكل طائفة منهم كان لهما نفوذ سياسي في السلطة استغلته لنصرة مذهبها و التضييق على مخالفيها ، فمن ذلك أن بعض أهل الحديث استغل نفوذه في دولة الخليفة المعتمد على الله (256-279هـ) ، و ضيّق على الصوفية بالمطاردة و التشنيع عليهم ، و اتهمهم أفرادا و جماعات بالزنا و الزندقة ، و رفع أمر بعضهم إلى الخليفة المعتمد بتهمة المروق عن الدين ، فأحالهم إلى قاضي القضاة ، فاستمع لهم و ناقشهم و عفا عنهم في النهاية[2] .

و من ذلك أيضا استغلال الحنابلة و أهل الحديث لنفوذهم في الدولة العباسية زمن الخليفتين القادر بالله(381-422هـ) و ابنه القائم بأمر الله(422-467هـ) ، فضيقوا على الأشاعرة و طاردوهم ببغداد و استطالوا عليهم[3] . و بتأثير منهم انتصر الخليفة القائم للقاضي أبي يعلى الفراء في نزاعه مع الأشاعرة في مسألة صفات الله تعالى ، و أصدر الاعتقاد القادري دعما له في سنة432 هجرية ، و عندما تجدد النزاع بينهما تدخل -أي الخليفة- ثانية و

---

[1] ابن الجوزي : نفس المصدر ، ج 8 ص:172 . و ابن كثير : نفس المصدر ، ج 12 ص: 69 .

[2] الهجويري : كشف المحجوب ، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1980 ، ص : 421 .

[3] ابن رجب : الذيل ، ج 2 ص: 197، 239 . و ابن مفلح : الفروع ، ج 2 ص: 14 .

عقد لهما اجتماعا حضره علماء بغداد و أعيانها ، تمّ فيه الانتصـــار للقاضـــي أبي يعلى فيما دوّنه في كتابه إبطال التأويلات ، و تظاهر الأشاعرة بالموافقة و القبول[1] .

و أما الأشاعرة ، فهم أيضا استغلوا نفوذهم السياسي لخدمة مذهبهم و التعصب على الحنابلة و أهل الحديث ، فمن ذلك أنهم استغلوا نفـــوذهم زمـــن الوزير السلجوقي نظام الملك (ت 485هـ) ، فأصبح وعاظهم يأتون إلى بغداد و ينصرون الأشعرية علانية ، و يُهاجمون الحنابلة و أهل الحديث ، و يـــذمونهم ،و يتهمونهم باعتقاد التجسيم بدعم من السلطان[2] .

و المثال الثاني مفاده أن طائفة من الأشاعرة استغلوا نفوذهم في الدوّلة العباسية ، و اعترضوا على الحافظ عبد الغني المقدسي (ت600هـ) عندما قـــرأ بعض أحاديث الصفات ، فاتهموه بالتجسيم و رفعوا أمره إلى بـــرغش أميـــر دمشق ، و إلى السلطان الأيوبي العادل ، و كان ذلك سنة 595هجرية ، فقالوا للأول : إن هذا الرجل ضال ، و أفتوا بكفره و قتله .و سعى بعضـــهم لـــدى الثاني-أي السلطان- و أغرى صدره على عبد الغني ، و بذل 5000 دينـــار لقتله ، فما بلغ مقصوده[3] .

و المثال الثالث يتضمن شاهدين على ما بلغته الأشعرية من نفـــوذ و هيمنة على البلاد و العباد ، أولهما ما قاله الفقيه الموفق بن قدامة المقدسي (ت 620هـ) من أن الحنابلة في زمانه كانوا غرباء مُستضعفين في أكثر الأمصار ،

---

[1] ابن رجب : نفس المصدر ، ج 2 ص: 198 .

[2] ابن الجوزي : المصدر الســابق ، ج 8 ص: 305 ، ج 9 ص: 3 ، 4 ، 131 . و ابـــن النجار : ذيل تاريخ بغداد ، ج 2 ص: 185 . و ابن رجب : المصدر السابق ، ج 2 ص: 239 .

[3] الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث : 591-600 هجرية ، ص: 450 .

يُضامون ، و يُخوّفون ، و يُضطهدون[1] . حلّ بهم ذلك على أيدي الأشاعرة و إن لم يُسميهم الموفق ، لأنهم -أي الأشاعرة- هم الذين كانوا يحكمون مصر و الشام زمن الموفق ، في ظل الدولة الأيوبية ، و هي دولة شافعية أشعرية كما سبق أن ذكرناه . و ثانيهما ما ذكره المؤرخ المقريزي (ت845هـ) صراحة ، من أن الأشعرية في زمانه كانت مُهيمنة على مصر و الشام و اليمن و بلاد المغرب ، و من خالفها ضُربت عنقه[2] .

و المثال الرابع يتعلق بجماعة من الأشاعرة متنفذة في الدولة المملوكية تألبت على الشيخ تقي الدين بن تيمية ، إنها استغلت نفوذها في السلطة استغلالا فاحشا للإضرار به ، فهو عندما خالفهم في مسائل فقهية و أصولية أقاموا عليه الدنيا ، و حرّضوا عليه العوام ، و ألبوا عليه السلاطين و الأمراء ، و القضاة و الصوفية ، و بدّعوه و كفّروه ، و حبسوه مرارا ، فمازالوا به حتى أدخلوه السجن سنة 726 هجرية ، فلم يخرج منه إلا ميتا سنة 728 هجرية[3] .

و أما الشيعة فهم أيضا استغلوا نفوذهم السياسي لخدمة مذاهبهم و التضييق على السنيين و التعصب عليهم ، و الشواهد على ذلك كثيرة جدا ، أذكر طائفة منها في مجموعتين ، الأولى تتضمن مواقف متعصبة لأعيان من الشيعة استغلوا نفوذهم السياسي لخدمة مذاهبهم و الانتصار لها ، أذكر منهم تسعة ، أولهم شيخ الشيعة المفيد بن محمد (ت413هـ) ، استغل هيمنة البويهيين-هم شيعة- على بغداد ، لخدمة مذهبه الاثنى عشري ، فصنف كتبا

---

[1] ابن قدامة المقدسي : كتاب البرهان في بيان القرآن ، مجلة البحوث الإسلامية ، الرياض ، العدد 19 ، سنة 1407هـ ن ص: 280.

[2] المقريزي : الخطط ، ج 2 ص: 343 ، 443 .

[3] أنظر : ابن حجر : الدرر ، ج 1 ص: 18 . و أنظر أيضا مبحث :محن العلماء من الفصل الثاني .

طعن فيها على السلف ، و كانت له صولة عظيمة على بغداد ،و له فيها نفوذ قوي ، معتمدا في ذلك على حاكم البلد عضد الدولة البويهي الذي وفّر له القوة و الحماية[1] .

و الثاني هو أمير مكة الشيعي محمد بن أبي هاشم (ق: 5ه) ، إنه لما حدثت فتنة بين السنة و الشيعة بمكة المكرمة سنة 472 هجرية ، و ذهب إليه الشيعة و قالوا له : إن السنة ينالون منا و يبغضوننا ، طلب -أي الأمير- الزاهد السني هياج بن عبيد الحطني (ت 472ه) ،و ضربه ضربا مُبرحا ، فمات بسبب ذلك بعد أيام[2] .

و الثالث هو أمير الجيوش العُبيدي بدر الجمالي المصري (ت بعد : 478ه) ، كان شيعيا متشددا ، استغل نفوذه في الدولة العبيدية الفاطمية في قمع السنيين و الحط عليهم ، فقتل كثيرا من علمائهم ، و سب الصحابة علانية[3] .

و الرابع هو أمير مدينة كرمان ببلاد فارس : تيران شاه السلجوقي (قرن : 5ه) ، كان إسماعيليا باطنيا متعصبا ، استغل نفوذه في الدولة لقمع أهل السنة و التعصب عليهم ، فقتل منهم 4000 شخص ، لا ذنب عليهم إلا أنهم من أهل السنة[4] .

و الخامس هو أستاذ دار الخلافة العباسية : مجد الدين بن الصاحب (ت 583ه) ، أظهر الرفض في أيامه ، و سبّ الصحابة علانية ، و حمى الشيعة و دعمهم في فتنة سنة 582 هجرية ببغداد ، فسبوا الشيخين أبا بكر و

---

[1] الذهبي : ميزان الاعتدال ، ج 6 ص: 325 .
[2] ابن الجوزي : المنتظم ، ج 8 ص: 326 .
[3] ابن تغري بلدي : النجوم الزاهرة ، ج 5 ص: 120 .
[4] الذهبي السير ، ج 19 ص : 404 .

عمر ، و عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنهم- ، فلما قُتل في سنة 583هجرية ، فقدوا ذلك الدعم و ذُلوا[1] .

و السادس هو الأمير الحسن بن يزدن التركي البغدادي(ت568ه) ، كان له نفوذ قوي في الدولة العباسية ، استغله في حماية الشيعة و التضييق على أهل السنة و التعصب عليهم ، قال فيه الحافظ ابن كثير : إنه كان ((رافضيا خبيثا متعصبا للروافض))، فلما مات فرح السنيون بموته فرحا شديدا ، و أظهروا الشكر لله ، فلا تجد أحدا منهم إلا يحمد الله على موته ، فغضب الشيعة لذلك و حدثت فتنة بين الطائفتين[2] .

و السابع هو ملك التتار خربندا محمد بن أرغون (ت 717ه) ، كان سنيا عندما أسلم ،و ضرب على الدرهم و الدينار أسماء الخلفاء الأربعة ، لكنه تشيع فيما بعد و أصبح غاليا في الرفض ، فكتب إلى سائر ممالكه يأمرهم بالتشيع و سب الصحابة ؛ و قبل موته بأيام عزم على إرسال ثلاثة آلاف (3000) فارس إلى المدينة المنوّرة لنقل قبر الشيخين أبي بكر و عمر – رضي الله عنهما- ، فعجّل الله تعالى بهلاكه قبل أن يشرع في جريمته[3] .

و الثامن هو أمير المدينة المنورة : ثابت بن نعير بن جماز (ق: 9ه) ، لما بلغه خبر عزله من منصبه (سنة 829ه) ، استغل نفوذه في الإمارة – قبيل عزله- و نهب المدينة ، و خرّب و حرّق بيوتا كثيرة لأهل السنة ، و لم يسلم منه إلا الشيعة[4] .

و آخرهم -أي التاسع- هو الأمير الشيعي زبيري بن قيس العلوي (ت 888ه) ، كان أميرا على المدينة المنورة ، فاستغل نفوذه السياسي في ظلم

---

[1] الذهبي : العبر ، ج 4 ص: 248 ، 249 .و نفس المصدر ، ج 21 ، ص: 164 .

[2] البداية ، ج 12 ص: 272 .

[3] ابن تغري بلدي : النجوم الزاهرة ، ج 9 ص: 238 .

[4] السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، ج 1 ص: 229 .

أهل السنة و الاعتداء عليهم ، من ذلك أن أحد الشيعة داس على سجادة زاهد سني ، فقال له : يا رافضي ، فاستغاث هذا الرافضي بالأمير زبيري ، فطلب الأمير الزاهد السني و ضربه ضربا مبرحا حتى مات ، و كان ذلك سنة 862 هجرية[1] .

و أما المجموعة الثانية، فتتضمن حوادث مرتبطة بتعصب السلطات الشيعية على أهل السنة ، باستخدامها للنفوذ السياسي ، فمن ذلك ما كان حادثا في دمشق زمن تبعيتها للدولة العبيدية الإسماعيلية ، فقد كان فيها الرفض فاشيا علانية ، و في مقدور أميرها الشيعي أن يأخذ السني فيعذّبه و يقتله بتهمة حب الشيخين أبي بكر و عمر[2]– رضي الله عنهما–.

و الحادثة الثانية ما حدث زمن دولة بني بويه الشيعية الزيدية (334-447هـ) ، فإنها وفّرت الحماية للشيعة ببغداد و غيرها ،و مكنتهم من إحياء أعيادهم و الاعتداء على السنيين و إذائهم ، بتكفيرهم و لعنهم و سبهم ، و لعن الصحابة علانية من دون إنكار من بني بويه[3] .

و الحادثة الثالثة ، هي أنه لما أصبحت مكة المكرمة تابعة للعبيديين الإسماعيليين بمصر في القرن الخامس الهجري ، منعوا السنيين بمكة من مزاولة نشاطهم العلمي علانية ، و أجبروهم على ممارسته سرا ، فكان الحافظ أبو القاسم سعيد بن علي الزنجاني (ق: 5هـ) يُملي الحديث سرا في بيته[4] .

و الحادثة الرابعة ، تتعلق بما أحدثه العبيديون الشيعة بمصر خلال حكمهم لها ، فإنهم لما ملكوها أظهروا الرفض علانية ، و سبوا الصحابة جهارا ، و اعتدوا على أهل السنة ، و تعصّبوا عليهم ، و أصبحت السنة

---

[1] نفس المصدر ، ج 1 ص: 357 .

[2] الذهبي : السير ، ج 15 ص: 131 .

[3] ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 240 ، 241 .

[4] الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج 3 ص: 1176 .

النبوية غريبة مكتومة ، حتى أنهم منعوا الحافظ أبا إسحاق الحبال المصري (ت 482ه) من رواية الحديث و هددوه ، فامتنع من روايته[1] .

و الحادثة الخامسة تتعلق بموقف شيعة بغداد من دخول الجيش العبيدي الفاطمي إلى بغداد ، و استغلالهم له لخدمة مصالحهم و الانتقام من أهل السنة ، و ذلك أنه لما دخل الجيش العبيدي بغداد سنة 450 هجرية ، تلقاه شيعة بغداد بالفرح الشديد ، و طلبوا من قائده البساسيري التركي ، أن يمر بحي الكرخ ، فمر به و سمح لهم بالأذان -في سائر العراق- بحي على خير العمل ، و أباح لهم أعراض و أموال أهل السنة ، فهبوا إلى حي باب البصرة و نهبوا أكثره انتقاما من الحنابلة -هم سكان الحي- ، و لم يهدأ بالهم حتى انتقموا من الوزير السني أبي القاسم بن المسلمة : فعندما أركبه البساسيري جملا و سيّره بشوارع بغداد و مرّ بحيهم سبوه و لعنوه ،و بصقوا عليه و ضربوه ، و هو يتلو قوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء ، و تنزع الملك ممن تشاء ، و تعز من تشاء ، و تذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ -سورة آل عمران /26 -، و بقي تحت العذاب حتى مات -رحمه الله تعالى- ، لكن أمالهم -أي الشيعة- لم تدم طويلا ، فقد تدخل السلطان السلجوقي طغرلبك و هزم جيش العبيديين و قتل قائدهم البساسيري سنة 451 هجرية[2] ، فتبخّرت أمالهم و استعاد السنيون نفوذهم ببغداد .

و الحادثة الأخيرة -أي السادسة- تتعلق بحال أهل السنة بالمدينة المنورة ، زمن هيمنة الشيعة الاثنى عشرية عليها ، فقد تسلّطوا عليهم و آذوهم كثيرا ، و عندما عين المماليك -بمصر و الشام- الفقيه عمر بن أحمد الأنصاري المصري (ت 726ه) قاضيا على المدينة سنة 682 هجرية ، آذاه

---

[1] الذهبي : السير ، ج 15 ص: 170 ، 196 ، ج 18 ص: 497 .

[2] ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 82-83 .

الشيعة كثيرا ، لكنه صبر على ذلك ، حتى أنه كان إذا خطب في المسجد اصطف الخدم أمامه صفا لحمايته من الرجم ، و لم يخف آذاهم له إلا بعدما صاهر أحدهم[1] .

و قد استمر تسلط الشيعة على أهل السنة بالمدينة المنورة مدة طويلة ، بسبب تحكمهم بمقاليد البلد من كل الجوانب ، الأمر الذي جعل السلطان المؤيد المملوكي يُرسل من مصر أميرا على المدينة سنة 842 هجرية ، ليقمع الرافضة –أي الشيعة– المتسلطين على أهل السنة[2] .

و مما له علاقة بموضوعنا هذا هو أن بعض سياسيي الشيعة و أعيانهم أوصلهم تعصبهم المذهبي إلى خيانة السنيين و التآمر عليهم و التعاون مع أعدائهم ، فمن ذلك الشواهد الآتية :

أولها يتعلق بالوزير مؤيد الدين بن العلقمي العلوي البغدادي(ت 656ه) ، كان وزيرا للخليفة العباسي المستعصم بالله مدة 14 سنة ، كاتب هولاكو ملك المغول ، و طمّعه في العراق و شجّعه على غزوه ، و تبادل معه الرسائل بواسطة أخيه و بعض مماليكه، و الخليفة غافل عما يجري ، لأن ابن العلقمي حجب عنه المكاتبات . و لما وصلت جيوش المغول إلى بغداد و حاصروها سنة 656 هجرية ، خرج الوزير لاستقبال هولاكو ، فلما التقى به نصحه ابن العلقمي بقتل الخليفة و عدم قبول منه نصف خراج العراق ، و قال له أيضا : إن لم تقتله لا يتم لكم ملك العراق . ثم عاد الوزير مع المتكلم الشيعي نصير الدين الطوسي إلى دار الخلافة –بعدما كان قدغادرها الخليفة إلى هولاكو– ر

---

[1] ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج 4 ص: 117 .

[2] ابن حجر : إنباء الغمر ، ج 3 ص: 668 . و نفس المصدر ، ج 4 ص: 117 .

استخرجا كنوز خلافة بني العباس ، و رجعا بها إلى هولاكو ، و بعد ذلك قتل الخليفة و أعوانه و تعرّضت بغداد للتدمير و النهب و الإبادة[1].

و أما الأهداف التي كان يرجوها ابن العلقمي من تعاونه مع المغول و خيانته للسنيين ، فمنها : القضاء على الخلافة العباسية السنية و تعويضها بخلافة شيعية علوية . و تدمير المؤسسات العلمية السنية -كانت كثيرة جدا- ،و إبقاء مشاهد الشيعة و محالهم . و بناء مؤسسات علمية جديدة للشيعة لرفع رايتهم و نشر مذهبهم ، و كسر شوكة أهل السنة و الانتقام منهم[2] .

و أما الأسباب التي أوصلته إلى التآمر على السنيين و خيانتهم ، فيبدو لي أن أهمها : العداء القديم القائم بين العباسيين و الشيعة العلويين بسبب الخلافة . و الثاني هو تعصبه المذهبي و حقده الدفين على السنيين و بغضه لهم ، خاصة بعد فتنة 655 هجرية ، بين السنة و الشيعة التي جعلته يعزم على الانتقام لطائفته بالتعاون مع المغول ،و التآمر معهم على السنيين[3] .

لكن هذه الفتنة ليست مسوغا و لا مبررا لما أقدم عليه ابن العلقمي و لا تعفيه من المسؤولية ، لأن الفتن بين الطائفتين ليست جديدة ، فهي سجال بينهما منذ عدة قرون ، تبادل فيها الطرفان النصر و الهزيمة . كما أن هذه الفتنة -أي فتنة 656 هـ- يتحمل هو و طائفته مسؤوليتها ، لأنهم تسببوا فيها ، و ذلك أنه استغل نفوذه في الدولة -طول مدة وزارته- في نشر الرفض و

---

[1] الذهبي : السير ، ج 23 ص: 180، 183، 362 . و العبر في خبر من غبر ، ج 5 ص: 225 . و اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، 1954 ، ج 1 ص: 86، 87 ، 90 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 164، 201 . و السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص : 465 .

[2] الذهبي : السير ، ج 23 ص: 183 . و العبر في خبر من غبر ، ج 5 ص: 225 . و ابن كثير : نفس المصدر ج 13 ص: 203 . و السيوطي : نفسه ، ص: 456 .

[3] الذهبي : السير ، ج 23 ص: 180 ، 362 .

التعصب على أهل السنة ، الأمر الذي جعل السنيين يتصدون لـه و لطائفته بحزم[1] .

و مع ذلك فقد وُجد في أهل العلم من برّأ ابن العلقمي من الخيانة و دافع عنه ، أشهرهم[2] : المؤرخ الشيعي ابن الطقطقى (ق:8هـ) صاحب كتاب الفخري ، قال : إن الخليفة المستعصم كان غافلا مهملا للدولة ، و كان الوزير ابن العلقمي يُحذّره من ذلك ، و مما يُحاك ضده ، و حذّره أيضا من المغول فلم يُبال بذلك . ثم مدح ابن العلقمي و قال إن خُصومه يحسدونه ، و أن الناس نسبوه إلى ((أنه خامر ، و ليس ذلك بصحيح ، و من أقوى الأدلة على عدم مخامرته ، سلامته في هذه الدولة-أي المغولية- ، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد و قتل الخليفة سلّم البلد إلى الوزير و أحسن إليه و حكّمه ، فلو كان خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه))[3] .

و ردا عليه أقول : أولا إن كلامه فيه تدليس و تغليط ، و ذلك أنه ذكر في البداية أن ابن العلقمي كان ينصح الخليفة المستعصم و يُحذّره من المغول ، و هذا لو حدث فعلا و صدقا ، لعدّه المغول من أعدائهم ، و لما أحسنوا إليه ، و لما كافئوه ، فكيف يُحسنون إليه و كان يعمل ضدهم ؟ ! ، فلو كان ضدهم لقتلوه كما قتلوا الخليفة و رجال دولته المخلصين له المعادين للمغول .

و أما قوله بأن ابن العلقمي كان ينصح الخليفة و يُحذّره من المغول ، فهو مجرد تضليل و خداع ، فكان يُراسل المغول و يتظاهر للخليفة بالنصح و التحذير ، و هذا سلوك يندرج ضمن عقيدة التقية عند الشيعة ، فهي من أسس

---

[1] نفسه ، ج 23 ص: 362 . و السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج 8 ص: 263 .

[2] من الباحثين المعاصرين : أبو الفتوح بدوي ، في كتابه : التاريخ السياسي و الفكري للمذهب السني ، ص: 272 .

[3] ابن الطقطقى : الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية ، مصر ، مكتبة عز للتوريدات ، د ت ، ص : 270 ، 273 .

مذهبهم المعروفة ، و هذا هو التفسير الصحيح الوحيد لحالة ابن العلقمي مع الخليفة و المغول ، هذا إن كان فعلا قد نصحه على حد زعم ابن الطقطقى .

كما أن زعمه بأن من أقوى الأدلة على براءة ابن العلقمي –مما نُسب إليه– هو سلامته في دولة المغول ، إذ لو كان تآمر على الخليفة ما وثق فيه المغول ، فهو زعم باطل و مغالطة مفضوحة ، لأن الذين كانوا مخلصين حقا للخليفة قتلهم المغول ، كمحي الدين يوسف بن الجوزي ، و الدويدار الصغير ، و أما الذين خانوه فهم الذين لم يقتلهم المغول ، و هولاكو قد وثق في ابن العلقمي لأنه تأكد من إخلاصه و وفائه له ،و أنه متآمرا على الخليفة و أعوانه ، و ليس كما زعمه ابن الطقطقى الذي عكس الأمر تماما تدليسا و تغليطا .

و واضح من كلام ابن الطقطقى أنه هو شخصيا كان مؤيدا للمغول و لابن العلقمي في تعاونه مع المغول ، على حساب الخليفة و أعوانه و أهل السنة ببغداد ، بدليل أنه مدح المغول و ابن العلقمي معا ، و اعتبر إسقاط المغول لبغداد فتحا ، عندما قال : ((فإن السلطان هولاكوا لما فتح بغداد))، و ((فلما فُتحت بغداد))[1] . فاحتلال المغول المتوحشين لبغداد و تدميرهم لها ، و قتلهم للسنيين و الخليفة و أعوانهم ، هو فتح في نظر ابن الطقطقى ، و ليس جريمة و لا ظلما ،و لا اعتداء و لا وحشية !! ، فكيف سمح لنفسه أن يعتبر ما فعله المغول الكفار الوثنيون بالمسلمين من جرائم بأنه فتح ،و قد كرر ذلك مرتين ؟ ! ! . إنه لا يصح شرعا و لا عقلا أن يصف مسلم احتلال الكفار لبلاد المسلمين بأنه فتح . فهذا الذي ذكرناه دليل آخر على أن ابن الطقطقى الشيعي كان يُغالط و يُراوغ و يُدلّس في محاولته تبرئة ابن العلقمي ، و هو نفسه مؤيد للمغول فيما فعلوه بالسنيين ببغداد .

و ثانيا إن الشواهد و القرائن التاريخية على تآمر ابن العلقمي على الخليفة و أهل السنة و خيانته لهم كثيرة ، منها : إن المصادر التاريخية–ذكرنا

---

[1] نص: 273، 274 .

بعضها- قالت صراحة بأن الوزير ابن العلقمي راسل المغول و تآمر معهم على السنيين ، و قد ذكرت ذلك بصيغة التأكيد لا التشكيك و التمريض ، لذا لا يصح علميا إهمال ما ذكرته هذه المصادر و التعلّق بأوهام و أهواء أناس متعصبين لا يروق لهم ما ذكرته تلك المصادر عن خيانة ابن العلقمي .

و ثانيها هو إن قتل المغول للخليفة و رجاله ، و عدم قتلهم لابن العلقمي و من دخل بيته ،و مكافأتهم له بتعيينه حاكما على بغداد عندما غادروها ، هو دليل دامغ على تعاونه معهم و خيانته للسنيين ، و لو لم يكن كذلك ما تركوه ولا كافئوه ، لأن هؤلاء -أي المغول- كانوا -آنذاك - دمويين متوحشين .

و الشاهد الثالث هو أنه لما حدثت فتنة 655 هجرية ، و دارت فيها الدائرة على الشيعة ، كتب ابن العلقمي رسالة إلى أحد أصحابه أخبره فيها بما حلّ بشيعة الكرخ ، و توعّد فيها السنيين بأنه سيأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ، و ليخرجنهم من بغداد أذلة و هم صاغرون[1] .

و الشاهد الرابع هو أن جيش المغول لما قصد العراق كان في جيشه جماعة من شيعة الكرخ[2]-ببغداد- . فماذا كان يفعل هؤلاء هناك ؟ ! ، و من الذي أرسلهم من بغداد إلى جيش المغول ؟ ! ، و لماذا أُرسلوا إلى جيش المغول ؟ ، و لماذا هم من الشيعة و ليسوا من السنة؟ ! ، أليس وجود هؤلاء في جيش المغول شاهد قوي على وجود التآمر الشيعي مع المغول ، الذي حاك خيوطه ابن العلقمي و أشرف عليه هو و أعوانه ؟ ! ، و ألا يُشير ذلك إلى أن هؤلاء كانوا عيون المغول و أدلاؤهم في قدومهم إلى بغداد و احتلالها و تدميرها ؟ .

---

[1] ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج 2 ص: 282 .

[2] ابن تغري بلدي : النجوم الزاهرة ، ج 7 ص: 49 .

و الشاهد الخامس مفاده أن القائد المغولي بايجو نوين عندما دخل بغداد و استباحها و خرّبها و اتصل بالخليفة المستعصم كتابيا ، أخبر ابن العلقمي هولاكو بأن قائده بايجو نوين كاتَبَ الخليفة ، فطلبه هولاكو و قتله[1] . فهذا شاهد قوي على تعاون ابن العلقمي مع هولاكو و إنه كان في خدمته ، و أنه من أعوانه الذين يثق فيهم ، حتى أنه قتل قائده الكبير برسالة وصلته من ابن العلقمي . فلماذا راسله ؟ فهل كان نائبه و عينه على الخليفة و ما يجري في بغداد ؟ ، و لماذا لم يُحاول استغلال ما حدث لإضعاف جيش المغول لصالح أهل بغداد ، بدلا من إخبار هلاكو بما حدث ؟ .

و الشاهد السادس يتمثل فيما رواه المؤرخ ابن الفوطي –كان معاصرا للأحداث– من أن المغول لما وصلوا بغداد ذهب إليهم الوزير ابن العقمي و قد خرج ((إلى خدمة السلطان هولاكو في جماعة من مماليكه و أتباعه ، و كانوا ينهون الناس عن الرمي بالنشاب ،و يقولون : سوف يقع الصلح إن شاء الله فلا تحاربوا ، هذا و عساكر المغول يُبالغون في الرمي))[2] . فهذا شاهد قوي أيضا على أن ابن العلقمي كان متعاونا مع المغول ، لأنهم عندما وصلوا إلى بغداد خرج إليهم لخدمة هولاكو ، وليس للدفاع عن الخلافة و بعداد و أهلها ، و في طريقه إليه كان هو و أتباعه يُثبّطون البغداديين عن القتال و ينهونهم عنه ، و يمنونهم بالصلح ، في الوقت الذي كان فيه المغول يُبالغون في الرمي بالنبال ! ، فهل هذا سلوك من كان يُدافع عن أهل بغداد ، أم هو سلوك من كان متآمرا عليهم خدمة للمغول و لمصالحه ؟ ! .

و الشاهد الأخير –أي السابع– هو أن القرائن و الشواهد التاريخية و المنطقية و الدواعي المذهبية هي كلها تُدين ابن العلقمي و تُجرّمه بتعاونه مع

---

[1] نفس المصدر، ج 7 ص: 50 .

[2] ابن الفوطي : الحوادث الجامعة و التجارب النافعة ، بيروت ، دار الفكر الحديث ، 1987 ، ص : 157 ، 158 .

المغول ، و تآمره على الخليفة و أهل السنة ، فالقرائن و الشواهد التاريخية و المنطقية سبق ذكر طرف منها ؛ و أما الدواعي المذهبية فهي أيضا متوفرة في جنب ابن العلقمي ، فهو -كغيره من الشيعة- يُضلل السنيين و يُكفّرهم[1] ، و يرى في العباسيين طائفة مُغتصبة للخلافة ، افتكتها بقوة السلاح من الشيعة العلويين ، فلماذا إذن لا يستغل فرصة وجود المغول بالتعاون معهم ، و مع وزيرهم الشيعي نصير الدين الطوسي ، للإطاحة بالعباسيين المغتصبين و أعوانهم السنيين الضالين في اعتقاده هو ؟ .

و أما النموذج الثاني -من تآمر الشيعة على السنيين- فيتعلق بالمتكلم نصير الدين الطوسي(ت672هـ) ، فقد كان وزيرا مُخلصا لهولاكو ، و جاء معه إلى بغداد ، و شجّعه على غزوها ، فعندما استشار هولاكو أحد من المنجمين في دخول بغداد ، حذّره إن هو دخلها ستحدث كوارث طبيعية تصيب الخيول و الجنود ، لكنه عندما سأل وزيره النصير الطوسي عن ذلك ، نفى ما قاله المنجم ، و قال له : إنه لن يحدث شيء من ذلك ، و إنك ستدخل بغداد و تحل محل الخليفة[2] . و عندما وصلوا على بغداد و اتصل بهم ابن العلقمي ، و أتى لهم بالخليفة ، أشار النصير الطوسي على هولاكو بقتل الخليفة المستعصم . ثم ذهب مع ابن العلقمي إلى دار الخلافة و استخرجا كنوز الخلافة العباسية و رجعا بها إلى سيدهما الطاغية هولاكو خان[3]؛ و رضيا أن يكونا مخلصين للمغول الكفار خائنين للإسلام و المسلمين ، انتصارا للباطل ، و طلبا للدنيا ، و تعصبا على أهل السنة .

---

[1] ذكرنا ذلك بالتفصيل في الفصل الأول .

[2] رشيد الدين فضل الله الهمذاني : جامع التواريخ : تاريخ المغول ، مج 2 ج 1 ص: 256 ، 257 ، 279 ، 280 .

[3] ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 13 ص: 201 . و ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 14 ص: 166 .

و بخُصوص النصير الطوسي(ت672ه) ، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728ه) أن هذا الرجل -أي النصير الطوسي- كان من رؤوس الملاحدة ، أخذ الأموال من أوقاف المسلمين و أعطاها للكفار .و أخذ من كتب الناس ما يهمه و أتلف الباقي . و كان هو و أصحابه يشربون الخمر في رمضان و لا يصلون[1] .

و أما النماذج الأخرى -من تآمر الشيعة على السنة- فمنها أن الشيعة كانوا إذا انتصر المسلمون على المغول حزنوا و أقاموا المآتم ، و إذا انتصر المغول على المسلمين فرحوا بانتصارهم[2] . و منها أنهم-أي الشيعة- عندما دخل ملك المغول غازان-مدينة دمشق سنة 699 هجرية ، و استولى على ضاحية الصالحية بجبل قاسيون ، -شمال دمشق- أشاروا-أي الشيعة- عليه بنهب الجبل -أي الصالحية- و سبي أهله و تخريبه ، انتقاما منهم لأنهم سنة نواصب[3] .

و منها أيضا إنه عندما غزا المغول دمشق - في غزوة غازان سنة 699هجرية- تعاون معهم شيعة جبل كسروان - ببلاد الشام- ، فلما انهزموا علي أيدي المماليك ، حثّ الشيخ تقي الدين بن تيمية الناس على غزو هؤلاء الشيعة- أي شيعة كسروان- ، فخرج إليهم و حاربهم و هزمهم ، و أملى عليهم شروطه ، لأنهم تعاونوا مع المغول ، و أنهم بُغات رافضة سبابة[4] . أي يسبون الصحابة و السلف .

---

[1] ابن تيمية : نفسه ، ج 14 ص: 166 .

[2] نفس المصدر ، ج 28 ص: 636 .

[3] محمد بن عبد الهادي: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام بن تيمية ، حققه محمد حامد الفقي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ج 1 ص: 185 ، 196 .

[4] نفسه ، ج 1 ص: 195 ، 196 .

و منها إنهم –أي الشيعة– لما احتل النصارى الصليبيون الساحل الشامي بين سنتي: 492- 690 هجرية ، تهادنوا و تعاونوا معهم ، و كانوا في خدمتهم ، من ذلك أنهم كانوا يحملون إلى جزيرة قبرص خيول المسلمين و سلاحهم ، و غلمان السلاطين من الجند و الصبيان[1] .

و بذلك يتبين مما ذكرناه أن التعصب المذهبي أعمى الشيعة ، حتى جعلهم يُوالون الكفار ،و يتعاونون معهم للتآمر على السنيين ، و الانتقام منهم ، و لاحتلال بلادهم و إسقاط دولتهم ، حقدا و بُغضا لهم ، و تعصبا عليهم .

و ختاما لهذا الفصل–أي الثالث– يتبين مما ذكرناه أن التعصب المذهبي كانت مظاهره في الحياة السياسية جلية متنوعة ، بسبب تمذهب الدول الإسلامية –خلال العصر الإسلامي– و تعصبها لمذاهبها ، و كثرة رجالاتها المتعصبين الذين نشروا التعصب المذهبي بين مختلف الفئات الاجتماعية ؛ فكان عملهم هذا هو الأرضية التي هيأت النفوذ للطوائف المذهبية من استغلال ذلك لخدمة مصالحها المذهبية ، فأصبحت كل طائفة تتمكن سياسيا إلا و تسعى جاهدة لنشر مذهبها و التضييق على الطوائف الأخرى بمختلف الوسائل الممكنة .

---

[1] ابن تيمة : المصدر السابق ، ج 28 ص: 636 .

الباب الثانى

آثار التعصب المذهبي و أسبابه و علاجه

أولا : آثاره

ثانيا : أسبابه

ثالثا : علاجه

آثار التعصب المذهبي و أسبابه و علاجه

ذكرنا في الفصول الثلاثة السابقة ، كثيرا من مظاهر التعصب المذهبي على مستوى الحياة الاجتماعية و العلمية و السياسية ، التي هي من جهة أخرى تُعد من آثاره أيضا ، و تحمل في ذاتها أسبابها و دوافعها و خلفياتها ، التي إن نحن اكتشفناها و شخصّناها سَهُل علينا علاجها ، إن توفّرت فينا طائفة من الشروط ، سنذكرها لاحقا عن شاء الله تعالى .

أولا : آثاره :

كان لانتشار التعصب المذهبي بين المسلمين -خلال العصر الإسلامي- آثار وخيمة كثيرة جدا ، مست مختلف جوانب الحياة ، أوردنا بعضها عند تعرضنا لمظاهر التعصب المذهبي ، و نحن في مبحثنا هذا سنبرز طائفة منها في نقاط مركزة هادفة.

فبخُصوص الجانب الاجتماعي ، فمن آثاره أولا : تفكك البناء الداخلي للمجتمع الإسلامي ، و دخول طوائفه في نزاعات و صراعات مذهبية عنيفة ، تخللها السب و الطعن ، و التشهير و الازدراء ، و التناحر و التنافر ، و التباغض و التدابر ، و التكفير و التضليل ، و التبديع و التفسيق .

و ثانيا : حدوث فتن دامية كثيرة ، بين مختلف الطوائف الإسلامية ، قُتل فيها خلق كثير ، و عمّ خلالها خراب كبير ، كما حدث في مدينتي الري و أصفهان[1] .

و ثالثا إن من آثارها أيضا : كثرة الغلو و التعصب المذهبيين ، و انتشارهما في مختلف الأمصار الإسلامية بالمشرق و المغرب ، بين الطوائف السنية فيما بينها من جهة ، و بينها و بين الشيعة من جهة أخري ، فكان التعصب المذهبي بين السنيين على أشده خلال العصر الإسلامي . و قد

---

[1] ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ج 1 ص: 220 .

اختلف الباحثون في أي الطوائف السنية أكثر تعصبا ؟ ، فذهب الفقيه حسن صديق خان إلى القول بأن الحنفية هم أشد الناس تعصبا للمذهب[1] . و قال مصطفى الشكعة ((و لقد كان الحنابلة على رأس المعتدين دائما ، و اشتهروا بالعنف في معاملة خُصومهم من أبناء المذهب الشافعي ، فقد ثاروا عليهم ،و ألحقوا بهم الاعتداء)) ،و اتخذوا مسجدا لهم ببغداد مركزا للانقضاض على خُصومهم[2] . و قوله هذا ليس صحيحا على إطلاقه ، فهو يخص فترة زمنية محدودة و مكان معين ، لأنه سبق أن ذكرنا حوادث تاريخية كثيرة كان الحنابلة هم ضحية تعصب الشافعية الأشاعرة عليهم ، في عهد نظام الملك و الأيوبيين و المماليك . و أما الحادثة التي بنى عليها حكمه ، فهي جرت زمن حكم الخليفة العباسي الراضي بالله (322-329هـ) ، و فيها ازداد نشاط الحنابلة في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و الاعتراض على مخالفيهم في بعض المسائل الفقهية ، فأصدر الخليفة الراضي منشوره المشهور في زجر الحنابلة و تهديدهم بالقتل و التشريد ، إن هم لم يُوقفوا أعمالهم[3] .

فهو قد بنى حكمه على الحنابلة انطلاقا من هذه الحادثة ، و نسي أو تناسى ما حدث من فتن و تعصّبات في القرن الخامس الهجري و ما بعده إلى زمن الدولة العثمانية ، حيث ضعُف جانب أهل الحديث ضعفا شديدا ، فكانوا ضحية تعصب الأشاعرة و الماتريدية عليهم ، المدعومين من السلطان ، بالمشرق الإسلامي و مغربه ، لمدة قرون عديدة . و كلامي هذا لا أقوله تعصبا لأهل الحديث و ، إنما أقوله تعصبا للحق ، و يكفينا -شهادة على ذلك- ما قاله المقريزي (ت قرن:9هـ)، فقد اعترف صراحة أن الأشاعرة كانوا

---

[1] صديق خان : أبجد العلوم ، ج 2 ص: 405 .

[2] مصطفى الشكعة : إسلام بلا مذاهب، ص: 291 .

[3] انظر: ابن الأثير : الكامل، ج8 ص: 308-309 .

يقتلون من يجرؤ على إظهار مخالفة الأشعرية . و قد ذكرنا سابقا ما قاله الموفق بن قدامة من أن الحنابلة في زمانه –أيام الأيوبيين– كانوا مقهورين مستضعفين .

و ترى المؤرخة أمينة البيطار إن الحنابلة على كثرتهم ، لم يقووا على مقاومة أوضاع البلاد ، بسبب تعصبهم على معارضيهم حتى من أهل السنة ، و استخدامهم القوة ضدهم ، فزاد العداء ضدهم ، كمهاجمتهم للشيعة بمسجد براثا ببغداد ، و تعرّضهم للمفسر أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ،و اعتدائهم على فقهاء المدرسة النظامية ببغداد[1] .

و قولها هذا غير صحيح ، ليس فيه من الصواب إلا القليل ، لأنه أولا إن الحنابلة ما كانوا كثيري العدد بالمشرق الإسلامي ، بالمقارنة إلى الشافعية و الحنفية ، فهم –أي الحنابلة– يأتون في المرتبة الثالثة بعد هؤلاء من حيث العدد و الانتشار[2] . و ثانيا إن التعصب المذهبي و استخدام القوة ، لم يكن خاصا بالحنابلة و أهل الحديث ، فقد مارست ذلك كل الطوائف عندما وجدت من نفسها قوة و دعما من السياسيين ؛ و نحن إذا ما قارنا تعصبهم –أي الحنابلة و أهل الحديث– بتعصب غيرهم ، من حيث الشدة و اتساع الرقعة ،و امتداد الزمن ، وجدناه أقل بكثير مما صدر عن خصومهم من تعصبات ، و الشواهد التاريخة على ذلك كثيرة جدا ، منها ما فعله الشيعة الإسماعيليون العبيديون –الفاطميون– بأهل السنة بالمغرب الإسلامي و مصر ، فاضطهدوهم ،و أذلوهم ،و قتلوا منهم آلاف الشهداء ، لأنهم رفضوا أن يطعنوا في الصحابة و يسبوهم[3] ، و قد ذكرنا من ذلك شواهد كثيرة :

---

[1] أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، دمشق ، مؤسسة الوحدة ، 1981 ، ص: 271 .

[2] تبيّن لي ذلك من خلال الشواهد التاريخية الكثيرة ، في دراستي للحنابلة لنيل شهادتي الماجستير و الدكتوراه .

[3] انظر مثلا : الذهبي: السيّر ، ج 15 ص: 151 و ما بعدها .

الفصل الرابع

تعصب أهل الشيعة

منها ما فعله شيعة بغداد بأهل السنة زمن دولة بني بويه الشيعة الزيديين ، فقد اظهروا شعاراتهم و ذكرياتهم و مآتمهم ، و تعدوا على أهل السنة ، و تعصبوا عليهم ،و سبوا الصحابة علانية ، حتى بلغ بهم الأمر إلى سب رسول الله- عليه الصلاة و السلام- و أزواجه -رضي الله عنهن- . و فعلوا بأهل السنة الأفاعيل عندما دخل القائد التركي البساسيري -الموالي للفاطميين- مدينة بغداد سنة 450 هجرية ، فاستباحها و أطلق يد الشيعة فيها ، و قد ذكرنا تفاصيل أفعالهم في الفصول الثلاثة السابقة .

و منها ما فعله الأشاعرة بالحنابلة و أهل الحديث زمن قوتهم و نفوذهم أيام الوزير نظام الملك ،و في عهد دولتي الأيوبيين و المماليك . و الغريب إنها قالت إن الحنابلة اعتدوا على فقهاء المدرسة النظامية ببغداد ، و نسيت أو تناست إن كثيرا من طلابها و مدرسيها و وعاظها هم المعتدون ، فاتخذوها منبرا لنشر مذهبهم و مهاجمة أهل الحديث بدعم من الوزير نظام الملك ،و قد ذكرنا على ذلك شواهد تاريخية كثيرة .

و خلاصة القول إن التعصب المذهبي كان قائما بين كل الطوائف الإسلامية ، و لم تختص به طائفة دون أخرى ، فكانت كل طائفة تجد في نفسها قوة ،و دعما من السياسيين تتطاول على مخالفيها ، لكن من الخطأ إلصاق تهمة التعصب بالحنابلة و أهل الحديث ، و السكوت عن الشيعة الإسماعيلية و الاثنى عشرية و ما ارتكبوه في حق السنيين من مجازر و منكرات ، فهم أكثر الطوائف تعصبا و تطرفا فكرا و سلوكا .

و كذلك الأشاعرة فقد كان تعصبهم أقوى و أوسع و أكثر ، من الحنابلة و أهل الحديث ، بسبب الانتصار السياسي الساحق الذي حققوه بالمشرق الإسلامي و مغربه ، فاستخدموا القوة السياسية و العسكرية ، في

مواجهتهم لأهل الحديث ، كالذي حدث للمرابطين على يد الموحدين ، و كالذي جرى للحافظ عبد الغني ،و الشيخ تقي الدين ابن تيمية و أصحابه في القرن الثامن الهجري، فطاردوهم ،و ضيقوا عليهم ،و ضللوهم ،و سجنوا بعضهم .

و رابعا : ضعف رباط الأخوة الإسلامية القائم على الدين ،و حلول التعصب المذهبي محله ، كرباط يجمع أبناء الطائفة الواحدة ، و يُباعد بينهم و بين أبناء الطوائف الأخرى ، فأدى ذلك إلى تكريس التعصب و الشقاق ، و التنافر و التناحر ، و اختصاص كل طائفة بمساجدها ، و مدارسها ، و طلابها ، و أساتذتها ، و أحيائها السكنية .

و خامسا : انقسام السنيين على أنفسهم-فيما يخص أصول الدين- إلى طائفتين متنازعتين ، الأولى : الطائفة السلفية ، و تمثل الحنابلة و أهل الحديث ، و الثانية : الطائفة الخلفية ، و تمثل الأشاعرة و الماتريدية ، ثم تجاذبت الطائفتان الانتماء إلى المذهب السني ، و ادعت كل طائفة أنها هي الممثل الحقيقي و الشرعي له ، و أن الطرف الآخر انحرف عنه و لا يمثله تمثيلا صحيحا[1] .

و أما بالنسبة للجانب العلمي فهو أيضا ترك فيه التعصب المذهبي آثارا سلبية كثيرة و عميقة ، منها إنه صبغ الحياة العلمية بطابع التعصب المذهبي في أصول الدين و فروعه ، و أدى إلى اشتداد النزاع و التنافر بين مختلف طوائف أهل العلم ، فكثُر فيهم الغلاة و المتعصبون من مختلف الطوائف المذهبية دون استثناء .

و ثانيا إنه أدى إلى كثرة الكذب في الأحاديث النبوية ، و الروايات التاريخية ، انتصارا للمذاهب و ردا على خُصومها ، فراجت الأحاديث الضعيفة و الموضوعة بين الناس ، و راجت بينهم الأخبار المكذوبة ، التي

---

[1] للتوسع في ذلك أنظر كتابنا : الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث .

شوّهت جانبا كبيرا من تاريخنا الإسلامي ، و أفسدت نظرة كثير من الناس إليه ، و قامت عليها دول منحرفة ، و مذاهب باطلة ما انزل الله بها من سلطان .

و ثالثا إنه -أي التعصب -أوصل الطوائف المذهبية إلى اختصاص كل منها بمصادر مذهبية مغايرة لمصادر الطوائف الأخرى ، فكل طائفة تستقي أصولها و فروعها من مصادرها ، فللمعتزلة مصنفاتهم ، و للشيعة كتبهم ، و للإباضية مؤلفاتهم ، و للطوائف السنة مصنفاتها ، الأمر الذي أدى إلى ظهور مذاهب فكرية ، و مدارس مذهبية ، متميزة بعقائدها و فروعها ، و بأساتذتها و طلابها ، و بمناهجها و تراثها .

و رابعا إنه أوصل الغلاة المتعصبين إلى الانحراف في فهم القرآن الكريم ، بإتباع الظن و الهوى في فهمه ، و الاحتكام إلى الأفكار المذهبية المسبقة في تفسيره ، كما هو حال الشيعة و المعتزلة و غيرهم من الفرق المنحرفة عن الشرع الحكيم ، و مثال ذلك ما رُوي أن شيعيا جاء إلى الفقيه أبي بكر غلام الخلال البغدادي الحنبلي(ت363ه) ، فسأله عن قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ -سورة الزمر : 33 -فقال له : هو أبو بكر الصديق ، فقال الشيعي : بل هو علي بن أبي طالب ، فهَمّ به أصحابه ، فقال لهم : دعوه ، ثم قال له : اقرأ ما بعد الآية :﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ، لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ -سورة الزمر :34-35 -، و هذا يقتضي أن يكون هذا المصدق ممن له إساءة سبقت ، و على قولك أيها السائل لم يكن لعلي إساءة [1] . بمعنى أن الآية لا تنطبق عليه ، و إنما على غيره ، و هو أبو بكر الصديق .

---

[1] أبن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 125 .

و خامسا إنه-أي التعصب- أدخل غالبية أهل العلم -خلال عصر التقليد و التعصب المذهبيين- في قوقعة الفقه المذهبي و كبّلهم به ، و صرفهم عن الإطلاع على ما عند الطوائف الأخرى من علم صحيح ، و حرمهم من الانتفاع به .

و سادسا إنه أبعد معظم أهل العلم – خلال عهد التقليد و العصب- عن التعامل المباشر مع القرآن الكريم و السنة النبوية ، و عن فقه السلف الأول ، ففوّت عليهم الانتفاع الصحيح و الكامل من علوم الكتاب و السنة ، و فقه الصحابة و تابعيهم ،و أغرقهم في الفقه المذهبي المتعصب الضيق الأفق ، و أصبحت الشريعة عندهم هي أقوال الفقهاء ، و أقوالهم-أي الفقهاء- هي الشريعة[1] . و آراء أئمتهم أسبق من كلام الله و رسوله-عليه الصلاة و السلام- .

و سابعا إنه-أي التعصب المذهبي- أخذ من أهل العلم -على اختلاف طوائفهم- أوقاتا عزيزة كثيرة ، و جهودا مضنية عظيمة ، أمضوها في خدمة الفقه المذهبي المتعصب ، انتصارا له و ردا على مخالفيه ، فأغرقهم في جزئياته ، و فوّت عليهم الاهتمام بإقامة كليات الدين و مقاصده السامية الكبرى ، كالأخوة ، و العدل ، و اجتماع الكلمة ، و التعاون على البر و التقوى ، و نشر الإسلام بين غير المسلمين .

و ثامنا إنه أفسد العقل الطبيعي الفطري الذي مدحه القرآن الكريم ، و أثنى على أصحابه في آيات كثيرة جدا ، و هم أولوا الألباب و النُهى ، و أصحاب الفطر السليمة ، فأفسد ذلك التعصب المذهبي هذا العقل الفطري و مسخه ، و أبعده عن نور الهداية الربانية ، و قذف به في أحضان الأهواء و الظنون و الشهوات ، حتى انتهي به الأمر إلى إنكار ثوابت شرعية معروفة من دين الإسلام بالضرورة ، فأنكر ذلك العقل صفات الله تعالى ، و قال بقدم

---

[1] السيد سابق : فقه السنة ، ج 1 ص: 10 .

الكون ، و نفى السببية و طبائع الأشياء و خصائصها ، و سبّ الصحابة و كفّرهم ، و قال بتحريف القرآن الكريم ، هذه المزاعم-وغيرها- كلها باطلة ، لا دليل عليها من النقل الصحيح ، و لا من العقل الصريح ، و لا من العلم الصحيح ، و إنما هي مزاعم باطلة أوصل إليها العصب المذهبي الذي أفسد عقول قائليها .

و تاسعا إنه-أي التعصب – أورث في المتمذهبين المتعصبين الجرأة على تخطئة أئمة المخالفين لهم من جهة ، و أورث فيهم الضعف و السلبية تجاه أئمتهم من جهة أخرى ، فهم في الغالب الأعم لا ينتقدون أئمتهم ، ولا يردون عليهم ، و يُبالغون في تعظيمهم و تقديسهم و الاعتذار لهم ، و البحث لهم عن المخارج حتى و إن كانت آراؤهم ضعيفة مرجوحة ، مع الإغراق في الجدل و الخلاف ، و إهمال التحقيق العلمي النزيه القائم على الكتاب و السنة و الفقه المتحرر من القيود المذهبية .

و أخيرا -أي عاشرا- إنه أورث في المسلمين نزاعا و تعصبا مذهبيين ما يزالان قائمين إلى يومنا هذا ، و لم يجدا حلا صحيحا ناجعا ، و ذلك واضح جدا في أدبيات الجماعات و الطوائف الإسلامية المعاصرة ، و في مقرراتها و مؤسساتها التعليمية . كما انه واضح أيضا في الشبكة المعلوماتية-الأنترنت- ، فهي مليئة بالمواقع ذات الطابع المذهبي المتعصب الصريح و الخفي ، بعضها تابع للطوائف السنية ، و بعضها تابع للطوائف الشيعية ، و بعضها الآخر تابع للخوارج الإباضية ؛ و كلها في نزاع و صراع ، و سباب و شتم ، و تشنيع و تبديع ، و تهويل و تنافس ، انتصارا للمذهب و تعصبا على مخالفيه ، و كسبا للمواقع و النفوذ .

و أما الجانب السياسي فهو أيضا تأثر كثيرا بالتعصب المذهبي الذي ترك فيه آثارا كثيرة و عميقة ، منها أولا : إن معظم الدول الإسلامية المتمذهبة -خلال عصر التقليد و التمذهب- لم تكن عادلة في تعاملها مع

الطوائف المخالفة لها ، فكانت الواحدة منها إذا تمذهبت بمذهب طائفة ما ، تعصبت لها و مكّنت لها في دولتها ، و ضيّقت على الطوائف الأخرى ، و قد تضطهدها ، فأثر هذا سلبا –بلا شك– في البناء الداخلي لتلك الدول .

و ثانيا إن تمذهب تلك الدول و مشاركتها في نشر التعصب المذهبي و تعميقه ، أخذ منها أوقاتا و جهودا كثيرة في خدمة التعصب المذهبي كان من الأولى صرفها في مجالات أخرى بناءة نافعة . كما أن ذلك السلوك أضعف من ولاء الطوائف الأخرى لتلك الدول المتمذهبة المتعصبة .

و ثالثا إن تعصب تلك الدول جعلها تفشل في تعاملها مع مسألة التعصب المذهبي بين الطوائف الإسلامية ، فلا هي وحّدت بينها ، و لا هي قضت على التعصب المذهبي فيما بينها ، و لا هي تحكّمت فيه ، فكان الذي قامت به هو تكريس للتعصب المذهبي ، و تعميق له ، و تشجيع عليه ، و مشاركة فيه .

و قد يقول بعض الناس : نعم كانت للتعصب المذهبي أثار كثيرة مدمرة للفرد و المجتمع ، ألم تكن له إيجابيات على المجتمع الإسلامي ؟ .

و أقول : نعم كانت للتعصب المذهبي إيجابيات ، لكنها قليلة جدا بالمقارنة إلى سلبياته الكثيرة ،و إلى آثاره الخطيرة المدمرة للبلاد و العباد . فمن إيجابياته إنه دفع أتباعه إلى الجد و الاجتهاد لخدمة مذاهبهم ، فأنشئوا المؤسسات العلمية الكثيرة ، و أنتجوا ثروة علمية كبيرة في أصول الدين و فروعه ، حتى أصبح لكل طائفة ثروة هائلة من المصنفات ، و كتب الطبقات و التراجم شاهدة على ذلك . غير أنه يُعاب على تلك المدارس أنها كانت –في معظمها– ذات صبغة طائفية مذهبية متعصبة . و يُعاب على تلك الثروة

العلمية غلبة التعصب المذهبي عليها ، مع كثرة الشروح و المختصرات و قلة الإبداع و التجديد فيها[1] .

و من إيجابياته أيضا إن انتشاره و هيمنته على الحياة العلمية أدى إلى ظهور حركة اجتهادية مقاومة له ، و هي و إن كانت ضعيفة و رجالها قلة ، فإنها قد تصدت له بحزم و شجاعة ، و ضربت أمثلة رائعة في الاجتهاد المتحرر من قيود التعصب المذهبي و أغلاله ، و ترك لنا بعض رجالها مصنفات قيمة في ممارسة الاجتهاد و ذم التقليد و التعصب المذهبيين ، منهم : أبو محمد القاسم البياني الأندلسي (ت 276ه) ، و ابن حزم الأندلسي (ت456ه) ، و أبو الوفاء بن عقيل البغدادي(ت 513ه) ،وأبو شامة المقدسي (ت 654ه) ،و تقي الدين بن تيمية (ت 728ه) ، و ابن قيم الجوزية(ت751ه) ، و صالح بن مهدي المقبلي اليماني(ت 1108ه) ، و محمد بن علي الشوكاني(ت 1250ه)[2] .

و زيادة على ما ذكرناه أُشير هنا إلى ثلاثة ملاحظات هامة ، أولها إن التعصب المذهبي ضيّع على المسلمين –خلال العصر الإسلامي– كثيرا من المقاصد الشرعية التي هي من أساسيات المجتمع المسلم ، كالتآخي و الاعتصام بالجماعة ، و التعاون على البر و التقوى .

و ثانيها إن التعصب المذهبي –الذي ذكرناه– قام به و حمله ثلاثي عجيب ، هو : العوام المقلدون الجاهلون ، و العلماء المذهبيون المتعصبون ، و الخلفاء و الملوك و الأمراء المتعصبون ، هؤلاء هم الذين دعوا إلى التعصب المذهبي ، و نشروه و رعوه ، فأحرقوا به أنفسهم و مجتمعهم .

---

[1] عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي ، ص: 146، 147 .

[2] انظر مثلا : الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج 2 ص: 648 . و ابن رجب : الذيل ، ج 1 ص: 190 . و الشوكاني : البدر الطالع ، ج 1 ص: 289 ، 290 ، ج 2 ص: 84 ، 90

و ثالثها إنه توجد علاقة وطيدة بين التقليد و التمذهب و التعصب ، فكثيرا ما كان التقليد المذهبي هو الموصل إلى التعصب و النزاعات و المواجهات العنيفة بين مختلف الطوائف المذهبية ، و قد ذكرنا من ذلك شواهد تاريخية كثيرة . لأن التقليد في الأصول و الفروع كثيرا أوصل أصحابه إلى التمذهب الذي هو بدوره دفعهم إلى التعصب لمذاهبهم و الانتصار لها بحق و بغير حق . لكنه لا توجد علاقة حتمية بين التقليد و التمذهب و التعصب ، فقد يكون الإنسان مُقلدا بلا تمذهب و لا تعصب ، و قد يكون متعصبا بلا تقليد و لا تمذهب ، و قد يكون متمذهبا بلا تعصب و لا تقليد .

و يتبين مما ذكرناه في مبحثنا هذا ، أن التعصبَ المذهبي -خلال العصر الإسلامي- أثر كثيرا في المجتمع الإسلامي ، و صبغه بصبغته المذهبية المتعصبة ، اجتماعيا و علميا و سياسيا ، فكانت سلبياته كثيرة مضرة ، و إيجابياته قليلة جدا نافعة .

ثانيا : أسبابه :

يمكن تقسيم أسباب التعصب المذهبي -الذي ساد في العصر الإسلامي-إلى أسباب أساسية ، و أخرى ثانوية ، فالأساسية نركّزها في ثلاثة أسباب رئيسية ، أولها عدم الالتزام الصحيح و الكامل بدين الإسلام على مستوى المشاعر و الأفكار و السلوكيات ، لأن ديننا الحنيف يقوم على العدل و المساواة ، و التوازن و الاعتدال ، و لا يقوم على التطرف و الغلو و التعصب للباطل ، فالطوائف التي وقعت في التعصب المذهبي المذموم انحرفت عن الشرع الحكيم ،و لم تلتزم به .

و ثانيها هو طبيعة العقائد و المقالات المكونة للمذاهب الفكرية الطائفية ، فبعضها لها أصول صحيحة معتدلة ، لا تبعث على التعصب الأعمى ، و هذا ينطبق على المذهب السني فقط ، و بعضها الآخر معظم أصولها باطلة متطرفة ، تبعث على الغلو و التطرف و التعصب الأعمى ، كمذاهب المعتزلة

و الشيعة و الخوارج ؛ و قد ضربنا على ذلك أمثلة كثيرة جدا في الفصول السابقة من كتابنا هذا .

و السبب الرئيسي الثالث يتمثل في ردود أفعال الأتباع المتمذهبين في تفاعلهم مع مذاهبهم –المعتدلة منها و المتطرفة– ، فمن الطبيعي أنها تولّد فيهم الرغبة للانتصار لها و الدفاع عنها . لكن ردود الأفعال هذه تختلف حسب دوافعها العقيدية ، و طبيعة نفوسهم ، و قدراتهم و ظروفهم الاجتماعية المحيطة بهم ، فمن كانت ردود أفعالهم سليمة خيّرة قائمة على مبادئ صحيحة ، فهي أفعال شرعية تهدف –في الغالب الأعم– إلى الانتصار للحق . و من كانت ردود أفعالهم شريرة قائمة على مبادئ منحرفة باطلة ، فهي أفعال غير شرعية تهدف –في الغالب الأعم– إلى الانتصار للباطل و التعصب المذموم ، الذي تناولناه بالتفصيل في الفصول السابقة .

و أما الأسباب الثانوية ، فهي بمثابة عوامل مساعدة تولّدت عن الأسباب الرئيسية ، و بعضها الآخر أفرزته تفاعلات الظواهر الاجتماعية فيما بينها ؛ فساهمت كلها في انتشار التعصب المذهبي و اشتداد قوته ،و اتساع دائرته ، أذكر منها تسعة أسباب ، أولها الدور السلبي الذي قام به العلماء المتعصبون ، فهم الذين دعوا إلى التعصب المذهبي و نشروه ،و شجّعوا عليه و شاركوا فيه ، فكانت أفعالهم هذه مشاركة سلبية أججت التعصب و لم تحد منه .

و ثانيها الموقف السلبي لكثير من الخلفاء و الملوك و أعوانهم في التعامل مع ظاهرة التعصب المذهبي ، فلم يسعوا إلى التخلّص منها ،و لم يُحسنوا التعامل معها ، فاتخذوا لأنفسهم مذاهب و تعصّبوا لها ،و نصروها – على حساب المذاهب الأخرى– بالأقوال و الأفعال ، فكانت أفعالهم هذه مشاركة سلبية كرّست التعصب المذهبي و أججته .

و ثالثها –أي الأسباب الثانوية– الأعمال السلبية التي قام بها الوعاظ المتعصبون ، إنهم استغلوا وظيفتهم لنشر التعصب المذهبي و التشجيع على الفتن و المصادمات بين مختلف الطوائف الإسلامية ، و الشواهد على ذلك كثيرة جدا ، أذكر منها ثمانية ، أولها يتعلق بالواعظ أحمد بن محمد سبط بن فورك (ق: 5ه) وعظ بالمدرسة النظامية ،و كان أشعريا داعية لمذهبه ، تسبب في حدوث فتن بين الحنابلة و الأشاعرة[1] .

و الشاهد الثاني يتعلق بالمتكلم عيسى بن عبد الله الغزنوي الشافعي ، دخل بغداد سنة 495 هجرية و وعظ بها و أظهر الأشعرية ، فمن ذلك أنه وعظ ذات يوم بجامع المنصور و أظهر مذهب الأشعري، فمال إليه بعض الحاضرين ،و اعترض عليه الحنابلة ، فنشب عراك بين الجماعتين داخل المسجد[2] . و لا ندري ما حدث بعد ذلك بين الفريقين ، لأن ابن الجوزي روى الخبر موجزا . و من ذلك أيضا إن هذا الرجل–أي الغزنوي– مرّ ذات يوم برباط شيخ الشيوخ أبي سعد الصوفي ببغداد ليذهب إلى بيته ، فرجمه بعض الحنابلة من مسجد لهم هناك ، فهب أصحابه لنجدته و التفوا حوله[3] .

و الشاهد الثالث يتعلق بالفقيه أبي الحسن برهان الدين علي بن الحسن البلخي الحنفي (ت 548ه) ، شيخ الحنفية ببلده ، قدم دمشق سنة 510 هجرية ، و عقد بها مجلس وعظ و تذكير ، و أظهر فيه خلافه للحنابلة و تكلم فيهم ، فتصدوا له و تعصبوا عليه ، فترك دمشق و توجه إلى مكة المكرمة[4] .

---

[1] ابن حجر: لسان الميزان ، ج 1 ص: 304 .

[2] ابن الجوزي: المنتظم ، ج 9 ص: 131 .

[3] نفسه ، ج 9 ص: 131 .

[4] ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج 41 ص: 339 .و اليافعي المكي: مرآة الجنان ، بيروت، منشورات الأعلمي، 1970 ، ج 3 ص: 388 .

و الشاهد الرابع يتعلق بالمدرس أبي علي محمد النصرواني الأصبهاني الأشعري المعروف بابن الفتى (ت 525ه) ، درّس بنظامية بغداد ، و وعظ بجامع القصر ، فكان يُظهر مذهب الأشعري و ينتصر له ، و يميل على الحنابلة و أهل الحديث ، و يطعن فيهم[1] .

و الخامس يتعلق بالفقيه محمد بن أحمد العثماني المقدسي الشافعي (ت 521ه) ، دخل مدينة بغداد و استقر بها ، و كانت له فيها مجالس وعظ بجامع القصر ، أظهر فيها مذهب الأشعري ، و كان مغاليا فيه[2] .

و الشاهد السادس يتعلق بالواعظ الحسن بن أبي بكر النيسابوري الحنفي ، دخل بغداد مع السلطان السلجوقي مسعود (ما بين سنتي: 515-530ه) ، فجلس للوعظ بجامع القصر و لعن أبا الحسن الأشعري علانية ، و كان يقول : كن شافعيا و لا تكن أشعريا ، و كن حنفيا و لا تكن معتزليا ، و كن حنبليا و لا تكن مشبها[3] .

و هذا الواعظ لم أتعرّف على مذهبه في أصول الدين ، لكن يبدو من قوله السابق إنه كرّامي المذهب ، أو على مذهب أهل الحديث ، و الراجح أنه على عقيدة أهل الحديث لأنه حذّر من الأشعرية ، و الاعتزال ، و من التشبيه ، و الكرّامية معروف عنهم أنهم مجسمة و مشبهة ، لذا فالأرجح أنه لم يكن كرّاميا إن كان صادقا في قوله ، و الله أعلم .

و الشاهد السابع يتعلق بالواعظ المتكلم أبي الفتوح حمد بن الفضل الاسفراييني الأشعري (ت 538ه) ، دخل بغداد سنة 515 هجرية ،و تفرّغ للوعظ و اتخذه وسيلة لإظهار مذهب الأشعري و الدعوة إليه ،و مهاجمة خصومه ، و قد مارس ذلك علانية و بالغ في التعصب للأشعرية و الحط على

---

[1] الذهبي: السير ، ج 19 ص: 612 . و ابن الجوزي: المنتظم ، ج 10 ص: 22 .

[2] الذهبي : نفس المصدر، ج 20 ص: 45 .

[3] نفس المصدر ، ج 20ص: 140 .و ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج 10 ص: 110.

الحنابلة ، فكثُرت بينه و بينهم اللعنات و الفتن ، و في سنة 521 هجرية رجمه العوام أكثر من مرة في الأسواق ، و رموا عليه الميتات ،و لعنوه و سبوه ، لمبالغته في إظهار الأشعرية و الدعوة إليها ، فلما سمع بذلك الخليفة العباسي المسترشد بالله ، منعه من الوعظ ، و أمر بإخراجه من بغداد ، و في هذا الظرف ظهر الشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي الحنبلي (ت 561ه) و جلس للوعظ ، فالتف حوله الناس و انتصر به أهل السنة على حد قول ابن رجب البغدادي[1] ، و يعني بهم الحنابلة و أهل الحديث .

لكن لما تُوفي الخليفة رجع أبو الفتوح إلى بغداد و استوطنها ، و عاد إلى عادته القديمة ، فأظهر الأشعرية و ذم الحنبلية ، و عادت الفتن و اللعنات كما كانت عليه من قبل ، فأُخرج ثانية من بغداد ،و أُلزم بالمكوث ببلده[2] إسفرايين بخُراسان .

و الشاهد الأخير- أي الثامن- يتعلق بالواعظ الشهاب محمد بن محمود الطوسي الأشعري (ت 596ه) ، أقام بمصر و أظهر الأشعرية و نصرها ، و كان صاحب حرقة على الحنابلة ، فتصدّوا له مرارا ، و كانت بينه و بين الواعظ الحنبلي ابن نجية خُصومة شديدة ،و كل منهما يستكلم في الآخر ، و لكل منهما أيضا مجلس وعظ بجامع القرافة بمصر ؛ و من طريف ما حدث بينهما حادثتان ، الأولى إنه في ذات يوم كان الواعظان بجامع القرافة كل في حلقته ، فوقع سقف على ابن نجية و أصحابه ، فعلّق الطوسي على

---

[1] ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ،حققه سامي الدهان و لاوست ، دمشق المعهد الفرنسي ، 1951 ج1 ص: 211.و ابن الجوزي: المنتظم ، ج 10 ص: 108، 110 .و للذهبي : السيّر، ج 20 ص: 140 .و العبر ، ج 4 ص:105.و السبكي: طبقات ، ج6 ص: 172 .

[2] ابن الجوزي: نفسه ، ج10 ص: 110 .و الذهبي: نفسه، ج 20 ص: 140 .و نفسه ، ج 4 ص:105.و السبكي: نفسه ، ج 6 ص: 172

ذلك بذكر قوله تعالى : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم ﴾ -سورة النحل /26- . و الثانية مفادها إنه ذات يوم كان كل منهما في حلقته ، فجاء كلب يشق مجلس الطوسي ، فقال ابن نجية : هذا جاء من هناك ، و أشار إلى جهة حلقة خصمه الشهاب الطوسي[1] .

و في سنة 580 هجرية وقعت بين الحنابلة و الأشاعرة خصومة ، عندما أنكر الحنابلة على الشهاب الطوسي تكلّمه في مسألة من مسائل العقيدة -لم تُحدد- في مجلس وعظه ، فحدث خصام بينهما و أطلق كل منهما لسانه في الآخر ، ثم ترافعوا إلى السلطان الأيوبي -لم أُميزه- بمصر ، فأمر برفع كراسي الوعظ عند الطرفين[2] .

و السبب الرابع هو تمذهب عوام الناس ، فإنهم لما تمذهبوا تعصبوا لمذاهبهم عن جهل و طيش ، و عصبية عمياء ، بتحريض من علمائهم و أعيانهم و حكامهم المتعصبين مثلهم ، فكان هؤلاء العوام وقودا للفتن المذهبية الدامية التي حدثت بين الطوائف المذهبية ، خلال العصر الإسلامي ، و قد ذكرنا على ذلك شواهد تاريخية كثيرة في الفصل الأول .

و السبب الخامس – من الأسباب الثانوية- هو رواج أحاديث ضعيفة و موضوعة بين المتمذهبين المتعصبين ، فيها إقرار لهم على ما هم فيه من اختلاف و تدابر و تنافر ، كحديث : ((اختلاف أمتي رحمة)) ، فهذا الحديث غير صحيح ، استغله هؤلاء المتعصبون استغلالا فاحشا لدعم ما هم فيه ، و اتخذوه سندا لهم لتكريس الانقسامات المذهبية و التعصبات الطائفية .

---

[1] الذهبي: السير ، ج 21 ص: 395 .

[2] نفسه ، ج 21 ص: 395 .و الصفدي : المصدر السابق ، ج5 ص: 5 ص: 9 .و المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط1 ، بيروت ، دار صادر، 1999 ، ج 1 ق: 1 ص: 88 .

و السبب السادس هو بقاء كثير من المسائل –الأصولية و الفقهية– المُختلف فيها بين المذاهب ، على ما هي عليه ، من دون تحقيق علمي نزيه يرفع عنها الخلاف ، لأن المتعصبين سعوا جاهدين إلى الاحتفاظ بمذاهبهم و الاحتجاج لها ، و الدفاع عنها ، حتى و إن كانت أدلتهم ضعيفة ، فأدى ذلك إلى تكريس العصبية المذهبية و التشجيع عليها ، و الدفاع عنها ، و إبقاء مسائل الخلاف قائمة.

و السبب السابع هو مخالفة الأتباع المتمذهبين المتعصبين لأقوال الأئمة الأربعة، و هم : أبو حنيفة ، و مالك ، و الشافعي ، و أحمد –رضي الله عنهم– ، في النهي عن تقليدهم و التعصب لأرائهم من غير دليل[1]. فهؤلاء المتمذهبون المتعصبون متناقضون مع أنفسهم في موقفهم من أئمتهم ، فقلدوهم و تعصّبوا لهم بحق و بغير حق ، رغم أن أئمتهم قد نهوهم عن تقليدهم و التعصب لهم ، و هم سيتبرؤون منهم يوم يقوم الناس لرب العالمين .

و السبب الثامن هو تميز كل طائفة عن الطوائف الأخرى ، بمدارسها ،و شيوخها ، و طلابها ، و تراثها ، و مساجدها ، و أحيائها السكنية ، فهذا الوضع الغريب كرّس الطائفية و العصبية المذهبية و عمقهما ، و جعلهما أمرا واقعا معترف به سلطة و مجتمعا .

و السبب الأخير–أي التاسع– هو الدور السلبي لجهاز القضاء –خلال العصر الإسلامي– في تعامله مع المذاهب الفقهية و التعصب لها ، فعندما كان القضاء أحادي المذهب ، كان يحكم بالمذهب الذي تتبناه الدولة ، و على المذاهب الأخرى الخضوع لمذهب الدولة و الأخذ به أحبت أم كرهت . فولّد فيها ذلك الوضع التعصب لمذهبها حماية له من الانقراض ، و التعصب على مذهب الدولة المفروض عليها . كما أن مذهب الدولة الرسمي مكّن لأتباعه من استخدام نفوذهم في الدولة لنشره و تقويته، و التعصب على مخالفيه ؛ فأوجدت

---

[1] أنظر مثلا : ولي الله الدهلوي : الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، ص: 104 .

هذه الوضعية تعصبا من كل الطوائف . و عندما أصبح القضاء متعددا ، فإن الوضع لم يتغير من حيث التعصب المذهبي ، فإنه كرّس الفرقة و العصبية ، و فتح المجال للقضاة المتعصبين من المذاهب الأربعة لاستغلال نفوذهم في خدمة مذاهبهم و التعصب على مُخالفيهم .

و بذلك يتبين مما ذكرناه أن تلك الأسباب –الأساسية و الثانوية– ممتزجة و متفاعلة ، هي التي كانت وراء ظاهرة التعصب المذهبي التي تناولنا مظاهرها و آثارها فيما تقدم من كتابنا هذا ، فهل من سبيل إلى التخلص منها في وقتنا الحاضر ؟ .

ثالثا : علاج ظاهرة التعصب المذهبي :

لم تجد ظاهرة التعصب المذهبي–خلال العصر الإسلامي– الحل العملي الصحيح لعلاجها ، رغم ما جرّته على الأمة من ويلات و مآس و أخطار ، ما نزال نعاني منها إلى يومنا هذا ، فهل لعلاجها من سبيل ؟ .

سنقترح لعلاجها جملة من الحلول في أربع مجموعات ،نذكرها تباعا إن شاء الله تعالى ، الأولى تتضمن مجموعة الحلول العامة ، و تضم ستة حلول ، أولها إخلاص النية الصادقة لله تعالى في طلب الحق. و ترك الباطل ، و الابتعاد الكلي عن التعصب الأعمى للمذاهب و الأشخاص .

و ثانيها الخضوع التام لأحكام الشرع الحكيم ، و التسليم المطلق له في كل ما يقرره ، انطلاقا من الفهم الصحيح له ، بلا تأويل و لا تحريف ، و لا إعغال و لا مبالغة ، و بلا خلفيات مذهبية مُسبقة متعصبة للباطل ، مع رد متشابهه إلى محكمه ، و تفسير القرآن بالقرآن أولا ، و بالسنة النبوية الصحيحة ثانيا ، و بما كان عليه الصحابة و السلف الصالح رابعا ، و بالحقائق العقلية و الاجتماعية و الطبيعية الصحيحة الثابتة خامسا .

و الحل الثالث هو أن يكون مرجعنا في أفعالنا و أقوالنا ، و أحكامنا و خلافاتنا الشرع الحكيم المتمثل في كتاب الله تعالى و سنة رسوله الصحيحة ، -عليه الصلاة و السلام - لأن الله تعالى لم يتعبدنا بإتباع العلماء و لا الأعيان و لا الحكام ، و إنما تعبّدنا بإتباع كتابه و سنة نبيه-عليه الصلاة و السلام- ، فإذا ما تعارضت أقوال البشر و أفعالهم مع الشرع رُفضت مهما كان قائلها .

و الحل الرابع هو التعامل الإيجابي مع تراثنا الإسلامي ، - على اختلافه و تنوّعه- بأن ننظر إليه نظرة شمولية متوازنة نافعة ، بلا إقصاء و لا إغماط ، و بلا تقزيم و لا مبالغة ، و بلا تعصب أعمَى ، فنستفيد من إيجابياته – و ما أكثرها – فنأخذ بها ، و نعتبر بسلبياته –و ما أكثرها أيضا- فنتعلم منها و نتجنبها ، بلا مخاصمات و لا مزايدات .

و الحل الخامس هو الحرص و السعي الجاد لإيجاد إرادة تغيير لدي السياسيين و العلماء و الجماهير الإسلامية لتقبل مشروع مقاومة التعصب المذهبي ، على مستوى الأفكار و المشاعر و الأفعال ، و يتم ذلك بناء على اتفاق مُسبق بين كل الأطراف المعنية .

و آخرها –أي الحل السادس- هو إبعاد العوام عن التمذهب مطلقا ، - أصولا و فروعا- ، لأن تمذهبهم يضر بهم و بالمجتمع ، و لا يقدّم نفعا للأمة ، و قد ذكرنا على ذلك شواهد تاريخية كثيرة ، كان فيها العوام هم وقود الفتن الدامية التي حدثت بين الطوائف الإسلامية . فمن مصلحة الأمة إبعاد هؤلاء عن التمذهب ، لأن العامي-كما قال بعض العلماء- : لا مذهب له ، لأنه يفتقد القدرة على الاختيار، فكيف يستطيع أن يختار لنفسه مذهبا ؟ ! ، فعلى العوام أن يسألوا أهل العلم بلا تمذهب و لا تعصب ، و هكذا كان حالهم زمن الصحابة و السلف الأول .

و أما المجموعة الثانية -من الحلول- فتتعلق بحلول فقه الطوائف السنية الأربعة ، و تتضمن أربعة حلول ، أولها السعي الجاد لإيجاد فقه عام مُيسر خال من التعصب المذهبي للمذاهب و الأشخاص ، يقوم أساسا على أخذ الأحكام من الكتاب و السنة الصحيحة مباشرة ، مع الاستعانة بفقه الصحابة و السلف الأول ، و كبار علماء الأئمة خلال العصر الإسلامي عند الحاجة إليه ، على أن يكون الحكم في كل ذلك للدليل العلمي وحده .

و ثانيها جمع المسائل الفقهية المختلف فيها بين العلماء و المذاهب ، و تحريرها تحريرا علميا موضوعيا نزيها صحيحا ؛ بلا تعصب للمذاهب و الأشخاص ، للخروج باتفاق يُرضي كل الأطراف ، أو معظمها ، مع الحرص على تضييق فجوة الخلاف ما أمكن ، و عدم إقرار الأحكام المتناقضة مع روح الشريعة و مقاصدها ، كالتي وقع فيها كثير من الشافعية و الحنفية عندما أبطلوا صلاة الشافعي و الحنفي خلف بعضهما بعض .

و الحل الثالث هو العمل لإحياء منهج الأئمة الأربعة في الاجتهاد الفقهي القائم على الدليل ، لا على التقليد و التمذهب و التعصب ، و تبليغ ذلك لأتباعهم المتعصبين لهم ، بأن أئمتهم ما دعوا إلى تقليدهم و لا التعصب لهم ، و إن الإتباع الصحيح لهم هو إحياء منهاجهم الاجتهادي فهما و ممارسة ، و ليس هو تقليدهم في فتاويهم و التعصب لها .

و الحل الأخير -أي الرابع- الحرص على تربية أهل العلم على الاجتهاد الحر و حثهم عليه ، و التأكيد على أن التقليد هو عجز و سلبية ، و أن باب الاجتهاد مفتوح لا يصح غلقه و لا يستطيع أحد غلقه-بعدما فتحه الشرع و حث عليه- ، على أن يطرقه من هو أهلا له ، وفق منهج علمي صحيح ، و بذلك نساعدهم-أي أهل العلم- على التخلّص من عقدة التقليد المذهبي ، الذي هو من الأبواب الموصلة إلى التعصب المذهبي المذموم .

و أما المجموعة الرابعة ، فحلولها تتعلق ببعض مسائل أصول الدين المُختلف فيها ، منها قضية صفات الله تعالى ، فهي قضية أحدثت فتنا كثيرة بين الطوائف الإسلامية ، و أخذت من العلماء أوقاتا و جهودا كثيرة ، و أول حلولها : إثبات كل الصفات المذكورة في القرآن الكريم و السنة النبوية الصحيحة ، بلا تأويل و لا تحريف ، و لا تشبيه و لا تعطيل ، مع فهمهما و النظر إليها انطلاقا من قوله سبحانه تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ – سورة الشورى : 11- ، و ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ سورة الإخلاص : 4 – . فهو سبحانه لا يُشبهه شيء في ذاته و لا في صفاته ، و إثباتنا لصفاته هو إثبات وجود لا إثبات كيفية .

و ثانيها التخلي نهائيا عن التأويل الكلامي الذي يُصرف المعنى الظاهر الراجح للآيات إلى معنى آخر مرجوح ، كتأويل الاستواء بالإستلاء ،و اليد بالنعمة أو القدرة ، و هذه الطريقة في تأويل النص لا تصح نقلا و لا عقلا ، و لا مبرر لها و لا فائدة منها ، فهي تُعطل النصوص و لا تُقدم حلولا صحيحة . فلو كان التأويل الكلامي مطلوبا شرعا لأمرنا الله تعالى به ،و قال لنا إن المقصود من صفة الرحمة ، و اليد، و العين، و الاستواء ، هو كذا و كذا ، و بما إنه لم يقل لنا ذلك و لا أمرنا به، دل ذلك على أن التأويل غير مشروع .

و يجب أن يترسخ في عقولنا و قلوبنا إن إثبات الصفات كما أنه لا يستلزم تأويلا فإنه أيضا لا يقتضي تشبيها و لا تجسيما ، و لا يُؤدي إليهما إلا إذا قلنا إن صفاته تعالى تُشبه صفات مخلوقاته ، و أما إذا أثبتناها و نفينا عنها مشابهتها لصفات المخلوقين ، فهذا ليس تشبيها ، و لا يستدعي تأولا ، و إنما هو إثبات و تنزيه مصداقا لقوله تعالى: ((ليس كمثله شيء و هو السميع البصير)) .

كما أنه -أي التأويل- هو بحد ذاته مشكلة و ليس حلا ، لأنــه غيــر مشروع شرعا ، و يُحرّف نصوص الكتاب و السنة ، و لا يُقدّم حلا في تأويله للصفات ،فنحن إذا ما قلنا مثلا إن إثبات الاستواء و اليد لله تعــالى يُوهمــان التشبيه ،و لابد من تأويلهما ، فأولنا الاستواء بالاستيلاء ، و اليــد بالنعمــة و القدرة ، فإن الإشكال لا يزول ، و يبقى السؤال مطروحا ، و هو : هل ذلــك الاستيلاء كاستيلاء الإنسان ؟ ،و هل النّعمة و القدرة ، كالنعمة و القدرة عنــد الإنسان ؟ فإن قيل : نعم ، فهذا تشبيه صريح ، و إن قيل : لا ، فلا حاجة لنا إذن للتأويل أصلا ، و نقول : إن استواء الله تعالى ليس كاستواء البشر، و إن يده ليست كيد الإنسان ، و إن نزوله ليس كنــزول مخلوقاتــه ،و إن رحمتــه ليست كرحمة البشر ... و هكذا مع كل الصفات الثابتة لله تعــالى ، و بــذلك يكون التأويل لم يُقدم لنا حلا ، بل أدخلنا فــي متاهــة لا مخــرج منهــا ، إلا بالتخلي عنه و إتباع القاعدة الشرعية ، التي تنص على إثبات الصــفات مــع التنزيه و عدم التشبيه .

و لأنه أيضا لا فائدة منه ، لنفيه ما أثبته الله تعــالى لنفســه وتعطلــه النصوص الشرعية و تحريفها ، و زجه بالعقل في مسائل غيبية لا يدركها ،و لا يعلمها إلا الله تعالى . و لأنه أيضا اعتداء على النصوص ،و اتهام للــدين بالنقصان ،و يُؤدي إلى اختراع صفات لله تعالى لم يصف بها نفسه ، و تشبيهه بالجمادات و المعدومات و المنقوصات .

و أما المجموعة الأخيرة -أي الرابعة- فحلولها تتعلق بانقســام أمــة الإسلام- قديما و حديثا- إلى فرق و مذاهب متصارعة ، و متنافرة و مُكفــرة لبعضها بعض ، كالسنة و الخوارج و الشيعة ، و أول حلولها -لعلاج التعصب المذهبي- هو توحيد مصدر التلقي بين تلك الفرق ، لأن لكل منهــا مصــادر دينية -إلى جانب القرآن- تنفرد بها و ترجع إليها ، و تستقي منها أصــولها و فروعها ، و من خلالها تنظر في القرآن و تُفسّره . فالخوارج الإباضية لهــم

مصدر يأخذون منه الأحاديث النبوية ، هو كتاب مُسند الربيع بن حبيب . و للشيعة الاثنى عشرية كتاب في الحديث الكافي في الأصول و الفروع ، لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني . و للأهل السنة مصنفاتهم في الحديث النبوي ، منها كتب الصحاح و السنن و المسانيد . و بما أن لكل طائفة مصادرها و لا تعترف بمصادر الطوائف الأخرى ، فلم يبق أمامها إلا القرآن الكريم الذي يجمعها ، فمن أنكره فقد كفر ، فهو مصدر التلقي الوحيد الذي يجب عليها أن تحتكم إليه ،و عنده تتوقف و تترك مصادرها الأخرى جانبا .

و ثانيها –أي الحلول– عرض مبادئ كل طائفة على القرآن الكريم بطريقة علمية صحيحة ، بلا تأويل و لا تحريف ، فما وافق القرآن قبلناه و ما خالفه رفضناه و تركناه ، و مثال ذلك مبادئ الشيعة الاثنى عشرية ، فمنها اعتقادهم بوجود اثني عشر إماما –بعد النبي– معصوما من الخطأ ، كلامهم شرع مقدس يجب العمل به ، و من كفر بهم أو بواحد منهم فهو كافر . و منها زعمهم بتحريف القرآن و تكفيرهم للصحابة[1] . و مبادئهم هذه يرفضها القرآن الكريم جملة و تفصيلا ، و ينكرها بشدة ، لأنها تتناقض معه تناقضا تاما ، و هذا واضح وضوح الشمس ، لا ينكره إلا متعصب مُعاند ركب رأسه و اتبع هواه و شيطانه ؛ لأن القرآن الكريم لا وجود فيه لحكاية الأئمة المعصومين أصلا، و لم يُذكر فيه و لا واحد منهم .

كما أنه –أي القرآن– قد حسم مسألة الإمامة حسما نهائيا واضحا لا لُبس فيه ، و لم يتركها لروايات الكذابين و أحاديثهم ، فقد جعلها شورى بين المسلمين بالاختيار الحر ، و لم يجعلها خاصة بآل البيت و لا بغيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ –سورة الشورى : 38– و هذا يشمل كل أمورهم دون استثناء ، و من باب أولى مسألة الإمامة . و

---

[1] سبق ذلك في الفصلين الأول و الثاني .

قال أيضا: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ - سورة النساء / 59- فأولو الأمر من المسلمين مطلقا دون تحديد .

كما أن الله تعالى علّق النجاة يوم القيامة بطاعته و طاعة رسوله ، فمن أطاعهما دخل الجنة ، و من عصاهما كانت النار مأواه ، و لم يجعل ذلك مُعلقا بالإيمان بهؤلاء الأئمة المزعومين و طاعتهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ - سورة الفتح : 17 - ، و ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ - سورة النساء/ 13- ، و ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ - سورة النور : 52 - ، و ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾ - سورة الأحزاب : 36 - و ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ - سورة الجن : 23 - ، و ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ - سورة النساء : 14 - .

و كذلك زعمهم بتحريف القرآن الكريم ، فمن يقول ذلك فقد كفر به ، و أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة ، و هو حفظ الله تعالى لكتابه من التحريف زيادة و نقصانا ، قال تعالى : ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) - سورة الحجر : 9 - ، و ((لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (فصلت : 42) ، و ((الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)) - سورة هود : 1 - .

و كذلك سبهم للصحابة و تكفيرهم لهم ، هو أمر مخـــالف للقـــرآن و تكذيب له ، لأن الله تعالى قد شهد لهم بالإيمان و العمل الصالح و دخول الجنة ن قال سبحانه : ((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) – ســـورة التوبـــة : 100 –، و ((وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)) – سورة الأنفال : 74 – فلو لم يكونوا مؤمنين صـــادقين زمـــن رسول الله –صلى الله عليه و سلم– و بعده و استمرارهم علـــى مرضـــاة الله تعالى ، ما شهد لهم بالإيمان و الرضا و دخول الجنة بشهادته لهـــم بالإيمـــان الحق ، فهو سبحانه علام الغيوب لا يخفى عليه شيء فـــي الأرض و لا فـــي السماء . كما أنه سبحانه قد خاطب الصحابة بقولـــه : ((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)) –ســورة النــور : 55 – ، فوعده سبحانه و تعالى اشترطه –لكي يتحقق– بالإيمان و العمـــل الصـــالح و عدم الإشراك به ، و بما أن وعده قد تحقق فعلا على أرض الواقع علـــى يـــد الصحابة ، في فتوحاتهم و دولتهم الراشدة ، و نشرهم للعلم و العدل و الأخوة ، فإن هذا دليل قاطع ، على أنهم استمروا على الطريق المســـتقيم ، و أن الله تعالى راض عنهم في حياة نبيه و بعده .

و نفس الأمر ينطبق على مبادئ الطوائف الأخرى ، فما وافق القرآن من مبادئها أخذناه ، و ما خالفه رفضناه و تركناه ، و عليه فما على كل فرقة

إلا الرجوع إلى الحق بالتمسك بالقرآن و السنة الصحيحة التي تتطابق معه و لا تناقضه .

و الحل الثالث هو عرض الكتب الحديثية – التي عند الفرق الإسلامية – على القرآن الكريم وفق منهج علمي صحيح –ذكرناه سابقا– فالتي وافقته و لم تناقضه ، و صحت أسانيدها و متونها ، قبلناها و التي لم تتفق معه ، و لا صحّت أسانيدها و متونها ، رفضناها و حكمنا عليها بالضعف و الوضع من دون تعصب لكتاب أو لآخر . و واضح لكل إنسان صادق موضوعي نزيه أن كتب الصحاح السنية هي التي تتفق تماما مع ما في القرآن الكريم ، و من أنكر ذلك فعليه أن يتجرد من العصبية و يتحقق بنفسه . و أما كتب الطوائف الأخرى فلا تتفق تماما مع القرآن الكريم ، فبعضها قد يتفق معه بنسبة 60 في المائة ، و بعضها الآخر قد يتفق معه بنسبة 40 في المائة ، و بعضها قد يتفق معه بنحو 2 في المائة فقط .

و الحل الرابع عرض رواياتنا التاريخية المتعلقة بالمذاهب و رجالها ، على منهج علمي صارم صحيح لتمييز صحيح تلك الروايات من سقيمها ، فنعرضها على القرآن الكريم أولا ، ثم على السنة النبوية الصحيحة ثانيا ، و على الثوابت و المتواترات التاريخية ثالثا ، و على بدائه العقول و حقائق الطبيعة و العمران البشري رابعا ، على أن ينصب نقدنا على الأسانيد و المتون معا ، فما صحّ منها أخذناه و ما لم يصح تركناه ، من دون تعصب لأي مذهب .

و الحل الأخير –أي الخامس– هو أنه على أتباع المذاهب الإسلامية أن يُوطّنوا أنفسهم و يُهيئوها لتقبل الحقيقة التي سيخرج بها التحقيق العلمي للمذاهب و الأحاديث و الروايات التاريخية . و عليهم أيضا أن يستعدوا لترك أفكارهم و مذاهبهم و أحاديثهم و أخبارهم إذا ما أثبت التحقيق العلمي بطلانها ؛ فليفتحوا قلوبهم و عقولهم لتقبل الحقيقة حتى و إن كانت مرة . و بدون هذا

الاستعداد لا يمكن الوصول إلى كلمة الحق التي تجمع المسلمين علـــى كتــاب ربهم و سنة نبيهم الصحيحة ، و منهاج سلفهم الصالح ، هذا الطريق هو الذي يُبعدهم عن التعصب المذهبي المذموم ، و يجمعهم على كلمة الحق بـــإذن الله تعالى .

و ختاما لهذا الفصل –و هو الأخير– يتبين لنا أن العصب المذهبي – خلال العصر الإسلامي– كان راسخا في المجتمع الإسلامي ، ترك فيه آثــارا سلبية كثيرة على مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية و السياســية و العلميـــة ، لأسباب كثيرة ، بعضها أسباب رئيسية عميقة ، و أخرى أسباب ثانوية مساعدة ، امتزجت كلها و تفاعلت فيما بينها ، فأدت إلى انتشار التعصب المـــذهبي و تعميقه بين المسلمين ، الأمر الذي استدعى حلولا جذرية لا ترقيعية لعلاجها ، فذكرنا منها طائفة في أربع مجموعات ، إن أخذنا بها ستخلّصـــنا –بـــإذن الله تعالى– من التعصب المذهبي البغيض الـــذي أفســـد المشـــاعر و الأفكـــار و السلوكيات .

إذا صح أن ثمة تنظيماً حقيقياً يحمل اسم" القاعـــدة" بهرميـــة قيـــادة، ومركزية قرار، وأهداف معلنة، وأيديولوجيا جامعة، وإذا كانت لهذه "القاعـــدة" استراتيجية ما في صراعها مع الغرب والشرق معاً بما في ذلك كل حكومات الأرض، فلا مناص من قراءة عميقة في الخطاب الذي تنتجه "القاعدة" بـــوفرة كمية وحدّة نوعية غير مسبوقة مقارنة بالحركات الإسلامية المعاصرة ونظـــراً للظروف المختلفة التي تحيط بها.

إن ما يسمى بـــ"القاعدة" قد يكون مجرد فكرة تجنّد اشخاصاً وتســـخّر موارد، وقد لا يكون التنظيم المفترض سوى شكل هلامي في أقـــل تقـــدير لا يقوى على الضغوط الأمنية فيتفتت إلى مكوناته الأولى لدى أول صدمة عنيفة، وليس شرطاً أن يحافظ بعد ذلك على انسجامه وتماسكه الداخلي. ويمكن القول إنه الآن بعد غزو أفغانستان ليس سوى كائن "سيبرنطيقي" يخوض معارك الكر

والفر على الشبكة العنكبوتية، أو هو في أفضل الأحوال، نواة صغيرة جداً، لكن صلبة وعنيدة مكونة من الدعاة المتحمسين والخبراء العسكريين الشديدي المراس، القادرين في أحوال ملائمة على تشكيل جسم عسكري وأمني وإعلامي متعدد المهام والأجناس، مفارق للحدود واللغات، ومتجاوز للخلافات التكتيكية التي قد لا تعدو أن تكون مجرد تفاصيل في التيار السلفي الجهادي العريض والذي يتخطى بالتأكيد المدرسة السلفية التقليدية من أتباع محمد بن عبد الوهاب.

ولأن الفكرة تمثل نقطة الثقل في هذا التنظيم، بما هي قوة معنوية حافزة وسط التحديات المتلاطمة التي لم يواجهها أي تنظيم من قبل، وبتصميم عز نظيره في التاريخ، فإن مقاربة الجانب الفكري الأيديولوجي يكتسي أهمية فائقة لتحقيق هدفين متلازمين سواء للخصوم أو الأنصار:

الأول سبر غور القاعدة لكشف نقاط القوة والضعف فيها.

والثاني تعيين الوسائل الأكثر نجاعة لاحتوائها في مرحلة أولى ثم القضاء عليها لاحقاً، أو تسديد خطاها وترميم فجواتها وتقويتها من أجل متابعة المسيرة بالنسبة للطرف الثاني.

وهنا يُطرح سؤال جوهري عن مدى قدرة الولايات المتحدة على إنجاز الأمر الأول منهما فضلاً عن تحقيق الثاني، علماً أن الشواهد تدل على فشل نظري في فهم الظاهرة وفشل عملي أكبر في مواجهتها بذكاء وحكمة ما أدى إلى تفاقم الخطر بدلاً من خموده.

وإذا كانت الاستراتيجية لدى هذه الحركة غير قائمة بنظر من هم خارج "القاعدة"، حيث يتهمونها بعمى الألوان والجهل بالأولويات وعدم التعامل مع الواقع كما هو، بل كما يرغب فيه قادة "القاعدة" ومنظروها المعروفون، فإن ثمة استراتيجية موجودة بالفعل برأي من هم في الداخل، وهي مبثوثة في

البيانات والتصريحات والمقالات والدراسات والأفلام المتداولة على شبكة الإنترنت خاصة، هذا مع لحاظ أن "القاعدة" تفكر وتراجع أساليبها حتى وهي في طور القتال دفاعاً وهجوماً، فراراً من الأعداء المطاردين لها في كل مكان، وتسللاً من مكان غير آمن إلى آخر قد يكون أقل أمناً. وهي أيضاً تكتب أفكارها وتجاربها، وأفضل كتابها هم الممارسون المجربون في ميادين القتال، وبعضهم من أشهر قادتها الميدانيين الذين سقطوا في صدامات مسلحة في ساح مختلفة من العالم. إذاً نحن أمام تجربة غريبة من نوعها، ولعله هنا تكمن خطورتها وقدرتها على التجنيد والتخطيط والتنفيذ، فالفكر الذي يُقتل صاحبه في الميدان يرتقي إلى درجة عالية من التقدير والاحترام بين جمهوره فيستعصي على النقد عادة رغم ميل "القاعدة" إلى مراجعة أخطائها بنفسها، كما أن" القاعدة" تمعن باطراد في مقارباتها العملية استقاء من الواقع نفسه بعيداً عن التنظيرات الجامدة التي تقع فيها عادة الحركات الإسلامية غير المجربة، وإن كان ثمة خطر آخر هو أن تنجرف في المقتضيات العملية فتبتعد عن مبادئها هي تدريجياً. ولا ينحصر التأثر والتأثير في الحلقة الأقرب إلى المدرسة السلفية فالأقل قرباً على التوالي، بل ربما حقق الفكر المذكور قفزات نوعية وغير متوقعة في النفاذ داخل شرائح بعيدة كانت حتى زمن قريب غير متدينة أصلاً أو حتى غير مسلمة، والفضل لا يعود بالضرورة إلى القيمة الذاتية لهذا الفكر، بل إن الفكر المضاد الهائج الذي لا يفرق بين الإسلام ككل وبين أيديولوجيا الجهاديين خاصة، يتسبب بانتشاره بدلاً من الانحسار المتوقع في كل مرة تصيب فيها الأضرار الجانبية الجسيمة عدداً كبيراً من المسلمين في موقع الحدث.

باختزال أولي يمكن القول إن استراتيجية" القاعدة" امتداد طبيعي للأيديولوجيا الحاكمة فيها، إن لم تكن تنطوي على الأيديولوجيا نفسها مع بعض الإضافات الفنية وحسب مما يقتضيه الحال، في حين أن الفكر الجهادي

يتضمن بذاته الأهداف والوسائل التي تشكل بمجموعها الاستراتيجية المعمول بها، ويتجلى ذلك أحياناً عبر فتاوى مفصلية أباحت الإرهاب بمعنى قتل المدنيين في سياق الصراع، فيما سمي بالإرهاب المحمود حسب أدبيات التنظيم..

فما هو الوعاء الأيديولوجي لـ"القاعدة"؟ هل هو السلفية؟ وأي سلفية تتبعها "القاعدة"؟ وما الذي يميزها عن السلفيات الأخرى؟ هل "القاعدة" إطار موحد تتصهر فيه الجماعات المتشابهة المنبت والهدف والأسلوب، أم هي غطاء فضفاض لمجموعات متفاوتة في التشدد وكذلك في الأسلوب؟

النشأة الأولى

لقد انبثق التيار السلفي الجهادي في المملكة العربية السعودية من رحم المدرسة السلفية التقليدية المتحالفة تاريخياً مع آل سعود، في الثمانينات من القرن العشرين، إثر اجتياح الجيش السوفياتي لأفغانستان، ومع توجه أمريكا للاستعانة بالإسلام في مواجهة الشيوعية الزاحفة آنذاك نحو المياه الدافئة ونفط الخليج. هذا التيار تعضّد بالمجاهدين العرب الذين قادهم الدكتور عبد الله عزام، وهو وإن كان من جماعة الإخوان المسلمين ابتداء لكنه تأثر أكثر بفكر سيد قطب المتميز عن المقولات الرسمية للإخوان، ويمثل عزام مدرسة إخوانية متأثرة بالسلفية دون أن تذوب فيها. كما أن سلفية أخرى كانت قد نشأت في مصر الرافد الثاني لتنظيم "القاعدة" لاحقاً، وهي تتخطى المنطق السني التقليدي وكذلك التوجهات السلفية المعروفة التي تتحفظ على أي محاولة للثورة ضد الحاكم الظالم ما دام مسلماً في الظاهر. وهي سلفية جهادية بهذا المعنى وانطلقت إلى أفغانستان وهي تحمل هذا الفكر المعتمد على كتابات ابن تيمية بشكل أساسي. وهناك في أفغانستان تفاعل التياران المتشابهان المترادفان، فابتعد السلفيون الجهاديون السعوديون تدريجياً عن المرجعية التقليدية دون أن يتخلوا عن ميراث محمد بن عبد الوهاب، وتميز السلفيون

القطبيون) المصريون وغيرهم) على مراتبهم المختلفة عـن تيـار الإخـوان المسلمين، بل انشقوا عنهم قولاً وفعلاً في نهاية الطريق.

وحين تمكنت حركة طالبان من السيطرة على معظم أفغانسـتان بـات على "القاعدة" التعامل مع سلفية من نوع آخر، لا علاقة لها بالوهابية، لكنهـا تلتقي معها في كثير من الأمور. فالطالبانيون تابعون مذهبياً للإمام أبي حنيفـة النعمان، وهو رأس مدرسة الرأي لدى أهل السنة، وهو مقل فـي الاحتجـاج بالحديث النبوي. لكن مسلمي شبه القارة الهندية الذين نبغ منهم علماء حـديث كبار في القرون الحديثة، أوجدوا مؤالفة غريبة بين نصوص الحديث وقواعـد الفقه الحنفي، أي ظلوا أتباع المذهب مع ترجيح العمـلَ بالحـديث وتحكيمـه بالفقه. وطالبان تبعاً لذلك، سلفية حنفية مختلفة عن السلفية الحنبلية (نسبة إلـى الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب السني الرابع) وعن الوهابية انتهاء.

وسطية عزام وبن لادن

ويُعتبر سيد قطب المرجع الثاني المشترك بـين التيـارين السـلفيين المتعادضين في البداية المندمجين أخيراً بما سمي بـ"قاعدة الجهاد"، والمؤلفـة من تنظيم القاعدة (بن لادن) والجهاد الإسلامي (الظواهري). فإذا كان عبد الله عزام واسطة العقد بين التنظيم الدولي للإخوان المسـلمين والتيـار الجهـادي الطري العود آنذاك، كان يُلقب بسيد قطب الأردن، بما يميزه عن التيار الأم، فإن الدكتور أيمن الظواهري الذي هو جسر العبور للمجاهدين العرب وعلـى رأسهم أسامة بن لادن من العقيدة السلفية التقليدية إلى عقيدة الـولاء والبـراء المكفرة أخيراً للدولة السعودية الحالية، قد استند إلى "ظلال القرآن" و"معالم في الطريق" لسيد قطب من أجل رسم عالمه الجديد من دون حسن البنـا الرجـل الأسطورة والمؤسس لتيار الإخوان، بل إنه خصص كتاباً منفرداً لإدانة البنـا وسياساته البراغماتية إزاء الملك فاروق تحت عنوان" الحصاد المر."

أما عزام فهو وإن كان يعتبر أن حسن البنا قد أحسن الظن بالحكام العرب في عصره، وأنه أخطأ في عدم إرسال أعداد كافية من الشباب المسلم لتحرير فلسطين عام 1948، لكنه يجله ويحترمه وقد تأثر كثيراً بكتاباته، لا سيما "الرسائل."

وعلى جوانب القطبين المتنافرين ظاهراً، عزام والظواهري يميناً ويساراً، تبرز أسماء أخرى وتيارات، منها ما هو أقرب إلى السلفية التي تدين الولاء لولي الأمر وتلتزم بالبيعة، أو من يعتبر حركة الإخوان مرجعه الأساسي، ومنها من تذهب إلى حد التنصل من فقهاء السلطان كما يوصفون وتكفير الدولة السعودية ذاتها رغم ما تمثله المملكة في العالم الإسلامي، ومن يوسع دائرة الإقصاء ليشمل شرائح إسلامية أخرى، كما في المبالغة في تكفير أهل السلطة والموالين لهم ومعاونيهم. وعليه، يحتل أسامة بن لادن موقعاً وسطياً بين هؤلاء وهؤلاء، والوسطية هنا نسبية طبعاً، فهو متعدد المشارب الفكرية، بين الإخوان المسلمين والسلفية الوهابية، وقد تدرج في المعارضة من النصيحة لولي الأمر والتشديد عليه بالكلام بسبب الاستعانة بالقوات الأمريكية لطرد صدام حسين من الكويت وحماية المملكة، نهاية بتكفير النظام السياسي بسبب موالاته للغرب وخضوعه للأمم المتحدة وشرعة القانون الدولي.

وسطية بن لادن تختلف عن وسطية عزام بالتأكيد، وذلك مرجعه إلى اختلاف طبيعة التحالف الجديد بالمقارنة البسيطة بين الجبهة الإسلامية العالمية لمقاتلة اليهود والصليبيين عام 1998 ومكتب الخدمات أيام الجهاد الأفغاني بداية الثمانينات من القرن الفائت، واختلاف موازين القوى داخل كل جهة، كما اختلاف الظروف المحيطة واختلاف نوعية المخاطر والتحديات، واختلاف الطموحات كذلك. فإذا كانت أغلبية المجاهدين العرب أيام عزام من الحركيين والسلفيين التقليديين، فإن الكتلة الرئيسية في تنظيم "القاعدة" الآن من المنشقين عن التيارات الإسلامية الرئيسية.

أفغانستان أولاً

حين تولى الدكتور عبد الله عزام تجنيد الشباب المسلم من أنحاء العالم باتجاه أفغانستان، بموافقة وترحيب من الإخوان المسلمين، بدا وكأنه يحي فريضة الجهاد المنسية، ولما نجح في مسعاه الأولي تركز جهده في أن تتحول أفغانستان ساحة للتدرب على القتال دون التدخل في شؤونها الداخلية، وحين تحدث عن "القاعدة الصلبة" في أفغانستان كان يقصد تلك الطليعة المجاهدة من الشباب الذي مارس القتال وأضحى يشكل قوة عسكرية مجرّبة لنصرة المسلمين في كل مكان.

وفي إجابته عن تساؤل مفترض هو متى يصبح الجهاد فرض عين؟ وهل الحالة في أفغانستان، وفي فلسطين, وفي الفلبين, وفي غيرها ,تجعل الجهاد فرض عين؟ قال عزام: "بقدر اطلاعي في كتب الحديث والتفسير والفقه ما رأيت كتاباً من الصدر الأول إلى يومنا هذا إلا وينص على أن الجهاد يصبح فرض عين في حالات منها: إذا دخل العدو أرض الإسلام.. اليهود دخلوا فلسطين فالجهاد فرض عين ..ودخل الروس أفغانستان, أو الشيوعيون دخلوا أفغانستان, إذن الجهاد فرض عين في أفغانستان, بل ليس الجهاد فرض عين عندما دخل الروس أفغانستان, الجهاد فرض عين منذ أن سقطت الأندلس بيد النصارى, ولم يتغير هذا الحكم إلى يومنا هذا.

..الجهاد فرض عين منذ (1492م) عندما سقطت غرناطة بيد الكفار– بيد النصارى– وإلى يومنا هذا, وسيبقى الجهاد فرض عين حتى نستعيد كل بقعة كانت إسلامية إلى أرض الإسلام, وإلى يد المسلمين."

الجهاد قبل الصلاة

ويضيف عزام: "يجب على الناس أن ينفروا ولو مشاة.. يجب على الأردني أن يأتي من عمان ماشياً إذا لم يجد ثمن التذكرة ,والمصري أن يأتي من القاهرة ولو ماشياً, والسعودي أن يأتي من مكة ولو ماشياً, مع القلة والكثرة, مع المشي والركوب, هذا نص ابن تيمية, يقول: (فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه), أولاً لا إله إلا الله محمد رسول الله, وقبل الصلاة والصوم والزكاة والحج وما إلى ذلك، (فالعدو الصائل – الذي يصول ويسطو على المسلمين بقوته – الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه), ثم يقول: (إن الجهاد يقدم على الصلاة).

وكان الفقهاء يقولون أولاً: إن الجهاد يصبح فرض عين على القطر, ثم على من يليه, ثم على من يليه يوم أن كانت المعارك تنتهي بيوم أو يومين أو ثلاثة, أما الآن: وقد استمرت المعركة سنوات, فأي عذر لأحد في الأرض أن يتأخر؟!, وكانوا يقولون: الجهاد فرض عين ابتداءا على القطر, ثم يتوسع يوم أن كان الوصول إليه على البغل والحصان والحمار, أما اليوم وبالطائرة تأتي من أقصى نقطة في الأرض إلى أفغانستان في يوم واحد أو في يومين حتى لا نكون مبالغين, أليس كذلك؟ إذن الجهاد فرض عين على المصري والسعودي والأردني والسوري, كالأفغاني تماماً لأنه كما يقول ابن تيمية: (وأرض الإسلام كالبلد الواحد إذ إن بلدان الإسلام كلها كالبلد الواحد). وقد نص الفقهاء على أن الجهاد يصبح فرض عين إذا أسرت امرأة واحدة أو أسر رجل واحد... الجهاد في الكتاب والسنة له مصطلح قرآني, مصطلح رباني معناه القتال. ويبقى الجهاد فرض عين حتى ترجع آخر بقعة– كانت في يوم من الأيام إسلامية -إلى يد المسلمين.

والجهاد–وهو القتال– يبقى فرض عين عليك طيلة حياتك, افرض أنك قاتلت في فلسطين أو في أفغانستان وحررنا فلسطين; لا ينتهي فرض العين، يجب أن تنتقل إلى بقعة أخرى وثالثة ورابعة.

دراستك ليست جهاداً, علمك ليس جهاداً ,جلوسك مع إخوانك في حلقات دراسية أو دعوية ليس جهاداً, الجهاد هو القتال، ما دامت راية القتال مرفوعة, ما دامت الأسنة مشرعة وما دمت تتمتع بالصحة, وبإمكانك أن تحمل السلاح."

لا إذن في الجهاد الفرض

وفي نص الوصية التي كتبها عزام في منزل القائد الأفغاني جلال الدين حقاني في 12 شعبان عام 1406 هجري: "لقد ملك حبُّ الجهاد عليَّ حياتي ونفسي ومشاعري وقلبي وأحاسيسي، إنَّ سورة التوبة بآياتها المحكمة التي مثّلت الشِّرْعَةَ النهائية للجهاد في هذا الدين وإلى يوم الدين لتعتصر قلبي ألماً، وتُمزّق نفسي أسى وأنا أرى تقصيري وتقصير المسلمين أجمعين تجاه القتال في سبيل الله.

إنَّ آية السيف التي نسخت قبلها نيفاً وعشرين آية –أو أربعين آية– بعد المائة من آيات الجهاد لهي الردُّ الحاسم والجواب الجازم لكلِّ من أراد أن يتلاعب بآيات القتال في سبيل الله، أو يتجرأ على محكمها بتأويل، أو صرفها عن ظاهرها القاطع الدلالة والقطعي الثبوت.

وآية السيف ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أو آية ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وقال عزام بوضوح شديد: "إني أرى أنّ كلّ مسلم في الأرض اليـــوم منوط في عنقه تبعة ترك الجهاد (القتال في سبيل الله) وكلُ مسلم يحمل وزر ترك البندقية، وكلُ من لقي الله –غير أولي الضرر– دون أن تكون البندقية في يده فإنّه يلقى الله آثماً، لأنّه تارك للقتال، والقتال الآن فرض عين علـــى كـــل مسلم في الأرض غير المعذورين. وترك الفرض إثم، لأنّ الفرض ما يثـــاب فاعله، ويحاسب أو يأثم تاركه.

أرى –والله أعلم– أنّ الذين يعفون أمام الله بسبب تركهم الجهاد هـــم: الأعمى والأعرج والمريض، والمستضعفون من الرجال والنساء والولـــدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، أي لا يســـتطيعون الانتقـــال إلـــى أرض المعركة، ولا يعرفون الطريق إليها.

والناس كلُهم آثمون بسبب ترك القتال، سواء كان القتال في فلســـطين، أو في أفغانستان، أو في أية بقعة من بقاع الأرض التي ديست مـــن الكفـــار، ودنست بأرجاسهم.

وإني أرى أنّ لا إذن لأحد اليوم في القتال والنفير في سبيل الله، لا إذن لوالد على ولده، ولا لزوج على زوجته، ولا لدائن على مدينه، ولا لشيخ على تلميذه، ولا لأمير على مأموره.

هذا إجماع علماء الأمة جميعاً في عصور التاريخ كلها، إنه في مثـــل هذه الحالة يخرج الولد دون إذن والده والزوج دون إذن زوجته، ومن حـــاول أن يغالط في هذه القضية، فقد تعدى وظلم، واتبع هواه بغير هدى من الله.

..هي قضية حاسمة واضحة لا غبش فيهـــا ولا لـــبس، فـــلا مجـــال لتمييعها، ولا حيلة لأحد في التلاعب فيها وتأويلها."

أما ما يتعلق بإمكانية تجاوز إذن أمير المؤمنين أو ولي الأمر بالجهاد، فيقول عزام:

"إن أمير المؤمنين لا يُستَأذن في الجهاد في حالات ثلاث:

- إذا عطّل الأمير الجهاد.
- إذا فوّت الاستئذان المقصود.
- إذا علمنا منعه مقدماً."

بل ذهب إلى "أن المسلمين اليوم مسؤولون عن كل عرض ينتهك في أفغانستان، وعن كل دم يسفك فيها، إنهم -والله أعلم- مشتركون في دمائهم بسبب تقصيرهم، لأنهم يملكون أن يقدموا لهم السلاح الذي يحميهم، والطبيب الذي يعالجهم، والمال الذي يشترون به الطعام، والحفّارة التي يحفرون بها الخنادق."

وفي كل ما سبقت الإشارة إليه تعريض واضح بالمشايخ التقليديين الذين لا يجيزون الجهاد على الإطلاق دون إذن ولي الأمر، في وقت كان بن لادن نفسه يعتقد أن ذهابه إلى أفغانستان يحتاج إلى إذن من ولي الأمر، وقد حصل عليه بالفعل قبل التحاقه بالجهاد الأفغاني كما كشف حذيفة نجل عبد الله عزام أخيراً.

فلسطين وخطأ البنا

ولقد استطاع عزام بقوة شخصيته وبساطة حجته أن ينفذ إلى قلوب الكثير من أتباع الجماعات الإسلامية المختلفة، وأن يزعزع المسلمات الحركية أو التقليدية على حد سواء، حتى إنه لم يوفر تيار الإخوان المسلمين من سهامه بسبب ركونهم إلى الوسائل السياسية في نضالهم نحو إقامة الشريعة وتأسيس الدولة وعدم اغتنامهم فرصة الجهاد في أفغانستان بالقدر الذي تمناه منهم.

لقد تلخصت حملة الاتهامات عبد الله عزام في تلك الفترة وإلى الآن بأنه -وهو الأردني الفلسطيني- كان يجند الشباب المسلم للقتال في أفغانستان وبتشجيع من المخابرات الأمريكية، وكان الأجدر به لو توجه إلى فلسطين

القضية المركزية للأمة. وأنه من المدرسة الإخوانية التي كانت ترى منذ انطلاقها بعد سنوات من انفراط الخلافة العثمانية أن أوجب الواجبات إعادة الخلافة أو إقامتها مجدداً، ومن ثم تأتي قضية الأراضي المحتلة وعلى رأسها فلسطين. كما أن عزام حسب هذه الاتهامات لا يعتبر قضية فلسطين القضية المركزية للأمة العربية وهو معاد أساساً لفكرة القومية العربية التي كان يمثلها جمال عبد الناصر العدو اللدود للإخوان. ومعلوم أن عبد الناصر كان حليف الاتحاد السوفياتي وشكل مع الهند العدو اللدود لباكستان محور عدم الانحياز.

قد يكون بعض ذلك صحيحاً، لكنه بالمقابل كان يرى أن العجز عن التوجه نحو فلسطين لعوائق معروفة لا ينفي واجب الجهاد في أمكنة أخرى، ولذلك كان يقول:"إن كنت تستطيع أن تجاهد في فلسطين, جاهد في فلسطين وهو أولى وأفضل, وهي الأرض المباركة, أما إذا كنت لا تستطيع أن تدخل دخولاً إلى فلسطين, تبقى جالساً تتعلل بالأماني, وتعيد وتبدىء: "فلسطين وفلسطين", كما (قال رجل للرسول صلى الله عليه وسلم: متى الساعة قال: ويحك ماذا أعددت لها؟).

ماذا أعددت لفلسطين يا أخي؟!.. أنت هل تدربت؟! هل تعرف السلاح؟! هل شهدت معارك؟! هل كلفت نفسك يوماً أن تتعلم كيف تفك اللغم وتركبه؟! هل كلفت نفسك أن تضع لغماً شراكياً في سيارة أوغيرها؟! كيف تضع لغماً شراكياً أمام باب أحد اليهود أو في سيارته أو باب مصنعه أو غير ذلك؟!.. طبعا معظمكم لا يعرف هذا, وما رأى وما فكر فيه, تعالوا عندنا نعلمكم عليه, تعالوا إلى أفغانستان نعلمكم عليه ونرجعكم إلى فلسطين.. ما ينقص من فلسطينيتك؟ ولا شيء. ندربك , نعلمك, تخوض عدة معارك لتكسر حاجز الخوف, تتعلم الرجولة, تنضج نفسيتك دينياً ونفسياً وعقلياً ورجولة ثم ترجع إلى بلادك. أما وقد فقدت هنا السبيل إلى أرضك ,فهنالك سبل أخرى.

يا إخوان: اليهود عندما أقاموا دولتهم اشتركوا مع دول الحلفــاء فــي الحرب العالمية, حتى يتعلموا الحرب, دايان سنة1969 م لما كان يواجه حرب الفدائيين, ذهب إلى فيتنام ليتعلم كيف يقاتل الفدائيين , وكيف يقــاومهم, ذهــب بنفسه. (."مقاطع من خطب).

وفي موضع آخر، يفصح عزام أكثر عن مكنون صدره ورأيه بتجربة الإخوان المسلمين الأوائل في فلسطين، فيقول: "حسن البنــا كــان يــدرك أن معركة فلسطين معركة أساسية, مقاتلة اليهود في المنطقة هنا يجــب أن تقــدم على مواجهة أو منازلة أي طاغوت, لأنه كان يعتبر أن هــؤلاء الطواغيــت عبارة عن دمامل في جسد الأمة الصحيح ستلفظه بعــد حــين ويتغيــر هــذا الطاغوت ويأتي غيره. الأحزاب العلمانية هذه كلهــا زائلــة, لكــن إذا ثبتــت إسرائيل أقدامها فإنها تستطيع أن تحرك المنطقة بأســرها. أعــداء الله كــانوا يفكرون كما يفكر البنا, ولذلك سبقوه. البنا أرسل مجموعة من الشــباب إلــى فلسطين لكن فاته أن يغتنم الفرصة بسرعة, ويدفع بأكبر مجموعة من شــباب الإخوان إلى فلسطين، ولو أرسل بمجموعات فعلاً من شباب الإخــوان بعــدد كاف لهزموا اليهود ولأقاموا الدولة الإسلامية في فلسطين, ولتساقطت الأنظمة طبيعياً بعد ذلك بانتصار هذه الحركة على أكبر عدو مشترك في المنطقة وهو اليهود, والناس قلوبهم متوهجة, ونفوسهم تتحرق, وأعصابهم مشدودة لقضــية فلسطين, وأي واحد يدخل فلسطين ينال ثقة الناس أجمعين."

لكن المشكلة كما رآها عزام أن "الأستاذ البنا كأني به ما كان يظن أن الحكام بهذا السوء, أن الحكام كلهم سيتآمرون ضد المسلمين ويقفون مع اليهود, كأني به لم يكن يظن هذا الظن, وما كانت المعركة قد كشرت عن نابها بــين الطواغيت وبين الحركة الإسلامية, كان فاروق أكثر شيء (يفعله) يعتقل واحداً من الإخوان أو اثنين ويرميهم في السجن, قتلوا أحمد ماهر فسجنوا الذي قتله .

ما كانت الضربات الساحقة التي وجهت للحركة الإسلامية قد برزت إلى ناظري البنا ."(سلسلة في الهجرة والإعداد).

مرجعية سيد قطب

أما وقد ضاعت فرصة تحرير فلسطين في تلك الفترة المبكرة، أراد عزام "مجسماً للإسلام فوق طاولة, فوق بقعةٍ أرض, المجسم هذا دولة إسلامية تحكم بهذا الدين حتى يراها الناس, أين بقعة الأرض هذه؟" ويقول:"عندما رأيت أفغانستان وقع في قلبي أن هذه الأرض هي التي نبحث عنها لإقامة دولة إسلامية."

ولماذا أفغانستان؟ "لأن فيها الجبال ,والحدود المفتوحة, ودولاً متعاونة مثل باكستان, وأناساً يمدون إليك يد المساعدة, ثم هي بقعة واسعة, والشعب كله معك..

والحركة الإسلامية فيها ما طال عليها الأمد, خمس أو ست سنوات ودُهمت بالأحداث, ولا زالت طاقات الإسلاميين حية في نفوسهم .لم يأخذوا فترة طويلة في التربية لأن الأحداث دهمتهم, والشباب كلهم دون الثلاثين والله ساق لهم قيادة شابة حازمة حاسمة متحمسة تتفجر حيوية وتتدفق طاقة ..الحقيقة أن الشعب الأفغاني فريد في أصالته, ما تلطخ بالحضارة الغربية, فطرته وخاصته لا زالت كما هي ما فسدت, العلم في أفغانستان كالنقش في الحجر, الجهاد في أفغانستان كالنقش في الحجر, شعب فطرته سليمة, شعب أصيل, القلعة موجودة... القلعة هي المرأة, قلعة حصينة, المرأة ما كشفت وجهها حتى الآن, أصيلة ثابتة يضعها زوجها في البيت يقول لها :أنا أغيب سنة, تثبت في السنة لا تخرج عن الباب.."

قواعد من التجربة الحركية

ويتوصل عزام من تجربته في أفغانستان إلى نظرية مهمة قد تلخص فكر "القاعدة" فيما بعد، بل قد تكشف سر التسمية نفسها. يقول عزام: "خرجت من خلال الأحداث الضخمة التي عشتها في داخل أفغانستان بالقواعد التالية:

القاعدة الأولى: لا يمكن لأي حركة إسلامية وحدها أن تقيم دولة إسلامية.

والقاعدة الثانية: لا بد من حركة إسلامية حتى تقوم الدولة الإسلامية على يدها, لكنها لا تستطيع أن تقيم دولة الإسلام وحدها ,فإذن كيف؟ ثم لا بد أن تعتني هذه الحركة بأبنائها, فتربيهم تربية ربانية. وهؤلاء الأفراد قبل أن تربيهم, أصبحوا ناضجين, لا بد أن يشرعوا السلاح وتبدأ المعركة المسلحة حيث علينا أن نختار لها بقعة أرض مناسبة, وشعباً مناسباً إن استطعنا, لكن الحركة الإسلامية في داخل هذا الشعب. نركز بحيث نقوي الحركة الإسلامية داخل هذا الشعب, ثم تشعل الحركة الإسلامية الفتيل وتقود المسيرة, الشعب سيلتف حولها يوما بعد يوم.

سيفجرون عاطفة هذا الشعب وسيجتذبون انتباهه وسيخرجون أعداءهم, لأن الجهاد لا يستطيع أحد أن يتكلم عليه, والأولى بالحركة الإسلامية أن تختار عدواً مشتركاً يتفق الجميع على أن هذا عدو, يعني اليهود عدو مشترك والأولى بالحركة الإسلامية أن تبدأ بالقتال ضد اليهود. روسيا عدو مشترك لا يستطيع أحد أن يسمي الذي يقاتل الروس خائناً, بل الوطني سينظر إليك من ناحية وطنية فيكبرك ويجلك ويحترمك ويعجب بشخصك, أولاً, ثم يعجب بمبدئك ثانياً, والمسلم كذلك سيكبرك لأنك تمتشق حسامك وتشرع هامتك للنار, وتبحث عن الموت وتدافع عن الشعب ,فالشعب سيقف معك, أعداء الإسلام سيخرسون، لا يستطيعون أن يجابهوك في هذا الميدان المشترك. المعركة ستطول وكلما طالت المعركة كلما استفادت الحركة الإسلامية وكلما اختارت

العناصر وكلما برزت القيادات, وكلما طالت المعركة دفعت بالنماذج إلى القمة ,لأن طول المدة سيسقط الناس, سيضعف الذي ليس له صلة وثيقة بالله عز وجل. من لم يتركز الإيمان في قلبه سيسقط, لأن هنالك أولاداً ومزرعة ووظيفة وهنالك وهنالك, هذه كلها جوانب ستجذبهم للخلف.

وبعد معركة طويلة مع أعداء الله عز وجل ستكون النتيجة واحداً من اثنين, إما أن ينتصر الكفار وإما أن ينتصر المسلمون. إن انتصر المسلمون قامت الدولة الإسلامية, وإن انتصر الكفار لم تخسر الدعوة الإسلامية ,لم تخسر لأنها كونت رصيداً ضخماً من الناس, الناس أحبوها ثم حفظت لها تراثاً مجيداً, وصفحات مشرقة تسكت الذين يثرثرون أو الذين يلهون أو يعبثون بأصحاب المبادئ. (سلسلة الهجرة والإعداد).

هذه الآلية المعقدة التي توصل إليها عبد الله عزام، هي خلاصة التجارب والنكسات التي تعرضت إليها الحركات الإسلامية في صراعها مع الأنظمة ابتداء من الإخوان المسلمين بقيادة المؤسس حسن البنا. وهي تنم أيضاً عن مدى تأثره بسيد قطب لا سيما في كتابه المهم "معالم في الطريق."

التجمع العضوي الحركي

إن قطب يؤكد في "المعالم" أن "الإسلام لم يكن يملك أن يتمثل في "نظرية" مجردة، يعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ويزاولها عبادة، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلاً. فإن وجودهم على هذا النحو – مهما كثر عددهم – لا يمكن أن يؤدي إلى" وجود فعلي" للإسلام، لأن الأفراد "المسلمين نظرياً" الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية .. وسيتحركون – طوعاً أو كرهاً، بوعي أو بغير وعي– لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده، وسيدافعون عن كيانه، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه، لأن الكائن العضوي

يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا .. أي أن الأفراد "المسلمين نظرياً" سيظلون يقومون "فعلاً" بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون "نظرياً" لإزالته، وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد، وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لإقامة المجتمع الإسلامي"!

إن تشخيص سيد قطب للمشكلة يعني ابتداء أن المصالح الشخصية والنزعات الوطنية والعنصرية يمكن أن تقف عائقاً أمام الحركة الإسلامية التي تريد إقامة الدولة وتطبيق الشريعة، وهنا التمييز دقيق بين المسلمين التقليديين والإسلاميين الحركيين وإن لم يرد صراحة في نص قطب.

وإن لم تتم المفاصلة بين المجتمع الجاهلي والمسلمين فيه حتى يكوّنوا المجتمع الإسلامي المرتجى، فلن تنجح الحركة الإسلامية في مبتغاها، لكن خصوم قطب وكثيراً من أنصاره فهموا من هذه العبارة تكفير المجتمع الجاهلي الحديث، رغم أن الإخوان المسلمين يتأولون كلامه ولا يضعونه على محمل التكفير. أما الثمرة الأولى لهذا الفكر فكانت نشوء جماعة "التكفير والهجرة" في مصر، من داخل السجون أيام عبد الناصر، ونضوج فكرة الولاء والبراء للدكتور الظواهري زعيم تنظيم الجهاد، لذلك لم يتردد الظواهري في الالتحاق بالمجاهدين العرب ببيشاور عقب قضائه فترة السجن إثر اغتيال الرئيس أنور السادات، فخلال مشاركته بالوفد الطبي المصري لمساعدة الأفغان عام 1980 وجد في أفغانستان المحضن الملائم لتنمية نواة الجهاد وتدريب العناصر وتوجيهها تمهيداً لتغيير النظام في مصر.

سيد قطب يوضح كذلك أنه "لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أي العقيدة) في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى، وأن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي، منفصل ومستقل عن التجمع

العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغاءه، وأن يكــون محــور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهيــة الله وحــده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته – وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع الحركــي الجــاهلي – أي التجمــع الذي جاء منه – ومن قيادة ذلك التجمع - في أية صورة كانت، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتي كانت لقــريش – وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الإسلامي الجديد، وفــي قيادتــه المسلمة . ولم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المســلم فــي الإسلام ، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لأن وجــود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا. لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظريــة فــي قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم، لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعــاون، له وجود ذاتي مستقل، يعمل أعضاؤه عملاً عضوياً – كأعضاء الكائن الحي – على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه، ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عــن قيــادة المجتمــع الجاهلي، تنظم حركتهم وتنسقه، وتوجههم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجــودهم الاسلامي، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي.

وهكذا وجد الإسلام .. هكذا وجد متمثلاً في قاعدة نظريــة مجملــة – ولكنها شاملة – يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركــي، مســتقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع .. ولم يوجــد قــط فــي صورة" نظرية" مجردة عن هذا الوجود الفعلي .. وهكــذا يمكــن أن يوجــد الإسلام مرة أخرى ، ولا سبيل لإعادة إنشائه في المجتمع الجــاهلي فــي أي

زمان وفي أي مكان بغير الفقه الضروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية ."

(معالم في الطريق)

القاعدة الصلبة

بعبارة أخرى، لا يكفي الإسلام وجود قاعدة نظرية هي العقيدة، بل لا بد من تأسيس القاعدة المادية التي عبّر عنها سيد قطب بـ"التجمع العضوي الحركي". أما عبد الله عزام فراح يبحث عن بقعة أرض لهذا التجمع فوجدها في أفغانستان. ويقول في هذا المجال: "إن المبادئ لا ينصرها إلا النفوس الصادقة والفطر السليمة، وإن هذا الدين قد انتصر في كل مرة بشعب خامته طيبة وفطرته سليمة; فانتصر أول مرة بالعرب الأميين، وحكم الشعب التركي بإسلامه مع أميته ربع العالم وعلى مدى خمسة قرون متتالية.

ولقد رأيت أن أصالة الشعب الأفغاني بإباء رجاله وحصانة نسائه مع الحياء والعفة والوفاء وسلامة الجبلة والفطرة تكون لمجموعها قاعدة صلبة يمكن أن يقام عليها هذا الدين ويشاد فوقها صرحه العظيم.

إن الدين عند الشعب الأفغاني أصبح مع الزمن سليقة وليس تصنعاً، وطبعاً وليس تطبعاً، ومعدناً وليس طلاء، وخليقة وليس تمثيلاً.

إن هذا الدين لا ينتصر بجيل نخرته الشهوات، وأنهكته الملذات وحطمت نفسيته وأذلته أجهزة المخابرات، وأتلفه الترف وأفسده السرف. فهل ينتبه المسلمون إلى هذا الكنز العظيم بين أيديهم (الشعب الأفغاني وجهاده)؟ وهل يقف المسلمون بجانب هذا الشعب الكريم وينهلون معه من نفس المعين؟ هل يبادر المسلمون للحفاظ على هذه القاعدة الصلبة لعلها تكون بإذن الله المنطلق لهذا المارد الجبار ولهذا العملاق الكبير ليحرر الإنسان المعذب في الأرض؟ أم تفلت من بين أيديهم هذه الفرصة الذهبية كما أفلتت من أيديهم فرص كثيرة؟

إنه غيب دونه حجب مسدلة لا يعلمه إلا الله الـذي علمنـا أن الحيـاة والنصر مقامة على قوانين وسنن، وألزمنا الأخذ بالأسـباب وأوجـب علينـا الإعداد."

أصالة الشعب الأفغاني المسلم مجلة الجهاد- العدد الثامن والثلاثـون- جمادي الأولى 1408هـ، يناير 1988م

وفي مقال آخر، انتقل عزام من الحديث عن" القاعـدة الصـلبة" فـي أفغانستان البقعة الملائمة للجهاد، إلى الطليعة المجاهدة التـي تحمـل الـدين وتؤسس الدولة، وهو يؤكد: "كل مبدأ من المبادئ لا بد له من طليعة تحملـه، وتتحمل وهي تشق طريقها إلى المجتمع تكاليف غالية وتضحيات باهظة، وما من عقيدة من العقائد أرضية كانت أو سماوية إلا واحتاجت إلى هذه الطليعـة التي تبذل في سبيل نصرة عقيدتها كل ما تملك، وتتحمل لأواء الطريق الصعب الطويل حتى تصل إلى إقرارها في واقع الحيـاة إذا كتـب الله لهـا التمكـين والظهور. وهذه الطليعة تمثل، القاعدة الصلبة للمجتمع المأمول.

ومالم تجد العقيدة -ولو كانت من عند رب العـالمين- هـذه الطليعـة المضحية التي تبذل كل ما تملك من أجل إظهار عقيدتها فإن العقيدة ستولد ميتة وتوأد قبل أن ترى النور والحياة."

شروط الطليعة المجاهدة

ومن غمار التجربة الأفغانية استنتج أنه" لا يمكن للمجتمع الإسـلامي أن يقوم بدون حركة إسلامية تشب على نار المحنة وينضـج أفرادهـا علـى حرارة الابتلاء، وهذه الحركة تمثل الصاعق الذي يفجر طاقات الأمة، ويقوم جهاد طويل تمثل فيه الحركـة الإسـلامية دور القيـادة والريـادة والإمامـة والإرشاد، ومن خلال الجهاد الطويل تتميز مقادير النـاس وتبـرز طاقـاتهم وتتحدد مقاماتهم، وتتقدم قادتهم لتوجه المسيرة وتمسك بالزمام، وهـؤلاء بعـد طول المعاناة يمكن الله لهم في الأرض ويجعلهم ستاراً لقـدره وأداة لنصـرة

دينه. وإن حمل السلاح قبل التربية الطويلة للعصبة المؤمنة يعتبر أمراً خطيراً لأن حملة السلاح سيتحولون إلى عصابات تهدد أمن النـــاس وتقــض علــيهم مضاجعه."

وحدد عزام شروط تربية الطليعة المجاهدة وهي:

- أن تشب في أتون المحن وأمواج البلاء.
- أن تكون القيادة المربية تشارك الطليعـــة مســـيرة الابـــتلاء والعـــرق والدماء، فلا بد أن تكون القيادة هي المحضن الدافئ الذي تنمو تحـــت أجنحته هذه الأفراخ ولابد من طول مدة الحضانةِ والتربية.
- لا بد لهذه الطليعة أن تترفع عن متاع الدنيا الرخيص، ويكون لها طابع متفرد من حيث الزهد والتقشف.
- يجب أن تكون ممتلئة باليقين الراسخ بالعقيدة مع الأمل العريض الذي يملأ جوانحها بانتصارها.
- لا بد من الإصرار والعزيمة على مواصلة السير مهما طال الأمد.
- الولاء والبراء.
- لا بد أن تدرك المخططات العالمية ضد الإسلام."

وهناك بحسب عزام أسباب رئيسية لهذه التربيـــة الطويلـــة، "لأن طـــول التضحية وفداحة التكاليف مع طول الزمن يؤدي إلي الملل واليأس إلا إذا كانت هذه التربية العميقة هي صـــمام الأمـــن لهـــذه المســـيرة. ولأن الاغـــراءات والمساومات على الطريق مستمرة ولكنها كلما اقتربت مـــن النصـــر تـــزداد العروض ومحاولات الاحتواء فلا بد أن تكون القيادة عناصـــر غيـــر قابلـــة للذوبان. ولأن هذه القيادة إذا مكن الله لها في الأرض هي التي ستوضع بـــين

أيديها الكنوز وهي التي ستشرف على حماية أموال الشعب المسلم وأعراضه ودمائه، فما لم تكن أمينة فويل للأمة من قيادتها.

ولقد كانت العناصر الثمانية الآنفة الذكر بارزة من خلال التربية النبوية للجيل الأول ولذا فعندما ارتدت الجزيرة بأسرها قامت القاعدة الصلبة وارجعتها إلى الإسلام."

(القاعدة الصلبة، مجلة الجهاد -العدد الحادي والأربعون- شعبان 1408هـ، الموافق ابريل 1988م).

تأثر عزام بقطب

هنا يبدو عبد الله عزام وهو يترجم حرفياً مقولة سيد قطب فيما يخص التجمع العضوي الحركي الذي يشكل القاعدة المادية للمجتمع الإسلامي، وليس هذا بمستغرب فكان قد واظب على مطالعة كتبه وهو صغير، وأُرسل في بعثة إلى الأزهر للحصول على شهادة الدكتوراه، حيث حصل عليها عام 1973م، فعاد مدرساً في الجامعة الأردنية، وفي فترة إعداده للدكتوراه التقى بآل قطب، وأخذ عنهم أخبار سيد قطب، وفترة سجنه وإعدامه، والفتن التي تعرضت لها الحركة الإسلامية أثناء اعتقال أفرادها. وكان يعتقد "أن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كثيراً ولكن بشرط واحد: أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم.. أن يطعموا أفكارهم من لحومهم ودمائهم.. أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق ، ويقدموا دماءهم فداء لكلمة الحق.

ولقد مضى سيد قطب إلى ربه رافع الرأس ناصع الجبين عالي الهامة بحسب رأيه، وترك التراث الضخم من الفكر الإسلامي الذي تحيا به الأجيال، بعد أن وضح معان غابت عن الأذهان طويلاً، وضح معاني ومصطلحات الطاغوت، الجاهلية، الحاكمية، العبودية، الألوهية، ووضح بوقفته المشرقة معاني البراء والولاء، والتوحيد والتوكل على الله والخشية منه والالتجاء إليه.

والذين دخلوا أفغانستان يدركون الأثر العميق لأفكار سيد قطب في الجهاد الإسلامي وفي الجيل كله فوق الأرض كلها، إن بعضهم لا يطلب منك لباساً وإن كان عارياً ولا طعاماً وإن كان جائعا ولا سلاحاً وإن كان أعزلاً ولكنه يطلب منك كتب سيد قطب. وكم هزني أن أسمع أن هنالك قواعد جهادية في أفغانستان وعمليات حربية يطلق عليها اسم سيد قطب.

والذين يتابعون تغير المجتمعات وطبيعة التفكير لدى الجيل المسلم يدركون أكثر من غيرهم البصمات الواضحة التي تركتها كتابة سيد قطب وقلمه المبارك في تفكيرهم."

ويقر عزام أنه ما تأثر بكاتب كتب في الفكر الإسلامي أكثر مما تأثر بسيد قطب، "وإني لأشعر بفضل الله العظيم علي إذ شرح صدري وفتح قلبي لدراسة كتب سيد قطب، فقد وجهني سيد قطب فكرياً وابن تيمية عقدياً وابن القيم روحياً والنووي فقهياً، فهؤلاء أكثر أربعة أثروا في حياتي أثراً عميقاً. "

ولما صدر حكم الإعدام بسيد قطب ود لو يفتديه بنفسه وأمه وأبيه، وكتب برقية لعبد الناصر يقول فيها: (الدعوة لن تموت والشهداء خالدون والتاريخ لا يرحم) .(عملاق الفكر الإسلامي بقلم عبد الله عزام).

ومع ذلك لقد كان للحركة الإسلامية خصوصاً مؤسسها الشهيد حسن البنا (رحمه الله) أشد الأثر في تكوين شخصية عزام الحركية، وكان معجباً برسائل البنا، وكان يقول: (هذا المنهج الذي وضعه البنا إنما هو فتوح من الله تعالى، فقد وضع أسس الحركة الإسلامية ولم يسبقه في ذلك أحد)، وكان يوزع هذه الرسائل الصغيرة على مجموعات أسر الإخوان التي نظمها في القرية ويطالبهم بحفظها وفهمها جيداً .(الشهيد عبد الله عزام بين الميلاد والاستشهاد بقلم أبو مجاهد)

العدو القريب

لكن عبد الله عزام اختلف أيضاً مع الحركات الجهادية المصرية بشكل خاص حول قتال العدو البعيد مع وجود العدو القريب .والعدو القريب بالنسبة لهذه الحركات يتمثل بالأنظمة السياسية التي كفروها لعدم تطبيق الشريعة. ويعتبر كتاب "الفريضة الغائبة" لمحمد عبد السلام فرج مهندس عملية اغتيال الرئيس أنور السادات حين توحد تنظيما الجهاد والجماعة الإسلامية في ذلك الوقت، من بواكير النصوص التي روّجت للسلفية الجهادية، وفرج أُدين مع المجموعة التي نفذت الاغتيال وأُعدم معهم.

وإذا كانت "الفريضة الغائبة" من أولى نصوص السلفية الجهادية في مصر، وربما هي من أكثرها أهمية لأن الكتاب أضحى دستوراً لهذا التيار فيما بعد، لكن فرج الذي كان يناقش فرضية الجهاد في هذا العصر كما ناقش المسألة لاحقاً عبد الله عزام، زاد أن الحكم القائم في مصر هو حكم غير إسلامي وهو العدو القريب الأولى بالجهاد من العدو البعيد، والذي قد يكون الروس في أفغانستان أو حتى اليهود في فلسطين!

نظرية عبد السلام فرج

ويقول فرج: "من يريد حقاً أن ينشغل بأعلى درجات الطاعة وأن يكون في قمة العبادة فعليه بالجهاد في سبيل الله وذلك مع عدم إهمال بقية أركان الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصف الجهاد بأنه ذروة سنام الإسلام ويقول صلى الله عليه وسلم (من لم يغز أو تحدثه نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية أو على شعبة من النفاق)..

ويقول البعض إن الانشغال بالسياسة يقسي القلب ويلهي عن ذكر الله .. وأمثال هؤلاء كأنما يتجاهلون قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)، والحق يقول من يتكلم بهذه الفلسفات إما أنه لا يفهم الإسلام أو هو جبان لا يريد أن يقف بصلابة مع حكم الله.

..وهناك من يقول إن على المسلمين الاجتهاد من أجل الحصول على المناصب، وبذلك يسقط النظام الكافر وحده وبدون مجهود ويتكون الحاكم المسلم .. والذي يسمع هذا الكلام لأول وهلة يظنه خيالاً أو مزاحاً، ولكن الحقيقة أن بالحقل الإسلامي من يفلسف الأمور بهذه الطريقة وهذا الكلام بالرغم من أنه لا دليل له من الكتاب والسنة فإن الواقع حائل بدون تحقيقه .. فمهما وصل الأمر إلى تكوين أطباء مسلمين ومهندسين مسلمين، فهم أيضاً من بناء الدولة ولن يصل الأمر إلى توصيل أي شخصية إلى منصب وزاري إلا إذا كان موالياً للنظام موالاة كاملة"، وهذا اقتباس ظاهر من معادلة سيد قطب حول ضرورة الابتعاد عن مجتمع الجاهلية.

ويضيف فرج: "منهم من يقول إن الطريق لإقامة الدولة هو الدعوة فقط وإقامة قاعدة عريضة، وهذا لا يحقق قيام الدولة بالرغم من أن البعض جعل هذه النقطة أساس تراجعه عن الجهاد، والحق أن الذي سيقيم الدولة هم القلة المؤمنة ..والذين يستقيمون على أمر الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .. دائماً قلة بدليل قول الله عز وجل (وقليل من عبادي الشكور) وقوله سبحانه (وإن تتبع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وتلك سنة الله في أرضه، فمن أين ستأتي بهذه الكثرة؟ ويقول سبحانه (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين).

..ثم كيف تنجح الدعوة هذا النجاح العريض وكل الوسائل الإعلامية الآن تحت سيطرة الكفرة والفسقة والمحاربين لدين الله .. فالسعي المفيد حقاً هو من أجل تحرير هذه الأجهزة الإعلامية من أيدي هؤلاء .. ومعلوم أنه بمجرد النصر والتمكين تكون هناك استجابة، فيقول سبحانه وتعالى (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً).

ويجدر بنا في استعراض هذه النقطة الرد على من يقول إنه لابد أن يكون الناس مسلمين حتى تطبق الإسلام عليهم كي يستجيبوا لهم وكي لا تفشل

في تطبيقه، والذي يتشدق بهذا الكلام فهو إنما يتهم الإسلام بالنقص والعجز دون أن يشعر، فهذا الدين الصالح للتطبيق في كل زمان ومكان وقادر على تسيير المسلم والكافر والفاسق والصالح والعالم والجاهل ..وإذا كان الناس يعيشون تحت أحكام الكفر فكيف بهم إذا وجدوا أنفسهم تحت حكم الإسلام الذي هو كله عدل."

الهجرة والإعداد

ويرد فرج على من ينتقده معتبراً إياه أنه يجعل الدعوة وراء الجهاد مرتبة فيقول: "قد أخطأ الفهم من يفهم كلامي هذا بمعنى التوقف عن الدعوة (دعوة الناس إلى الإسلام)، فالأساس هو أن تأخذ الإسلام ككل ولكن ذلك رداً على من جعل قضيته هي تكوين القاعدة العريضة والشغل عن الجهاد ومن أجلها أوقفه وعطله.

وفي تعريض بمن يرى ضرورة الهجرة إلى مكان آمن قبل العودة إلى مصر مثلاً وتغيير النظام على طريقة الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة أيام الرسول، قال فرج: "هناك من يقول إن الطريق لإقامة الدولة الإسلامية هو الهجرة إلى بلد أخرى وإقامة الدولة هناك ثم العودة مرة أخرى فاتحين، ولتوفير جهد هؤلاء فعليهم أن يقيموا دولة الإسلام ببلدهم ثم يخرجون منها فاتحين" وذلك مع العلم أن حركة عزام والذين تابعوه على طريق الجهاد الأفغاني فيما بعد ساروا على درب الهجرة أولاً على أمل العودة فاتحين..

ويتساءل فرج: "هل هذه الهجرة شرعية أم لا؟ للإجابة على هذا التساؤل ندرس أنواع الهجرة وقد وقعت في الإسلام على وجهين:

الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن كما في هجرتي الحبشة ، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذلك بعد أن استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين، ولا عجب في ذلك فإن هناك من يقول إنه سوف يهاجر إلى الجبل ثم يعود فيلتقي بفرعون كما فعل موسى وبعد ذلك يخسف الله بفرعون وجنوده الأرض, وكل هذه الشطحات ما نتجت إلا من جراء ترك الأسلوب الصحيح والشرعي الوحيد لإقامة الدولة الإسلامية ..إذن فما هو الأسلوب الصحيح ؟ يقول الله تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيأً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) ويقول سبحانه: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .ويرد فرج على من يقول إن الطريق الآن هو الانشغال بطلب العلم، وكيف نجاهد ولسنا على علم وطلب العلم فريضة، فيقول: "لم نسمع بقول واحد يبيح ترك أمر شرعي أو فرض من فرائض الإسلام بحجة العلم خاصة إذا كان هذا الفرض هو الجهاد فكيف نترك فرض عين من أجل فرض كفاية؟ .. ثم كيف يتأتى أن نكون قد علمنا أقل السنن والمستحبات وننادي بها ثم نترك فرضاً عظمه الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ثم الذي تعمق في العلم إلى درجة أنه عرف الصغيرة والكبيرة كيف يمر عليه قدر الجهاد وعقوبة تأخيره أو التقصير فيه؟. ومن يقول أن أتعلم الجهاد ،عليه أن يعلم أن الفرض هو القتال لأن الله سبحانه وتعالى يقول (كتب عليكم القتال) .. أما تأخير الجهاد بحجة طلب العلم فتلك حجة من لا حجة له.

ويوضح الله تعالى أن هذه الأمة تختلف عن الأمم الأخرى في أمر القتال، ففي الأمم السابقة كان الله سبحانه وتعالى ينزل عذابه على الكفار وأعداء دينه بالسنن الكونية (الخسف والغرق والصيحة والريح) وهذا الوضع يختلف مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلا لهم) :قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) أي أنه على المسلم أولاً أن ينفذ الأمر بالقتال بيده ثم بعد ذلك يتدخل

الله سبحانه وتعالى بالسنن الكونية وبذلك يتحقق النصر على أيدي المؤمنين من عند الله سبحانه وتعالى."

قتال الحكام أولاً

ويتطرق فرج بعد ذلك إلى مسألة بالغة الحساسية وهي قضية فلسطين فيرفض القول إن ميدان الجهاد اليوم هو تحرير القدس كأرض مقدسة، "والحقيقة أن تحرير الأراضي المقدسة أمر شرعي واجب على كل مسلم ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف المؤمن بأنه كيس فطن، أي أنه يعرف ما ينفع وما يغير، ويقدم الحلول الحازمة الجذرية ، وهذه نقطة تستلزم توضيح الآتي:

أولاً: إن قتال العدو القريب أولى من قتال العدو البعيد.

ثانياً: إن دماء المسلمين ستنزف حتى وإن تحقق النصر .. فالسؤال الآن هل هذا النصر لصالح الدولة الإسلامية القائمة؟ أم أن هذا النصر هو لصالح الحكم الكافر وهو تثبيت لأركان الدولة الخارجة عن شرع الله .. وهؤلاء الحكام إنما ينتهزون فرصة أفكار هؤلاء المسلمين الوطنية في تحقيق أغراضهم غير الإسلامية وإن كان ظاهرها الإسلام، فالقتال يجب أن يكون تحت راية مسلمة وقيادة مسلمة ولا خلاف في ذلك.

ثالثاً : إن أساس وجود الاستعمار في بلاد الإسلام هم هؤلاء الحكام ، فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو عمل غير مجد وغير مفيد وما هو إلا مضيعة للوقت، فعلينا أن نركز على قضيتنا الإسلامية وهي إقامة شرع الله أولاً في بلادنا وجعل كلمة الله هي العليا .. فلا شك أن ميدان الجهاد هو اقتلاع تلك القيادات الكافرة واستبدالها بالنظام الإسلامي الكامل ومن هنا تكون الانطلاقة .."(الفريضة الغائبة)

قتال المرتدين الممتنعين

أما سيد إمام عبد العزيز المعروف بعبد القادر بن عبد العزيز، والذي كان في عداد أول مجموعة جهادية شكلها أيمن الظواهري في مصر في سبعينات القرن العشرين، والذي تولى قيادة تنظيم الجهاد عندما أعاد الظواهري تأسيسه في بيشاور بباكستان عام 1987، فقد ألف كتاباً مهماً هو في واقع الأمر دستور التنظيم تحت عنوان "العمدة في أحكام العدة" وفيه يؤصل للأفكار التي طرحها محمد عبد السلام فرج أول مرة في "الفريضة الغائبة" مع التشديد على إيراد الأدلة الشرعية وأقوال علماء السنة وتفصيل بعض المسائل. ويقول عبد العزيز: "ويجب البدء بقتال العدو الأقرب لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾. قال ابن قدامة: [مسألة "ويقاتل كل قوم من يليهم من العدو": والأصل في هذا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾، ولأن الأقرب أكثر ضرراً، وفي قتاله دفع ضرره عن المقابل له وعمن وراءه، والاشتغال بالبعيد عنه يُمكِّنه من انتهاز الفرصة في المسلمين لاشتغالهم عنه."

ويضيف: "قتال المرتدين الممتنعين مقدم على قتال الكفار الأصليين لأن المرتد أعظم جناية في الدين وأشد خطراً.

وهذا كشأن الحكام الذين يحكمون بغير شريعة الإسلام في كثير من بلدان المسلمين، فهؤلاء كفار، لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ، ولقوله تعالى :﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾، وغيرها من الأدلة، ومعظم هؤلاء يدعون الإسلام فهم بالكفر صاروا مرتدين.

والحق أن هؤلاء الحكام مع حكمهم بغير ما أنزل الله يُشَرِّعون للناس ما يشاءون من أحكام فهم قد نَصَبُوا أنفسهم أربابا وآلهة للناس من دون الله تعالى،

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. فكفرهم كفر مزيد مركب مع صدهم عن سبيل الله.

ويضع عبد العزيز المعادلة صريحة: "كل من شارك في وضع القوانين الوضعية أو حكَم بها، فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً من ملة الإسلام، وإن أتى بأركان الإسلام الخمسة وغيرها. وهذا هو ما قرره كثير من أهل العلم المعاصرين كما نقلتُه في الباب الثالث من هذه الرسالة عن أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ.

فهذا الحاكم المرتد إن لم تكن له منعة وجب خلعه على الفور ويُعْرض على القاضي فإن تاب وإلا قتل وإن تاب لم يرجع إلى ولايته. وإن كان الحاكم المرتد ممتنعا بطائفة تقاتل دونه، وجب قتالهم، وكل من قاتل دونه فهو كافر مثله. فكل من نصر الكافر بالقول أو بالفعل لنُصْرَة كُفْرِه فهو كافر مثله، وهذا هو حكم الظاهر في الدنيا كممتنع عن أهل الإيمان والجهاد، وقد يكون مسلماً في الباطن لوجود مانع من التكفير في حقه أو شبهة ونحوه، إلا أن هذا لا يمنع من الحكم بكفره لقيام المقتضى في حقه، وهكذا جرت السنة في الحكم على الممتنعين.

وجهاد هؤلاء الحكام المرتدين وأعوانهم فرض عين على كل مسلم من غير ذوي الأعذار الشرعية، وقد سبق أن الجهاد يتعين في ثلاثة مواضع منها إذا حل العدو الكافر ببلد المسلمين، وهذا هو حال هؤلاء المرتدين المتسلطين على المسلمين، فهم عدو كافر حل ببلد المسلمين، فقتالهم فرض عين.

وكون جهاد هؤلاء الطواغيت فرض عين، هو من العلم الواجب إشاعته في عموم المسلمين، ليعلم كل مسلم أنه مأمور شخصيا من ربه سبحانه بقتال هؤلاء. فإن هؤلاء الطواغيت يضربون سياجا من العزلة المميتة بين

عامة المسلمين وبين المتمسكين بدينهم، ليتسنى لهم ضرب المتمسكين بدينهم وسط جهل العامة وصمتهم، في حين أن كل فرد من العامة مخاطب بنفس الفريضة ما دام مسلماً وإن كان فاسقاً مرتكباً للموبقات، فإن الفسق لا يسقط الواجب.

فالواجب على المتمسكين بدينهم كسر حاجز العزلة هذا بإعلام العامة عن طريق الدعوة الفردية والدعوة العامة بفرضية هذا الجهاد، لتتحول قضية الجهاد إلى قضية جميع المسلمين لا قضية جماعات الصفوة التي تضرب في يوم وليلة، وليتحول الجهاد من قضية للخاصة إلى قضية للعامة. وهنا تنقلب الدائرة على الطواغيت وأعوانهم فيتم عزلهم بعد كشف كفرهم وإجرامهم الخطاب الشرعي بالجهاد.

ويجب على المتمسكين عزل الطواغيت عن العامة بنشر العلم الشرعي بوجوب جهادهم. وكما أخرج الطواغيت هؤلاء المتمسكين بدينهم من أموالهم وحاصروهم وضيّقوا عليهم معايشهم، فكذلك يجب على المتمسكين بدينهم إخراج الطواغيت من الأموال التي يُجَنِّدون بها الجيوش لمحاربة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ويحرم على كل مسلم دفع الأموال لهؤلاء الطواغيت في أي صورة من جمارك وضرائب ونحوها إلا مضطراً أو مكرهاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، وليكن معلوماً أنه لا شرعية لهذه الحكومات الطاغوتية ولا لقوانينها.

تكوين الشوكة

ويشدد صاحب العمدة على أن حصر هذه القضية في الخاصة "لن يأتي بثمرة التغيير المأمول لأن فيه مصادمة للقاعدة التي

لا تتبدل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وليس معنى هذا أنه يجب أن يشارك مجموع الشعب في بلد ما في هذه القضية، فهذا مستبعد، ولكن المطلوب هو أن تشارك نسبة معينة من الشعب تتكون بها الشوكة القادرة على فرض النظام الإسلامي ثم حمايته من أعدائه في الداخل والخارج، أما بقية الشعب فيكفي أن تكون متعاطفة أو على الأقل محايدة حتى يتبين لهم الحق، كذلك يجب توعية العامة بأنة من لم يستطع منهم أن يكون له دور إيجابي في مواجهة الطواغيت، فلا أقل من أن يكون له دور سلبي يتمثل في عدم معاونة الطواغيت وبتصعيد المواجهة مع الطواغيت يتصاعد بطشهم وإيذاؤهم للمؤمنين. وبذلك تدخل قضية الجهاد كل يوم بيتاً جديداً من بيوت المسلمين وتكسب الدعوة أنصاراً جدداً، حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد". وهنا أيضاً تبن واضح لفكرة الطليعة أو الصفوة أو القلة التي تغلب الكثرة، وهو ما يتفق عموماً مع فكرة عبد الله عزام فيما أسماه القاعدة الصلبة، لكن نقطة الخلاف الرئيسية بينه وبين السلفية الجهادية المصرية تبقى حول قتال الحكام المرتدين حيث يؤكد عبد العزيز أن "قتال هؤلاء مقدم على قتال غيرهم من الكفار الأصليين من يهود ونصارى ووثنيين، وهذا من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه جهاد دفع متعين وهو يقدم على جهاد الطلب، أما كونه جهاد دفع فهذا لأن هؤلاء الحكام عدو كافر تسلط على بلد المسلم، وكونهم مرتدين وكونهم الأقرب إلى المسلمين والأشد خطراً وفتنة) .العمدة في أحكام العدة)

انقلاب الظواهري

عبد القادر بن عبد العزيز الذي اعتُبر في مرحلة معينة من أقرب المقربين إلى الظواهري، تخلى عن التنظيم ولجأ إلى اليمن حيث قُبض عليه بعد أحداث 11 أيلول وسُلم إلى السلطات المصرية في 2004/2/28 م. ويؤكد المحامي منتصر الزيات رفيق درب الظواهري ومحامي الجماعات الإسلامية

ثم المروّج الرئيسي لمبادرة الهدنة التي أطلقتها الجماعة الإسلامية عام 1999، أن خلافاً فقهياً فرّق بين سيد إمام والظواهري، وأن كتاب "الجامع في طلب العلم الشريف" للأول هو الذي كان السبب.

إتهامات عبد القادر

ويقول سيد إمام في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه المذكور: "قامت إحدى الجماعات الإسلامية وهي جماعة الجهاد المصرية بطبع كتابي هذا بعد تغيير اسمه وبعد الحذف منه والإضافة إليه، فاقتضى هذا إصدار بيان للتنبيه على مافعلته هذه الجماعة."

وهذا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرّ منه حتى تلقوا ربكم) رواه البخاري، وقوله صلى (تأتي الفتن يُرَقّقُ بعضها بعضاً) الحديث رواه مسلم، فإن الذي فعلته هذه الجماعة الأثيمة من تحريف كتب العلوم الشرعية لا سابقة له في تاريخ المسلمين فيما علمته، فهذا من الشرور الحادثة، وقانا الله من مضلات الفتن.

وقد علمت بأن الباعث لهذه الجماعة الأثيمة على ما أقدمت عليه من التحريف والتزوير لكتابي قولهم بأنه اشتمل على نقد لبعض الجماعات الإسلامية وأن هذا يضر بالعمل الإسلامي وأن المصلحة تقتضي حذف هذا النقد وهو مااقترفته أيديهم، وأعلّق على هذا بأمرين:

أحدهما: إن المصلحة الشرعية الحقة هى في تمييز الحق من الباطل، أما السكوت عن الباطل فليست فيه مصلحة وإنما هو تلبيس على المسلمين واتباع للهوى، وهذا بخلاف مراد الله في قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ آل عمران، وقوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم، أولئك هم الخاسرون﴾ الأنفال.

فتمييز الخبيث من الطيب أمر محبوب لله تعالى أراده شرعاً وقدراً، وعلى هذا فالقول بأن كتمان النقد الذي ورد بكتابي فيه مصلحة هو قول فاسد مضاد لأمر الله.

والأمر الثاني: أن أغلب المعاصي العظيمة ما ارتكبت إلا بتأويل فاسد، فإبليس عصى بامتناعه عن السجود لآدم بتأويل فاسد وهو قوله ــ فيما حكى الله تعالى ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، والكفار استحلوا الربا بتأويل فاسد وهو قولهم ــ فيما حكى الله تعالى ــ ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ واليهود والنصارى استمروا في كفرهم وضلالهم بتأويل فاسد وهو قولهم ــ فيما حكى الله تعالى ــ ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾، ولهذا وصفهم الله تعالى بقوله ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾، أما هذه الجماعة الأثيمة فاقترفت مااقترفته من التحريف والتزوير بتأويل فاسد وهو المصلحة المزعومة، وكل التأويلات الفاسدة ماهي إلا تقية يدرأ بها العاصي عن نفسه."

ولم يكتف سيد إمام بذلك بل حذر من "الكذب والتزوير والخداع الذي تقوم به جماعة الجهاد المصرية"، وأن الله مَنّ عليه بتأليف" كتاب اشتمل على ما يلزم طالب العلم الشرعي منذ أن يشرع في طلبه إلى أن يصير مفتياً إن وفّقه الله لذلك، وذلك على التفصيل.. واشتمل أيضا على نقد شرعي لأخطاء بعض المؤلفين من القدامى والمعاصرين، ودخل في هذا النقد المؤلفات الشرعية لبعض الجماعات الإسلامية ونقد الأساليب العملية غير الشرعية للبعض الآخر، وقد كان مقصدي من هذا أن يعلم المسلمون بعض مواضع الخلل في العمل الإسلامي المعاصر، وأن يعلموا بعض أسباب الخذلان الملازم للحركات الإسلامية في الأغلب الأعم ..وأن الشك في صحة مناهج الحركات الإسلامية العلمية أو العملية خير من الشك في صدق وعد الله تعالى". وأكد في

السياق أنه لا ينتمي لأي جماعة إسلامية حتى لا أتهم بمحاباة أحد، وأنما كتب من وجهة علمية محايدة وانتقد نقداً شرعياً "غرضه تصحيح الأخطاء وكشف الانحرافات قياما بواجب النصيحة لله ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولعموم المسلمين."

والأخطر أن القائد السابق لجماعة الجهاد وصفها بـ"الجماعة الضالة" وأنها وضعت عنواناً لكتابه غير الذي وضعه فأسمته (الهادي إلى سبيل الرشاد في معالم الجهاد والاعتقاد) مع أنه ووضعت تحت العنوان المفتَري اسمه، "وهذا كذب علي، وبهذا ثبت أن القائمين على أمر هذه الجماعة كذابون، والكذب كبيرة، ومرتكب الكبيرة فاسق عند أهل السنة، ولو كان لديهم شيء من الورع مافعلوا ذلك."

من ناحية أخرى، "حذفت هذه الجماعة الضالة المقدمة التي وضعتها للكتاب وقد ذكرت مجمل ماورد بها آنفاً، ووضعوا مقدمة أخرى للكتاب ونسبوها إليّ، وهذا كذب وافتراء وفسق، وقد قال تعالى ﴿إنما يفتري الكذب الذين لايؤمنون﴾.

ورغم من أنه قد ذكر في مقدمة كتابه أنه لا يحل لأحد أن يختصره، "فقد قامت هذه الجماعة الضالة باختصاره بل بتمزيقه مزّق الله أوصالهم، فقد اختصروا الكتاب في نصف حجمه الأصلي البالغ نحو ألف صفحة من القطع الكبير، وإنما حملهم على هذا ما ورد بالكتاب من نقد شرعي لبعض الجماعات الإسلامية، وهذا الذي صنعوه لم تفعله أشد الحكومات إجراماً وطغياناً مع كتابات مخالفيها، غاية ما تفعله تلك الحكومات أن تمنع نشر كتب مخالفيها، أما أن تحرّفها وتعبث بها بالإضافة والحذف فلا أعلم حكومة طاغية فعلت ذلك، فإذا كانت هذه الجماعة الضالة تعبث بكتب العلوم الشرعية هذا العبث مع

استضعافها فكيف تصنع إذا تمكّنت؟ بل كيف يرجو هؤلاء الكاذبون الضالون تمكينا من الله؟"

وخلص سيد إمام إلى القول: "إن ما صنعته هذه الجماعة هي أفعال عصابة من المفسدين المستخفين بالدين، لا أفعال جماعة من المسلمين، ولايحل لمسلم أن ينتمي لأمثال هؤلاء أو أن يعينهم". وهذا كله ما بين عامي 1994 و 1995 أي قبل أن تنشأ الجبهة الإسلامية العالمية لمقاتلة اليهود والصليبيين بالمشاركة مع أسامة بن لادن وقبل أن يتحول الظواهري من العدو القريب (الأنظمة العربية) إلى العدو البعيد (الولايات المتحدة).

بدايات تنظيم الجهاد

وحسب المحامي هاني السباعي المطلوب في مصر بالقضية المعروفة باسم "العائدون من ألبانيا" عام 1999 فقد ظهرت جماعات جهادية عدة في مصر بدءاً من حقبة الستينات، لكن (جماعة الجهاد) تحديداً ظهرت على يد الدكتور ايمن الظوهري. وكانوا لا يزالون فتياناً في الثانوية العامة في مدرسة المعادي؟ وقال الظواهري للسباعي إنه تأثر أول ما تأثر بكتابات سيد قطب وحادثة الحكم بإعدامه عام 1966، وتأثر كذلك بمشروع هذا الرجل من خلال القراءات والكتابات البليغة والوضوح في تشريح الواقع، حيث وصف الظواهري سيد قطب "بأنه مثل الطبيب الشرعي الذي يشرّح الجثة بمهنية وتقنية عالية وكأنه يعرفها بأدق تفاصيلها."

وكانت هزيمة 5 يونيو (حزيران) 1967 عززت اقتناع اعضاء المجموعة الأولى بزعامة الظواهري كما يؤكد السباعي بضرورة العمل من أجل التغيير. "وكانت المجموعة منشغلة آنذاك في فترة السبعينات في التدريس وتجنيد الأفراد وتوسيع العضوية. وهم كانوا في تلك الفترة يركّزون على الجيش ويبحثون عن الضباط لأنهم يعرفون ان الجيش هو أسهل ورقة للتغيير بدون اهدار دماء.. واستمرت الجماعات التي تحمل أفكاراً جهادية تعمل في

شكل منفرد حتى أواخر السبعينات تقريباً .وفي 1979 حصل تحـالف بينهـا فتوحدت, وهي التي كانت مسؤولة عن قتل السادات.

.والجماعة الإسلامية في تلك الفترة لم تكن بـالمعنى الإصـطلاحي الحالي المعروف بعد قتل السادات. كانت عندهم فكرة تغيير المنكـر بـالقوة, وكانت لهم مشاكل كثيرة مع النصارى هناك. لكن لم يكن اسـمهم (الجماعـة الإسلامية) بالمعنى الرائج الآن. يقول بعضهم الآن في كتاباتـه, إن الجماعـة الإسلامية تأسست بهذا الاسم. لكن هذا الاسـم ختـراع قـديم لـــ(الإخوان المسلمين) اعتمدوه ليدخلوا الجامعات ومن ضمنها جامعة أسيوط والمنيا. لكـن الإخوة في (الجماعة الإسلامية) أرادوا ان يرثوا الإسم لأنه كان اسماً معروفـاً ومشهوراً. كانت الجماعة الإسلامية عبارة عـن مجموعـة مـن الأشـخاص يقومون بنشاطات في الجامعات مثلاً أو يدعون النساء الى ارتـداء الحجـاب ومنع الاختلاط ويقومون بمشاكل مع النصارى في مناطقهم. لم تكن مسألة قيام الدولة قائمة في تصورهم. أقصى ما كان

نشأة التيار السلفي:

نشأ التيار السلفي في السعودية عام 1744 عندما عرفت منطقة نجـد تحالفا بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود احد الزعماء القبليين ودشن لقاء الرجلين تقاسما لشؤون الدين والدنيا عرف باتفاقية الدرعية وطبـع السعودية بطابعه حتى الوقت الراهن،ومن نتائج هذا التحالف نشأة الإخوان أو الوهابيين ومنذ ذلك التاريخ ظل التحالف بين أسرة آل سعود وال الشيخ متصلا حتى نشأت حركة الإخوان الوهابيين عام 1912 في منطقة الارطاوية التابعـة لقبيلـة مطيـر وقـاد الحركـة الشـيخ عبـد الكـريم المغربـي. تحالف الملك عبد العزيز حفيد محمد بن سعود مع الوهابيين خـلال تشـكيل الدولـة السـعودية الثالثـة فكـانوا نـواة جيشـه. كان الملك عبد العزيز يخشى على الدولة من قوة الوهابيين لذلك وظفهم فـي

أجهزة الدولة على شكل "مطاوعة" منشئا هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

شكلت حرب الخليج الثانية منعطفاً مهماً في تاريخ الدولة السعودية، فقد أعادت تشكيل التيار السلفي وصياغته في السعودية. وكان قدوم القوات الأميركية العام ١٩٩٠ بهدف تحرير الكويت قد أثار سخطا عارما ودفع هذا الأمر التيار السلفي الراديكالي إلى تحرير خطاب المطالب الذي وجهوه إلى الملك في شوال من العام ١٤١١ (مايو- أيار ١٩٩١) وقد جاءت المطالب كالاتي: إنشاء مجلس للشورى للبت في الشؤون الداخلية مع عرض وصياغة كل اللوائح والأنظمة السياسية والاقتصادية والإدارية وغيرها على أحكام الشريعة الإسلامية، ومن ثم إلغاء كل ما يتعارض معها، ويتم ذلك من خلال لجان شرعية موثوقة ذات صلاحية.وان تتوافر في مسؤولي الدولة وممثليها في الداخل والخارج استقامة السلوك مع الخبرة التخصص بالإضافة إلى تحقيق العدالة والمساواة بين جميع أفراد المجتمع دون محاباة للشريف أو منة على الضعيف. كما طالب الخطاب بإقامة العدل في توزيع المال العام بين جميع طبقات المجتمع وفئاته، وإلغاء الضرائب وتخفيف الرسوم مع إعادة بناء الإعلام بكافة وسائله بما يخدم الإسلام، ويعبر عن أخلاقيات المجتمع ونادى الخطاب بتطوير المؤسسات الدينية والدعوية في البلاد، ودعمها بكل الإمكانات المادية والبشرية.

التيار الجهادي:

تمكن الآلاف من السعوديين المشاركين في الحرب الأفغانية ضد الاحتلال السوفيتي من الاختلاط بالجماعات الإسلامية هنالك والتأثر بها. ويشكل هؤلاء «الأفغان السعوديون» جسب رأي المراقبين نواة الجهاد السلفي في السعودية. وكانت علاقة أسامة بن لادن وثيقة بهذا التيار السلفي الجهادي فقد شارك مع الأفغان ضد الغزو الشيوعي وكان له حضور كبير في معركة

جلال آباد التي أرغمت الروس على الانسحاب من أفغانستان. وقد أسس ما أسماه هو ومعاونوه بـ «سجل القاعدة» العام 1988، وهو عبارة عن قاعدة معلومات تشمل تفاصيل كاملة عن حركة العرب في أفغانستان قدوما وذهابا والتحاقا بالجبهات، ومن هنا أطلق على التنظيم «القاعدة» و«التيار الجهادي» على العكس تماما من (التيارات الإصلاحية ولجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية) يرى انه لا جدوى من الحوار مع الحكم فى السعودية بل ويتهمه بالكفر وللتيار كتب تؤصل للخروج على النظام السعودي اشهرها كتاب الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية لابي محمد المقدسي وكتاب غزوة الحادي عشر من ربيع الاول (عملية شرق الرياض) وحربنا مع امريكا وعملائه من اعداد مركز الدراسات والبحوث الاسلامية. ويرى انصار هذا التيار انه منذ تنفيذ انفجارات الرياض تم تكليف وسائل الإعلام بالحديث عن التيار الجهادي كما لو كان فكرا تكفيريا إقصائيا لا يختلف أبدا عن جماعات التكفير والهجرة. وهذه المحاولات(كما يرى انصار التيار) «فاشلة لأن التيار الجهادي ليس فيه أي أدبيات تكفيرية تشبه برنامج التكفير والهجرة. والدولة ربما لا تعلم أن فتح هذا الباب خطير وضار لها لأن التكفير الوارد في أدبيات التيار الجهادي لسوء حظ الدولة هو المنهج نفسه الذي قام عليه علماء الدعوة النجدية (الوهابية)، وبهذا يكون لدى الدولة خياران إما التناقض والهزيمة الفكرية أو التخلي عن نفس ما يسمى بالفكر الوهابي.

شيعة السعودية:

ينتشر الشيعة بأعداد متفاوتة في مناطق المملكة المختلفة، لكن نطاق تمركزهم وثقلهم الأساسي هو شرق الجزيرة العربية أو ما كانت تعرف قديما بالبحرين التي تشمل تاريخيا (مملكة البحرين حاليا) والخط (القطيف) وهجر (الأحساء). وتاريخ التشيع في المنطقة قديم، وبعضهم يعود به إلى عهد الإمام علي ابن أبي طالب الخليفة الرابع. وقد أنجبت المنطقة العديد من الصحابة

والتابعين والشعراء المبرزين، وتميزت المنطقة (البحرين القديمة) باندلاع الثورات والانتفاضات المبكرة ضد الدولة الأموية ثم الدولة العباسية، التي تكللت بسيطرة القرامطة في نهاية القرن الثالث الهجري التي جعلوها قاعدة لحكمهم ومنطلقا لحملاتهم ضد المراكز والعواصم العربية (العراق والشام ومصر)، واستمرت سيطرتهم قرابة 150 عاما.والشيعة في المنطقة الشرقية ينتمون مذهبيا إلى الإمامية الاثني عشرية (الجعفرية) وهم من الحضر المستقرين الموجودين منذ قرون عدة ضمن مدن وقرى حضرية، ويمارسون مهنا ثابتة مثل الزراعة والحرف والصيد، وهم في غالبيتهم ينحدرون من قبائل ربيعة (عبد القيس وبكر بن وائل) ومن قبائل وعشائر أخرى وفدت من نجد وغيرها لأسباب اقتصادية من مناطق أخرى، ومن أهمها قبيلة بني خالد التي استقرت وتحضرت وذابت ضمن النسيج المحلي للسكان.

العلاقة بين الشيعة والتيار السلفي :

بدأت العلاقة بين التيار السلفي وأتباع المذهب الشيعي بالتوتر بعد مؤتمر الأرطاوية الذي عقد العام 1926 الذي اجتمعت فيه قبائل الإخوان السلفية وقد أحال الملك عبد العزيز بعد ذلك بحوالي سنة في مؤتمر الرياض في كانون الثاني – يناير – 1927 مطالب الإخوان إلى العلماء طالبا الإفتاء في شأنها، فأفتوا أنه في ما يتعلق بالشيعة على عبد العزيز أن يلزمهم البيعة على الإسلام لم ينفذ الملك عبد العزيز من بنود الفتوى إلا منع الشيعة من ممارسة العزاء الحسيني علانية، وقام بهدم ما نصب على القبور في مقبرة البقيع في المدينة المنورة وغيرها من المقابر التي يراها بعض المسلمين ومنهم الشيعة مقدسة. وقد كان للتماس والجوار بين نجد ومناطق يكثر فيها الشيعة دور في تعاظم الصراع السلفي الشيعي وكانت هذه الممارسات والانتهاكات الخطيرة قد أدت إلى أن يعيش الشيعة محنة شديدة، حيث تم إغلاق مساجدهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم وفرض عليهم إعادة تأكيد إسلامهم.

وكان للتطورات الاخيرة التى جرت عقب هذه المعاهدة ان شهد التيار الشيعي في المملكة متنفسا وانفراجة واسعة نتيجة للتحولات الدولية وعليه تقدم اكثـر من اربعمائة من قيادات الطائفة الشيعية بعريضة سلمها وفـد ترأسـه حسـن الصفار مقدمين مطاليبهم التي عبرت عنها وثيقتهم «شركاء في الوطن». وفيها اكد الشيعة ارتباطهم وانتماءهم النهائي لوطنهم السعودية وأن مطالبهم تتقـاطع وتندمج مع المطالب والتطلعات الوطنية المشتركة فـي ضـرورة الإصـلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي وإشاعة ثقافة التسامح والقبول بالآخر، وهذا يستدعي بالضرورة إقامة دولة القانون والمؤسسات (دولـة كـل المـواطنين المتساوين في الحقوق والواجبات) التي تضع حدا لكل التجـاوزات ومظـاهر الفساد المالي والإداري والتأكيد على الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية ـ المنتخبة وليست المعينة ـ والقضائية وإطـلاق وتطـوير خطـاب دينـي وإعلامي وثقافي متنور يحترم ويتقبل التعددية السياسية والاجتماعية والثقافيـة والمذهبية.

بداية ظهور التيار السلفي الجهادي:

ظهر التيار الجهادي للمرة الأولى عام 1978وشهد عام1979 حادثين بغاية الأهمية:

الأول: نجاح الثورة الإسلامية في إيران والحـدث الثـاني الاحـتلال الشيوعي(الاتحاد السوفيتي السابق)لأفغانستان،لقد حفز هذان الحادثـان التيـار الجهادي.

لقد انبثق التيار السلفي الجهادي في السعودية من رحم المدرسة السلفية التقليدية المتحالفة تاريخيا مع آل سعود في الثمانينات من القرن العشرين اثـر اجتياح الجيش السوفيتي لأفغانستان ومع توجه أمريكا للاستعانة بالإسلام فـي مواجهة الشيوعية الزاحفـة آنـذاك نحـو الميـاه الدافئـة ونفـط الخلـيج. هذا التيار تعضد بالمجاهدين العرب الذين قادهم الدكتور عبد الله عزام وهـو

وان كان من جماعة الإخوان المسلمين ابتداء لكنه تأثر أكثر بفكر سيد قطب المتميز عن المقولات الرسمية للإخوان ويمثل عزام مدرسة اخوانيسة متأثرة بالسلفية دون أن تذوب فيها ،كما أن سلفية أخرى كانت قد نشأت في مصر الرافد الثاني لتنظيم القاعدة لاحقا وهي تتخطى المنطق السني التقليدي وكذلك التوجهات السلفية المعروفة التي تتحفظ على أي محاولة للثورة ضد الحاكم الظالم مادام مسلما في الظاهر ،وهي سلفية جهادية بهذا المعنى وانطلقت إلى أفغانستان وهي تحمل هذا الفكر المعتمد على كتابات ابن تيمية بشكل أساسي وهناك في أفغانستان تفاعل التياران المتشابهان المترادفان ،فابتعد السلفيون الجهاد يون السعوديون تدريجيا عن المرجعية التقليدية دون أن يتخلوا عن ميراث محمد بن عبد الوهاب وتميز السلفيون القطبيون (المصريون وغيرهم)على مراتبهم المختلفة عن تيار الإخوان بل انشقوا عنهم قولا وفعلا في نهاية الطريق.

وحين تمكنت حركة طالبان من السيطرة على معظم أفغانستان بات على القاعدة التعامل مع سلفية من نوع أخر لاعلاقة لها بالوهابية لكنها تلتقي معها في كثير من الأمور،فالطالبانيون تابعون مذهبيا للإمام أبي حنيفة النعمان وهو رأس مدرسة الرأي لدى أهل السنة .

وفي أفغانستان اندمج التياران السلفيين المتعاضدين في البداية المندمجين أخيرا في ما يسمى ب"قاعدة الجهاد" والمؤلفة من تنظيم القاعدة(بن لادن)والجهاد الإسلامي(الظواهري)

فإذا كان عبد الله عزام واسطة العقد بين التنظيم الدولي للإخوان المسلمين والتيار الجهادي الطري العود آنذاك، فان الظواهري الذي هو جسر العبور للمجاهدين العرب وعلى رأسهم أسامة بن لادن من العقيدة السلفية التقليدية إلى عقيدة الولاء والبراء المكفرة أخيرا للدولة السعودية الحالية .

فإذا كانت أغلبية المجاهدين العرب أيام عزام من الحركيين والسلفيين التقليديين فان الكتلة الرئيسية في تنظيم "القاعدة"الآن من المنشقين عن التيارات الإسلامية الرئيسية.

نشأة الحركات الجهادية في كردستان العراق:

بعد سقوط الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة 1924قام بعض العلماء بحض الناس على مقاومة العلمنة الاتاتوركية ودعوتهم للتمسك بالهوية الإسلامية ومن هنا كانت البداية للتنظيمات الحركية الإسلامية، لكنها لم تظهر إلى الوجود في مناطق الأكراد بصورة عانية ومنظمة إلا في عام 1952 على يد جماعة الإخوان المسلمين لكن السلطة المركزية(حزب البعث) في العراق حلت تنظيم الإخوان المسلمين سنة1971 لكن الجماعة ظلت قائمة بصفة غير رسمية ،وفي نهاية الستينات ظهر التيار السلفي بقوة وخاصة مع انتشار وسائل الإعلام والاحتكاك المباشر في مواسم الحج والعمرة وقوافل الدعاة وفي سنة1978 ظهر في كردستان فكر سلفي على غرار(الأنموذج السعودي)وفي نفس الوقت ظهر تيار جهادي للمرة الأولى تحديدا عام 1978ثم يأتي عام1979 بحادثين هامين:نجاح الثورة الإسلامية في إيران والاحتلال السوفييتي لأفغانستان لقد حفز هذان الحادثان التيار الجهادي لتشكيل أول جماعة مسلحة عام1980 (الجيش الإسلامي الكردستاني) في جبال كردستان ثم ظهرت(الرابطة الإسلامية الجهادية)و(تنظيم الحركة الإسلامية).

نشأة الجماعات الإسلامية في مصر:

وكانت البداية عند جماعة الإخوان المسلمين هذه الجماعة التي بدأت بالإمام حسن البنا بداية قوية ثم انحرف الإمام حسن البنا عن أهدافه التي أسسها وأصبح للإخوان مطالب في الحكم بعد أن كانت مطالبهم قاصرة على إقامة الدولة الإسلامية والإصلاح المعاصر
في البداية انزلق الإمام البنا إلى الصفقات ولعبة التوازنات السياسية مع القصر

في صفقة مفيدة للطرفين عكست رغبة الإخوان في السلطة ورغبة الملك فاروق في الخلاص من صداع الوفد والنحاس.

واغتيل الإمام البنا انتقاما من إقدام الجماعة على اغتيال النقراشي ،تولى أمر الإرشاد بعده المستشار حسن الهضيبي والذي استجاب لمحاولات الصلح مع القصر وقابل الملك فاروق وخرج من عنده ليقول للصحفيين تعليقه الشهير " زيارة كريمة لملك كريم " وهو التعليق الذي حدد استمرار الجماعة في لعبة التوازنات السياسية سعيا للسلطة مع كل ما عرف في ذلك الوقت عن فاروق ومفاسده والتي لا تتفق بالقطع مع نزاهة التعليق من الهضيبي وتغيرت الأحوال بعد الثورة في عام 1952 ،فقبل قيام الثورة انعقدت بعض الاتفاقات بين الثوار الجدد وبين الإخوان وتصور كل طرف في صاحبه أنه مخلب القط للوصول لسدة الحكم وبعد استقرار الأمر للثوار تحت قيادة جمال عبد الناصر اثر أزمة مارس 1954وقع الصدام المحتوم عندما تكشفت النوايا فلم يعد الضباط لتكنات الجيش ويسلموا الحكم للإخوان كما تصوروا وأيضا لم يلتزم الإخوان في سياق المعاونة فقط كما تصور الضباط وبدأت أقسي أزمة للإخوان في تاريخها وتلقفت المعتقلات منهم الكثير، وظل الحال كما هو عليه حتى أمسك السادات بمقاليد الأمور في الحكم بعد فراغه من أزمة مراكز القوى عام 1971 وأزمة تحرير الأرض عام 1973.

وكانت الجماعة في ذلك الوقت تحت قيادة عمر التلمسانى وما زالت علاقتهم بالسادات باعتباره من كبار الضباط الأحرار على ما هي من العداء التاريخي بين الفريقين وتدخل في ذلك الوقت الاقتصادي المصري المعروف المهندس عثمان أحمد عثمان وسعى لوصل المقطوع بين الطرفين بما له من نفوذ ساحق في الحياة السياسية المصرية وعلاقة جيدة بعمرالتلمسانى .وجلس المرشد العام على مائدة المفاوضات مع الرئيس السادات واتفق الطرفان على الآتي :

(عودة الإخوان للحياة السياسية بالشرعية الغائبة عنهم منذ الصدام الأخير بالإضافة إلى فتح المجال على آخره أما التيارات الدينية في الشارع والمؤسسات المصرية وبرعاية السلطة الرسمية على أعلى مستوياتها وبالمقابل يكون على الإخوان باعتبارها المسيطرة على التيار الديني العمل بالجهد الكافي لإنهاء سطوة التيارات المناوئة للسادات في الحياة السياسية وعلى رأسهم التيارات الناصرية والشيوعية والتقدميين).

ولم يدرك أيا من الطرفين عواقب الأمر إلا بعد فوات الأوان فلم يكن التيار الاخوانى زعيما على مختلف التيارات الدينية ولا كان صداع الناصريين والشيوعيين بالخطورة التي تصورها السادات .. خاصة مع انحسار الباب بشدة أما الناصرية والشيوعية وعدم نفاذهما بالقدر الكافي إلى الشارع المصري وذلك لمخالفة مثل هذه الدعاوى للفطرة الشعبية المصرية الأكثر انفتاحا على الجانب الديني بحكم متغيرات التاريخ والثقافة الحاكمة للشعب المصري والأكثر خطورة هو ظهور التنظيمات الخاصة بالجماعات الإسلامية من رحم الإخوان في فترة المعتقلات وسعيها الكامل للاستقلال عن الإخوان وهو ما حدث بالفعل حتى هاجموا الإخوان أنفسهم واتهموهم بخيانة عهد بناء الدولة الإسلامية وعليه سعت الجماعات لأخذ المبادرة من يد الإخوان في الشارع المصري .كل هذا والإخوان والسلطة الرسمية في حالة غياب كامل عما يحدث واستفادت الجماعات من الحرية والحماية الكاملة من الدولة في إطار الصفقة المتبادلة وانطلقت تجمع الأتباع ضد النظام نفسه الذي كان سببا في خروجها وانفتاحها وساعدها النظام بالغفلة في بداية الأمر وبالممارسات الحمقاء بعد اكتشاف الأمر ومع أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات ظهرت الحمم واستعد البركان للانفجار وبلا رحمة المواجهة:سيطرت الجماعات الإسلامية على النقابات والجامعات وبدأت في فرض سطوتها بالسلاح تحت رعاية الدولة وفيما بعد ومع تصاعد نبرة الانتقاد والهجوم الكاسح من

الجماعات ضد النظام الحاكم وبعض الممارسات المستفزة والتي استغلتها الجماعات لاستقطاب الأنصار تحت دعاوى كفر النظام. وبمزيج من ممارسات النظام وجهل الشباب بأصول الدين الصحيحة زادت شوكة الجماعات، ويمكن القول أن الجماعات الإسلامية كانت لها تنظيمات ثلاث رئيسية:

الأول." تنظيم الجهاد ". والذي بدأ مع سالم الرحال الطالب الأردني الجنسية بالجامعات المصرية .. وفيما بعد نشأ تنظيم الجهاد الثاني على يد محمد عبد السلام فرج مؤلف كتاب " الفريضة الغائبة " والذي يعد دستور التنظيم .. وهو أيضا أحد المتهمين الرئيسيين في قضية اغتيال الرئيس السادات في أكتوبر عام 1981

الثاني " حزب التحرير الاسلامى " وهو التنظيم الذي أسسه الدكتور صالح سرية والذي قام بالعملية المعروفة باسم عملية الكلية الفنية العسكرية والتي هاجم فيها مع مجموعة من رفاقه مبنى الكلية الفنية العسكرية بالقاهرة وتم إلقاء القبض عليهم وحوكموا ونال بعضهم أحكاما بالإعدام .

الثالث " التكفير والهجرة " وهو التنظيم الذي أنشأه شكري مصطفى واشتهر هذا التنظيم باختطافه الشيخ الذهبي وزير الأوقاف وقتها وهددوا باغتياله لو لم يتم إعلان وثيقتهم في وسائل الإعلام والتي تحوى على اتهامات بتكفير النظام وخروجه عن جادة الشريعة ونفذوا تهديدهم بالفعل وقتلوا الإمام الذهبي .

نشأة الجماعات الإسلامية في سوريا:

الإخوان المسلمين:

ظهر كيان الإخوان المسلمين في سوريا عام 1944 بقيادة مصطفى السباعي، وتكونت هذه الجماعة من عدة جمعيات إسلامية مرتبطة مباشرة بالمرشد العام، وفي عام 1946 عقدت الجماعة أول مؤتمر لها في بيروت

وذلك بعد إعلان حسن البنا تحول الجماعة المصرية إلى جماعة عالمية وتـم تمثيل التنظيم القطري بالدكتور مصطفى السباعي و نائبه عمر بهاء الأميـري وتميز الإخوان السوريون عن أشقائهم المصريين بأنهم كـانوا يـدعون إلـى الإصلاح ويؤمنون بالتعددية الحزبية ولكن هذه الميزة قسمت الإخـوان إلـى قسمين احدهما ليبرالي بقيادة مصطفى السباعي والأخر راديكالي بقيادة عبـد المجيد الطرابلسي وهذا ما حدا بالجماعة قبيل مؤتمر حمص عـام 1953 أن تتخذ قرار عدم التدخل في الميادين السياسية وجاء ذلك موافقا لرغبة الإخوان في مصر تجنب الصدام مع جمال عبد الناصر آنذاك ومع ذلك قام عبد الناصر قام بإعدام واعتقال العديد من الإخوان في مصر وكما أن الظروف السياسـية في سوريادت إلى عودة الجماعة إلى العمل السياسـي مـن اجـل محاربـة الشيوعيين والناصرية والاشتراكية ومن اجل هذه القضية وقضية فلسطين قبل الإخوان الوحدة مع مصر رغم تاريخ عبد الناصر ضد الإخوان ولكنه تعـاون مع الإخوان في سوريا في محاربة الشيوعيون الذي كان يدعمهم العراق، وهذا ما دفعهم لرفض الانفصال عن مصر رغم موافقة كافة الأحزاب الأخرى وبعد عام 1963 تفرد البعثيون بالسلطة، وأصدروا قانون الطـوارئ الـذي جعـل الجماعة ضد هذه السلطة وبدأ ذلك بالعمليـات السـلمية مثـل المظـاهرات والإضرابات وغيرها ومن أشهرها :

1- إضراب حماة الذي استمر 29 يوما وبالرغم من هذه المدة إلا إنه لـم ينتقل إلى المحافظات الأخرى وذلك بسبب أن القيادة العام لـم تكـن موافقة على الامر،و هذا ما يفسر ظهور تيار راديكالي في حماة:

2- حاولت الجماعة استغلال الأوضاع الفوضوية بين أجنحة البعث حيث توالى الحكم امين الحافظ ثم انقلب عليه صلاح جديد الذي قام باعتقال قيادات المعارضة مما جعل المعارضة تتفق عليه وخاصة بعد هزيمة 1967، وايد العطار حافظ الاسد بانقلابه على صلاح جديد وهذا كان

احد اسباب الانشقاق الكبير الذي حدث عام 1970، ومن اسبابه ايضا عدم وجود رؤية واضحة ومتفق عليها في كثير من المسائل اهمهـا: هل الجماعة جماعة سرية أم علنية، وهل هي ذات طبيعـة دعويـة سلمية أم قتالية، ومثل هذه المسائل شقت صفوف الجماعة إلى اربعـة جماعات الاولى جماعة حلب بقيادة عبد الفتاح أبـو غـدة، والثانيـة جماعة دمشق بقيادة عصام العطّار، والثالثة دعت إلى تخلـص مـن الجماعتين السابقتين بقيادة مروان حديد، ورابعـة تسـمى المراكـز المتفقة، وظل هذا الانشقاق رغم كل المحاولات الاصلاح بينهما إلـى أن اعيد بناء التنظيم العالمي الذي تـدخل وقـام باصـلاح جماعـة عبدالفتاح ابوغدة مع المراكز المتفقة واجرى انتخابات جديدة وحصل عدنان سعد الدين على صفة المراقب العام واصبحت هـذه الجماعـة المعترف فيها رسميا من قبل التنظيم العالمي، أما جماعة العطار فلـم تعترف بالوضع الجديد واستمرت بالعمل تحت اسم الطلائع الاسلامية، أما كتلة مروان حديد فقد انشئت ما يسمى بالطليعة المقاتلة لحزب الله.

دور الطليعة المقاتلة لحزب الله في الأحداث عام 1982:

1- القيام باعمال شغب ضد المراكـز و المنظمـات و المقـاهي و الخمارات وذلك بسبب تعديل القانون عام 1973 ولكـن الاسـد تجاوز ذلك بتوصية مجلس الشعب بالإبقاء على فقرة وأن يكـون الدين الإسلامي دين رئيس الدولة .

2- اعلن مروان حديد الجهاد المسلح ضد الحكومة الكافرة .

3- القيام بإول عملية جهادية ضد العلويين باغتيال محمد غرة رئيس فـرع المخـابرات العسـكرية في–مجزرة المدفعيـة فـي حلـب عـام 1979ونفـذت باسـم طليعةالاخوان المسلمين.

موقف القيادةالأحداث من وردالسلطةعليها :

لم يكن لدى القيادة العامة فكرة عن قوة التنظيم، وظن المراقب العام عدنان سعد الدين انه استطاع السيطرة على الطليعة بسيطرته على قيادته عبد الستار الزعيم، ولكن مجزرة المدفعية اربكت القيادة حيث كانت تستعد للمواجهة مع النظام، ولكن هذه العملية قامت بتمزيق كثير من شبكات الاتصال ذلك بسبب عمليات اعتقال الكثير من الإخوان واعدام بعضهم، وهناك احصائيات تقول باعتقال 13300 اسلامي ما بين عامي 1976-1981 و تميزت الاعوام 1979-1982بالعنف السياسي من خلال التظاهرات واحداث الشغب و تمردات ومعارك الشوارع والمداهمات الأمنية و التوتير السياسي. دعا المؤتمر القطري السابع الذي انعقد عام 1980، إلى اجراء انتخابات حزبية وقد ناقش المؤتمر الاخطاء التي وقعت فيها القيادة وما اسفر عنها من فساد وغلاء معيشة وتدني الوطنية كما حاول الاسد أن يكون من دعاة المصالحة الوطنية برغم من انه واجه ضغوطا كثيرة من التجمع الوطني الديمقراطي الذي يتألف من الاتحاد الاشتراكي و العمال الثوري و البعث العربي وغيرهم واتفقوا جميعهم على حمل السلاح ضد الاخوان إلا إنه ظل متمسكا بخيار المصالحة الوطنية وفي هذا السياق تقدم باعلان المصالحة الوطنية التي تتضمن حلا الوسطا بين الإخوان الديمقراطيين ومن أهم محتويات هذا البيان :

1- إعلان حكومة تكنوقراطية.

2- تبني سياسة القضاء على رأس المال الطفيلي .

3- حصر اختصاص محكمة امن الدولة في جرائم التي تقع على امن البلاد .

4- إيقاف العمل بقانون الطوارئ .

5- تطبيق القانون على جميع الناس دون النظر إلى مذاهبهم .

من أهم نتائجه .

1- إطلاق سراح النقابي عمر قشاش (عضو المكتب السياسي)

2- الافراج عن خمسمائة كادر من الإخوان.

3- فتح باب التفاوض مع السلطة بشأن الإفراج عن المعتقلين .

حاول علي البيانوني رئيس المكتب التنفيذي أن يجهز القيادة للمواجهة وكان حذرا من تطرف عدنان عقلة الذي يدعم التنظيم الاسلحة والاموال ولكن المفاوضات توقفت بعد كشف علاقة رئيس لجنة العلماء مع عقلةالذي يرفض المفاوضات مبدأ و تفصيلا. وكان الاضراب الذي دعت إليه النقابات في سوريامحور التحدي للسلطة حيث فتح باب العنف من جديد وطبق المنطق الامني في البلاد ومما أدى إلى تطور الوضع القيام بعدة محاولات لاغتيال الرئيس الذي رد ردا قاسيا فاطلق يد صقورالعنف الثوري الذين قاموا بعمليات اغتيال و اعتقال والاعدام العشوائية وكان هذا مترافقا مع اصدار قانون الطوارئ رقم 49 الذي ينص على اعدام كل من ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين ويعفى من العقوبة كل من يعلن انسحابه منها خلال شهر إن كان داخل البلاد وشهرين إن كان خارجها.

1- نقاط الخلاف ما بين الطليعة والتنظيم العام.

تعتبر الطليعة التنظيم المقيم خارج البلاد سظيما فارا يقوم يتجبير الاعمال الجهادية، فقط وشرطها للتعامل معه ان يكون داخل البلاد اما نقطة الخلاف الاخرى، فإن الطليعة ترفض مفهوم التنظيم العام لاخوانية المعركة حيث تراها حزبية ضيقة .

تخلت الطليعة عن التنظيم بعدما اتفقت مع القيادة العراقية على أن تمـدها بالمال والسلاح حيث أن الطليعة كانت بحاجة التنظـيم العـام بسـبب المـال والسلاح، ومن هنا حاولت قيادة الطليعة التحكم بمجريات الامور في داخـل، لكن الخسارة الميدانية في صراعه مع لسلطة جعلته يهرب رجالاته إلى العراق والاردن حيث قامت قيادة التنظيم العام باستقبالهم ومن هنا دخل عدنان عقلـة إلى المفاوضات . .

2- تشكيل الجبهة الإسلامية نتجت هذه الجبهة بعد النكسة الميدانية التـي حصلت للإخوان في الداخل .

قيادة الوفاق :

اجتمعت الفصائل الاخوانية عام 1980 ،في ايطاليـا واتفقـت علـى تشكيل قيادة موحدة سياسة وعسكرية فانتخبوا حسن هويدي مراقبا عاما (مـن تنظيم الطلائع)، وعدنان سعد الدين (من التنظيم العام)وعدنان عقلة مسـؤولا عسكريا من تنظيم الطليعة .

واستمر الوفاق بين الفصائل رغم الكثيـر مـن المعوقـات واهمهـا التحالفات التي ابرمها كل فصيل على حدا. .

نهاية الوفاق وبداية المأساة :

كان طرح قضية الاشتراك في تأسيس التحالف الوطني لتحرير سورية سببا في انهاء الوفاق حيث عارض عقلة هذا الموضوع جملة وتفصيلا ومـن هنا تم انسحاب الطليعة ولكن قيادة الوفاق اعتبرت عقلة مفصولا وأن انسحاب احد ممثيلي الفصيل لا يعني انسحاب الفصيل وذلك حسب الاتفاق

نفير حماة :

اتبعت الاجهز الامنية عمليات انهكت التنظيم وكشفت قواعده ثم نفذت خطة استفزاز المقاتلين حيث تقوم باخراج المقاتلين من مواقعهم وتحاصرهم ثم تقضي عليهم .

اسباب فشل الاخوان في النفير:

حددت القيادةفي الداخل النفيرفي 25/كانون الثاني/1982 ولم تستطع قيادة في الخارج معرفة ذلك الا في وقت متأخر من من اليلة 24/كانون الثاني وهذا من جهة ومن جهة اخرى علمت الاجهزة الامنية بامراعلان النفير بمرقبتها للتحركات في الاردن والعراق فقامت بالانسحاب من كافة المدن الا حماة وبذلك تجمع الاخوان داخل لتخليص حماة فطبقت السلطة عليهم خطة شبكة العنكبوت حيث حصروا في الداخل المدينة وتم القضاء عليهم .

ما بعد النفير :

اقيلت القيادة بعد اتهامها بسوء الادارة وعدم نجدة حماة، وانحلت قيادة الوفاق واجريت انتخابات جديدة لكن القيادة لم تتغير وقد رافق الانتخبات بعض الاضطرابات وكان هناك بوادر انشقاق في صفوف التنظيم العام .

انشقاق عام 1986 :

لنقسمت الجماعة إلى قسمين قي انتخابات عام 1986 قسم مع الشيخ عبدالفتاح ابوغدة رحمه الله وقسم مع عدنان سعد الدين فوضعت قيادة مؤقتة بقيادة اديب جاجة من ادلب وبعد قضاء 6 اشهراجريت انتخابات جديدة فكان التصويت مناصفة بين المرشحين اديب جاجة والشيخ عبدالفتاح ابوغدة فعينت القيادة قيادة مؤقتة بقيادة منير غضبان من دمشق وبعدها تولى التنظيم العالمي حل المشكلة حيث اجريت انتخابات جديدة بين عدنان سعد الدين والشيخ عبدالفتاح ابو غدة فكا ن التصويت لصالح الشيخ عبدالفتاح ابوغدة بنسبة 51%

اما عدنان سعد الدين بنسبة 46% فاعترف التنظيم العالمي بقيادة الشيخ عبد الفتاح ولكن جماعة عدنان سعد الدين لم تقبل هذه النتيجة وانشقت عن التنظيم العام ومن اهم ميزات هذا الانشقاق انه كان انشقاقا تنظيميا واقليميا وجبهويا وسياسيا مركبا تفصيل مزايا الانشقاق .

من الناحية تنظيمية كان جناح عدنان سعد الدين يسعى إلى المواجهة مع النظام اما الجناح الاخر فكان يسعى الى التهدئة والحوار من الناحية الاقليمية حيث انحازت معظم قواعد حماة وادلب إلى جناح عدنان سعد الدين أما قواعد حلب ودير الزور ودمشق فانحازت الى جناح ابو غدة اما من الناحية الجبهوية فانحاز معظم الشباب الى جناح عدنان سعدالدين اما جناح ابو غدة فحظي بشيوخ الجماعة .واما من الناحية السياسية فقد اهتم جناح عدنان سعدالدين بسياسات العراق اما جناح ابو غدة فكان يمثل استراتيجيات التنظيم العالمي .

ورغم هذا الانشقاق فان الجناحين استمرا في التحالف الوطني لتحرير سورياوليس هذا فقط بل طوراه وسمياه بأسم جبهة الانقاذ الوطني لتحرير سورية عام 1989 .

حرب الخليج الاولى وتأثيرها على الجماعة :

حاول التنظيم العام اتباع سياسة التنظيم العالمي حيث قام برفض ضم العراق للكويت وادان التواجد الغربي في الخليج وبسبب ذلك هددت السعودية بطرد مئات من العائلات الاخوانية المقيمة هناك، ولذلك كان بيان الاخوان كالتالي حيث ادان احتلال العراق للكويت وقال ان الاجراءات التي اتخذتها السعودية بالاستعانة بالقوات العربية والاسلامية جائزة شرعا ولكن هذا التصريح ادى الى خلافات داخل صفوف الجماعة ففضل الشيخ عبد الفتاح أن ينقذ الجماعة فاستقال من مركزه واجريت انتخابات جديدة كانت القيادة فيها من

حظ حسن هويدي ثم انتقلت إلى علي البيانوني واستمر الوضع على ما هو عليه.

جند الشام:

التأسيس جرى في أحد مساجد مخيم عين الحلوة حيث كان أبو يوسف شرقية – فلسطيني الجنسية- ينشط في الدروس المسجدية التي تركز على مفاهيم "الولاء والبراءة" وضرورة مقارعة "أعداء الله"، كان ذلك عقب هروبه في تشرين أول عام 1989من مخيم نهر البارد في شمال لبنان، نتيجة انتقاداته اللاذعة لممارسات المجلس الثوري، المدعوم من المخابرات السورية في تلك الفترة، وعلى مدى سنوات صار لأبي يوسف بعض الأتباع، ولكنه يصف نفسه بأنه عاشق للجهاد!

لم يكن شرقية راغبا بـ"الإمارة" – كما يقول- ولكن الشيخ يوسف الشهابي وعماد ياسين وأفرادا ممن هربوا من جرود الضنية، طلبوا منه أن يكون "أميرا" عليهم، فاشترط الطاعة "ما أطاع الله فيهم"، فبايعوه ولم يكن عددهم يتجاوز الثلاثين حينها.

إصدار بيانات تكفّر أفرادا وجماعات، وقد كان الاستغلال الأول لهذا التنظيم من خلال بيان يتبنى اغتيال أحد "كوادر" حزب الله، وقد أعلن شرقية تخليه عن "الإمارة" ببيان مقتضب وزع في مخيم عين الحلوة في 6-10-2004، ومن وقتها لم يعد جند الشام موجودا كتنظيم، لا سيما بعد تقلّص أعداد مجموعة الضنية فيه، وعودة بعض المنشقين عن عصبة الأنصار ممن التحق بالتنظيم إليها، والاشتباكات القاسية مع حركة فتح.

خبا ذكر جند الشام حينا من الزمن، لكنه عاد إلى الظهور بقوة بعد اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري، فلقد من خلال شريطـ" أبو عدس"، حيث تلاحقت أنباء الاشتباكات بين عناصر الأمن السوري ومن سمّتهم البيانات السورية الرسمية "جند الشام".

ففي 22 آب الماضي قال بيان سوري إن اشتباكا وقع قرب الحدود اللبنانية في منطقة مضايا أسفر عن قتل بعض أفراد "جند الشام"، وفي 2 أيلول أعلنت وزارة الداخلية السورية أن وحدة مكافحة الإرهاب "داهمت مخبأ لمجموعة إرهابية تابعة لجند الشام في محافظة حماة" وأن اشتباكا وقع أدى إلى مقتل خمسة من المجموعة في منطقة جبرين، ثم بيان مشابه في الثامن من نفس الشهر تحدث عن اشتباك واعتقالات لـ"جند الشام" في إحدى ضواحي مدينة الحسكة شمال شرق سوريا،

وفي لبنان :

لم يقتصر تحرك جند الشام على سوريا، فقد ظهر بيان على الإنترنت قبل أقل من شهرين باسم تنظيم القاعدة- جند الشام – يهدد شخصيات شيعية لبنانية بالقتل،. وفي الشهر الماضي دوى انفجار "تحذيري"عند الثالثة فجرا، في بلدة مزبود في إقليم الخروب، تبين أنه ناتج عن عبوة ناسفة وضعت تحت سيارة الإعلامي علي طعمة، الذي وقّع قبل أيام من الانفجار كتابا عن حياة الرئيس الشهيد رفيق الحريري، وقد وجد طعمة لدى خروجه للاطلاع على ما جرى رسالة على سلم منزله، بخط اليد جاء فيها:"لن ينفعك توقيع الكتب ولا العمالة للأنظمة المشبوهة ..مستقبلا رأسك يكون الثمن، الله أكبر، جند الشام". وفي الخامس من الشهر الجاري ظهر بيان مشبوه في بلدة رحبة العكارية أقصى شمال لبنان، مذيل باسم جند الشام، يهدد السلطة الجديدة في لبنان على خلفية جلب "الهيمنة الأمريكية وعزل لبنان عن موقفه العربي الصامد والمقاوم" متهما الأكثرية النيابية الحاكمة بـ"جلب العار للأمة وتعليق مصير هذا الوطن بيد احد أكبر ضباط الموساد الإسرائيلي، ميليس وأكاذيبه" محذرا من أنه لن يتورع عن " ذبح كل من يتعامل معهم".

نشأة الحركات الإسلامية في الجزائر:

بدأت التنظيمات المسلحة في الجزائر عام 1982 عندما أعلن مصطفى بويعلي حربا على النظام لإقامة دولة إسلامية وأطلق على تنظيمه(الحركة الإسلامية في الجزائر) واستمرت الصدامات حتى عام 1989 حيث قتل قائد التنظيم واعتقل معظم أفراد التنظيم.
عام 1992 انفجر الصراع بين الإسلاميين والسلطة اثر إلغاء الدور الثاني من الانتخابات التشريعية التي حصد فيها الإسلاميون نجاحا غير متوقع فكان نداء علي بن الحاج إلى الجهاد.

أسس مدني مرزوق أولى التنظيمات المسلحة باسم الجبهة·الإسلامية للإنقاذ ثم تأسس الجيش الإسلامي للإنقاذ احمد بن عائشةوبالتحالف مع مدني مرزوق.

جيش التحرير الوطني أسسه عبد القادر شبوطي ويهدف إلى حشد اكثر ما يمكن من الإسلاميين في إطار تنظيم عسكري يخوض حرب التحرير ويكون الذراع العسكرية لحركة إسلامية كبيرة تشمل الجميع.
مرت الجماعات الإسلامية في الجزائر بمرحلتين:
الأولى من نشأتها حتى1994 وصلت إلى قمة مجدها عندما كانت تحت قيادة أميرها أبو عبد الله احمد شريف قوا سمي.
وفي العهد الثاني عرفت انحطاطا شديدا حيث تحولت إلى مجموعة من الذباجين وبدا انحطاط الجماعة الإسلامية المسلحة أخلاقيا حيث انتهجت أسلوب اغتيال المثقفين كتابا وصحفيين ورؤساء جمعيات مدنية----وبعد اشتداد الضربات عليها من قبل القوى الأمنية خرجت الجماعات إلى الأرياف التي أصبحت معقلها الأخير وهناك شنت اعنف الغارات الدموية على الفلاحين الفقراء وارتكبت أبشع المجازر وفي نفس الوقت وقعن خلافات عقائدية وسياسية كثيرة تبعتها سلسلة من الانشقاقات.

الصراع بين الإسلاميين والسلطة

- إن التطرف الإيديولوجي الرسمي الرسميالقومي- التقدمي-الاشتراكي-العلماني ساهم مع مرور الزمن في ظهور تطرف عقائدي من طبيعة دينية، خاصة أن تلك الأنظمة فشلت في مشاريعها.
- بعض الأنظمة المحافظة عملت في خضم صراعها الإيديولوجي مع منافساتها"التقدمية" على استخدام الورقة الدينية بدعم الحركات الإسلامية ضد هذه الأخيرة مما يفسر جزئيا تمركز الإسلاميين في دول لاتستمد شرعيتها من الدين أساسا وهذا مايفسر أيضا بقاء الأنظمة المحافظة"جزئيا"عن المد الأصولي.
- العنف الرسمي يعد احد محددات الرد الإسلامي العنيف الذي يقوده بدوره إلى عنف رسمي مضادالجزائر.

أسباب وعوامل الصراع:

- الحركات الإسلامية حركات رافضة للواقع ،ترفض الأنظمة الحاكمة برمتها ونسبة كبيرة منها حركات اقصائية ترفض الأخر السياسي وترفض الحكم مستبعدة إمكانية التعايش معه.
- من أسباب انتشار العنف الإسلامي وجود الحامل الاجتماعي للطروحات الإسلامية بسبب انتشار الفساد الحكومي وتعمق الفوارق الاجتماعية وإقصاء أغلبية المجتمع من دورة توزيع الثروات الوطنية(التقاء هذه المصالح اوجد نوعا من التلاحم العضوي بين إسلاميين وشرائح واسعة من المجتمع وخاصة من جيل الشباب).
- الحركات السياسية الاجتماعية والمتطرفة تلقى انخراطا كبيرا في أوساط الشباب المتحمس عادة بحكم سنه وهذا ينطبق أيضا على المجتمعات الديمقراطية ولما كان الشباب يشكل الأغلبية في المجتمعات

العربية فان الإسلاميين استفادوا من هذا الخزان البشري الهائل لتجنيد أنصارهم.

- لما كانت الأنظمة وصلت إلى السلطة بطريقة غير شرعية فإنها ترى في ابسط مظاهرة اجتماعية محاولة لقلبها.هذه السلوكيات المنيعة حالت دون بروز جمعيات مدنية ونقابات للدفاع عن مصالح المواطن.

- من الملاحظ أن إطارات وأعضاء الحركات الإسلامية تأتي من الطبقات الوسطى المتعلمة ونسبة كبيرة منها من خريجي الجامعات بينما الجماهير التي يحركها الخطاب التعبوي الحماسي والديني فهي من الطبقات المحرومة والمهشمة.

- الاحباطات المتراكمة شعبيا و إسلاميا جراء الظروف الاجتماعية القاسية والسياسية القاهرة خلق بيئة صراعية يتناحر فيها الإسلاميون والسلطة فتطور الصراع ليأخذ شكلا مثلثا-السلطة-الحركات المعتدلة-الحركات المتطرفة.

- الصراع بين السلطة و الإسلاميين أدى إلى بروز الجماعات المسلحة التي تبنت العنف لمجابهة قمع واضطهاد السلطة مما أدى إلى ضغط مزدوج على المعتدلين-السلطة تعتبرهم المدرسة التي يتخرج منها الإرهابيون والجماعات المسلحةوالجهاددية تتهمهم بالتواطؤ و المهادنة والتعامل مع الطغاة-.

- إجهاض التجارب البرلمانية الليبرالية عربيا غداة الاستقلال أسهم في التعجيل في المواجهة بين الإسلاميين والسلطة.

- في العقود الماضية أسهمت الأنظمة الحاكمة (مصر-سوريا-الجزائر-تونس-المغرب) في نمو التيار الإسلامي لضرب التيار اليساري ولكن بعد الانحسار القومي وجدت الأنظمة نفسها في مواجهة مع التيار

الإسلامي الذي خرج منتصرا من هذه الصراعات والمناظرات الإيديولوجية.

- هناك صراع بين الإسلام السياسي(الذي تعبر عنه الحركات الإسلامية) والإسلام الرسمي(الذي تعبر عنه المؤسسات الدينية الرسمية والسلطة)على نفس مصدر الشرعية والدين.

يمكن تلخيص أسباب الصراع في ثلاثة عوامل أساسية:

أولها: إن الإسلاميين يشكلون البديل السياسي والفكري للأنظمة الحاكمة والقوة السياسية الوحيدة القادرة على إسقاطها لو تمت انتخابات حرة فعلية.

ثانيها: إن الحركة الإسلامية تحمل في جوفها "بذور العنف" التي سرعان ما تطفو على السطح، وبالتالي يرسب الإسلاميون أمام امتحان العنف الرسمي، إذ يردون عليه بالعنف مما يولد عنفا مضادا من جديد. فمعظم الحركات الإسلامية التي تعرضت للقهر الرسمي خرجت من رحمها جماعات تؤمن بالعنف كوسيلة للتغيير وتتبنى فكرا انقلابيا جهاديا وتكفيريا (نظر له أبو الأعلى المودودي وسيد قطب) يكفر الدولة والمجتمع ويؤمن بحاكمية الله، ملغيا الإرادة البشرية والسيادة الشعبية. يكمن سر وجود "بذور العنف" هذه في طبيعة المرجعية الدينية لهذه الحركات. ذلك أن من يدعي تطبيق الإرادة الإلهية فهو مقتنع تماما بأنه على صواب والغير على خطأ، وهذه قناعة مطلقة. من هنا تأتي إشكالية التعايش مع التيارات ذات المرجعية الدينية، لأنها إقصائية بطبيعتها. لكن لا يخفى أن شدة القهر السلطوي أسهمت إلى حد كبير في ظهور الفكر الجهادي، فسيد قطب تشدد في غياهب سجون عبد الناصر.
ثالثها: محنة الشرعية، فالأنظمة التي تستمد شرعيتها من الدين، بطريقة صريحة أو ضمنية لا يمكنها أن تطيق وتحتمل منافسا سياسيا يستمد شرعيته من نفس المصدر، خاصة أنه يطرح تفسيرا سياسيا مغايرا لتفسيرها، مدمرا بذلك مسوغات شرعيتها. أما الأنظمة العلمانية أو التي تتأرجح بين العلمانية

والدين أو تلك التي تمزج بينهما، فالصدام بينها وبين الإسلاميين، الذين يرفعون شعار الإسلام بديلا شاملا لتسيير المقدس والسياسي في الشأن العام والخاص، لا مفر منه.

عوامل استمرار المواجهة بين الإسلاميين والسلطة:

- موقف الحركات الإسلامية من الديمقراطية يعتبر من أبرز العوامل في إدامة الصراع. إذ يصعب مع الإسلاميين التمييز بين مواقفهم المساندة للديمقراطية النابعة عن قناعات سياسية حقيقية، سواء كانوا في المعارضة أو في حال تسلمهم الحكم، وبين تلك التي أملتها اعتبارات تكتيكية آنية، غرضتها الانحناء لتجنب القهر الرسمي وانتقادات المعارضة وطمأنة الخصوم، حتى استلام الحكم ديمقراطيا ثم الانقلاب على كل شيء واغتيال الديمقراطية التي أوصلتهم إلى السلطة.

- الاستئصاليون، في الجزائر ومصر وغيرها، لا يميزون بين الإسلاميين الذين انتهجوا العمل السياسي العلني والشرعي والذين تبنوا الإرهاب، ويرفضون التفريق بين معتدلين ومتطرفين على أساس أن التطرف خرج من رحم الاعتدال، هذا الخطاب المتشدد يميز ما يسمى بالجزائر بـ "القطب الديمقراطي" الذي يضم أحزابا تطالب باستئصال الظاهرة الإسلامية من جذورها كسبيل وحيد للتخلص من الإرهاب الأصولي وبناء الديمقراطية. هذا الموقف المتشدد يؤجج الصراع، خاصة أن أحزابا إسلامية تشارك في الائتلاف إلى جانب الحزب الحاكم وحزب من التيار الديمقراطي. كما يبقي الصراع القائم بطريقة أو بأخرى، لجعل الإسلاميين في موقف دفاعي، ودفع السلطة إلى انتهاج سياسة متشددة تجاههم. وبالتالي فهو يصب في نهاية الأمر في نفس منطق دعاة العنف وإقصاء الآخر السياسي في ما بين الإسلاميين. ليست الأحزاب "الديمقراطية" هي الوحيدة التي ترفض

التمييز بين معتدلين ومتطرفين في ما بين الإسلاميين في العالم العربي.

- الانسداد السياسي المعبر عنه بالاستعصاء الديمقراطي يشكل عاملا للصراع بين السلطة والحركات الإسلامية الشرعية، الأولى ترفض الديمقراطية لما تتيقن من أنها ستأتي بالإسلاميين إلى الحكم، في حين يحاول الإسلاميون استخدام الديمقراطية للوصول إلى الحكم والانقلاب عليها. وبالتالي أصبحت الديمقراطية ضحية حسابات سياسية آنية مغذية بذلك الصراع السياسي. وقد تعمق هذا الانسداد السياسي، إذ لا مجال للتوفيق بين منطق توريث الحكم في "الجمهوريات"، كما حدث في سوريا، وربما غدا في العراق وليبيا ومصر واليمن، ومنطق الحكم لله الذي يقول به التيار الإسلامي المتشدد، أو حتى منطق المشاركة السياسية الذي ينادي به التيار المعتدل.

- تشدد الفكر الجهادي والتكفيري في السنوات الأخيرة وكأن نقلة نوعية حدثت على مستوى التنظير العقائدي بقطع الأوصال المرجعية بين "الشيوخ" و"المجاهدين" ميدانيا. يعبر الناشط الإسلامي عصام طاهر، المعروف بـ أبي محمد المقدسي والذي سجن في الأردن عقب حرب الخليج، عن هذا التطور الخطير، لما يقول إن الشباب (الإسلامي) إن اعتبر بإمكانه تغيير النظام عبر العنف فعليه فعل ذلك، فهو أدرى بشؤونه. وهذا يعني قطع أوصال التراتبية والمرجعية الأيديولوجية بين القيادات والأتباع من منفذي العمليات. مما يعمم العنف دون تلقي أوامر وتعليمات من القمة، ويصعّب من مهمة اكتشاف هوية زعماء التنظيمات المسلحة. وهذا ما قد يفسر تكاثر الجماعات المسلحة التي يقودها أشخاص "بسطاء" لم تعرف لهم زعامة داخل التيار الجهادي.

* بعض الأنظمة تجنح إلى "صيانة" الصراع بالاحتفاظ على قدر من

التوتر كوسيلة للبقاء في الحكم وتجديد مسوغات شرعيتها الهشة والمتآكلة. ومن هنا يمكن القول إن العنف الإسلامي أسهم إلى حد كبير في تأجيل الديمقراطية عربيا. فماذا لو لم يلجأ الإسلاميون للإرهاب في الجزائر؟ طبعا من الصعب القول إن الجزائر تكون قد انضمت إلى نادي الأمم الديمقراطية، لكن من الأكيد أنه لا مفر للنظام القائم من الاستحقاق الديمقراطي. بالطبع المسألة تختلف من بلد لآخر، العديد من الدول العربية لم تعرف عنفا أصوليا، لكنها لم تتحول إلى ديمقراطيات.

الإسلاميون وتوظيف الإسلام بين الأهداف المعلنة والخفية

رغم اشتراكها في خصائص عامة وجوهرية، فإن الحركات الإسلامية لها خصوصيات قطرية تبدو جلية من خلال توجهات وأهداف هذه الحركات في حدها الأقصى (إقامة دولة إسلامية بالقوة، مثال الجزائر ومصر وإلى حد ما سوريا) وفي حدها الأدنى (التأكيد على البعد الإسلامي والشريعة مصدرا أساسيا للتشريع مع الاعتراف بشرعية النظام، حال الأردن والكويت). محددات الصراع ليست نفسها بل تختلف من بلد لآخر. فرغم ادعائها الإسلام، فإن هذه الحركات تخفي في بعض الأحيان، مثلها مثل السلطة، مصالح فئوية، عشائرية أو مذهبية ضيقة. فالعامل المذهبي كان حاسما في تصعيد الصراع بين الإسلاميين السنيين والنظام العلوي في سوريا. العامل المذهبي (الشيعي) كان أيضا حاسما في الصراع الذي عرفته -وتعرفه- السعودية، البحرين والعراق. في بعض الحالات، الصراع مرتبط بعوامل مذهبية وإقليمية؛ ففي العراق مثلا، الإسلاميون الشيعة يتصارعون مع النظام منذ السبعينيات، لكن الثورة الإيرانية عجلت في المواجهة بينهما (إعدام الزعيم الشيعي محمد باقر الصدر في أبريل/نيسان 1980). عامل الثورة الإيرانية بعد أحداث مكة عام 1979، ثم الأحداث التي عرفتها البحرين في ما بعد. الإسلاميون في الصعيد

المصري يخفون صراعا مع السلطة المركزيـــة بســبب الفــوارق التنمويـــة والاجتماعية بين شمال وجنوب البلاد.

نعرض فيما يلي أهم الحركات الإسلامية:

تنظيم القاعدة:

إن ما يسمى ب"القاعدة" قد يكون مجرد فكرة تجند أشخاصا وتســخر موارد وقد لا يكون التنظيم المفترض سوى شكل هلامي في اقــل تقــدير لا يقوى على الضغوط الأمنية فيتفتت إلى مكوناته الأولى لدى أول صدمة عنيفة وليس شرطا أن يحافظ بعد ذلك على انسجامه وتماسكه الداخلي ويمكن القــول انه بعد غزو أفغانستان ليس سوى كائن يخوض معارك الكــر والفــر علــى الشبكة العنكبوتية وهو في أفضل الأحوال نواة صغيرة جدا لكن صلبة وعنيدة مكونة من الدعاة المتحمسين والخبراء العسكريين الشد يدي المراس القــادرين في أحوال ملائمة على تشكيل جسم عسكري أمني وإعلامــي متعــدد المهــام والأجناس مفارق للحدود واللغات.

والفكرة تمثل نقطة الثقل في هذا التنظيم بما هي قوة معنويــة حــافزة وسط التحديات المتلاطمة التي لم يواجهها أي تنظيم من قبــل والإســتراتيجية المتداولة عن"القاعدة"أنها تفكر وتراجع أساليبها حتى وهي في طــور القتــال دفاعا وهجوما، فرارا من الأعداء المطاردين لها في كل مكان وتســلل مــن مكان غير آمن إلى أخر قد يكون اقل أمنا وهي أيضا تكتب أفكارها وتجاربها وأفضل كتابها هم قادتها الميدانيين الذين سقطوا في صدا مات مســلحة فــي مناطق مختلفة من العالم.

وللقاعدة قدرة على التجنيد والتخطيط والتنفيذ وهنا تكمــن الخطــورة فالفكر الذي يقتل صاحبه في الميدان يرتقي إلى درجة عالية مــن التقــدير و الاحترام بين جمهوره فسيتعصي على النقد عادة رغم ميل"القاعدة"إلى مراجعة أخطائها بنفسها.

ويمكن القول أن إستراتيجية "القاعدة" امتـداد طبيعـي للأيـديولوجيا الحاكمة فيها.

قيادات القاعدة:

-أسامة بن لادن:

ولد أسامة بن لادن لعائلة سعودية واسعة الثراء وكـان يحـب تعلـم الإنكليزية ودخل الجامعة في مدينة جدة ودرس الاقتصاد وهناك التقى للمـرة الأولى بمفكرين إسلاميين أصوليين وكان أحد هؤلاء هو الأردنـي عبـد الله عزام وعندما غزا الاتحاد السوفييتي أفغانستان عام 1979 صحب أسامة الذي كان في الثالثة و العشرين من عمره أستاذه عبد الله عزام إلى مدينة بيشـاور الباكستانية على الحدود الأفغانية لمساعدة الأفغـان علـى تحريـر بلادهـم. وتأصلت التجربة في أفغانستان في نفس أسامة بن لادن فقد تحول دوره مـن مجرد ممول "للجهاد" إلى مجاهد حقيقي ، ثم وقع تحت سيطرة أيمن الظواهري المصري الذي يعتنق فكرا عنيفا وهذه هي المرحلة التي تحولت فيها القاعـدة من مركز إداري إلى جيش صغير وبعد هزيمة السوفييت عاد إلى جدة ،لكنـه لم يعجب بالركون إلى الحياة المدنية وعام1991 ذهب إلـى السـودان وبعـد طرده من السودان عاد إلى أفغانستان وبقي فيها حتى الغزو الأمريكي حيـث اختفى ولم يعرف مكانه بعد ذلك ويعتقد انه يتحرك في المناطق الجبلية الممتدة بين باكستان وأفغانستان.

-أيمن الظواهري:

مصري الأصل يعمل كمستشار ديني وطبيب خاص ل بن لادن كمـا انه المنظر الرئيسي لأيديولوجية تنظيم القاعدة وكان الظواهري عضوا أساسيا في جماعة الجهاد المصري وصدر أمر بالقبض عليه في الولايـات المتحـدة بسبب دوره في تفجيرات نيروبي ودار السلام كما حكم عليه غيابيا بالإعـدام في مصر بسبب نشاطاته مع جماعة الجهاد في التسعينات .

-الزرقاوي:

احمد الخلايلة أردني الأصل يتهم بقيادة عمليات القاعدة ضد الاحتلال الأمريكي في العراق وفي شباط 204 نشرت القوات الأمريكية خطابا قالت انه للزرقاوي يطلب فيه مساعدة القاعدة لإثارة صراع طائفي في العراق وحكم على الزرقاوي غيابيا في الأردن بالإعدام بسبب التخطيط لهجمات في وطنه.

-شيخ سعيد:

زوج ابنة لادن سعودي الجنسية مسؤول عن الشؤون المالية.

-سيف العدل:

في أواخر الثلاثينات من الجنسية المصرية يعمل رئيس جهاز الأمن لدى بن لادن وكان ضابطا سابقا في الجيش المصري والتحق بالقتال ضد السوفييت في أفغانستان ويعتقد انه درب المتشددين على استخدام المتفجرات ودرب بعض من خاطفي الطائرات في 11 سبتمبروارتبط اسمه بتفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام1998 وتدريب المقاتلين الصوماليين الذين قتلوا 18 أمريكيا في مقديشو عام1993

-أبو محمد المصري:

مصري الجنسية 40 عاما أدار معسكرات تدريب القاعدة في أفغانستان ومن بينها معسكر الفاروق قرب قندهار.

-سليمان أبو الغيث:

كويتي في منتصف الثلاثينات يسمى المتحدث باسم القاعدة، عمل مدرسا للدراسات الإسلامية في الكويت وغادرها عام 2000.

-ثروت صلاح شحاتة:

مصري نائب الظواهري في جماعة الجهاد المصرية وحكم عليه في مصر مرتين بالإعدام غيابيا بسبب نشاطات إرهابية اتهم فيها.

-خالد شيخ محمد:

باكستاني في منتصف الثلاثينات ساعد في التخطيط لهجمات11 أيلول واتهم بتدبير تفجير مبنى التجارة العالمية عام1993 واتهم بتدبير محاولة تفجير طائرة أمريكية فوق المحيط الهادي في ما يعرف باسم مؤامرة ما نيلا والقي القبض عليه في بلدة راو البندي في اذار 2003.

-أبو زبيدة:

زين العابدين محمد حسين ولد لأبوين فلسطينين في السعودية وهو قائد ميداني ومسؤول عن تجنيد الإرهابيين ومخطط ميداني يتهم بعلاقته بالتخطيط لتفجير السفارة الأمريكية في سرايبفو وبمؤامرة للهجوم على السفارة الأمريكية في باريس ومحاولة تفجير فنادق في الأردن أثناء الاحتفال بالألفية والقي القبض عليه في باكستان اذار 2002.

-رمزي بن الشيبة:

يمني الجنسية القي القبض عليه في كرا تشي في أيلول عام2002 وهو ارفع مسؤول من القاعدة يلقى القبض عليه وهو عضو مرموق في خلية القاعدة هامبورجألمانيا بعد أن حصل على اللجوء السياسي في أواخر التسعينات ويعتقد أن يكون ضالعا في الهجوم على معبد يهودي في تونس.

-محمد حيدر زمار:

سوري وهو الذي جند محمد عطا الذي اصبح فيما بعد زعيم خلية هامبورج التي نفذت هجمات 11 سبتمبر. القي القبض على الزمار في المغرب وأرسلته السلطات المغربية إلى سوريا وكان إلى جانب الزمار كل من زياد الجراح و مروان الشيحي.

-علي عبد الرحمن الغامدي:

مواليد1974 كان رئيس العمليات في تنظيم القاعدة في المملكة العربية السعودية حين القي القبض عليه عام2003 ويقال انه نال خبرة في المعارك الميدانية في أفغانستان والشيشان.

-عبد الرحيم الناشري:

قائد عمليات القاعدة في الخليج وكان قائد عملية الهجوم على المدمرة الأمريكية يو اس اس كول في ميناء عدن اليمني الذي قتل فيه 17 بحارا القي القبض عليه عام 2002.

-عمر الفاروق:

كويتي الجنسية ومسؤول القاعدة في جنوب شرق أسيا.

-محسن ف:

كويتي الجنسية مسؤول تنظيم القاعدة في الكويت قبض عليه عام 2002:

-محمد عاطف:

أبو حفص القائد العسكري للقاعدة كان سابقا ضابط في الشرطة المصرية وعضوا في الجهاد المصري ويعتقد انه قتل في الهجمات على أفغانستان في تشرين الثاني 2001 .

الحركات الإسلامية الجهادية في العراق:

تنظيم جند الشام:

تنظيم إسلامي من جذور سلفية متشددة نشأ هذا التنظيم عام 1999 في مدينة هيرات على الحدود الأفغانية أطلقوا عليه جند الشام لقدوم معظم عناصره من بلاد الشامسورية–لبنان–فلسطين–الأردن أسس التنظيم عبد

الهادي دغلس وخالد العار ومي وبعد مقتل دغلس في إحدى المعارك اصبح القائد التنفيذي للتنظيم الطبيب السوري سليمان درويش .

بعد احتلال أفغانستان من قبل القوات الأمريكية هناك من عاد إلى سوريا والأردن والفلسطينيون عادوا إلى مخيم عين الحلوة في لبنان .

بعد احتلال العراق ظهر التنظيم من جديد وتحالف مع الزرقاوي ونظم عمليات نوعية ضد قوات الاحتلال .

كان لعناصر التنظيم نشاطات في لبنان مثل قضية أبو محجن الذي حكم عليه غيابيا بالإعدام اثر إدانته باغتيال رئيس جمعية المشاريع الخيرية وكذلك الصدامات التي حدثت في سوريا مع قوات الأمن و شريط أبو عدس الذي يدعي فيه مسؤولية التنظيم عن اغتيال الحريري.

وتعتقد هذه المجموعة أن كل الحكومات العربية كافرة مرتدة ولاتحكم بالإسلام وتدعو لمحاربتهم.

القاعدة في العراق:

لا توجد إحصائية لعدد أفراد القاعدة في العراق فقد يكون العدد كبير من حيث عدد المتعاطفين مع القاعدة أما من حيث الأعضاء المنتمين فعليا للقاعدة فقد يكون قليلا نسبيا وقد يكون لهم تواجد في المناطق السنية التي تقاوم الاحتلال.

لكن دور تنظيم القاعدة في العراق أشبه بالحافز المعنوي،فالمقاومة العراقية هي القائمة وان التحق بعض المجاهدين العرب وغيرهم ولكنهم ليسوا بالأعداد الغفيرة لكن وجودهم حافز معنوي للمقاومين العراقيين.

جماعة جند الإسلام:

أعلن عنها في سبتمبر عام 2001 وضمت في صفوفها بعض الإسلاميين الذين سبق لهم الجهاد في أفغانستان وتزعم هذه الجماعة أبو عبيد

الله الشافعي(وريا هوليري) وانتشرت الجماعة على شريط القرى الممتد بين حلبجة والقرى المتاخمة للحدود الإيرانية وتعدادها تسع قرى، وقامت الجماعة بدعوى الحسبة وكانت تأمر بإغلاق المتاجر أثناء الصلاة وتمنع بيع الخمور وتدعو إلى الإعداد والتجهيز للجهاد ضد الأعداء.
في 10 ديسمبر 2001 اندمجت ثلاث جماعات إسلامية (جند الإسلام) و(حماس الكردية)و(حركة التوحيد)وكونوا جماعة أطلق عليها أنصار الإسلام.

جماعة أنصار الإسلام ومقرها في(بياره):

تتبنى جماعة أنصار الإسلام الفكر السلفي السني الجهادي متأثرة بالنموذج السلفي السعودي من الناحية والأنموذج الفكري للأستاذ سيد قطب والمنهج الحركي لجماعة الجهاد المصرية.

وتتألف الجماعة من:الأمير ونائبيه-اللجنة العسكرية-اللجنة الشرعية-المحكمة الشرعية- اللجنة الإعلامية- اللجنة الأمنية.

ليس لجماعة أنصار الإسلام قدرات عسكرية متميزة غير أنها تتبع اسلوب حرب العصابات من كر وفر خاصة أنها متمركزة في مناطق جبلية وعرة تساعدها على اتخاذ هذا الأسلوب ،أما من الناحية الأمنية فهذه الجماعة على حذر شديد حيث لا تستخدم الهواتف النقالة و لا الأجهزة الإلكترونية ويحبذون التواصل المباشر عبر الأشخاص حيث لايمكن الاستدلال على أماكن تواجدهم ، وكان أمير الحركة الملا فاتح كريكار(نجم الدين فرج) ونائبيه عبد السلام أبو بكر وكامران موورياسي.

وعلى خلاف القاعدة التي لاتركز على دولة إسلامية بعينها بل قامت على أساس طرد أعداء الإسلام في أي منطقة يحتلونها كما حدث في أفغانستان والصومال وكينيا وتنزانيا واليمن والان اصبح الهدف الأساسي طردهم من جزيرة العرب ،فان أنصار الإسلام جماعة محلية تحاول نيل الاستقلال تحت حكم إسلامي.

جيش أنصار السنة:

جماعة إسلامية سلفية سنية أعلنت عن نفسها بعد احتلال العراق بخمسة اشهر وهي خليط من مجموعات إسلامية مقاومة للاحتلال الأمريكي للعراق واندمجت كل هذه الفصائل و الأفراد في جماعة إسلامية واحدة أطلقت على نفسها جيش أنصار السنة تمايزا لها عن جيش المهدي الشيعي ،أمير جيش أنصار السنة أبو عبد الله الحسن بن محمود الذي اصدر أول بيان للجماعة في 20 سبتمبر 2003 أكد فيه أن السبب الرئيسي في تشكيل جيش أنصار السنة هو الاحتلال الأمريكي للعراق، وان الجهاد اصبح فرض عين على كل مسلم بعد أن صال العدو على ارض الإسلام وان الذين رفعوا لواء الجهاد هم أهل السنة والجماعة أهل التوحيد واتباع السلف.واعتمد الجماعة على اسلوب أن يتحرك كل من منطقته ويستمدون برنامجهم الجهادي وأوامرهم من توجيهات القران الكريم والسنة النبوية.

أبو مصعب الزرقاوي:

احمد نزال فضيل الخلايلة أردني الجنسية من مواليد 20 أكتوبر 1966 سافر إلى أفغانستان عام 1989 وانضم إلى المجاهدين العرب بقيادة بن لادن عام 1995 عاد إلى الأردن حيث تم اعتقاله أطلق سراحه بعد مدة قصيرة فعاد إلى أفغانستان وبعد الاعتداء الأمريكي على أفغانستان عام2001 وانتهاء حكم طالبان اختفى الزرقاوي ويعتقد انه هرب إلى إيران ومنها دخل عبر الحدود إلى كردستان العراق وعاش في المناطق التي تسيطر عليها جماعة أنصار الإسلام،وفي 23مارس2003 قصفت القوات الأمريكية بقرابة 30 صاروخ كروز مناطق أنصار الإسلام فقتل 57 من أبناء الجماعة وتمكن الزرقاوي من الهرب.

ثم برز اسم الزرقاوي في الإعلام بسبب محاولات المخابرات الأمريكية إيجاد علاقة بين الزرقاوي وبين النظام العراقي السابق ،ومع كل

حادث يتم في العراق تشير أصابع الاتهام إلى الزرقاوي من تفجيــر الســفارة الأردنية إلى تفجير مبنى الأمم المتحدة و مقتل باقر الحكيم ومجزرة كر بــلاء وبغداد واتهامه بمحاولات إشعال فتنة طائفية في العراق .

كتائب أبي حفص:

هي مجموعة من المقربين فكريا وروحيا من تنظيم القاعــدة وبعــض الشباب في الخليج و الجزيرة العربية ممن لهم علاقة سابقة بتنظــيم القاعــدة ولهم صلة ببعض الجماعات المجاهدة في العراق أو فــي أفغانســتان تمــدهم ببعض المعلومات.

واهم عملية لهم ضرب الطائرة الكينية بصاروخ سام 7 محمول علــى الكتف وكان على متن الطائرة ثلاث عملاء للمخابرات الأمريكية.

كتائب الفاروق: هذه هي الجناح العسكري للحركة الإسلامية العراقيــة التي تم تأسيسها في شهر يونيو 2003. هم بالأساس مــن جماعــة الإخــوان المسلمين من السنة العرب ويوجد من ضمنهم بعض العناصر غير الملتزمــة وعناصر عسكرية من النظام السابق من ضمن صفوفهم. تعمل هذه الكتائــب بشكل رئيسي في الفلوجة، البصرة والرمادي. هناك تضارب في الأخبار حول إن كان من ضمن صفوفهم مجاهدين غير عراقيين أو انهم فقط من العراقيين. الكتائب نفسها غير موالية لصدام ولكن تضم بينها عناصــر مواليــة لصــدام حسين ومعروف عنه تعاونها مع الموالين لصدام في العمليات.كتائب الفاروق أعلنت مسؤوليتها عن العديد من العمليات والإصابات في الجنود الأمريكــان، وترسل تقاريرها إلى موقع "صوت العرب الحر" وهو موقع قومي يساري. في هذه التقارير، فصلت كتائب الفاروق عملياتها العسكرية وأعلنت مسؤوليتها عن هجمات محددة في الفلوجة، الرمادي وفي مرفأ مدينة البكر، قــرب البصــرة. قامت الكتائب بإنشاء العديد من السرايا الصغيرة المقاتلة وحددت لكل ســرية أهدافها وحسب خبرتها مثل سرايا استطلاع وسريا مقاتلة.كتائب الفاروق لهــا

تحالفات مع القيادة العامة للقوات المسلحة، المقاومة والتحرير في العراق وهي مجموعة من الموالين لصدام.

الجماعة الإسلامية المسلحة للقاعدة، فرع الفلوجة (جماعة الزرقاوي): هذه الجماعة الإسلامية مع العديد من المقاتلين الأجانب ظهرت في يوليو 2003 وربما يقوم بقيادتها مخضرم الحرب الأفغانية أبو أياد. أعلنوا مسؤوليتهم "لكل" عمليات المقاومة ضد الولايات المتحدة في العراق في شريط فيديو من أربع دقائق على قناة العربية الفضائية في 13 يوليو 2003. هذه الجماعة تنفي أي علاقة أو تحالف مع صدام حسين وكانت أول جماعة تعلن صلاتها مع القاعدة.هذه الجماعة حثت الأمريكان في شريطهم الفيديو على "مغادرة الأراضي العراقية وتحقيق وعودهم". حذر الشريط من المزيد من الهجمات التي تهدف إلى قصم ظهر أمريكا. المتكلم في الشريط يشبه أبو أياد، الذي تدعي الولايات المتحدة انه عضو في جماعة القاعدة، ولكن ليس هناك دليل صلب على هذا الادعاء.

الحكومات الأوروبية تصف أبو أياد بأنه من المجاهدين المسلمين وكان قد فقد ساقه في الحرب الأفغانية ضد الروس، وحارب أيضا في الشيشان وآخر مرة تم التعرف عليه بشكل مؤكد في ممر بان كيسي في جورجيا في ربيع 2002. التقرير الذي صدر في 20 ابريل 2003 من "القيادة العامة للمجاهدين العرب في العراق" كان مذيلا بتوقيع أبو أياد، مما قد يدل أن أبو أياد هو احد القيادات العليا للمجاهدين الأجانب في العراق وانه إن لم يكن مع القاعدة من قبل فقد انضم إليها لاحقا.

المقاومة الإسلامية الوطنية العراقية (كتائب ثورة العشرين): هذه المجموعة من المسلمين السنة العرب، متأثرين بمنهج الإخوان غير موالين لصدام، ضد الاستعمار ولهم بعض الميول الوطنية.لهم تعاون فرعي مع

جماعات أخرى وظهرت ابتداء في 16 يونيو 2003. قامت بوصف الأمريكان "بالكلاب الأمريكية" وحذرت الدول الأجنبية من إرسال قوات إلى العراق..

كتائب الإمام علي بن أبي طالب الجهادية: هـذه الجماعـة الشـيعية ظهرت لأول مرة في 12 أكتوبر 2003 في الفلوجة، نذرت قتل الجنود مـن أي دولة ترسل قواتها لدعم قوات التحالف وهددت بنقل المعارك إلى أراضـي هذه الدولة في حال إرسالها قوات. هددوا كذلك بقتل كل أعضاء مجلس الحكم المحلي وأي عراقي يتعاون مع قوات التحالف. كما أعلنت هذه المجموعـة أن النجف وكربلاء هي الميادين التي سوف تستهدف الأمريكان فيها.

كتائب المجاهدين في الجماعة السلفية في العراق: هذه الجماعة السنية العربية تدعى لأن ملهمها الروحي هو الشيخ عبد الله عزام والذي كان كـذلك الملهم الروحي لأسامة بن لادن في 1980. الشيخ عبد الله عزام شجع الكثيرين على الانضمام إلى صفوف المجاهدين في أفغانستان في 1980 ضد الاحتلال السوفيتي ومن ضمنهم أسامة بن لادن.

استشهد رحمة الله عليه في تفجير سيارة في بيشاور من قبل مجهولين في نوفمبر 1989وترك العديد من الكتب والفتـاوى وأيديولوجيـة متكاملـة للجهاد. لا تتوفر أية معلومات اخرى عن هذه الجماعة وربمـا تضـم هـذه الجماعة بعض المقاتلين الأجانب.

الجماعات الإسلامية في مصر:

تنظيم الجهاد :

الذي بدا مع سالم الرحال الطالـب الأردنـي الجنسـية بالجامعـات المصرية وفيما بعد نشا تنظيم الجهاد الثاني على يد محمد عبد السـلام فـرج مؤلف كتاب (الفريضة الغائبة) والذي يعد دستور التنظيم وهو أحد المهتمين الرئيسيين في قضية اغتيال السادات في أكتوبر عام 1981 , بعد ذلك أصـبح

رفاعي طه زعيم الجماعة واحمد ابراهيم السيد النجار مسؤول التنظيم وتحت وطأة الضربات الناجحة لأجهزة الأمن المصرية اضطرت الجماعة إلى الارتماء في أحضان أسامة بن لادن في أفغانستان وبدأت قيادات الصف الأول والثاني بالسفر إلى أفغانستان وهناك حدث خلاف بين الجهاد وبن لادن فالجهاد تريد التركيز على ضرب النظام المصري في حين يركز بن لادن على العمليات ضد أمريكا والجهاد لا تريد استعداء أمريكا .

قيادة الجهاد :

زعيم الجماعة : رفاعي طه

مسؤول التنظيم المدني داخل مصر : احمد إبراهيم السيد النجار

أمير المجلس القيادي : أيمن الظواهري

مسؤول لجنة العمل الخاص : احمد أبو الخير

مسؤول اللجنة العسكرية : محمد الظواهري

مسؤول اللجنة الأمنية خارج مصر : ثروت صلاح شحاتة

مسؤول اللجنة الشرعية : مرجان سالم

مسؤول لجنة الأسر : عادل عبد القدوس

مسؤول لجنة الإعلام : عادل عبد المجيد عبد الباري

مسؤول لجنة المالية : إبراهيم عيد أروس

وبالإضافة إلى اغتيال أنور السادات فالجهاد مسئولة عن عمليات أخرى أبرزها محاولة فاشلة لاغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أديس أبابا بأثيوبيا عام 1995 والاعتداء على السفارة المصرية في إسلام أباد في تشرين الثاني 1995 .

حزب التحرير الإسلامي :

وهو التنظيم الذي أسسه الدكتور صالح سرية. والذي قام بالعملية المعروفة عملية الكلية الفنية العسكرية والتي هاجم فيها مبنى الكلية الفنية العسكرية بالقاهرة برفقة أعضاء التنظيم وتم إلقاء القبض عليهم ونال بعضهم أحكاما بالإعدام.

التكفير والهجرة :

هو التنظيم الذي أسسه شكري مصطفى وقام باختطاف وزير الأوقاف الشيخ الذهبي وقتلوه ونشروا وثيقتهم التي تحوي على اتهامات بتكفير النظام وخروجه عن جادة الشريعة .

الجماعات الإسلامية في الاردن:

منذ بداية عهد الإرهاب في الأردن في التسعينات ظهرت هناك عمليات عنف محدودة نسبت إلى مجموعات إسلامية صغيرة تظهر وتختفي حيث إن التنظيمات الأصولية والمتطرفة التي يعلن عنها دائما بمعدل تنظيم واحد كل سنة تقريبا.

جيش محمد:

أعلنت الحكومة الأردنية عن اعتقال مجموعة تسمى "جيش محمد" وقدمت المجموعة إلى المحكمة بتهمة تنفيذ مجموعة من الأعمال الإرهابية مثل إحراق مكتبة المركز الثقافي الفرنسي، وإطلاق النار ليلا على واجهة بنك بريطاني، وتفجير سيارة لأحد ضباط المخابرات العامة، وسيارة أخرى لرجل دين مسيحي، وصدرت بحق أعضاء المجموعة أحكام بالسجن، ثم أطلق سراحهم في عفو عام صدر عام 1992 ولم يعد احد يسمع عن جماعة اسمها

"جيش محمد" وانخرط أعضاؤها الذين ينتمي معظمهم إلى فئة محدودة التعليم في الحياة وانقطعت صلتهم بالتدين.

النفير الإسلامي:

ظهر تنظيم "النفير الإسلامي" وأعلن عن اكتشافه عام 1992 واعتقل النائبان ليث شبيلات ويعقوب قرش وشخصان آخران وحكم عليهم بالإعدام ثم خفف الحكم إلى المؤبد، وخرجوا من السجن بالعفو العام عام 1992 عام 1993:اعتقلت مجموعة من تلاميذ جامعة مؤتة العسكريين وحكم عليهم بالإعدام والسجن المؤبد، ولكن أحكام محكمة امن الدولة بدأت منذ ذلك العام تخضع للاستئناف في محكمة التمييز التي برأت المتهمين جميعهم.

الأفغان الأردنيون:

أعلن وزير الداخلية الأردني عبر التلفزيون عن اكتشاف تنظيم سمي "الأفغان الأردنيون" يسعى لمهاجمة البنوك ودور السينما واغتيال النواب وقادة الفكر، وكان أعضاء التنظيم وهم ثلاثة وعشرون شابا قام بعضهم بتفجير دارين للسينما في عمان والزرقاء، وهي تفجيرات لم تصب سوى منفذها، فالشاب الذي وضع العبوه المتفجرة في دار السينما مصاب بمرض نفسي، وقد اعفي من الخدمة العسكرية بسبب مرضه هذا، وهو غير متدين ولا يؤدي الحد الأدنى من الفرائض الدينية، ويبدو انه لم يكن يعلم ماذا يفعل وانه استدرج من قبل شخص آخر. وقد حكم على الشاب بالسجن المؤبد ثم أطلق سراحه في عفو خاص بسبب ظروفه الخاصة ولأنه رب عائلة. وجاء في حيثيات المحكمة انه غرر به شخص آخر وأعطاه عشرين دينارا ليضع العبوة في السينما، وطلب منه أن يحضر الفيلم ثم يخرج مع الناس، وكان يجب أن تفجر السينما بعد خروج الحاضرين جميعهم، ولكنها انفجرت بالشاب في أثناء جلوسه ومشاهدته للفيلم. وقد اتهم السعودي جمال خليفة بتمويل هذه المجموعة وقد سلم إلى الأردن في أثناء مروره بالولايات المتحدة وكان قد حكم عليه غيابيا

بالإعدام، لكن عندما أعيدت محاكمته وجدته محكمة امن الدولة بريئا. عام 1995تعرض دبلوماسي فرنسي بعمان لإطلاق نار عليه، واتهم بالشروع بالقتل شابان إسلاميان ثبت إنهما لم يطلقا النار وقد برأتهما محكمه الجنايات، لكن محكمه امن الدولة إدانتهما بالإرهاب وحيازة المتفجرات.

الإصلاح والتحدي:

أعلن عن اكتشاف تنظيم "الإصلاح والتحدي" وكان أكثر احترافا من المجموعات الأخرى، وقد نفذت مجموعته عمليات رمزية إعلامية مثل تفجير سيارة إسرائيلية وسيارة مسوول سابق وتفجير سور مدرسة أميركية في عمان.

تحدثت الصحافة عن اعترافات متهمين بقضايا جرميه خطيرة مثل قتل رجال شرطة وسطو مسلح مصحوب بالقتل بأنهم مسو ولون عن عمليات "الإصلاح والتحدي"، لكن المحكمة لم تأخذ بأقوالهم هذه واعتبرتها محاوله لتضليل المحكمة.

وفي العام ذاته قدم إلى المحكمة مجموعات من الإسلاميين بتهمة محاولة نقل سلاح من الأردن إلى فلسطين، ومجموعة أخرى بتهمة تفجير سيارة احد ضباط المخابرات العامة وقد قتل في تلك العملية عابرا سبيل كانا في المكان احدهما عراقي والآخر مصري.

عام 2000:

اعلن عن القبض على مجموعة بتهمة التخطيط لعمليات إرهابية تستهدف أماكن سياحية وشخصيات سياسية وأجنبية. ولم تكن هذه القضية مختلفة كثيرا عن قضايا التطرف الإسلامي التي أعلن عنها من قبل، ولكن الجديد هذه المرة ما يظهر أكثر من السابق مشاركة أميركية في التعامل مع القضية، فقد أعلنت الدوائر الأميزكية عن قصة اعتقال مجموعة من المتطرفين

المرتبطين بأسامة بن لادن في بلد شرق أوسطي وإنهم يخططون لعمليات إرهابية ضد أميركا، ما دفع بالحكومة الأردنية للإعلان عن اعتقال ثلاثة عشر متطرفا إسلاميا بينهم عراقي وجزائري تلقوا تدريبا في أفغانستان، وبعضهم سبق اعتقاله في قضايا إرهاب سابقة.

عام 2002بدت حادثة اغتيال الدبلوماسي الأميركي لورانس فولي في عمان في 28 تشرين الأول/اكتوبر مختلفة عن سياق احداث العنف التي وقعت في عمان واتهمت او ادينت بتنفيذها مجموعات اسلامية متطرفة تتجه الانظار اليوم اليها تلقائيا باعتبارها مسؤولة عن عملية الاغتيال. فالمعلومات عن هذا الحادث ان منفذيه اكثر احترافا وخبرة من منفذي جميع الاعمال السابقة التي اعلن عنها والتي كان يغلب عليها السذاجة والمعرفة المسبقة بأصحابها واكتشافها في وقتها او قبل وقوعها. وكان فولي، الذي لقي مصرعه، يعمل في وكالة التنمية الاميركية (يو.اس ايد ? (USAID?ويبلغ من العمر 62عاما، وقد اطلقت النيران عليه عده مرات من مسافة قريبة اثناء مغادرته منزله متوجها الى عمله في السفارة الاميركية. وقد عثرت زوجته على جثته بعد قليل من اغتياله واتصلت بالشرطة، ولم تذكر زوجته ولا احد من الجيران او المارة انه سمع صوت اطلاق نار مما يرجح ان القاتل استخدم كاتما للصوت.

عام 2004تم القبض على قائد وأعضاء خلية ارهابية كانت تستعد لشن هجمات ارهابية في الاردن حيث كانوا يستعدون لتنفيذ اول هجوم ارهابي بالسلاح الكيمياوي يقوم به تنظيم القاعدة.

وكانت المجموعة التي كان يقودها عزمي الجيوسي قد ضمت تسعة افراد قد اعترفت بأن احمد فضيل الخلايله الملقب بابي مصعب الزرقاوي احد ابرز قياديي تنظيم القاعدة هو الذي خطط لهذه العملية وحدد اهدافها وجند عناصرها وجهزهم بالمال وكل المستلزمات بما فيها جوازات السفر المزيفة.

واعترف الجيوسي ان العملية كانت تستهدف رئاسة الوزراء ودائرة المخابرات العامة والسفارة الاميركية بعمان، وقد جهزت الخلية الارهابية عشرين طنا من المتفجرات الكيمياوية كانت كافية لقتل 80 الفا واصابة 160 الفا آخرين. وكانت الخلية الارهابية على وشك تنفيذ مخططها بعدما صنع اعضاؤها المتفجرات الكيمياوية والحاويات والمستلزمات الاخرى في عدة مناطق وبعد تحميل المتفجرات بعدد من الشاحنات والسيارات. وقال الجيوسي انه كلف مباشرة من الزرقاوي بتنفيذ العملية الارهابية اثناء وجودهما في العراق التي انتقلا اليها من افغانستان. في التاسع عشر من اب /اغسطس عام 2005 اطلقت ثلاثة صواريخ كاتيوشا من احد المستودعات في احدى المناطق بالعقبة حيث اصاب احدها مستودعا للقوات المسلحة الاردنية يقع على رصيف الميناء تسبب في استشهاد احد افراد القوات المسلحة.

الإسلاميون والسلطة: نحو التهدئة والمصالحة؟

العلاقة بين الطرفين مرشحة للتهدئة والعمل السلمي في إطار قوانين الدولة، ذلك أن إرهاب الجماعات الإسلامية كانت عواقبه وخيمة على الدولة وعلى الحركات الإسلامية نفسها كونها أصبحت في قفص الاتهام الدائم، الاتهام بالعنف ومحاولة الاستيلاء على الحكم بالقوة. أما السلطة (مثال مصر والجزائر) فرغم مكاسبها الإستراتيجية (الإرهاب سمح لها بتجديد مسوغات شرعيتها التي تآكلت) فإنها في الوقت نفسه ضعفت، ذلك أن نهاية الخطر الأصولي المسلح يطرح، إن عاجلا أو آجلا، حتمية التحول الديمقراطي الفعلي. مما سيفسح المجال لمختلف التيارات بما فيها الإسلامية لممارسة العمل السياسي والمطالبة الملحة برفع قوانين الطوارئ المعمول بها منذ سنوات في العديد من الدول بدعوى مكافحة الإرهاب.

التطور الديمقراطي الصحيح والانفتاح السياسي للمجتمع قد يسهمان إلى حد كبير في كبح جماح التطرف والنزوع إلى العنف، واحتواء التطرف

في إطار سقف سياسي يحول دون الانزلاق إلى الإرهاب. إذ إن ظاهرة العنف لا تفسر فقط بغياب الديمقراطية، ذلك أن هذه الأخيرة لا تعني بالضرورة غياب العنف كما أن، وهذا هو الأهم، غلبة الخطاب الجهادي-التكفيري، كمرجعية أيديولوجية، المنتشر في الأوساط الإسلامية، يجعل من أي نظام مهما كانت درجة ديمقراطيته تحت التهديد كونه لا يطبق شرع الله كما يفهمه أصحاب هذا الفكر الذين يسعون لإقامة دولة إسلامية تيوقراطية. هذا من ناحية، من ناحية أخرى، العنف الإسلامي ضرب دولا عربية شرعت في انفتاح ديمقراطي، لاسيما الجزائر ومصر، أين استفاد الإسلاميون عموما من هامش الحرية ليصبحوا القوة السياسية الأولى المعارضة للحكم. أما سوريا، التي لم تعرف عنفا إسلاميا منذ عام 1982، شهدت في منتصف التسعينيات اتصالات تشير إلى تقارب بين النظام والإخوان المسلمين لاسيما بعد الإفراج عن العديد منهم وعودة أبي غدة (مرشد الإخوان وزعيم سابق لحزب التحرير) من منفاه في السعودية الذي دام 13 سنة. إنها نقلة نوعية مقارنة مع السياسة الرسمية لعام 1980 لما كان مجرد الانتماء إلى الإخوان عقوبته الإعدام. التصعيد مع إسرائيل خاصة عام 1996 عجل التقارب بين الأسد والإخوان. وقد يسهم تولي نجله السلطة في تسريع هذا التصالح، خاصة أنه أبدى انفتاحا سياسيا (تعاملها الهادئ مع "بيان الألف" التي أصدرته لجان المجتمع المدني).

لكن الانفراج المرتقب عربيا قد يجهض إن فشلت الأنظمة في تسوية قضايا مصيرية مثل الهوية، العلاقة بين الدين والسياسة... الحسم فيها ضروري لبناء ديمقراطية على أسس متينة. طبعا، الوضع يختلف من بلد لآخر، فإذا كانت الجزائر ومصر على وشك الخروج نهائيا من دوامة العنف الإسلامي، فإن بعض الدول مثل المغرب الذي يعرف بركانا إسلاميا لاسيما في الجامعات قد يشهد موجات عنف إن لم تنجح السلطة في التعاطي بحنكة

إزاء الملف الإسلامي، خاصة أن المواجهة فتحت بين الطرفين بسبب مسألة تعديل قانون الأحوال الشخصية.

هذا الانفراج المرتقب قد يجهض أيضا في حالة تبني الأنظمة العربية للإستراتيجية الغربية المناوئة للإرهاب بعد انفجارات نيويورك وواشنطن. الحملة الأميركية ضد الإرهاب لا تفرق بين الإرهابيين والإسلاميين، أو على الأقل تبقي على نوع من الغموض المقصود. ولو طبقت هذه النظرة عربيا لكانت الحرب الأهلية نظرا لثقل الإسلاميين السياسي في المجتمعات العربية. يبدو أن الأنظمة لا تريد فتح جبهة مع الإسلاميين، خاصة أنها ستجهض جهودها لإدماجهم في العمل السياسي العلني (يبدو أن مصر تعمل على تمييع "هوية" الإسلاميين في أحزاب غير إسلامية، عدم السماح للنواب السبعة عشر من الإخوان من تشكيل كتلة برلمانية داخل مجلس الشعب المصري). وتبني الإستراتيجية الغربية دون تحفظات يعني بالنسبة للجزائر التخلي عن سياسة الوئام المدني وإقصاء الإسلاميين من الائتلاف الحاكم. وبالتالي فاحتمالات مضايقة الإسلاميين المنخرطين في اللعبة السياسية الشرعية غير واردة، بينما ستتقوى الحملة الداخلية على الإرهاب.

لتدعيم الانفراج والخروج من دوامة الصراع لا بد من التخلي عن منطق "حلال علينا حرام عليكم" في ما يخص قضية فصل الدين عن الدولة، فالأنظمة تستخدم الدين لبسط شرعيتها وتبرير سياستها وتريد في الوقت نفسه تفنيد حجج الإسلاميين في استخدام الدين في السياسية، الحل هو حسم العلاقة بين الدين والسياسة بالتأكيد على أنه لا سلطة دينية في الإسلام على أن يطبق هذا على السلطة والإسلاميين على حد السواء، ولا بد أيضا من الخروج من نموذج الثنائية القطبية الصراعية بين الدولة التسلطية والتنظيمات الإسلامية، المخرج هو الديمقراطية ليس لأنها الحل الأمثل (فهي لا تعني بالضرورة غياب العنف) بل الأنسب. وحتى نقلب كليا "فكر" عبد السلام فرج (منظر

تنظيم الجهاد المصري)، نقول إن "الفريضة الغائبة" ليست الجهاد بل الديمقراطية. هذه الأخيرة أجلت وتؤجل تحت ذرائع مختلفة. الحقيقة أن تأجيل الديمقراطية هو المشروع اللاحضاري العربي.

هل زوال الخطر الأصولي يعني خروج المجتمعات العربية من دائرة العنف؟ بقاء حالة الانسداد السياسي الذي تستخدمه الأنظمة للبقاء في الحكم، سيولد إن عاجلا أو آجلا تطرفا جديدا باسم الدين، أو باسم أيديولوجية علمانية، أو مرجعيات عقائدية أخرى أو حتى نزعات انفصالية. لذا فاجتثاث الإرهاب من جذوره لن يتسنى ما لم تجتث جذور العنف عموما، الخلل الكبير في التوازنات الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية هو مصدر العنف. الخروج من هذا المأزق يكمن في العدالة الاجتماعية والتنشئة الاجتماعية، السياسية والدينية الصحيحة بعيدا عن الدعاية للحاكم مهما كانت توجهاته وانتماءاته.

أهم المصادر و المراجع

١- القرآن الكريم

٢- البخاري : صحيح البخاري، حققه ديب البغا ، ط٣ ، بيروت ، دار ابن كثير ، ١٩٨٧.

٣- مسلم : الصحيح ، حققه فؤاد عبد الباقي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د ت.

٤- ابن منظور الإفريقي: لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، د ت.

٥- ابن عبد البر : التمهيد ، حققه مصطفى البكري ، المغرب ، وزارة الأوقاف ، ١٣٨٧

٦- ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان ، ط٣ ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي ، ١٩٨٦.

٧- ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ، ط ١ ، القاهرة دار الحديث ، ١٤١٤.

٨- ابن خلدون المقدمة ، ط٥ ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٨٤ ،و ط : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣

٩- ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال ، حققه مختار عزاوي ، ط ٣ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨٨.

١٠- ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ط ١ ، بيروت ، دار الأندلس.

١١- ابن كثير : البداية و النهاية ، بيروت ، مكتبة المعارف ، د ت.

١٢- ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، جمعه ابن القاسم ، الرياض ، ١٣٨١.

١٣- الصارم المسلول على شاتم الرسول ، حققه محمد الحلــواني ، ط١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٧.

١٤- درء تعارض العقل و النقل ، حققه محمد رشاد سالم ، الرياض ، دار الكنوز ، ١٣٩١ه.

١٥- منهاج السنة ، حققه محمد رشاد سالم ، ط١ د م ، مؤسسة قرطبة ، ١٤٠٦.

١٦- التفسير الكبير، حققه عبد الرحمن عميرة ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٨

١٧- الوصية الكبرى ، حققه علي حسن عبد الحميد، ط٢ ، الجزائــر ، دار الشهاب ، ١٩٨٨

١٨- الرسالة التدمرية ، الجزائر ، دار الشهاب ، ١٩٨٩ قاعدة في المحبة ، حققه محمد رشاد سالم الجزائر دار الشهاب د ت.

١٩- بن تغري بلدي: النجوم الزاهرة ، مصر ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، د ت.

٢٠- ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، حققــه زاهــد الكــوثري ، ط٣ ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٤.

٢١- ابن حزم : الفصل ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، د ت.

٢٢- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حققــه عبــد الله القاضـــي ، ط ٢ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٥.

٢٣- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، حققه محمــود الأرنــاؤوط ، ط١ دمشق ، دار ابن كثير ، ١٩٨٩.

24- ابن رجب: الذيل عل طبقات الحنابلة ، حققه محمـد حامـد الفقـي ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، 1953.

25- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حققه إحسان عباس ، دار الثقافة ، 1968.

26- ابن حجر الهيثمي : الصواعق المحرقة أهل الرفض و الضلال و الزندقة ، حققه عبد الرحمن التركي ، ط1 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1997.

27- ابن مفلح المقدسي : الفروع ، ط1 ـ بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1418.

28- ابن عقيل : الرد على الأشاعر ، نشرته مجلة نشرة الدراسات الشرقية ، المعهد الفرنسي بدمشق، العدد 24 1971.

29- ابن قدامة الموفق المقدسي: المغني في الفقه ط1 ، بيروت ، دار الفكر ، 1405.

30- ابن قدامة : مناظرة في القرآن ، ط1 ، الكويت ، مكتبة ابن تيمية .

31- ابن قدامة الموفق المقدسي : تحريم النظر في كتب أهل الكلام ، نشره جورج مقدسي لندن، مطبعة لوزاك.

32- ابن قيم الجوزية : الفوائد ، حققه راتب عرموش ، ط4 ، بيروت ، دار النفائس ،

33- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، حققه حامد الفقي ، ج2 ، بيروت ، دار المعرفة ، 1975.

34- شفاء العليل ص :314 .و مختصر الصواعق المرسلة ، حققه جامع رضوان ، بيروت ، دار الفكر ، 1979.

٣٥- طريق الهجرتين ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د ت.

٣٦- زاد المعاد في هدى خير العباد ، حققه شيعب الأرناؤوط ، و عبد القادر الأرناؤوط ، ط١٤ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦

٣٧- نقد المنقول ، حققه حسن السماعي ، ط ١ ، بيروت دار القادري ، ١٩٩٠.

٣٨- ابن الفوطي : الحوادث الجامعة و التجارب النافعة ، بيروت ، دار الفكر الحديث ، ١٩٨٧.

٣٩- ابن جرادة : بغية الطلب في تاريخ حلب ، حققه سهيل زكار ، ط١ ، بيروت ، دار الفكر ،

٤٠- ابن الجوزي :صيد الخاطر ، حققه محمد الغزالي ، الجزائر ، مكتبة رحاب.

٤١- ابن الجوزي: المنتظم ، ط ١ ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٥٨ه ج ٨ ص: ١٤٣.

٤٢- ابن الجوزي: التحقيق في أحاديث الخلاف ،ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٥ه.

٤٣- ابن جبير : رحلة ابن جبير ،الجزائر ، موفم للنشر ، ١٩٨٨، ص: ٧١.

٤٤- الجوزجاني: أحوال الرجال ، حققه صبحي السامرائي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥.

٤٥- ابن حبان : كتاب المجروحين ، حققه محمود زايد ، حلب ، دار الوعي ، د ت.

٤٦- ابن حبان : صحيح ابن حبان ، حققه شعيب الأرناؤوط ، ط٢ بيروت، مؤسسة الرسالة.

٤٧- ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ط١ ، بيروت دار الفكر ، ١٩٨٤.

٤٨- ابن حجر : الدرر الكامنة ، حققه محمد العيد خان ، ط٢ ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٧٢.

٤٩- ابن خزيمة : كتاب التوحيد ، دار الكتب العلمي ، بيروت ، ١٩٧٨.

٥٠- ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت.

٥١- ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي، د ت.

٥٢- ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، ط١ بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٠

٥٣- ابن العربي : العواصم من القواصم ، حققه عمار طالبي الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع

٥٤- ابن تبيط : نسخة الأشجعي في الأحاديث الموضوعة ،مصر دار الصحابة.

٥٥- ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، حققه حسن الشماع ، بغداد ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٦٩ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،حققه نزار رضا ، بيروت ، مكتبة الحياة

٥٦- ابن الطقطقى : الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية ، مصر ، مكتبة عز للتوريدات

٥٧- ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ،حققه سامي الدهان و لاوست ، دمشق المعهد الفرنسي ، ١٩٥١.

٥٨- ابن الأهدل : : كشف الغطاء ، تونس ، الاتحاد العام التونسي للشغل ، د.

٥٩- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة ، حققه سامي الدهان ، دمشق ، المهعد الفرنسي ، ١٩٥٦ه

٦٠- أبو إسحاق الشيرازي؛ طبقات الفقهاء ،حققه خليل الميس ، بيــروت ، دار القلم ، د ت.

٦١- أبو حامد الغزالي: المنخول ، حققه محمد حسن هيتو ، بيــروت ، دار الفكر.

٦٢- أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ، حققه بشار عــواد ، بيــروت ، مؤسسة الرسالة.

٦٣- أبو الحسين بن أبي يعلى الفراء: طبقات الحنابلة حققه محمــد حامــد الفقي ، مصر ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٦٢.

٦٤- أبو يعلى للفراء: المعتمد في أصول الدين ، حققــه وديــع زيــدان ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٧٣

٦٥- أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني، د ت.

٦٦- أبو المظفر الاسفراييني : التبصير في الدين ، ط١ ، بيــروت ، دار عالم الكتب.

٦٧- أبو شامة : مختصر كتاب المؤمل للرد إلــى الأمــر الأول ، ضــمن مجموع : من هدى المدرسة السلفية ، الجزائر ، دار الشهاب.

٦٨– أبو شامة المقدسي : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ،حققه إبراهيم الزئبق ، ط ١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٧.
1983

٦٩–أبو اليمن مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل ، النجف ، المطبعة الحيدرية و مكتبتها ، ١٩٦٨

٧٠–68-الألباني: الأحاديث الضعيفة و الموضوعة ، ط٣ ، عمان المكتبة الإسلامية ، ذ٤٠٦

٧١–صحيح الأدب المفرد ، ط٢ ، دار الصديق ،١٤٢١ه

٧٢–ي: صفة صلاة النبي ، السعودية مكتبة المعارف، د ت.

٧٣–تمام المنة في التعليق على فقه السنة ، ط٣ دار الراية ، السعودية.

٧٤–الأدفوي كمال الدين: الطالع السعيد ، الدار المصرية للتأليف.

٧٥–أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، دمشق ، مؤسسة الوحدة ، ١٩٨١.

٧٦–أبو علي بن البناء : يوميات ابن البناء ، نشرته مجلة الدراسات الشرقية بالمركز الفرنسي بدمشق ، مج ١٩ ، ١٩٥٧ ، ص: ١٥.

٧٧–أحمد بن حنبل : فضائل الصحابة ، حققه محمد عباس ، ط١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ،

٧٨–الإسفراييني: التبصير في الدين ، ط١ ، بيروت ، عالم الكتب، ١٩٨٣.

٧٩–بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ، حققه حامد الفقي ، بيروت ، دار الكتب العلمية، دت

٨٠–البخاري : خلق أفعال العباد ، الجزائر ، دار الشهاب.

٨١- التجيبي : مستفاد الرحلة و الاغتراب ،حققه عبد الحفيظ منصور ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب

٨٢- التنوخي: نشوار المحاضرة و أخبار المذاكرة ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧١.

٨٣- جورج ستانسيو ،و روبرت، أغروس: العلم في منظوره الجديد،ترجمه كمال خليلي، سلسلة عالم المعرفة الكويت المجلس الوطني للثقافة و الفنون

٨٤- حاجي خليفة : كشف الظنون ،بيروت ، دار الكتب العلمية ١٩٩٢م.

٨٥- الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، د ت

٨٦- الذهبي : أحاديث مختارة من موضوعات ابن الجوزي و الجوزقاني، المينة المنوّرة ، مكتبة الدار ١٤٠٤

٨٧- الذهبي: سيَر أعلام النبلاء حققه بشار عواد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة.

٨٨- الذهبي : الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردا ، ط ٤ ، حققه محمد الموصلي ، بيروت ، دار البشائر ، ١٩٩٢.

٨٩- الذهبي: العبر ، حققه صلاح الدين المنجد، ط٢ ، الكويت ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٨٤.

٩٠- الذهبي: ميزان الاعتدال ، حققه علي معوض ، ط١ بيروت دار الكتب العلمية ، ١٩٩٥.

٩١- السبكي: معيد النعم و مبيد النقم ، حققه محمد علي النجار ، ط١ ، القاهرة ، جماعة الأزهر ، ١٩٤٨

٩٢-السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ،حققه محمد الطناجي ط ٢، الجيزة ، دار هجر ، ١٩٩٢.

٩٣-سفر الحوالي : منهج الأشاعرة في العقيدة ، ط١ ، الجزائر ، الدار السلفية ، ١٩٩٠.

٩٤-السيوطي : تاريخ الخلفاء ، حققه محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ١ ، مصر ، مطبعة السعادة ، ١٩٥٢.

٩٥-السوطي : حسن المحاضرة ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٦٥.

٩٦-السيوطي: تدريب الراوي ، حققه عبد الوهاب عبد اللطيف ، الرياض ، مكتبة الرياض،دت.

٩٧-السيوطي: تاريخ الخلفاء، ط١ ، مصر ، مطبعة السعادة ، ١٩٥٢.

٩٨-سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ، القسم الأول، الدكن ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية.

٩٩-السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة اللطيفة ، ط ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣.

١٠٠-السفاريني : لوامع الأنوار البهية ، حققه رشيد رضا ، القاهرة ، مطبعة المنار الإسلامية ، ١٣٢٣ه.

١٠١-الشهرستاني: الملل و النحل ، حققه علي مهنا، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٩٨.

١٠٢-الشوكاني : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، حققه عبد الرحمن المعلمي، بيروت ، دار الكتب العلمية ،١٩٩٥.

١٠٣-الشوكاني: القول المفيد ، حققه عبد الرحمن عبد الخالق ، ط١ ، الكويت ، دار القلم، ١٣٩٦.

١٠٤-الشوكاني: السيل الجرار ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ.

١٠٥-الشوكاني: البدر الطالع ، بيروت ، دار المعرفة ، د ت ، ص: ٩٠، ٩١.

١٠٦-الصفدي: نكت الهيمان ،حققه أحمد زكي باشا ، مصر ، المطبعة الجمالية ، ١٩١١.

١٠٧-الصنعاني محمد بن إسماعيل : إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد ، حققه صلاح الدين مقبول ، ط ١ ، الكويت ، الدار السلفية ، ١٣٩٦هـ

١٠٨-الضياء المقدسي : الأحاديث المختارة ، حققه عبد الملك بن دهيش ، ط١ مكة ، مكتبة النهضة الحدية' ١٤١٠هـ.

١٠٩-العقيلي : ضعفاء العقيلي ،ط١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة،، ١٤٠٤.

١١٠-العيدروس عبد القادر : تاريخ النور السافر على أخبار القرن العاشر ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ.

١١١-عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، حققه سعيد العريان ، ط ١ ، القاهرة ، مطبعة الإستقامة ، ١٣٦٨.

١١٢-عبد الله الزيلعي نصب الراية حققه يوسف البنوري، مصر ، دار الحديث ، ١٣٥٧هـ.

١١٣-عبد الله بن أحمد بن حنبل : السنة ، حققه محمد القحطاني ، ط ١ ، الدمام ، دار ابن القيم ، ١٤٠٦.

١١٤-عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، حققه محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٩٥.

١١٥-عبد القادرالقرشي: الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، كراتـــشي ، مير محمد كتب خانة ، بدت.

١١٦-عمر سليمان الأشقر : المدخل إلى دراسة المدارس و المذاهب الفقهية ن ط٢ الأردن ، دار النفائس ، ١٩٩٨.

١١٧-عمر بن عثمان : الوضع في الحديث ،دمشق ، مكتبـــة الغزالـــي ج٢ ص:١٠٢.

١١٨-العلموي: المعين في أدب المفيد ، حققه محمد زيغور ، ط١ ، بيروت ، دار إقرأ ١٩٨٦

١١٩-عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي، الجزائر ، قصر الكتاب ، ١٩٩٠

١٢٠-علي القارئ : الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضـــوعة ، حققـــه محمد الصباغ ، ط٢ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٦

١٢١-عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المعرب ، حققه سعيد العريان ، ط ١ ، القاهرة مطبعة الاستقامة ، ١٣٦٨.

١٢٢-عماد عبد السلام رؤوف : مدارس بغدادفي العصر العباسي ، ط ١ ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٥

١٢٣-عبد لعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإســـلامي ، مؤســـسة شباب الجامعة ، مصر ، د ت

١٢٤-العليمي : المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ، حققه محي الدين عبد الحميد ، ط ١ ، القاهرة ،١٩٦٣.

١٢٥–القرطبي : تفسير القرطبي ، حققه أحمد البردوني ، ط٢ ، القـاهرة ، دار الشعب ، ١٣٧٢ه

١٢٦–القلقشندي: مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، ط ٢ ، الكويت ، مطبعـة حكومة الكويت.

١٢٧–القنوجي حسن خان : أبجد العلوم ، حققه عبد الجبار زكار ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧

١٢٨–الكليني: الكافي من الأصول ، طهران دار الكتب الإسلامية ، ١٣٢٨ه

١٢٩–المناوي: الكواكب الدرية ، ط١ ، بيروتت ، دار صادر، ١٩٩٩.

١٣٠–المناوي: فيض القدير ، مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٥٦.

١٣١–-129محمد السيواسي: شرح فتح القدير ، ط ٢ ، بيروت ، دار الفكر ، د ت

١٣٢–محمد المبارك : التفكير العلمي في الإسلام ط٢ بيروت ، دار الفكر ١٩٨٠

١٣٣–محمد بن عبد الهادي: طبقات علماء الحديث ، حققه أكرم البوشـي ، ط٢ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٦.

١٣٤–محمد بن عبد الهادي: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام بن تيمية ، حققه محمد حامد الفقي ، بيروت ، دار الكتاب العربي

١٣٥–المقريزي : كتاب السلوك ،لمعرفة دول الملوك ، ط١ ، بيروت ، دار صادر، ١٩٩٩.

١٣٦–محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ،ط١ ، مصر مكتبة وهبـة ١٩٦٣.

١٣٧--135المقري: نفح الطيب ، حققه إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨.

١٣٨–محسن المعلم : النصب و النواصب ، دار الهادي، بيرت.

١٣٩–مؤلف مجهول : كتاب العيون و الحدائق في معرفة الحقائق ، حققه قمر السعيدي ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٧٢.

١٤٠–محمد كرد علي: خطط الشام ، دمشق ، مطبعة الترقي، ١٩٢٦.

١٤١–محمد الحامد : مجموعة رسائل الشيخ محمد الحامد ، الجزائر ، دار الشهاب.

١٤٢–النووي: المجموع ، حققه محمود مطرحي ، ط١ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٩٦.

١٤٣–النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ، ط٢ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٣٩٢ه

١٤٤–ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ط ٢ ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٥.

١٤٥–عمة الله الجزائري : النوار النعمانية ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت.

١٤٦–الناصري احمد بن خالد: الاستقصاءلأخبار دول المغرب الأقصى ط١ ، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٩٧.

١٤٧–ولي الله الدهلوي: الإنصاف في بيان أسباب الإختلاف ، حققه عبد الفتاح أبو غدة ، بيروت ، دار النفائس ، ١٩٨٣.

١٤٨–اليافعي المكي: مرآة الجنان ، بيروت، منشورات الأعلمي، ١٩٧٠.

١٤٩-يوسف بن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد حققه اسعد طلس ، دمشق المهد الفرنسي.

١٥٠-اليونيني قطب الدين : ذيل مرآة الزمان ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية.

١٥١-تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطي ـ إعداد د. محمد حسن الحمصي.

١٥٢-تفسير وبيان مع أسباب النزول للسيوطي ـ إعداد د. محمد حسن الحمصي، ص٣٣٧.

١٥٣-الواحدي النيسابوري ـ أسباب النزول، ص١٧٧.

١٥٤-ابن قدامة المُغني ج ٨ ص ٣٦٤

١٥٥-ابن تيمية الفتاوى ج١٥ ص ١٧٤

١٥٦-ابن رشد بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج١ ص ٣١٣

١٥٧-الطبري تاريخ الطبري ج٢ ص ٢٣٣

١٥٨-الطبري تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٣٣

١٥٩-الطبري تاريخ الطبري ج٢ ص ٢٣٤

١٦٠-المصدر السابق نفس الصفحة

١٦١-المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٥

١٦٢-المصدر السايق نفس الصفحة.

١٦٣-المصدر نفسه ج ٦ ص ٥٢٨

١٦٤-المصدر السابق نفس الصفحة

١٦٥-المصدر السابق نفس الصفحة

١٦٦-ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٦ ص ٥٢٧،٥٢٨

١٦٧-المصدر السابق ج٦ ص ٥٢٨

١٦٨-جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٨٢

١٦٩-ابن ابي الحديد شرح نهج البلاغة ج٦ ص ٤٨

١٧٠-محمد باقر الصدر نشأة الشيعة والتشيع ص ٣٥

١٧١-المصدر السابق نفس الصفحة

١٧٢-محمد باقر الصدر نشأة التشيع والشيعة ص ٣٦، يذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء حديث أبي بكر عن ثقته ب سالم وأبي عبيدة ص ١٣٦

١٧٣-الشهرستاني الملل والنحل ج١ ص ١٣

١٧٤-عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون مقدمة ابن خلدون ص ١٧٨ تحقيق درويش الجويدي

١٧٥-الموسوعة الفقهية ج٦ ص ١٩٠

١٧٦-المصدر السابق نفس الصفحة

١٧٧-عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون مقدمة ابن خلدون ص ١٧٨ تحقيق درويش الجويدي

١٧٨-النفراوي الفواكه الدواني ج١ ص٢٥٢

١٧٩-الماوردي الأحكام السلطانية ص ١٦

١٨٠-المصدر السابق نفس الصفحة

١٨١-المصدر السابق نفس الصفحة

١٨٢-الموسوعة الفقهية الكويتية ج٨ ص ١٩٢

١٨٣-عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون مقدمة ابـن خلـدون تحقيـق درويش الجويدي ص ١٨٣

١٨٤-الماوردي الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ٥٦

١٨٥-الشهرستاني الملل والنحل ج١ ص ١٠٨

١٨٦-ابن كثير البداية والنهايـة ص١٨١ ج٧ ، الطبـري تـاريخ الطبري ص ٤١ ج٦

١٨٧-الشهرستاني الملل والنحل ج١ ص ١١٩

١٨٨-عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون مقدمة ابن خلـدون ص ١٨٣ تحقيق درويش الجويدي

١٨٩-الماوردي الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ١٦

١٩٠-الدسوقي حاشية الدسوقي ج٤ ص ٢٩٨ تحقيق محمد عليش

١٩١-عبد القادر عودة التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي ج٢ ص٦٧٧

١٩٢-الأشعري المقالات والفرق ص ١٧

١٩٣-الشيخ المفيد المسائل الجارودية ص ٦

١٩٤-الشيخ المفيد المسائل الجارودية ص ٦

١٩٥-السيد المرتضى الشافي في الإمامة ج٢ ص١٢٨

١٩٦-ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٦ ص ٢٤٠

١٩٧-ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ج٦ ص ٩٤٠

فهرس المحتويات

تاريخ جماعات الاسلام السياسى (2) التعصب المذهبى فى العصر الاسلامى
رقم الايداع/ 5862
الترقيم الدولى 978-977-733-029- 9

تاريخ جماعات الاسلام السياسى (2) التعصب المذهبى فى العصر الاسلامى
رقم الايداع/ 5862
الترقيم الدولى 978-977-733-029- 9



دار التعليم الجامعى
٢١ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع.
تليفاكس: ٠٠٢-٠٣/٥٥٦٣٩٦١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦
٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩
Email:dartalemg@yahoo.com